مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ

الطبعة الثانية

أنا تتحدث عن نفسها

الذات الإنسانية فى القرآن الكريم

د. عمرو شريف



أنـــا...
تتحدث عن نفسهـا

الطبعة الثانية

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م



٢٢ شارع الأندلس - مصر الجديدة - خلف حديقة ماري لاند

تليفون وفاكس : ٢٢٥٦٦٣٧٥ - ٢٢٥٦٦٤٣٥

٠١٠٠١٦٣٣٧١٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

http://shoroukintl.com

أنـــا...

تتحدث عن نفسها

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

شريف، عمرو.

أنا... تتحدث عن نفسها/ عمرو شريف.

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٣م.

٤٠٨ص؛ ١٧×٢٤سم.

تدمك 978-977-701-096-2

١ ـ الأنا.

أ ـ العنوان. ١٥٤,٢٢

رقم الإيداع ٢٥٩٨/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 096 - 2

إهـــــداء

إلى المفكر والإعلامى والداعية الإسلامى العربى الكبير...

إلى فضيلة الشيخ...

الدكتور محمد العوضى

التقينا على درب الحقيقة الذى هجره الكثيرون...

فوجدت فى صحبتكم الائتناس والمؤازرة.

د. عمرو شريف

فهرس

الموضوع | الصفحة

الباب الأول: أنا... فى العلوم الطبيعية

الباب الثانى: أنا... فى العلوم الإنسانية

الباب الثالث: أنا... فى القرآن الكريم

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

- ١ -

مَـــنْ أنـــا(*)؟!

لَمَّا كان الغرض من الديانات هو التواصل بين الله ﷻ وبين سيد مخلوقاته، وهو الإنسان، كان طبيعيًّا أن يخبرنا الله ﷻ **بحقيقتنا وبالعلة من وجودنا** فى بدايات آخر كتبه السماوية؛ لذلك جاء فى أوائل سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

عَرَفْتُ من الآية أنى خليفة من الله ﷻ فى الأرض...

وعَرَفْتُ أن الملائكة قد تطلعت إلى تلك المنزلة...

وعَرَفْتُ أن الملائكة قد اعتقدت ـ خطأً ـ أن التسبيح والتقديس هما مبرر الاستخلاف...

ثم يبين الحق ﷻ مسوغات الاستخلاف: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

بذلك أخبر الله ﷻ ملائكته **أن مسوغات الخلافة هى العلم والمعرفة**...

(*) هذا الجزء بعنوان (من أنا؟!) من وحى كتاب: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى، للدكتور مهندس محمد الحسينى إسماعيل، عام ١٩٩٩ ـ مكتبة وهبة.

ثم يوضح الله ﷻ للإنسان حقيقة وجودية باقية ما دامت السموات والأرض: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أَسْجَدَ الله ﷻ الملائكة لآدم لِما يتميز به من علم ومعرفة...

من ثَمَّ، يصبح التسبيح والتقديس تابِعَين للعلم والمعرفة... يا الله...

ولكن...

هل العلم وحده كاف لإنقاذنا؟... تظهر الإجابة عن هذا السؤال فى قول الله ﷻ:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة].

لا... ليس العلم وحده كاف لإنقاذنا

فآدم تَعَلَّمَ الأسماء كلها ورسب فى أول امتحان للذات...

لماذا؟

لم يذكر لنا القرآن الكريم مقاومة من آدم لإبليس...

كان آدم على الفطرة... كان لا يزال في ساحة البراءة...

كان آدم عالِمًا... ولم يك كاملًا ...

فالاكتمال يتطلب الإنضاج بنار الاحتكاك بالآخرين...

إن الذين يعتزلون العالم ليسوا بكاملين... لم تنضج ذواتُهم...

كان **إبليس** جزءًا ضروريًّا من القصة... فهو يخدمنا ...

الشر الذى نهزمه يخدمنا... إنه نضجٌ وإثراءٌ واكتمال...

يُرَقينا حتى نصل إلى سدرة منتهانا...

ذاق الإنسان الشجرة المحظورة... واستطابها...

وما زال يحوم حولها... تارة يجاهدها... وتارة يستلذها...

لم يكن خروج آدم من الجنة عقوبة نتحمل توابعها...

فنحن لم نذق طعم الجنة... لم نُعانِ استشعار الفرق...

الإسلام لا يعترف بالخطيئة الأصلية...

ما حدث لأبوينا كان تمهيدًا لبداية قصتنا...

التى هى **فرصةٌ وتحد...**

ثم يبين الله ﷻ لنا **الحكمة من المعرفة** ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة].

تفجرت العبادة من ينبوع المعرفة والمعاناة والتجربة...

لم تولد المعرفة من رحم العبادة...

ليست المعرفة فضيلة أو ضرورة ... إنها استكمال للإنسانية...

نشأ آدمُ فى الجنة... فى المجرد... بذلك تتساقط نظريات تشكيل الإنسان بالتاريخ، أو الاقتصاد، أو التنشئة، أو العُرف...

صار آدم بنفخة الروح خلقًا آخر... ذو تطلعات غيبية سماوية...

سجود الملائكة تكريم وتشريف... واستثنائية إزاء الكون كله... ارتقى الإنسان حتى تجاوز المَلَك... ليس فى القرآن آية تقول إن الملائكة تؤمن ... فالإيمان خصيصة إنسانية... تحمل معنى البحث والاستدلال والتجريب والترقى... انظر قصة تفرس إبراهيم عليه السلام فى السماء... انظر قصة طلبه من الله ﷻ أن يريه كيف يُحيى الموتى...

أكرم تعريف للإنسان أنه **الكائن المتسائل الباحث عن الله ﷻ** ...

حتى وإن عَبَدَ حجرًا...

كائن يتردد بين نقيضين... أسفل سافلين... وذُرا الأنبياء والصالحين ...

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

أنا كائن حُرٌّ مختار...

قال تعالى: «إنا عَرَضْنَا الأمانة...»

ولم يقل: إن حَمَّلْنَا الأمانة

سُئِلَ عبد الله بن المبارك: لو قيل لك هذه آخر ساعة من عمرك، ما أنت فاعل فيها؟! قال: أطلب فيها العلم...

من هذا المنهل رضعت إدراكي بذاتي...

وعلى هذا فُطمت...

- ٢ -

كم ضللوني عن ذاتي الإنسانية...

من نكد الدنيا على الإنسان المعاصر أن صار يحيا في ظل **حضارة مادية بحتة**، جعلت منه **مسخًا مشوهًا وسجنته في إطار حيواني ثلاثي**:

منتج: كما تنتج الأبقار اللبن.

مستهلك: كآكلات الرِمَم.

مستمتع: أشد شَبَقًا وشراهة من كل حيوانات الأرض.

وفي ظل هذه الحضارة، صار «**توازن الرعب**» هو الرادع لنا عن الاعتداء على الآخرين (على المستوى الشخصي ومستوى الدول)، وليس القيم والأخلاق والدين.

كم أهانوني ووصفوني بالأعاجيب...

وصفني الفيلسوف أفلاطون بأني ... حيوان سياسي.

وصفني الفيلسوف أرسطو بأني... حيوان اجتماعي.

وصفني الفيلسوف ماركس بأني... حيوان اقتصادي.

وصفني الفيلسوف سان سيمون بأني... حيوان مُصَنِّع.

وصفني فيلسوف العدمية ديفيد هيوم بأني... حيوان منحط.

وصفنى فرويد بأنى... حيوان شهوانى.

اجْتَثَّ داروِن جذورى السماوية... وأرجع نشأتى إلى الصدفة والعشوائية.

وُوصِفْت أيضًا بأنى: حيوان ناطق... حيوان ضاحك... حيوان تليفزيونى...

والقائمة تصيبنى بالصداع والدوار، وتنزعنى من إنسانيتى، **وتَسِمُنى بالحيوانية**، وبما هو أدنى.

حتى إن (جون واطسن) مؤسس علم النفس السلوكى، لا يُسَوِّغ الحديث عن علم نفس إنسانى وآخر حيوانى، بل يعتبر أن الفرق بين سلوكيهما **فرقًا كميًّا وليس كيفيًّا**، ومن ثَمَّ يَدْعو إلى علم نفس واحد يندرج ضمن العلوم الطبيعية.

كم مزقونى بين المتناقضات ...

يرى فيلسوف المادية جون لوك أن الإنسان لا يتمتع بفطرة أخلاقية، لكن المجتمع هو الذى يشكل له ضميره!. وسار على دربه دوركايم، إذ رأى أن الإنسان إناء يملأه المجتمع، أى أن **الأخلاق والضمير والدين «نبت اجتماعى»**.

ويرى آخرون (مثل آدم سميث) أن آلة الإنتاج هى التى تُشَكِّل الإنسان، أى أن **«الأصالة للاقتصاد»**. بينما رأى خصمه ماركس أن الأصل هو **«جدلية التاريخ»**، أى الصراع!

وإذا كان نيتشه يَدَّعى أن الإله والدين من **«إبداع الضعفاء»** ليُصَبِّراهم على بَلْواهم، وليستجْدوا الأغنياء باسم السماء، فإن ماركس يدعى أن الإله والدين من **«إبداع الأقوياء»** ليسيطروا به على الضعفاء، ويُهَوِّنوا عليهم واقعهم المرير!

وهذا آدم سميث يوافقنا على أن الإنسان «خَيِّرٌ بطبعه»، بينما يرى مان فيلد أن **«الشر هو الأساس»**، ولو اختفى الشر لتساقطت المجتمعات!

هل رأيت ـ قارئى الكريم ـ التناقض الصارخ بين نظرة رضعتُها وفُطمت عليها (عرضتها تحت عنوان: مَن أنا ؟!)، نظرة سَمْت بالإنسان إلى ذُرا السمو، وبين نظرة مادية مطلقة هوت به إلى أسفل سافلين.

ألا ترى أن الإنسان فى حاجة إلى رد اعتبار...

من أجل ذلك جاء هذا الكتاب.

-٣-

من عَرِفَ نفسه عَرِفَ ربه

حدثتك فيما سبق عن بعض **صفات وسمات ذاتى الإنسانية**، وسأحدثك عن الكثير منها عبر فصول الكتاب. وإذا كان العنوان الفرعى للكتاب «**من عَرِفَ نفسه عَرِفَ رَبَّه**» ـ الأرجح أنه لحكيم العرب يحيى بن معاذ ـ فإننى أطمع أن تُقَرِبُنا هذه الدراسة من فهم بعض أسماء وصفات ربنا ﷻ. **فالغاية الأولى من هذه الدراسة المزيد من التعرف على الذات الإنسانية من أجل المزيد من التعرف على الله ﷻ**، فهو الغاية الأولى من الخلق [١].

ويرى الشُّرَاح لهذا القول معانٍ شتى، منها **أن الأمور تُعرَف بأضدادها**. فمن عَرِفَ ضَعفَ نفسه عرف ربَه بقوته، ومن عرف عَجْزَ نفسه عرف ربَه بقدرته، ومن عرف فَقْرَ نفسه عرف ربَه بغناه، ومن عرف جَهْلَ نفسه عرف ربَه بعلمه... ومن ثَمَّ، إذا عرفنا أنفسنا بكل ما فيها من نقائص ومحدودية، عرفنا بعض ما عليه ربنا من كمالات وإطلاق. وفى ذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى فى حِكَمِه: **تحقق بأوصافك يَمُدُّك بأوصافه، وتحقق بذُلِّك يَمُدُّك بعزته، وتحقق بعجزك يَمُدُّك بقدرته، وتحقق بضعفك يَمُدُّك بحوله وقوته.**

ويرى آخرون، **أن الله ﷻ قد أعطى الإنسان شيئًا من صفاته**؛ فأعطاه من علمه، وحلمه، وغناه، وقدرته، وإرادته، وصبره... مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه الصفات فى حق الله ﷻ ذاتية، كاملة، مطلقة، أما فى حق الإنسان فهى مُعَارة ناقصة محدودة كمًّا وكيفًا.

وقد كان منح اللهُ ﷻ الإنسانَ شيئًا من صفاته أمرًا ضروريًا، **حتى تتحقق معرفة الإنسان بربه**، وهى الغاية القصوى من الخلق. ذلك أن إدراكنا لمعانى أسماء الله ﷻ وصفاته لا يكون إلا **إذا مارسنا وتذوقنا هذه الأسماء والصفات**. فكيف ندرك معنى اسم الله «الحليم» ما لم نكن قد مارسنا الحلم، وكيف ندرك معنى اسمه ﷻ «المريد» ما لم نمارس حرية الإرادة، وكيف ندرك معنى اسمه «الرحمن» ما لم نمارس الرحمة. لذلك جاء فى الحديث الصحيح: من لا يَرْحَمُ لا يُرحَمُ [٢]، أى إذا أردنا أن نُعَامَل بصفة الله ﷻ (الرحمن الرحيم) علينا أن نتخلق بالرحمة.

---

(١) فى تفسير عبد الله بن عباس لقول الحق ﷻ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات] أن معنى **«ليعبدون»** هو **«ليعرفون»**.

(٢) رواه البخارى.

كذلك كان حصول الإنسان على بعض من صفات الله ﷻ **أمر ضرورى للقيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، فكيف يقوم جاهل عاجز مسلوب الإرادة بحق الخلافة من الله،** أليس من الحتمى أن يكون للمستخلَف بعض صلاحيات من استخلفه؟ من ذلك نفهم لماذا جعل الله ﷻ تسيير شئون الكون من خلال قوانين وضعها وألزم مخلوقاته بالخضوع لها، وقام فى نفس الوقت **بكشف هذه القوانين للإنسان** تدريجيًا حتى يتسنى له استغلالها فى التعامل مع الطبيعة.

لذلك أسأل مَن يقرأون قول الحق ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، ويفهمون **أن المقصود من «كن فيكون»** الامتثال المباشر «الآنى» خارج إطار الأسباب، أسألهم، وكيف يتسنى للإنسان أن يكون خليفة فى أرض تُدار بكلمة «كن»، فى حين أنه لا يملك سر تفعيلها!!. **إن استجابة الوجود للأمر «كن» يكون من خلال السنن والقوانين.** فإذا كنا أنا وأنت قد خُلقنا بكلمة كن فقد تطلب ذلك بقاءنا فى الأرحام فترة تسعة أشهر كاملة.

هذا وسنلاحظ مما ذكرنا فى بداية المقدمة، ثم سنتولى توضيحه (قدر المستطاع) عبر فصول الكتاب، **أن إدراك حقيقة الذات الإنسانية أمر بعيد المنال،** وأننا عاجزون عن ذلك بالرغم من كل ما أوتينا من علم وفلسفة، **فما بال أقوام يتباحثون فى الذات الإلهية ويسعون لإدراك حقيقتها، ويتخذون عن العجز عن ذلك مبررًا للإلحاد بالوجود الإلهى.** وقد أعجبنى فى الرد على هؤلاء بيتين من الشعر الصوفى حفظتهما فى صباى، يقول فيهما أبو عبد الله الجَلَّاء:

كَيفِيَّةُ المـرءِ ليس يُدرِكُهـا ... فكيـف كيفيـة الجبارِ فـى القِـدَمِ!

هو الذى أحدثَ الأشياءَ مبتَدِعًا ... فكيف يُدركُه مستحدَث النَّسَمِ!

سبحان الله ﷻ

الذى ليس كمثله شيء.

- ٤ -

حَوْلَ الكتاب الذى بين يديك

تخيل كائنًا فضائيًا هبط (وليكن من كوكب المريخ) إلى كوكبنا الأرض، وكان هبوطه ليلًا، الأرجح أنه سيختار إحدى المدن مكانًا لهبوطه، فهى مليئة بالأنوار. ربما كان أول ما سيلفت

نظر جارنا المريخى هو **غزارة تواجد الكائن الأرضى فى كوكبنا**، فالمدينة المزدحمة ستشعره بأننا أكثر الكائنات تواجدًا فيه.

ولاهتماماته السياحية المتأصلة ـ وهذا ما جاء به إلى الأرض ـ **قام الكائن المريخى بعدة جولات فى المدينة وما حولها**، فلاحظ ظاهرة سلوكية إنسانية غريبة، وهى **تعدد نشاطات الإنسان واهتماماته وهيئاته**. رأى بعض الناس فى المكتبات والمدارس منكبين على كتب يقرأون فيها ويدرسون، ورأى بعضَنا يَجْرى وراء جسم صغير كروى الشكل يركلونه بأقدامهم وآخرين متحلقين حولهم يصفقون لهم ويهللون. ورأى أقوامًا من الرجال والنساء أشباه عرايا يرقدون فوق الرمال ليصطلوا بأشعة الشمس ثم يجرون إلى البحر ليلقوا بأنفسهم فيه، وفى الوقت نفسه رأى آخرين (رجالًا ونساء أيضًا) يتسربلون بالملابس من قمم رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم. ورأى فى بنايات نظيفة هادئة أقوامًا مُصْطَفِّين فى صفوف يرفعون أياديهم ويركعون ويسجدون ويبتهلون. وفى مدينة مجاورة رأى أقوامًا يتصارعون بالأيدى وبنصال لامعة، وقد يوجه بعضُهم آلات حديدية تجاه آخرين فيسقطون قتلى... رأى.. ورأى.. **ورأى من الأشياء العجيبة ما أثار اندهاشه من هذا الكائن الأرضى**.

أراد الكائن المريخى أن يتوصل إلى حقيقة جاره الأرضى، فبحث عمن يسأل، فدلوه على مكان شاسع ملىء بالبنايات التى تفصل بينها مساحات خضراء، ويطلقون عليه اسم «**الجامعة**»، وأخبروه أن بها الكثير من **العلماء المتخصصين فى شأن** «**الإنسان**». قضى الزائر أيامًا عديدة فى مكاتب الجامعة، يستمع إلى ما يطرحه عليه الأساتذة المتمرسون العالِمون بالإنسان، **وخرج من هذه الزيارات أكثر حيرة من ذى قبل!**. فهذا الخبير أخبره أن الإنسان عبارة عن دوائر كهربائية كتلك التى تضىء فى سقف الغرفة وربما فى مركبته الفضائية. وهذا أخبره أن الإنسان عبارة عن تفاعلات كيميائية، بل إنه مزج أمامه كميتين ضئيلتين من سائلين فتفاعلا وخرجت منهما أبخره ساخنة، وقال له الأمرُ هكذا!. وفهم من آخر أن الإنسان إنما هو سليل لتلك الحيوانات التى رآها تقفز بين الأشجار فى حديقة الحيوان، بينما أكد له غيره أن الإنسان كائن متفرد مُتَسام وأنه خليفة فى الأرض من الإله خالق هذا الكون وخالق كوكبه المريخ.

تحدث ضيفُنا فى الجامعة مع هؤلاء العلماء المتخصصين فى الفيزياء، ثم الكيمياء، ثم البيولوجيا، ثم الشريعة الإسلامية. بل وتحدث إلى آخرين قدموهم إليه باعتبارهم أساتذة فى الفلسفة وفى علم النفس وفى علم الاجتماع، وفى .. وفى.. فأسمعوه كلامًا لا يقل غرابة وتباينًا

عما سمعه من السابقين، فازدادت حيرته بخصوص هذا الكائن الإنسانى شديد التعقيد، وقرر **أن يوجه جهوده الرامية للتواصل مع الحضارات الكونية إلى كوكب آخر، فربما عثر فيه على كائنات أكثر انسجامًا وأكثر تناغمًا وأكثر بساطة وقابلية للفهم.**

جال بخاطرى هذا السيناريو التخيلى بينما كنت أتابع إحدى جلسات **المؤتمر الحادى عشر لشركة الإبداع الأسرية بالكويت**، والذى انعقد فى شهر يناير من عام ٢٠١٢، وكنت قد دُعيت للمشاركة فى فعالياته بإلقاء محاضرتين لاقتا قبولًا حسنًا. كان عنوان المؤتمر الذى أثارنى وحفزنى للحضور هو «**أنا ... روح، عقل، عاطفة، جسد**»، وربما أدركت ـ قارئى الكريم ـ أن موضوع المؤتمر هو الذى استثار الخواطر التى تواردت فى ذهنى عن هذا الزائر المريخى، الذى احتار حيرة شديدة فى فهم جاره الإنسان. **ومن وحى عنوان المؤتمر بزغت فكرة تأليف كتاب عن هذه الـ «أنا» الغامضة**، لا ليكون دليلًا للكائنات الفضائية التى قد تزور كوكبنا ـ فالأرجح أنها لا تتقن لغتنا العربية ـ بل **ليكون دليلًا لنا نحن البشر ليعرف كلٌ منا الآخر، وقبل ذلك، ليعرف كل منا نفسه**[1].



والمنهج الذى اتبعته فى عرض فصول الكتاب، هو أن أعرض فى بداية كل فصل بعض المفاهيم المتعلقة به وأحللها، وربما أطرح حولها بعض التساؤلات، ثم أعرض المزيد من الأفكار عن طريق **إدارة حوار مع عالِمٍ معاصر ـ التقيت به أو لم ألتقِ ـ عالى التخصص فى هذا المجال.**

تستطيع ـ قارئى الكريم ـ أن تعتبر أن حواراتى مع شخصيات الكتاب **حوارات أكثر من حقيقية!! فقد تمت الفعل بين عقلى وعقولهم أثناء دراستى لكتاباتهم.** فقد كنت كلما قرأت فكرة أُعْمل فيها عقلى مُحَلِّلًا وناقدًا، وكثيرًا ما كنت أجد الكاتب بعدها (أو فى موضع آخر) يجيب عن تساؤلاتى. ألا ترى أن هذه الحوارات ربما كانت «**أكثر حقيقية**» من الكثير من الحوارات التى تدور بين شخصين يلتقيان وجهًا لوجه. وقد اخترت أن أستعين بأسلوب الحوار فى فصول الكتاب لأنه **يسمح ببسط الأفكار بشكل أكبر وأيسر فهمًا، كما يُعين فى تحليل الأفكار واستيعابها وتذكرها.**

---

(١) أعجبنى شعار المؤتمر، فاستأذنت أن أقتبس منه جزءًا عند تصميم غلاف كتابى هذا. والشعار من تصميم الأستاذة منيرة القناعى وبخط الأستاذ جاسم المعراج. وستعرف سر إعجابى بشعار المؤتمر عند مطالعتك للفصل الأول من الكتاب، تحت عنوان: أنا... ذات فنانة متذوقة للجمال.

القارئ الكريم

قد يبدو الكتاب من النظرة الأولى غير متناسق، فهو يحوى موضوعات شتى، تتراوح بين البيولوجيا، والفيزياء، والكيمياء، والطب، وعلم النفس، والطب النفسى، والفلسفة، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، والدين. ولكن **أليست الـ «أنا» على هذا التباين، بل أَشَدْ.** **إن الخيط الذى ينتظم هذه اللآلئ التى انتقيتها لك هو «الذات الإنسانية».**

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب، تضم عشرة فصول. الباب الأول هو «**أنا... فى العلوم الطبيعية**»، ويشتمل على خمسة فصول: الأول «**أنا ... ذات عاقلة**»، أتعرض فيه للسمات التى تميز الإنسان ككائن يتفرد بالعقل. والفصل الثانى بعنوان «**الوعى يقهر اللاوعى**» ويركز على كيفية برمجة العقل اللاواعى بأفكار سلبية تتحكم فى مصائرنا، وإمكانية إعادة البرمجة بأفكار إيجابية. والفصل الثالث بعنوان «**لست روبوتًا**» وندحض فيه مفهوم الحتمية البيولوجية الخاطئ، والذى يصورنا ككائنات لا إرادة لها. والفصل الرابع «**قوى الإنسان الخفية**»، وهو فصل شديد الأهمية، إذ يتعرض بالأدلة العلمية لأحد أخطر المجالات المسكوت عنها، وهو مجال طاقات الإنسان الحيوية، مما أدى إلى سوء استغلالها من قِبَل الدجالين وجامعى الثروة. ونتعرض فى الفصل الخامس «**كيف صرتُ بشرًا**» لنشأة الإنسان بآلية التطور الموجه عن أسلاف أدنى منه.

والباب الثانى بعنوان «**أنا... فى العلوم الإنسانية**»، ونتناول فى الفصل السادس منه نظرة العقل الإنسانى للذات الإنسانية، من خلال طرح آراء بعض الفلاسفة الذين تناولوا هذا الموضوع، والفصل بعنوان «**أنا... فى المرآة**». وفى الفصل السابع «**هكذا بَنيتُ الحضارة**» نعرض ملحمة رحلة الإنسان الحضارية، من أطواره البدائية إلى الحضارة المعاصرة. لكن هل حققت الحضارة الحديثة طموحات الإنسان؟ وهل حقق من خلالها ذاته الحقيقية؟ أم أن المسار الحضارى قد انحرف به عن فطرته، وهذا ما سنعرضه فى الفصل الثامن بعنوان «**جعلونى مسخًا مشوهًا**».

بعد هذه الجولة مع نظرة العلوم المختلفة للذات الإنسانية، يأتى أوان الكلمة النهائية التى تنظر إلى الإنسان باعتباره كلًّا واحدًا متكاملًا، ولا يكون ذلك إلا لخالق الإنسان، الذى لا يعلم عنه «الظاهرَ» فحسب، بل يعلم عنه «السرَ وأَخفى»، لذلك جاء الباب الثالث حول «**أنا...فى القرآن الكريم**»، وهو من فصلين: الفصل التاسع بعنوان «**الذات الإنسانية فى القرآن الكريم**»

ونتناول فيه مكونات الذات الإنسانية كما وردت فى القرآن: الجسد ـ القلب ـ العقل ـ النفس ـ الروح. ونختم رحلتنا بالفصل العاشر بعنوان «**أنا.. والموت**» ونطرح فيه مفهوم الموت بالمنظور العلمى والمنظور الدينى، وعلاقة الروح بالموت، والفرق بين الموت والوفاة!.

ونختم الكتاب **بحصاد الرحلة**، الذى نقطف فيه ثمارها.

***

وفى ختام المقدمة، ينبغى أن **أشيد بجهود مجموعة من المثقفين الذين شاركوا فى جمع المادة العلمية لفصول الكتاب وأيضًا فى تبادل وتنقيح بعض أفكاره**. وهؤلاء هم د. محمد عمرو شريف مدرس مساعد الطب النفسى بجامعة عين شمس، واستشارى الأشعة التشخيصية د.أحمد جلال، والمهندس حسام مؤنس، وأحمد عمرو شريف الطالب بكلية الطب، ومنار رأفت معيدة اللغة الإنجليزية، والأطباء والطبيبات بمستشفيات جامعة عين شمس: محمد طبال، آية عبد السلام مجاهد، سلمى المختار، سارة عبد القادر، آية أبو اليسر، ياسمين يسرى. **فلهم منى جميعًا الشكر**.

***

الباب الأول

أنــا...

فى العلوم الطبيعية



الفصل الأول

أنا ... ذاتٌ عاقلة

١ - أنا .. ذاتٌ واعية

٢ - أنا .. ذاتٌ مدركة

٣ - أنا .. ذاتٌ فاهمةٌ مُفَكِّرة

٤ - أنا .. ذاتٌ متوحدة متجسدة، ذات خصوصية

٥ - أنا .. ذاتٌ حُرَّة لها إرادة، وقادرة على الاختيار

٦ - أنا .. ذاتٌ ممتدة عبر الزمن، وقادرة على الانتقال فيه

٧ - أنا .. كائن خيالى

٨ - أنا .. ذاتٌ ذكيةٌ مبدعة

٩ - أنا .. ذاتٌ تؤمن بالسببية

١٠ - أنا .. ذاتٌ تحب الاستطلاع والبحث

١١ - أنا .. ذاتٌ تعاطفية اجتماعية

١٢ - أنا .. ذاتٌ ذاتَ بيان

١٣ - أنا .. ذاتٌ فنانة متذوقة للجمال

١٤ - أنا .. صاحبة العصبونات البانية للحضارة

١٥ - أنا .. الذكر - وأنا .. الأنثى

١٦ - أنا .. ذاتٌ متسامية

- القارئ الكريم

فى ضوء نظرية التطور الداروينى، اهتم العلم المعاصر بالبحث عن «**التشابهات**» الشديدة بينى وبين الحيوانات، خَلْقًا وخُلُقًا، وتوسع فى التأكيد على هذه التشابهات، بينما أغفل «**التناشزات**» الجَمَّة بيننا، حتى صار يُنظر إلَىَّ باعتبارى حيوانًا!. لقد ركز العلم المعاصر على جسدى، وتجاوز عن باقى طيفى الواسع الممتد، بالرغم من أنه قد أثبت وجود العنصر الإنسانى بتنوعاته المختلفة.

إن الإنسان ظاهرة غامضة، **يقف العلم الحديث عاجزًا حيال معظم مفرداته الإنسانية**، التى بالإمكان رصدها ملاحظةً وتجريبًا. **إن كلًا من التشابه والتباين الشديدين بينى وبين الحيوان له دلالته الهامة فى فهم حقيقة الإنسان**.

وإذا كان العلم التجريبى المعاصر قد قطع بصحة «**الماضى الحيوانى للإنسان**»، فإنه قد قطع أيضًا بعدم صحة «**الحاضر الحيوانى للإنسان**». لقد أثبت العلم ـ دون أن يقصد ـ «**خطأ الظن الواهم**» بأننى «**الآن**» لست إلا حيوانًا، حتى وإن «**كنت**» فى أصل نشأتى الغابرة حيوانًا ليس إلا[1].

إن الوقائع التجريبية تشهد كل يوم بوجود أصول أخرى لـ«الظاهرة الإنسانية» غير الأصل الحيوانى، وفى الوقت نفسه يعجز العلم المعاصر عن تحديد تلك الأصول، وقبل أن ننطلق فى البحث عنها، ينبغى أولًا أن نتأمل **سماتى الإنسانية التى سَمَتْ بى فوق كل الكائنات**.

يمكنك أن تعتبر أن «**التعقل**» هو السمة الجامعة التى تميزنى عما سواى من الكائنات، وإذا كان التعقل يشتمل على **النشاطات العقلية (بالمعنى الأكاديمى) التى تُمارَس عن طريق المخ**، فإننى أضم إليها أيضًا **المشاعر الروحية** التى استشعرها، ذلك بعد أن أثبت العلم الحديث دور المخ المحورى فى تذوق هذه المشاعر.

(١) لمعرفة ما نقبله وما نرفضه من نظرية التطور لداروين انظر الفصل الخامس، بعنوان «أنا.. وكيف صرت بشرًا».

لعلك لاحظت أننى استخدمت فى الفقرة السابقة لفظ «التعقل» ولم أستخدم اسم «العقل». فإن كانت الفلسفة وعلم النفس يحدثاننا عن «العقل **Mind**»، فإنهما - بالإضافة إلى **علوم المخ والأعصاب** - قد عجزوا عن تحديد موضعًا للعقل فى المخ، واكتفوا بالحديث عن العمليات العقلية. كذلك **القرآن** الكريم، فبالرغم من أن آياته تحدثنا قرابة خمسين مرة عن التعقل (بمشتقاته اللغوية) فلم يرد فيه لفظ «العقل» مرة واحدة. هل نستنتج من اتفاق كلمات العلم والفلسفة والدين أن ليس هناك عضو أو مركز محدد يمكن أن نطلق عليه «العقل»؟

وسيكون منهجى فى هذا الفصل، أن أطرح ما يميزنى من **نشاطات عقلية**، على أن أعرض بعد كل نشاط **حوارات** علمية دارت بينى وبين عدد من العلماء الأفذاذ حول بعض التفاصيل. وقد كانت معظم حواراتى (فى هذا الفصل) مع حُجة **العلوم العصبية والنفسية** د. **راماشاندران**[1]، الذى أمدنى بعرض مبهر لعدد من **الحالات المرضية النادرة** التى تحدث بسبب تَعَطُّل الدوائر العصبية المسئولة عن بعض هذه النشاطات العقلية، مما سيُعَمِّق من فهمنا لها (فبضدها تتميز الأشياء). لقد أدهشنى وأذهلنى ما قال، فتلك الأمراض تفوق فى غرابتها أشد قصص الخيال العلمى تطرفًا! وسَتَرى بنفسك، والآن إلى هذه النشاطات العقلية:

١ - أنا.. ذاتٌ واعيةٌ

كنت **نائمًا** نومًا طويلًا عميقًا خاليًا من الأحلام، بل لا ينبغى أن أقول إننى كنت، فحينها «**أنا**» لم أكن.

استيقظت، أصبحت موجودًا، إذ أصبحت **واعيًا** بنفسى.

ثم أصبحت **واعيًا بعالمى الداخلى**، الغنى بالمكونات العقلية: المشاعر، الأحاسيس، المعانى، القيم،...

---

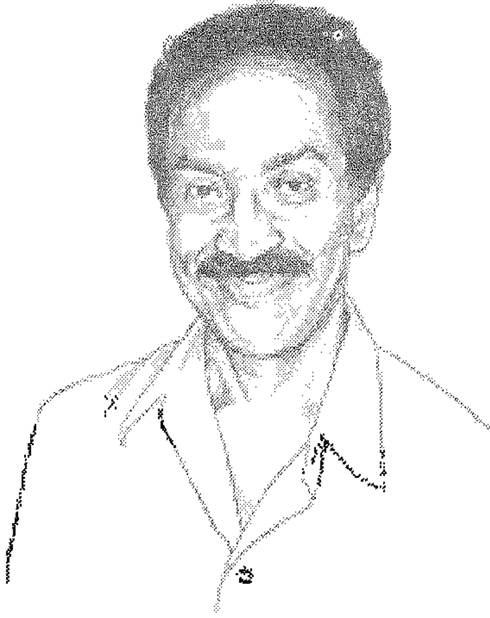
(١) راماشاندران **V.S.Ramachandran**: وُلد فى الهند ويعيش فى كاليفورنيا. يشغل فى جامعة سان ديجو فى كاليفورنيا مناصب: مدير مركز أبحاث المخ والمعرفة، وأستاذ الدراسات العليا فى علوم المخ والأعصاب، وأستاذ بقسم علم النفس.
توصل راماشاندران من خلال الفحص الطبى للمرضى إلى العديد من المفاهيم الجديدة حول آليات المخ/ العقل، حتى استحق أن يوصف بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب وبول بروكا العصر الحديث. وقد اختارته مجلة التايم الأمريكية عام ٢٠١١ كواحد من أكثر مائة شخص تأثيرًا فى العالم.

كذلك أصبحت **واعيًا بالوجود الخارجى**؛ أين أنا؟ مواصفات فراشى وغرفتى، مَن يوقظنى؟ ماذا عَلَيَّ أن أفعل الآن، ثم بعد قليل؟...

إن لوعيى ثلاثة مستويات: وعى بنفسى، وعى بعالمى الداخلى، ووعى بالوجود الخارجى.

خلل الوعى بالذات

لا أعتقد أن فى عالمنا اليوم أحدًا أقدر على أن يحدثنا عن معضلة الوعى من حجة العلوم العصبية والنفسية **د. راماشاندران (شكل ـ ١)**، وكنت قد اعتدت أن ألقاه وأحاوره كلما عَنَّت لى مشكلة فى هذا المجال، وما أكثر ما يحدث ذلك. وفى حوارى معه هذه المرة، صَدَّقَ راماشاندران على طرحى البلاغى المبسط لمفهوم الوعى، ثم قال: ينبغى أن تعلم أن **الوعى هو المقدمة أو الأساس لباقى عملياتنا العقلية**؛ كالإدراك والفهم وحرية الإرادة والتخيل وغيرها، فإذا لم يكن الإنسان واعيًا لمَا استطاع ممارسة هذه النشاطات. كما ينبغى أن تدرك **أن وعيك بذاتك وبصورة جسدك يحدده نشاط مخك، وأن هذا الوعى يمكن أن يضطرب إذا عانى المخ من مشكلات.**



(شكل ـ ١)
راماشاندران Ramachandran
ماركوبولو علوم المخ والأعصاب

وبدأ راماشاندران يحدثنى عن أنماط لما يمكن أن يصيب وعينا من خلل. فذكر عددًا من المتلازمات المرضية Syndromes [١] التى تنشأ **نتيجة لتلف الدوائر العصبية المخية الموصلة بين مراكز تعَرُّفنا على أنفسنا وعلى الآخرين**[٢] **وبين مراكز العاطفة (خاصة اللوزة المخية Amygdala)**، ويؤدى هذا الخلل إلى **اضطراب وعينا وفقدان ما ينبغى أن نشعر به تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين**، فنشعر أننا لسنا نحن وأنهم ليسوا هم!!. فهذا **مريض متلازمة كابجرا**[٣] يعتقد أن والده مُدَّعى، وأنه شخص آخر يشبه والده، لكنه ليس هو، إذ إنه لا يشعر تجاهه بعاطفة

---

(١) المتلازمة المرضية Syndrome: مجموعة من الاضطرابات المرضية التى تبدو متباعدة، لكنها ترجع إلى خلل واحد. وعادة ما يُطلق على المتلازمة اسم العالِم الذى وصفها.
(٢) أهم هذه المراكز هو التلفيف المغزلى fusiform gyrus
(٣) Capgras' syndrome

البنوة!. والأدهى من ذلك **مريض متلازمة كوتارد**[1] الذى يفقد تعاطفه تجاه نفسه، عندها يشعر أنه غير موجود، أو أنه مجرد محارة فارغة، أو أنه مات وصار جثة بدليل أنه يشم رائحتها العفنة! وقد حاول عدد من هؤلاء المرضى الانتحار حتى يتمشى ما يؤمنون به مع الواقع!

ويضيف راما؛ وإذا حدث العكس، **وزاد نشاط الدوائر الموصلة بين مراكز التَّعرف وبين مراكز العاطفة**، واجهنا متلازمات مرضية متناقضة. فهذا **مريض متلازمة فريجولى**[2] يخبرنا أن كل الآخرين يشبهون فلان الذى يحبه (أو يكرهه)، إذ إنه يشعر تجاههم بنفس ما يشعر به تجاهه!. وقد يكتسب كل ما يحيط بالإنسان معانٍ أعمق فيحس بالتسامى والتوحد مع شيء خالد، فيستشعر مثلًا **أنه متوحد مع الإله**[3].

واسترسل راما قائلًا: أُستدعيت ذات يوم لمناظرة المريض جاسون مردوخ فى مركز التأهيل، ووجدت أنه يعانى من **حالة «الغيبوبة اليقظة»**[4] نتيجة لحادث أدى إلى تهتك القشرة الحزامية فى مقدمة المخ[5]. كان جاسون عاجزًا عن السير والكلام وكان يرقد فى الفراش، لا يتابع الحوار ولا يستجيب للتعليمات ولا يتفاعل مع الألم إلا بقدر ضئيل، وفى الوقت نفسه كان يتابع المتحركين فى غرفته بعينيه دون أن يتعرف عليهم، حتى والديه وإخوته.

مما أدهش راما، أن السيد مردوخ (والد جاسون) إذا اتصل بابنه تليفونيًّا من غرفة مجاورة، كان الابن يفيق ويتعرف على صوت والده ويدخل معه فى حوار كأى إنسان طبيعى! وما أن ينهى الوالد المكالمة ويدخل على ابنه الغرفة، حتى يعود جاسون إلى غيبوبته! ويمكن أن يتكرر هذا الأمر عدة مرات يوميًّا[6].

وركز راما عينيه فِى عينَىّ، وقال: تأمل معى ماذا يعنى ذلك؛ **كأن هناك اثنين جاسون محبوسين فى جسد واحد**، جاسون التليفونى الواعى تمامًا، وجاسون رهين الغيبوبة اليقظة!. وفسر لى راما هذا الأمر بأن القشرة الحزامية الأمامية تصلها إشارات من المسارين البصرى والسمعى، وأن فى حالة جاسون أصاب التلف المسار البصرى وسَلِمَ المسار السمعى، ففقد

(١) Cotard syndrome

(٢) Fregoli syndrome

(٣) يحدث ذلك فى بعض حالات صرع الفص الصدغى.

(٤) Vigilant Coma ـ وتعرف أيضًا باسم التوحد اللاحركى Akinetic Autism

(٥) Anterior Cirgulate Cortex.

(٦) أطلق الأطباء على هذه الحالة النادرة اسم «متلازمة التليفون Telephon syndrome».

جاسون القدرة على التواصل البصرى واحتفظ بالقدرة على التواصل السمعى!! اثنين جاسون فى جسد واحد!!

أإلى هذا الحد يمكن أن يضطرب إدراكى الواعى نتيجة لخلل يصيب بنية ووظيفة مراكز المخ. كم هى معقدة آليات وعى الذات الإنسانية!؟

٢ - أنا... ذاتٌ مدرِكة

عندما كنت طالبًا فى المرحلة الثانوية، سَأَلَنا مدرس الفيزياء ذات يوم:

إذا سقطت شجرة فى غابة ليس فيها إنسان ولا حيوان، هل تُصدر الشجرة صوتًا؟! وبعد أن احترنا فى إجابة هذا السؤال المخادع، أجابنا قائلًا: لا، لن تصدر الشجرة إلا موجات، أمَّا إدراك هذه الموجات كأصوات، فيحتاج إلى أمخاخنا، **ففيها المستقبِلات التى تُحَوِّل الموجات إلى أصوات وإلى صور وإلى روائح** وهكذا. وقد أُعجب المدرس بذكائى كثيرًا حين عَلَّقت على إجابته بقولى: إذا لم يكن هناك إنسان ولا حيوان يُدرِك وجود الموجات كغابة فلن تكون هناك غابة!

ومن المعانى الأعمق للإدراك، معنى أُبَيِّنَه لك من خلال هذا المثال:

كثيرًا ما يصف ابنى أمه بأنها «مكشوف عنها الحجاب»، فكلما أراد أن يخدعها، فاجأته بأن تطلعه على ما يفكر فيه. إن **القدرة على إدراك أفكار الآخرين** ملكة إنسانية من الدرجة الأولى، بل إننى قادر على هذا الإدراك **إلى سبعة مستويات**؛ فأقول مثلًا: «أنا أعتقد»«أنك تفترض» «أننا نريد» أن نتأكد أن «كل الآخرين يدركون» «أننا نريد» منهم جميعًا «أن يعتقدوا» «أننا نعرف» فيما يفكرون. إن العلماء يُسمون هذه القدرة على الإدراك «**نظرية العقل**»(١).

آليات الإدراك...

وعندما سألت راماشاندران عن **آليات الإدراك**، أجابنى:

إن فى أمخاخنا عددًا من المناطق يسميها المتخصصون «**مناطق التربيط**»(٢)، تقوم بإثراء فهمنا للعالم من حولنا، وذلك عن طريق التعرف على محتوياته، وتوجيه استجاباتنا الانفعالية

(١) Theory of mind

(٢) Association areas

والمعرفية والسلوكية تجاهه. فتلك «**منطقة تربيط التشكيل**»[1] التى تمكننى من رسم صورة ثلاثية الأبعاد لجسدى وكذلك معرفة مكانى من الفراغ. وتلك «**منطقة تربيط الانتباه**»[2] التى تلعب دورًا رئيسيًّا فى تركيز انتباهى على هدف معين، وتوجه سلوكى لتحقيق هذا الهدف، كما تقوم بحصر أفكارى فى اتجاه محدد. وتلك منطقة «**تربيط المفاهيم اللفظية**»[3]، التى تقوم بتسمية وأرشفة الأشياء، واستحضار ومقارنة المفاهيم واستحضار المعانى العكسية لها، كما تقوم بتوليد المفاهيم المجردة، وتوجيه التفكير السببى.

عند ذلك الحد، سألت راما: فى ضوء آليات الإدراك، كيف تفسر ما شاهدناه فى فيلم Scent of a woman للممثل العالمى ألباتشينو Al Pacino [4]، فقد كان بطل الفيلم الضرير يراقص النساء بخفة ورشاقة ويتحرك فى أمان وبساطة دون أن يصطدم بأحد أو بأثاثات المكان. أكد راما صحة ما عرضه الفيلم! وأخبرنى أن إدراكنا لما نبصر يمر بمستويين، **الإبصار اللاواعى**، وفيه نبصر دون أن ندرك! ومن ثم يتعامل الضرير (إذا كان لا يزال يملك هذه القدرة) مع ما حوله ويتحاشاه دون أن يدرك أنه يُبصر! بعد ذلك يأتى المستوى الثانى، وفيه نعى ما نبصر (**الإبصار الواعى**)! وتقوم بذلك منطقة فى المخ تُعرف **بمنطقة تربيط الإبصار**[5].

قلت فى نفسى.. سبحان الخلاق العظيم.

٣- أنا... ذاتٌ فاهمة مُفَكِّرة

يطرق مخى فى الثانية الواحدة عددٌ هائل من المعلومات، وبالرغم من عِظَم هذه المُشتِتات، **يقوم المخ بتكوين تصور متناسق للعالم من حولى**. ولتصوير مدى صعوبة هذه المهمة أعرض عليك مقارنة طريفة: إذا نَظَرَت طفلة إلى قطة بيضاء ذات بقع برتقالية، ثم عُرِضَت عليها وسادة بيضاء بها بقع برتقالية، وكلب أسود، فإن الطفلة ستدرك أن الكلب أقرب إلى القطة، بينما سيُرَجِّح الكمبيوتر أن الوسادة أقرب إلى القطة لتشابه ألوانهما!. كيف قام مخ الطفلة بهذه العملية شديدة التعقيد؟

---

(١) OAA = Orientation association area

(٢) AAA = Attention association area

(٣) The Verbal Concaptual association area

(٤) قام الممثل عادل إمام بتمصير القصة فى فيلمه «أمير الظلام».

(٥) Visual Association area

أجابنى راماشاندران، عندما طرحت عليه هذا السؤال: من أجل الوصول إلى تصور متناسق للعالم، زُوِّدَت أمخاخُنا بعدد من «**الآليات**» **الفطرية (الغريزية)** التى تعمل فى تجانس تام من أجل أن نظل الكائن الواعى المفكر، الذى يفهم ويحلل ويُؤَوِّل العالم من حوله.

من بين هذه الآليات، «**آلية التجميع**»، التى تمكننا من أن ننظر إلى الأوراق والفروع والجذع والجذر باعتبارها شجرة واحدة، كما تمكننا من رؤية العديد من الأشجار ومجارى المياه والحيوانات، كغابة واحدة. وفى المقابل، تمكننا «**آلية التفكيك**» من اختزال الموجودات إلى أبسط عناصرها، فبها نرى النظام البيئى الواحد المتكامل (كالطبيعة) كمجموعة من المنظومات البيئية المتعددة (مناخ ـ نباتات ـ مرتفعات...)، وننظر إلى شعب واحد كعدد من الأفراد.

ومن تلاقى التجميع والتفكيك، تنطلق **المفاهيم العامة**. فنرى الذئاب والثعالب والكلاب كمجموعة واحدة أسميناها «ذوات الأنياب»، وتقوم بهذه المهمة «**آلية التجريد**».وقد مكنتنا هذه الآلية أن نتعامل أيضًا مع **المفاهيم المجردة** (التى تتجاوز الحواس الخمس) وأن نضع النظريات العلمية والأفكار الفلسفية والأيديولوجيات السياسية، وأن نفهم العقائد الدينية.

قاطعت راما قائلًا له: منذ قرابة الثلاثين عامًا، كنت مهتمًّا بالشعر العربى بعصوره المختلفة (ابتداء من الشعر الجاهلى وحتى الشعر الحديث)، وكثيرًا ما يثور فى خاطرى تساؤل؛ أَكُلّ هذا الثراء والغِنى وليد ثمانية وعشرين حرفًا من حروف اللغة العربية؟ وكل هذا الإبداع هو نتاج توليفات لا حصر لها على عدد محدود من بحور الشعر؟. **أجابنى راماشاندران قائلًا:** إنها «**آلية التوليد**»، القادرة على إنشاء عدد غير محدود من التعابير من رموز محدودة؛ كترتيب الحروف والكلمات، وتسلسل النغمات الموسيقية، وإنشاء سلسلة من الرموز الرياضية.

علقت على إجابة راما قائلًا له: أرى **أن الخالق ﷻ قد استخدم آلية التوليد فى الخلق؛** فكتب الشفرات الوراثية لجميع الكائنات من أربعة حروف فقط، كما بنى مئات الآلاف من بروتينات الكائنات الحية من عشرين حمضًا أمينيًّا، وأنشأ هذا الوجود المهول من شحنتين كهربائيتين فقط؛ السالبة والموجبة. بهذا تكون «آلية التوليد» إحدى مناطق الالتقاء بين الحكمة **الإلهية** وبين عقلى البشرى، الذى شاء الله ﷻ أن يكون نفخة من روحه.

هز راما رأسه معجبًا بطرحى، واستأنف عرضه لآليات الفهم قائلًا: إن ما مضى من

آليات الفهم (التجميع ـ التفكيك ـ التجريد ـ التوليد) لم يكن لها أن تعمل لو لا «**آلية الترميز**» التى أعطت كل شىء اسمًا، وأعطت كل نغمة موسيقية علامة. إن هذه الرموز قد مكنتنا من أن نحتفظ بمعارفنا وأن نتبادلها وأن نُوَرِّثها للأجيال التالية. بل إن الرموز قد مكنتنا من أن نفكر!.

وتقوم «**آلية الكم**» بتوجيه تعاملنا مع الكِميّات (الوقت ـ المسافة ـ الأوزان...) فى حياتنا اليومية. ولأهمية ذلك صار «**تكميم العلم**» **(أن يُقاس كميًّا) هو هدف كل العلوم،** فما نضجت الفيزياء والكيمياء إلا بعد أن تم تكميمها، وإلى هذا يصبو علم البيولوجيا، وبهذا يحلم المتخصصون فى العلوم الإنسانية.

ومن أجل تعميق فهمنا للأشياء، تقوم أمخاخُنا بوضعها فى وجودين متضادين؛ أعلى وفى مقابله أسفل ـ داخل وخارج ـ قبل وبعد ـ سالب وموجب ـ عالَم الغيب وعالَم الشهادة، وتقوم بتلك المهمة «**آلية الشَّق الثنائى**».

أما «**آلية السببية**» التى تعيننا على فهم الوجود كمجموعة من المقدمات (الأسباب)، تتبعها النتائج، فهى التى دفعت الإنسان للبحث عن علل الأشياء، ومن ثم دفعت تقدم العلم والفلسفة، كما كانت ضرورية لتَجَذُّرالديانات فى نفوس البشر إذ تدفعنا للبحث عن أجوبة لتساؤلاتنا الوجودية الأساسية.

وبعد ذلك، فإن ما فى عقولنا من معارف ومعلومات ما كان له أن يخرج إلى الوجود إلا «**بآلية الايجاد**»، التى تحولها إلى وجود حسى أو مادى، فبها تحول معلوماتك النظرية إلى عمليات جراحية، وبها يحول المهندس أفكاره إلى بنايات وأجهزة.

قلت لراما مقاطعًا، إن جميع ما مضى من آليات يشارك فى رسم صورة الوجود لعقولنا بشكل متناسق، وهذه مهمة قد يقوم بها روبوت متقدم تم برمجته لذلك، أليس هناك **إضافة تعطى تلك الآليات الشكل الإنسانى؟** أجابنى راماشاندران من فوره: إن عقولنا لا تصبح عقولًا إنسانية إلا بعد أن يتم **مزج كل ما سبق من مدرَكات بالمشاعر والانفعالات**. وإذا كانت الآليات السابقة تمدنا بالقدرة على تحليل وفهم الوجود من حولنا، فإنها لا تمدنا بالدافع النفسى لفعل الشىء أو تركه، فإن ذلك يحتاج إلى المشاعر، كالخوف من شىء، والتعلق بشىء، والرغبة فى صحبة الآخرين، والرغبة فى الزواج، والرغبة فى البقاء. ويحتاج ذلك كله إلى «**آلية الانفعال**»، التى لولاها لما صرتَ الكائن الذى هو أنت.

قلت لراما... أرى أن بعض الكائنات تقوم بأنشطة تبدو منها أنها «**تفكر**» بل إنها تؤديها بدقة كبيرة، فهل هى فاهمة لما تفعل؟

قال راما؛ ينبغى فى البداية أن **نُعَرِّف التفكير**: مع الصعوبة الجمة فى تعريف المجردات، يمكننا تعريف التفكير بأنه «**قدرة المخ على التعامل مع الرموز (بشكل مفتوح) مع الالتزام بالقواعد**». ولكن ما معنى (بشكل مفتوح)؟ فلنجب بمثال؛ يلتزم العنكبوت عند نسج شباكه بقانون توتر الأوتار المشدودة[1]، لكن هل يعرف العنكبوت هذا القانون؟! إن مخ العنكبوت لا يعرف القانون أصلًا، لكنه يلتزم بتطبيقه بخطوات عملية ثابتة عند نسج شباكه، ولا يستطيع أن يستخدمه فى أغراض أخرى. هذا بخلاف الإنسان، فالمهندس يدرس القانون فى علم الفيزياء، **ويستطيع تطبيقه فى استخدامات لا حصر لها (وهذا معنى بشكل مفتوح)**، وهذا أحد استخدامات التفكير.

وأضاف راما: **إن معظم المعارف الإنسانية تقع بين هذين الطرفين؛ الإدراك العنكبوتى المحدود، والفهم المجرد القابل للتطبيق المتعدد المفتوح.**

قلت لراما: أفهم من طرحك أن هناك وظيفتين عقليتين يقوم بهما **المخ الواعى** فى تتابع متلاحق؛ **وظيفة الإدراك لما حولنا، ثم وظيفة فهم ما نُدرك**، ومن ثم فإن هذه الوظائف الثلاث المتتابعة (الوعى ـ الإدراك ـ الفهم) هى أعمدة عملية التفكير.

هز راماشاندران رأسه مؤيدًا لما أقول.

٤- أنا... ذاتٌ متوحدة متجسدة، ذاتَ خصوصية

لا شك أن «**الواحدية**» من أهم صفاتى، فجميع سمات الذات وروافدها تصب فى أنها **تخص «شخص واحد»**، لذلك فالقرارات التى يتخذها العقل تكون لمصلحة ذلك الشخص، الذى هو «**أنا**».

وهذا الشخص الواحد ليس وجودًا اعتباريًّا أو وجودًا غير مادى، بل إننى أنا ـ وكذلك أنت ـ وجود «**مرتبط بجسد مادى واحد**»، نستشعر أبعاده فى الوجود المحيط، حتى وإن أغمضنا أعيننا. وقد تم المحافظة على «**خصوصية**» ذاتى الواعية المتوحدة المتجسدة، بأن أصبحت كل مدركاتى وحياتى العقلية **خاصة بى**، لا يَطَّلعَ عليها الآخرون.

(١) Tension of stretched strings Law = Hook's Law

ولا ينتقص من هذه الخصوصية أن يشاركني الآخرون فيما أحسه من أحاسيس جسدية!!. أعلم أن هذه الإضافة الأخيرة ستدهشك، لكنني مازلت أذكر عندما كنت أَخِيطُ جرحًا في ذراع مريض، وكان أخوه يحس بوخز الإبرة في ذراعه! ويرجع ذلك إلى وجود الخلايا العصبية المعروفة بـ «**عصبونات المحاكاة**»[1] والتي سيحدثنا عنها راماشاندران بعد قليل.

خلل التوحد والتجسد

قال راماشاندران عندما تناقشت معه حول سِمَتَّي التجسد والتوحد:

إن في أمخاخنا **صورة فطرية لأجسادنا Body jmage**، ويتم تدعيم هذه الصورة عن طريق إشارات حسية مستمرة من مختلف أجزاء الجسم. لكن هناكَ **أنواعًا من الخلل** تؤثر في استقبال هذه الإشارات فتكون النتيجة خللًا في شعورنا بالتجسيد وكذلك بوحدة الذات.

إن شعورنا بذواتنا وبخصوصيتنا يرجع إلى التنسيق بين **نشاط عصبونات المحاكاة** (التي تجعلنا نشعر بما يشعر به الآخرون فيحقق لنا الإحساس بالتمازج مع الآخر)، وبين **الآليات الكابحة** لهذه العصبونات. لذلك فإن اختلال هذا الاتزان يؤدي إلى خلل في شعورنا بخصوصيتنا. لا تندهش، فهذا أمر شائع. ففي **الحب الرومانسي** يشعر المحب بامتزاج مع من يحب. وفي **متلازمة كوڤاد**[2] يشعر الزوج بأعراض الحمل (انتفاخ البطن، غثيان، قيء...) مشاركة منه لزوجته الحامل. وفي **مرض التوحد**[3]، عادة ما يخطئ الطفل ويخلط في كلامه بين «أنا» و«أنت»!. ويظهر هذا الاختلال أيضًا في إحدى آليات الدفاع النفسي لفرويد وهي «الإسقاط»[4] فنجد أن الإنسان يتنكر لمشاعره غير السوية وينسبها إلى الآخرين.

وأضاف راما، ولا شك أنك سمعت بالمرضى الذين يشعرون أنهم **أسرى لجسد من الجنس الآخر**، ويسعون حثيثًا لتغيير هيئة أجسادهم إلى هذا الجنس[5]. ومن الحالات النادرة لخلل التوحد أن يشعر المريض أن **هناك نسخة أخرى منه**[6]، وكذلك المريض الذي ينكر أن ذراعه

(١) عصبونات المحاكاة Mirror Neurons، لنا عودة إليها بمزيد من التفصيل صفحة ٦٠.

(٢) Couvade Syndrome

(٣) Autism

(٤) projection

(٥) تعرف هذه الحالة بـ Transsexuality

(٦) تعرف هذه الحالة بـ Reduplication

المشلولة تخصه بل يؤكد أنها تخص أمه أو أخيه[1]، لذلك قد **يطلب** بتر هذه **الذراع** (وبالفعل يجرى نصف هؤلاء المرضى جراحة البتر!)[2].

أإلى هذا الحد يكون إدراكى لتوحدى وجسدى وخصوصيتى عملية معقدة؟

وإلى هذا الحد يمكن أن يضطرب إدراكى لذاتى!

٥ـ أنا... ذاتٌ حُرّة

لها إرادة، وقادرة على الاختيار

يدهشنى كثيرًا أن بعض المدارس الدينية والفلسفية **تَدَّعى أننى مُجْبَر فى جميع تصرفاتى**، وأن يرى بعض البيولوجيين أن هناك **حتمية بيولوجية**، أى أن سلوكى تفرضه جيناتى. كذلك ترى المدرسة التربوية أن **سلوكى محصلة لأسلوب تربيتى ونشأتى، وفى النهاية فلا إرادة لى ولا حرية اختيار.**

إن قضية «**هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخَيَّر**» التى شغلت الفكر البشرى كثيرًا ـ وما زالت ـ ما كان ينبغى لها أن تُطرح، فسلوكنا اليومى تجاه ما يمر بنا من مواقف خير شاهد على حرية الإرادة؛ فأنت ببساطة تستطيع أن تستكمل قراءة هذا الفصل من الكتاب أو أن تغلقه.

وأقول للمتدينين القائلين بالجبر ـ ظنًّا منهم أن فى ذلك كمال التنزيه لله ﷻ ـ **إن نفى حرية الإرادة يعنى أن كل الديانات هُراء**، فهى تقوم على الثواب والعقاب تبعًا لأفعالنا التى نقوم بها بناء على اختياراتنا الحرة. ونصوص القرآن الكريم المُحكمة تجزم بذلك[3].

ويمكن تعريف حرية الإرادة بأنها **قدرتى على الاختيار بوعى بين بدائل، فى الوقت الذى يمكننى فيه أن أقوم باختيار آخر.**

وانطلاقًا من قناعة **علم النفس** بإرادتى الحرة، يتمسك **القانون الجنائى** بألا يتم إدانتى

(١) تعرف هذه الحالة بـ Somatoparaphrenia

(٢) تعرف هذه الحالة بـ Apotemnophilia

(٣) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ۝٢٩﴾ [الكهف].

بارتكاب جريمة ما إلا إذا توافرت لَدَىَّ عند القيام بالجريمة **أربعة شروط**: أن أكون قادرًا على تخيل بدائل أخرى للفعل المطروح، وأن أكون قادرًا على الامتناع عن الفعل، وأن أكون واعيًا بنتائج فعلى على المدى القريب والبعيد، وأخيرًا أن أكون راغبًا فى النتائج التى ينتج عنها الفعل. هل هناك تأكيد لأهمية حرية الإرادة أكثر من ذلك؟!

للاختيار آلياته

عندما حملت القضية إلى **راماشاندران**، أيد بشدة مفهوم حرية الإرادة ، بل وأكد لى أن مفهوم ذاتى الحرة لم يعد قضية دينية فلسفية، بل **إن العلوم العصبية الحديثة قد توصلت إلى الآليات المخية التى تقوم بالإختيار**. ففى البداية، يطرح نصف المخ الأيسر الاحتمالات المختلفة تجاه الموقف الواحد[١]، ثم يقوم فَصَىّ المخ الأماميين بالاختيار بناء على قيم الإنسان[٢].

وحتى يبعد راما عن ذهنى تمامًا أن تكون حرية الإرادة مَلَكَة إنسانية غيبية ليس للمخ المادى دور فيها (كما يعتقد كثير من المتدينين)، روى لى **قصة المريضة أليس**، التى أصيبت بجلطة فى الشريان المغذى للجسم الجاسئ[٣] (الذى يصل بين نصفى المخ ويحقق تنسيق العمل بينهما) أدت إلى أن يعمل كل من نصفى مخ أليس بشكل منفصل عن الآخر[٤]. كانت شكوى أهل المريضة أنها ـ كل فترة ـ تمد يدها اليسرى إلى عنقها وتحاول أن تخنق بها نفسها رغمًا عنها! ثم يرونها تمد يدها اليمنى لتنزع يدها اليسرى عن عنقها!! كان تفسير راما أن المراكز الشعورية فى نصف المخ الأيمن تعانى من الاكتئاب والرغبة فى الانتحار، فكانت تدفع اليد اليسرى لتنفيذ المهمة. وفى الوقت نفسه كان نصف المخ الأيسر (الأكثر منطقية) يقوم بتوجيه ذراع أليس الأيمن للدفاع عنها بنزع اليد اليسرى[٥]!!

يا الله!! إرادتان متضادتان لدى إنسان واحد.

(١)يقوم بهذه المهمة التلفيف فوق الحافى Supra marginal Gyrus

(٢) يدفعنى التلفيف الحزامى الأمامى Anterior Cingulate gyrus للاختيار بناء على قيمى، ويكون ذلك بتوجيه من القشرة المخية قبل الأمامية Prefrontal Cortex

(٣) Corpus Callosum

(٤) تُعرف هذه الحاله بـ«متلازمة المخ المنقسم ـ Split Brain Syndrome».

(٥) تعرف هذه الحالة المرضية بـ «متلازمة اليد الغريبة ـ Alien Hand Syndrome».

٦ ـ أنا... ذاتٌ ممتدة عبر الزمن وقادرة على الانتقال فيه

تعلمت السباحة فى سن السابعة، وتعلمت ركوب الدراجات فى العاشرة، وبالرغم من انقطاعى عن ممارستهما لسنوات طويلة، فإننى أعود إلى ممارستهما بسهولة ـ دون احتياج لأن استحضر ـ بشكل واعٍ ـ كيف أضرب الماء بيديَّ وكيف أُبَدِّل بساقَيّ. إن تلك **الذاكرة الإجرائية**[1] (غير الواعية) يشاركنى فيها الكثير من الحيوانات.

وما زلت أذكر أن رفيقى فى ممارسة السباحة كان اسمه حسن، وأن دراجتى كانت حمراء اللون. ولما كان قرد الشمبانزى يعرف (على الأرجح) أن الموز لونه أصفر، فلا شك أنه يشاركنى أيضًا **ذاكرة المعانى**[2] هذه.

وإذا كانت ذاكرة المعانى تشبه قاموس اللغة، فلى ذاكرة ثالثة تشبه الدفتر الذى أُدَوِّن فيه مذكراتى، وهى «**ذاكرة الأحداث**»[3]، وهى الخاصة بأن أتذكر ـ مثلًا ـ أحداث ثورة يناير وماذا كان قبلها وماذا كان بعدها. كما أستعمل ذاكرة الأحداث فى ترتيب ما يقع من أحداث بشكل تتابعى زمنى؛ هذا ماضٍ وهذا حاضر، بل تمكننى أيضًا من أن أخطط للمستقبل وأتوقع ما يمكن أن يحدث فيه، وهذا ما جعلنى **أستشعر أننى ذاتٌ ممتده لها استمرارية**، ولستُ مجموعة من الأحداث يرتبط كل منها بذات منفصلة.

إن ذاكرة الأحداث (**بهذا المفهوم**) **خاصة بالإنسان**، فهى قد حققت لنا (بشكل متفرد) ما صار يُعرف بـ «**الانتقال العقلى عبر الزمن**». لقد مَكَّنَت أسلافى من بذر البذور وتَرَقُّب إنباتها فى المستقبل، ومن تصور شكل الأداة الحجرية التى ينبغى صنعها من أجل استخدامها فيما بعد فى الصيد. وتُعرف ذاكرة الأحداث وذاكرة المعانى **بالذاكرة التقريرية** (فى مقابل الذاكرة الإجرائية)، وقد أعانت الذاكرة التقريرية (بلا شك) أسلافى على **ابتكار اللغة وتطويرها**.

---

(١) Procedural Memory

(٢) Semantic Memory

(٣) Episodic Memory

وبينما كنت أتأمل **استمرارية ذاتى عبر الزمن**؛ كيف أنها نفس الذات التى مر بها كذا وكذا، وتمارس الآن كذا، وستقوم غدًا بكذا، وكيف أن لها القدرة على الارتحال عبر الزمن جيئة وذهابًا باستمرار، **قطع راماشاندران رحلتى العقلية عبر الزمن، وقال لى**:

لا شك أنك خلال عملك فى جراحات الحوادث قد صادفت بعض مرضى إصابات الرأس، الذين **يجدون صعوبة فى استرجاع ما حدث خلال الأسابيع أو الشهور السابقة للإصابة**، لكنهم يذكرون ما وقع من أحداث بعد الإصابة[١].

وفى حالات أخرى[٢] يظل المريض محتفظًا بكل ذكرياته السابقة، وينحسر عجزه فى **عدم القدرة على تكوين ذكريات جديدة**. ويحدث هذا النوع من فقدان الذاكرة نتيجة لتلف منطقة فرس البحر فى جانبى المخ، مما يشير إلى أن هذه المنطقة مسئولة عن الاحتفاظ بالأحداث الجديدة فقط.

وهناك نوع من فقدان الذاكرة أكثر ندرة، **فيه يفقد المريض ذاكرة الأحداث التى وقعت** منذ الطفولة، كما يعجز عن تكوين ذاكرة للأحداث الجديدة، بينما تظل ذاكرة المعانى والذاكرة الإجرائية على ما يرام. ولا شك أن هذا النوع الأخير يؤثر على إدراكنا لذواتنا حيث إنه يعتمد على ما يقع من أحداث إلى حد بعيد.

وأضاف راما، كيف يكون حال الإنسان لو **فقد ذاكِرَتّى الأحداث والمعانى فيما يخص الماضى والحاضر**؟ لا شك أنه سيكون فى حالة يرثى لها، فلن يتذكر حتى نفسه، لن يُعَد إنسانا له ذات، وإن كان سيظل قادرًا على الأمور الإجرائية كالسباحة وركوب الدراجات، وأضاف؛ حمدًا لله، لم ألتق بحالة مثل هذه من قبل.

ثم ختم راماشاندران طرحه قائلًا: تذكر دائمًا أن الإنسان قد صار إنسانًا عندما أصبح قادرًا على طرح هذه التساؤلات التى تحتاج الإجابة عنها إلى الذاكرة:

«من» فعل «ماذا» «لمن»، و«متى» و«أين» و«لماذا»؟[٣].

---

(١) يُعرف هذا النوع بفقدان الذاكرة للسابق Retrograde Amnesia

(٢) يُعرف هذا النوع بفقدان الذاكرة للاحق Anterograde Amnesia

(٣) هذا قول لعالم نفس اللغات ستيف بينكر who did what to whom, when, where and why ?:Steve Pinker

٧- أنا... كائنٌ خيالى...

بالرغم من أن **الفوارق ضئيلة جدًّا بينى وبين باقى الرئيسيات**، فى التشريح ووظائف الأعضاء والجينات، وبالرغم من كل ما قيل عن وجود مفاهيم حضارية لدى الشمبانزى والأورانج أوتان وربما الحيتان!، **فهناك كائن واحد لديه القدرة على تصور البدائل، وتوقع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مسبقًا والتخطيط لتحقيق أفضلها، وهذا الكائن هو «أنا»**. وقد تمكن الإنسان بذلك من **بناء الحضارات** وتحقيق التقدم التكنولوجى والعلمى والمادى، وحقق فى الوقت نفسه **الاستمتاع الروحى**. فما مصدر اختلافنا هذا عن جميع الكائنات الأخرى؟.

عالَم الخيال

حملت هذا التساؤل إلى **روبن دنبر** Robin Dunbar (رئيس مركز أبحاث علم النفس التطورى والسلوك البيئى بجامعة ليفربول ببريطانيا)، عَلَّه أن يضع يدى على **أهم جانب عقلى يجسد الاختلافات العقلية العديدة بين الإنسان وباقى الكائنات**. فقال دنبر: لا أدرى كيف أصف هذا الجانب العقلى الذى استشعره أثناء تعاملى مع مختلف الحيوانات، ربما يكون **قدرتنا على أن نتصور عالمًا خياليًّا**، فالإنسان هو الكائن الوحيد القادر على انتزاع نفسه من الواقع، وطَرْح التساؤل: **كيف كان الحال يبدو لو كان الأمر على غير ما هو عليه الآن؟**.

بالرغم من أن إجابة دنبر كانت مختصرة؛ إلا أنها كانت نافذة حتى النخاع. إنه لأمر هائل، أن **يكون للإنسان حياة عقلية داخلية خيالية. إن هذا الخيال يقف وراء العلم والأدب والفلسفة والدين. فالعلم** يقوم على التساؤل؛ لماذا صار العالم على ما هو عليه الآن، بينما كان يمكن أن يكون غير ذلك؟ إن العلم يقوم على البحث عن إجابة لهذه الـ «لماذا؟». **كذلك يقوم الإبداع الأدبى** على تصور أحداث خارج حياتنا اليومية، سواء كانت من نفس نمط هذه الحياة أو كانت حياة افتراضية مختلفة. إن هذه القدرة على تصور عالم مختلف تمكننا من وضع التصورات حول عالم روحى متسام، وحول وجودنا قبل النشأة الإنسانية وحياتنا بعد الموت؛ إن هذه القدرة ـ باختصار ـ تعين على الإجابة عن الأسئلة الوجودية المحورية التى شغلت **الفلسفة** ونزلت **الديانات** لتجيب عنها.

٨ - أنا ... ذاتٌ ذكيةٌ مبدعة

عشت معظم حياتى أنظر إلى الذكاء باعتباره القدرة على التحصيل الدراسى[١]، ثم اطلعتُ مؤخرًا على النظريات الحديثة[٢] التى تبين أننى أتمتع بأنواع متعددة من الذكاء، وأن **لكل نوع مركز محدد فى المخ**، إذا أصابه العَطَب تأثر هذا النوع من الذكاء دون سواه.

وأول هذه الأنواع هو «**الذكاء اللغوى**»؛ ويتضمن تمكنى من مهارات فهم اللغة، قراءةً واستماعًا، وأيضًا مهارات إنتاج اللغة، كتابة ونطقًا[٣].

ثم يأتى «**الذكاء المنطقى الرياضى**»، ويتضمن تمكنى من التفكير المنطقى، وكذلك التعامل مع الأرقام والقيام بالعمليات الرياضية. ولا شك أن هذا النوع من الذكاء، مع الذكاء اللغوى كانا وراء تفوقى فى اختبارات التحصيل المدرسى واختبارات الذكاء التقليدية.

وهناك «**الذكاء البصرى المكانى**»، وبه أتعامل مع الوسط المحيط، فانتقل من مكان إلى مكان، وأحدد الأبعاد الثلاثة فى الفراغ وأقرأ الخرائط. وقد أعاننى هذا الذكاء على الفوز ببطولات الشطرنج عندما كنت طالبًا فى كلية الطب، ثم أعاننى بعد ذلك على أن أصبح جراحًا متميزًا، ويعين هذا الذكاء أيضًا أصدقائى من الملاحين الجويين والبحريين، وممارسى الرسم والنحت.

ومما أعاننى أيضًا كجراح، وأعان كذلك ممارسى فنون التمثيل ورقص الباليه والرياضات البدنية، ما يُعرف بـ«**الذكاء الجسمى ـ الحركى**»، إذ إنه يوجه استخدام الجسم أو أجزاء منه لأداء عمل معين.

ثم يأتى «**ذكاء فهم الذات**»، و«**ذكاء فهم الآخرين**»، وكما يشير اسميهما، فالأول يُمَكننى من فهم مشاعرى وأولوياتى ونقاط ضعفى وقوتى، ومن ثم يعيننى على تنظيم حياتى وعلاقاتى

(١) كان عالم النفس الفرنسى «بنييه» أول من وضع اختبارات قياس الذكاء منذ حوالى مائة عام، وركز فيها على قدرات التحصيل الدراسى، وهذا ما أدى إلى شيوع هذا المفهوم.

(٢) وضع عالِم النفس هاورد جاردنر الأستاذ بجامعة هارفارد، نظرية الذكاء المتعدد Multiple Intelligence Theory عام ١٩٨٣، وطرحها فى كتابه «أُطر العقل».

(٣) مركز فهم اللغة هو منطقة ڤيرنيك الموجودة بالفص الصدغى الأيسر من المخ بجوار منطقة السمع. ومركز إنتاج اللغة هو منطقة بروكا التى تقع فى الفص الأمامى الأيسر من المخ.

بالآخرين، وتحتاج هذه العلاقات إلى التعرف على مشاعرهم ودوافعهم ونواياهم، ويعين على ذلك الذكاء الثانى.

ومن الأمور التى كانت تثير تساؤلاتى، أن بعضًا من زملاء الدراسة الذين لم يكن مشهودًا لهم بالتفوق المدرسى قد حققوا بروزًا واضحًا فى حياتهم العملية، ثم أدركت سر ذلك عندما قرأت عما وصفه المتخصصون بـ «**الذكاء الاجتماعى**» و«**الذكاء الانفعالى (العاطفى)**»، وهما مطلوبان للنجاح فى حياتنا العملية، والمسئول عنهما بصفة خاصة ذكاء فهم الذات وذكاء فهم الآخرين.

أما «**الذكاء الموسيقى**» الذى يقف وراء المواهب العظيمة التى نستمتع بها فى هذا المجال، فلا يتمتع به فقط ممارسو الغناء والعزف والتأليف الموسيقى، بل لا بد أن يتوافر فيمن يتذوقون هذه الفنون.

ومما تميز به عالم البيولوجيا الكبير تشارلس دارون (صاحب نظرية التطور التى أقامت الدنيا ولم تقعدها حتى الآن) قدرته على تصنيف الكائنات الحية، تلك القدرة التى يقف وراءها ما يعرف بـ«**الذكاء التصنيفى**»، المسئول عن إدراك وتصنيف أنماط الموجودات والمفاهيم على اختلاف أنواعها، والمسئول أيضًا عن بعض النشاطات مثل هواية جمع طوابع البريد.

ولما كنت دائمًا أتساءل عن سر اهتمامى بالدين والمفاهيم الروحية والقضايا فوق الحسية منذ كنت صبيًّا، فقد أشبع بعضًا من فضولى هذا أن أعلم أن العلماء يتحدثون مؤخرًا عما يعرف بـ«**الذكاء الروحى أو الوجودى**»، الذى يهتم بهذه المجالات[١].

ويبقى أن أقول أننى (**كرجل**) أتفوق فى بعض أنواع الذكاء، كالذكاء المنطقى الرياضى والبصرى ـ المكانى وفى التأليف الموسيقى، بينما تتفوق **النساء** فى الذكاء اللغوى وفهم الذات وفهم الآخرين، ومن ثم الذكاء الاجتماعى والذكاء العاطفى.

لا تظن ـ قارئى العزيز ـ أن توافر أنواع الذكاء المختلفة قادر وحده على أن يُخرج للبشرية العباقرة والمُبدعين!. ويكفينى هنا أن أذكر كلمة أينشتين الشهيرة: «**العبقرية ١٠٪ ذكاء و٩٠٪ عَرَق**».. **أرأيت السر؟**

(١) سيكون لنا عودة مرة أخرى للحديث عن هذا النوع من الذكاء.

٩ - أنا.. ذاتٌ تؤمن بالسببية

لا أحتمل أن أقف عاجزًا فاغرًا فاهي أمام الأحداث الهامة التي تمر بي في حياتي؛ كالموت والمرض، بل وتجاه كل ما يقع حولي، كهبوب الرياح وسقوط المطر واشتعال النار وخمودها. وذلك لأن **الإيمان بأن «وراء كل حدث سبب» مَلَكَة فطرية غريزية في عقولنا، تجعلنا نسعى لأن نفسر الأحداث، جليلها وبسيطها**، لإشباع نهم الإنسان العقلي، وليصبح للعالم من حولنا معنى. لذلك وضع الإنسان **الأساطير** لتفسير الظواهر، المادي منها والغيبي، ثم استخدم عقله ليضع **الفلسفات** التي تجيب على هذه التساؤلات.

ولا شك أن العلاقة بين السبب والنتيجة **أحد أهم الأدلة على وجود الإله الخالق** ﷻ. فهذا الكون الذي أثبت العلم أنه نشأ من عدم لا بد له من موجد **أوجد «المُفْرَدَة Singularity»** التي بدأ بها «الانفجار الكوني الأعظم»، ووضع القوانين التي ستحكم سلوك المكونات الأولية للكون، ولا بد أن يكون **وضع تلك القوانين** قد تم قبل وجود هذه المكونات، ولا يقوم بذلك إلا إله خالق عليم حكيم قادر.

هنا تتوقف السببية

كثيرًا ما قدمت الطرح السابق في **حواراتي ومناظراتي مع الملاحدة**، ولما كانت هذه الحجة ذات قيمة استدلالية عالية، **فإن معظمهم** يتهرب منها بطرح تساؤل (عهدناه كثيرًا) يعتمد أيضًا على العلاقة بين السبب والنتيجة، فيقول: **إذا كان الله قد خلق الكون، فمن خلق الله؟**

إن إجابتنا عن هذا السؤال ـ أيضًا ـ لا يمكن دحضها، وهي أن تسلسل السبب والنتيجة لا يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية، ولا بد أن يصل في القِدَم إلى سبب أول لا مسبب له، وهذا المفهوم هو ما يقول عنه المناطقة أن **«التسلسل يمتنع»**. لذلك فالسؤال عن **«سبب من لا سبب له»** سؤال لا معنى له، بل سؤال غبي. **وإذا كنا عاجزين عن «تصور» موجود لا موجد له، فقد رأينا أن «العقل والمنطق» يُحَتِّمان وجوده**، لذلك يطلق المناطقة على السبب الأول أنه **«واجب الوجود»**. عندما نصل بالحوار إلى ذلك الحد، يقول الملاحدة: ولم لا يكون واجب الوجود هو الطبيعة؟ وهذا أيضًا طرح مرفوض، فواجب الوجود لا بد أن يكون **سابق للزمان والمكان**

والطاقة والمادة، والطبيعة ليست كذلك. من ثم لا يكون واجب الوجود والسبب الأول إلا الله ﷻ[1].

١٠- أنا... ذاتٌ تحب الاستطلاع والبحث

أنا بطبيعتى شغوف بالمعرفة، وقد **دفعنى حب الاستطلاع إلى البحث**. والبحث فى حد ذاته ليس سمة قاصرة على الإنسان، **فكل الكائنات تبحث**. النباتات تبحث عن الضوء، والحيوانات تبحث عن الغذاء، والميكروبات يبحث بعضها عن الضوء ويبحث البعض الآخر عن الأكسجين، وكلها تتحرك بعيدًا عن العوامل الضارة.

كذلك الحيوانات الأكثر تطورًا، وعلى رأسها الشمبانزى، تمارس البحث. لكن لماذا أصبح الشمبانزى مهددًا بالانقراض (بالرغم من التشابه الجينى الشديد بينه وبينى) بينما ساد الإنسان كوكب الأرض وتطلع إلى الفضاء الخارجى؟!.

لقد اقترح بعض البيولوجيين تسمية الإنسان بـ«**الإنسان الباحث** Homo quaevens» قياسًا على اسمه البيولوجى الحالى «الإنسان العاقل». **فلماذا نحن متميزون فى البحث؟**.

بحثُنا وبحث الحيوانات

عندما حملت السؤال إلى راماشاندران، أجابنى بأن الفرق بين بحث الإنسان ومَنْ سواه من الكائنات الحية هو فارق دقيق وشاسع فى الوقت نفسه؛ **فبحث الإنسان ليس بدافع الضرورة والفائدة المباشرة** (كباقى الكائنات)، ولكن **من باب حب الاستطلاع والمعرفة وغريزة الإيمان بالسببية**. هل هناك فائدة عملية مباشرة لاستكشاف منابع النيل، أو إنزال رجل على القمر، أو... ما الذى دفع أسلافنا للخروج من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا، منذ فترة تراوحت بين ١,٩ مليون - ١٠٠,٠٠٠ سنة. وما الذى دفعهم للارتحال من آسيا جنوبًا وعبور المحيط الهندى للوصول إلى أستراليا فى قوارب بدائية منذ حوالى ٥٠,٠٠٠ سنة. وما الذى دفع آخرين منذ ١٢,٠٠٠ - ١٦,٠٠٠ سنة لعبور سيبريا والوصول إلى آلاسكا ثم الأمريكتين. لماذا تَحَمَّل أسلافنا مخاطر تلك الهجرات؟.

(١) تفاصيل نظرية الانفجار الكونى الأعظم ودلالته على وجود الله ﷻ، راجع الفصلين الأول والثانى من كتاب «كيف بدأ الخلق» للمؤلف ـ مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثانية ٢٠١٢.

وأضاف؛ إن من السلوكيات الهامة عند الأطفال أنهم، ينظرون بتركيز أكبر ولمدة أطول إلى **الأشياء الجديدة**، وبتكرار ذلك يعتادون هذا الجديد ويقل اهتمامهم به، فإذا حدث تَغَيُّر فى هذا الشىء عاد اهتمامهم به، وهذا ما يُسمى **بتتالى الاعتياد والتجديد**.

سألت راما، لكن لماذا يُفَضِّل الإنسان جمع معلومات جديدة (استكشاف) على الاكتفاء والالتزام بما عنده من معلومات تكفل له السلامة؟

أجابنى؛ إن الأمر يرجع إلى بنية المخ، ففى دراسة شيقة قام بها عام ٢٠٠٦ فريق من الباحثين فى جامعة لندن، وجدوا أن **مناطق معينة تتنشط فى المخ عند اتخاذ قرارات المخاطرة والمغامرة**، بينما تتنشط مناطق أخرى عند اتخاذ القرارات المحافظة. وقد وجدوا أن مناطق المخاطرة مقارنة بمناطق الالتزام أكبر فى مخ الإنسان عما سواه من الرئيسيات.

١١ـ أنا... ذاتٌ تعاطفية اجتماعية

بصفتى جراحًا أبذل أقصى طاقتى من أجل إنقاذ حياة مريض أصيب فى حادث، مدفوعًا فى ذلك بدوافعى الإنسانية قبل التزامى المهنى، فإنه يدهشنى كثيرًا ما أطالعه فى التاريخ من **نماذج الحكام المستبدين**، ابتداء من فرعون موسى إلى هولاكو إلى هتلر وموسولينى، وكذلك استئصال المستوطن الأبيض الأمريكى للهنود الحمر والمحاولات المشابهة فى فلسطين، والتصفية العرقية فى البوسنة والهرسك، وإلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما ونجازاكى، والقائمة لا تنتهى من عمليات **إبادة مئات الآلاف والملايين من البشر**. ما تفسير هذا السلوك مقابل سلوك الطبيب الذى يكون أحيانًا مستعدًا لأن يضحى بحياته من أجل إنقاذ مريض واحد؟

إن ما عرضت من نماذج شاذة ـ مهما تعددت ـ **لا تنفى طبيعتى البشرية التعاطفية التى فُطرت عليها**، والتى ينبغى أن تتعهدها تربية الوالدين لأطفالهما بالرعاية والتنمية. أما إذا افتقرت التربية إلى **التوافق والحنان**، انطفأت فى نفوس الأطفال جذوة التعاطف مع الآخرين، فيشبون وقد امتلأت ـ قلوبهم باللامبالاة بمن حولهم، **وينشأون أمساخًا بشرية تمارس كل أخلاقيات الانحراف الاجتماعى والتحرش**.

وإذا أردت أن تعرف مدى تميزى بالتعاطف، قارن سلوكى هذا بما سواى من الكائنات. فإذا كنا بنى البشر نرعى أبناءنا لأكثر من عشرين سنة، **وتستمر علاقة البنوة والأمومة والأبوة طوال الحياة**، فإن مثل هذه العلاقة لا تستمر فى باقى الثدييات إلا أشهرًا أو سنوات قليلة،

وبعدها يصبح الصغار الذين كبروا منافسين لأمهاتهم وآبائهم فى كل شىء. كذلك فإن إناث المفصليات (كالعناكب والعقارب) والحشرات (كالنحل) تقتل ذكورها بعد الإخصاب، كما تلتهم إناث الزواحف صغارها فور فقس البيض مالم تبادر بالهرب، ولا شك أن هذا ليس سلوكًا تعاطفيًّا بالمرة!

السلوك الاجتماعى الإنسانى العميق

سألت راماشاندران عن سلوكى التعاطفى، منشأه وآلياته، فأجابنى مشيرًا إلى رأسى: هل تعرف أن فى دماغك هذا عقلين؛ «**عقل منطقى**» مركزه القشرة المخية الأمامية، و«**عقل انفعالى**» مركزه الجهاز الحوفى، خاصة تَجَمُّع من العصبونات يشبه شكل «الوزة» ويتسمى باسمها[1].

ويقف **العقل المنطقى** وراء كل إنجازات الحضارة الإنسانية من فكر وعلم وفن وثقافة، كما يقوم بتوجيه مشاعر الإنسان والتحكم فى انفعالاته. أما **العقل الانفعالى** فهو الذى يتحكم فينا حين تسيطر علينا الشهوة أو الغضب أو الوله فى الحب أو التراجع خوفًا؛ إنه المسئول عن انفعالاتنا وعواطفنا.

ولا شك أن الدوائر العصبية بين العقلين هى محور كل المعارك ـ وكذلك اتفاقات التعاون ـ بين **العقل والقلب**، أى بين **التفكير والشعور**. إن تلفًا أو توترًا يصيب تلك الدوائر العصبية والتى يحكمها تناغم دقيق يؤدى إلى **اضطراب نفسى عصبى شديد**.

وأضاف راما... لا شك أن معظم عواطفنا وانفعالاتنا لا اعتبار لها دون **التعامل مع الآخرين**، فمعظمها موجه تجاههم؛ الحب ـ الكُرْه ـ الخوف ـ الكبرياء ـ الغضب ـ الاحتقار ـ الإشفاق ـ الغيرة... بل كثيرًا ما نوسع من مجال تعاطفنا ليشمل **الموجودات غير الإنسانية**، فأنا أحب الحيوانات الأليفة وأحب الطبيعة، وأكره الزلازل وأيضًا غصن الشجرة الذى أصابنى فى عينى، ولهذه المشاعر تجاه الإنسان وغير الإنسان منزلة كبيرة فى **بنية الديانات**، ولذلك أيضًا تصف علوم النفس والاجتماع الإنسان بأنه أكثر الكائنات اهتمامًا بالسلوك الاجتماعى.

استوقفت راما معترضًا؛ وقلت له: **أليست أمم النحل والنمل أكثر اجتماعية منا نحن البشر**؟ أليست تجمعاتها أكثر عددًا، كما أن كثافة مجتمعاتها أعلى وتعاملاتها ألصق، وتوزيع المسئوليات بينها أكثر صرامة؟

---

(١) العقل المنطقى: Rational Mind ـ العقل الانفعالى: Emotional Mind
الجهاز الحوفى: Limbic System ـ اللوزة: Amygdala

أجابنى راما؛ يعترض أندرو ويتين (المتخصص فى سلوك الحيوانات) على الذين يطرحون هذا الطرح، بأن **السلوك الاجتماعى الإنسانى يتسم «بالعمق»**، إذ يختلف عن السلوك الاجتماعى لباقى الكائنات فى أربعة جوانب. أولها، قدرة الإنسان على معرفة فيما يفكر الآخرون، وتسمى هذه القدرة بـ «**نظرية العقل**». والجانب الثانى هو مساهمة **الحضارات الإنسانية** ـ بما تحتوى عليه من علاقات اجتماعية ـ فى تشكيل السلوك الاجتماعى للبشر بشكل أعمق كثيرًا عما تقوم به البيئة فى تشكيل سلوك الحيوانات، حتى إن المتخصصين يصفون التأثيرات الحضارية بأنها «**التأثير الوبائى**»، إذ إن السمات الحضارية والثقافية تنتقل (ثم تتكاثر) من عقل لآخر فى البيئة الواحدة. والجانب الثالث هو «**اللغة**»؛ تلك الوسيلة المُثلى للتواصل ونقل ما فى عقولنا من نوايا وأفكار ومعلومات للآخرين، مما يجعل للعقل الاجتماعى البشرى عُمقًا لا مثيل له. وأخيرًا يأتى «**التعاون**» كسمة مميِّزة للسلوك الاجتماعى الإنسانى، حتى إن المجموعات البشرية تسلك ككائن واحد، لكل فرد فيها دوره الذى يقوم به من أجل تحقيق أهداف الجماعة، تمامًا كما أن لكل عضو فى جسم الإنسان وظيفته.

قاطعت راما قائلًا؛ إن سمة التعاون، التى تجعلنا ننظر إلى المجتمع ككائن واحد، شديدة الوضوح فى مملكة النمل، ربما بشكل أوضح من مجتمعاتنا الإنسانية. فقال راما: ولكن يبقى فارقًا جوهريًّا بينها وبين الإنسان، وهو **الوعى العقلى الكامل لكل إنسان بدوره فى خدمة الجماعة**.

١٢ ـ أنا... ذاتٌ ذاتَ بيان(١)

«أبوك السَقَّا مات»

كلمات طالما سمعناها فى صبانا تُنسب لببغاء الجيران. وعندما كبرنا قرأنا أن القرد كنزى قد تعلم الكلام، وقرأنا أنَ قِرَدَة الشمبانزى والدلافين تُصدِر أصواتًا تقابل كلماتنا التى هى رموزنا اللغوية. كما نشاهد فى الفضائيات العلمية أفلامًا تبين أن لبعض الكائنات (كالنحل والنمل) لغاتها التى تتواصل بها. هل يمكن أن نعتبر تلك **الأصوات ووسائل التواصل** التى تستخدمها الحيوانات بمثابة لغات تشبه لغات البشر، خاصة وأن القرآن الكريم يخبرنا أن لبعض الكائنات لغاتها.

(١) أرى أن اصطلاح «البيان» هو أفضل وصف للغة الإنسان، وجاء ذكره فى القرآن الكريم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن].

اللغة مَلَكَة فطرية

حملت هذا التساؤل إلى ناعوم تشومسكى[1]، أبو علم اللغويات الحديث (شكل ـ ٢)، لأروى ظَمَأى فى هذه القضية الجوهرية. قال تشومسكى: دعنى أمهد للإجابة عن هذا التساؤل الهام بمقدمة وأمثلة استخدام فيها لغتك العربية الرائعة:

انظر إلى هذا القول:

فإن الأخلاق الأمم ذهبت بقيت ذهبوا إنما ما هم أخلاقهم

لعلك لاحظت أن القول عبارة عن بعثرة لكلمات بيت شعر حكيم العرب المتنبى:

إنما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن بنية الكلمات فى القول المبعثر سليمة ومعانى الكلمات واضحة، ولكن لا معنى للقول، إذ إن كلماته لم تتبع قواعد معينة.

وانظر كذلك إلى هذا القول: الحقد الأخضر عديم اللون يتعلم التفاح.

أيضًا هو كلمات كل منها له معنى، ولكن ليس للقول معنى ولا يخضع لقواعد، بل إنه ملىء بالتضارب (كيف يكون عديم اللون أخضر).

لعلك لاحظت من المثلين أن **الجملة اللغوية تتكون من ثلاثة عناصر** يتم نسجها سويًّا حتى لا تكاد تشعر بفرق بينها: **الألفاظ؛ بنيتها ومعناها**[2] ـ **معنى الجملة**[3] ـ **والقواعد اللغوية (النحو)**[4]. ولا تكون الجملة صحيحة إلا إذا كانت عناصرها الثلاثة صحيحة.

(١) ناعوم تشومسكى **Noam Chomsky**: ولد فى ديسمبر العام ١٩٢٨، ويشغل منصب أستاذ كرسى اللغة فى جامعة إم آى تى MIT، وتعد أعماله الأكثر أهمية فى مجال «**نظرية اللغة**» فى القرن العشرين، بل وامتد تأثيرها إلى علم النفس. وتشومسكى، إلى جانب تخصصه، عالم فى الرياضيات والفلسفة وعلم النفس، وهو أيضًا إنسان مثقف صاحب اتجاه سياسى يتسم بالتعاطف مع بلاد الجنوب عمومًا (خصوصًا مع القضية الفلسطينية) وبمهاجمة الرأسمالية الأمريكية المتوحشة بصفة خاصة.

(٢) Lexocon

(٣) Semantics

(٤) Syntax

ويضيف تشومسكى: لقد أَثبَتُّ أن الطفل **يولد ومخه مُعَد لتكوين جملٍ صحيحة ذات معنى** بمجرد أن يسمع مثالًا أو مثالين صحيحين، فيقوم بالقياس عليهما[1]. كما أثبَتُّ أن الجنس **البشرى بأكمله يتعامل مع اللغة بطريقة متماثلة على اختلاف أصوله ولغاته**[2]، ومن هذا التشابه أن الجملة تتكون من فعل وفاعل ومفعـول، وأن للأحـداث زمنًا مـاضيًا ومضـارعًا ومستقبلًا، وغيرها.



(شكل ـ ٢)
ناعوم تشومسكى Noam chomsky
كبير علوم اللغويات فى القرن العشرين

تواصُلنا وتواصُل الحيوانات

بعد هذه المقدمة **عاد تشومسكى لسؤالى** وقال: **إن لغة الإنسان تميزها عن الرموز والأصوات التى تستخدمها الحيوانات** فى التواصل عدة سمات:

- تتميز لغات الإنسـان **بثراء شـديد فى المفردات**، وكلماتها عبارة عـن **رموز عقلية تجريدية**؛ فكلمـة طعام مثلًا لا علاقة لرسـمها أو نطقها بالطعام! أما القـرد إذا أراد أن يُعَبِّر عن الطعام حَرَّك فمه بصوت كأنه يأكل، كما أن رموزه الصوتية قليلة جدًّا، ولا يجمع أكثر من رمزين سويًّا.

- رموز الحيوانات **مجرد منعكسات استثارية** تدل على أشياء أو أحداث حاضرة، أما الإنسان فلغته قادرة **على التعبير عن الماضى والمستقبل أو عن معنى افتراضى تخيلى**.

- الرموز (الكلمات) التى يسـتخدمها الإنسـان **تحكمها قواعد**، ويعتبر معظم اللغويين هذه السمة **أهم مميزات اللغات الإنسانية**.

- تسـتخدم اللغة الإنسـانية **المجاز والاستعارة والتشبيه** بشـكل شديد التركيب، انظر كيف يُعَبِّر شاعركم الجاهلى امرؤ القيس ببراعة عن شدة همومه فى الليل:

---

(١) أطلق تشومسكى على هذه السمة اسم: الأجرومية (النظام) الخلاقة Generative Grammer

(٢) أطلق تشومسكى على هذه السمة إسم: الأجرومية (النظام) العالمية Universal Grammer

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُوله   عَلَيَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلى

أما مجاز الحيوانات فهو بدائى وبديهى، كأن يشير القرد الذكر إلى عضوه التناسلى أمام ذكر آخر قاصدًا إهانته.

- تتفرد لغات الإنسان بوجود **كلمات وظيفية** (function words) لا قيمة لها خارج الجملة، مثل «ثم» و«عندما» و«And» و «If».

- يمكن إدراك اللغة الإنسانية **بثلاث حواس (السمع ـ البصر ـ اللمس)**، أما الببغاء ـ مثلًا ـ إذا فقد صوته فقد لغته.

من كل ذلك نرى **استحالة أن تكون اللغات الإنسانية تطورًا عشوائيًا لأى من وسائل التواصل بين الرئيسيات**، بل إنها **ظاهرة جديدة تمامًا انبثقت عند الإنسان**، وعلى هذا المفهوم تقوم نظريتى التى وضعتها لتفسير نشأة اللغة، والتى أسميتها «**نظرية الانفجار اللغوى الأعظم**[1]» محاكاة لنظرية الانفجار الكونى الأعظم الذى أوجد الكون من عدم.

اللغة والتفكير

أثارت إجابة تشومسكى العميقة، فى عقلى تساؤلًا جذريًا آخر؛ إذا كان الإنسان لا يمكن أن يتحدث دون تفكير، فهل نستخدم فى «التفكير» لغة غير منطوقة، **هل حقًا لا نستطيع أن نفكر دون لغة؟!**

لم أحتر كثيرًا فيمن أحمل إليه السؤال، فليس هناك أفضل من راماشاندران، **فارس هذا الميدان**.

قال راما: **لا شك أن هناك بعض النشاطات التى تحتاج إلى تفكير ولا تحتاج إلى لغة**. فإذا طلبتُ منك ـ مثلًا ـ تغيير مصباح السقف، وكان فى الغرفة ثلاثة صناديق متدرجة الحجم، فالأرجح أنك ستضع الصندوق الأكبر تحت المصباح، ثم تضع فوقه الأوسط ثم الأصغر، وتصعد فوق الصناديق حتى تصل إلى المصباح[2]. أنت لم تقم بالتفكير باستخدام لغة صامتة

(١) The Big Bang theory of Human Language

(٢) لا يقوم الشمبانزى بهذه المهمة للوصول إلى الموزة من أول مرة، ولكن سيقوم بالعديد من المحاولات.

للقيام بهذا الأمر، فأنت لم تقل فى نفسك دعنى أجرب الصندوق «أ» فوق «ب» ... لكنك قمت بالتعامل مع **الصورة البصرية** للصناديق للوصول إلى الحل الأمثل. لكن من المدهش أن الدوائر العصبية التى تتعامل مع اللغة، هى نفس دوائر هذه العملية البصرية!

والآن ننظر إلى مثال آخر: إذا قلت لك أن أحمد أكبر من باسل وأن باسل أكبر من جاد، فما العلاقة بين أحمد وجاد؟. **لا شك أنك ستفكر** (ولنستخدم لغة الرموز): إن (أ > ب) و(ب > جـ) إذًا (أ > جـ).

كيف امتلكنا القدرة على هذا الاستنتاج الذى يعتمد على التسلسل؟ هل هى قدرة فطرية أم مكتسبة؟ هل تعتمد على لغة داخلية تستعمل نفس دوائر اللغة المنطوقة فى أمخاخنا؟ وهل سبقت اللغة التفكير المنطقى أم العكس؟ أم أن كلًا منهما ليس ضروريًا للآخر وإن كانا يتبادلان المصلحة؟

أسئلة عديدة مُحيرة أعجزت الفلسفة لقرون، وبدأ العلم التجريبى يدلى بدلوه للإجابة عنها. لكن الطريق مازال فى أوله، فلا شك أن آلية ممارسة مليارات العصبونات[1] عملية التفكير شديدة الغموض، خاصة أنها لا تتم فى مركز مخى واحد، ولكن تشارك فيها الكثير من مراكزه. لكن هذه هى مهمة العلم؛ أن يتوصل إلى الأجوبة خطوة خطوة عن طريق طرح الافتراضات وإجراء التجارب.

١٣ـ أنا... ذاتٌ فنانة متذوقةٌ للجَمَال

قرأت حكمة هندوسية قديمة، أجابت عن الكثير من تساؤلاتى حول الجمال والفن، تقول الحكمة: «**لقد أُعطى الإنسانُ الحسَّ الجمالى، الذى يجعله يتفاعل مع الجمال، ويرى اللمسة الإلهية فى جميع ما حوله**».

هناك من الشواهد ما يشير إلى أن هذا الحس الجمالى ليس أمرًا مكتسبًا وليس إفرازًا للحضارة الإنسانية، ولكنه **ملكة فطرية غريزية تجمع بيننا وبين الكائنات الأخرى**. فإذا كنا نُعجَب بتناسق الزهرة وألوانها، وتُشجينا زقزقة العصافير، ونستشعر الجمال والكبرياء فى ذكر

(١) العصبونات = الخلية العصبية Neurons

الطاووس، فلا تنس أن النحلة تدرك جمال الزهور، وأن إناث الطيور تنجذب إلى زقزقة ذكور العصافير وجمال ذكور الطواويس(١).

ومن أجل أن نعرف كيف مُنِحْتُ الحسَ الجمالى وكيف يستجيب مخى للجمال، ينبغى أن نعرف **ما هو الجمال**، وكتمهيد لذلك دعنا نتأمل **متى نَصِفُ شيئًا أنتجه الإنسان بأنه فن**:

اختلفت النظرة إلى الفن بين طرفين، طرف يرى أن **الفن ترياقٌ للقبح والسخف والمعاناة** الموجودة فى حياتنا الإنسانية، وأنه المهرب من بحار الدموع(٢). وفى الطرف الآخر، الرأى الذى يجسده الفيلسوف دادا Dada، الذى يرى أن «كله مـاشى Anything Goes، وأن اعتبار شيء ما فن إدراك ذاتى، وليس له مقاييس حقيقية موضوعية(٣)، **لماذا هذا التأرجح بين نقيضين؟**

وإذا كانت الطبيعة جميلة، **فلماذا لا يكون أرقى الفنون هو أنجحها فى نقل جمال الطبيعة بحذافيرها**، ومن ثَم يكون أعلاها هو **التصوير الفوتوغرافى**؟

بالرغم من أننى لست من المتذوقين للمرحلة التكعيبية فى رحلة بيكاسو الفنية، إلا أن المتخصصين يرون أن ما تتميز به نساء بيكاسو فى لوحات هذه المرحلة من وجود العينين فى جانب واحد من الوجه، وتحدب ظهورهن، وأزرعتهن الخارجة من أماكن غريبة من الجسم،

---

(١) لا تظن أن هذا الانجذاب عملية غريزية تتم من خلال الفيرومونات الكيميائية التى تجذب هذه الكائنات وفقط، بل إن الإحساس بالجمال عنصر جاذب لدى تلك الكائنات. وللاستدلال على ذلك، دعنا نتأمل ما تفعله **ذكور الطائر صانع الأقواس Bowerbird**، الذى يعيش فى أستراليا وغينيا الجديدة؛ إنها تبنى أعشاشها وتزينها لجذب الإناث بأسلوب يعكس موهبتها الفنية الخصبة. فسقف العش يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام، وله مدخل واسع وبداخله أقواس، كما يزين الذكر أركان العش بالزهور مختلفة الألوان، وبقشور البيض والحصى، وبما يجده من قطع الزجاج أو رقائق الألومنيوم التى تتلألأ كالجواهر حين تسقط عليها الشمس. أليست تلك موهبة فنية لدى الذكر، وقدرة فطرية على التذوق الجمالى لدى الأنثى.

(٢) فى ذلك المعنى أَلّفَ أمير الشعراء أحمد شوقى أبياتًا بالعامية يصف فيها الفن والفنانين، وغناها الفنان محمد عبد الوهاب:

يالـلِّى بَدَعتـو الفنـون — وفـ إيدكـوا أسرارهـا
دنيـا الفنـون دى خميلـة — وانتــــو أزهارهـــا
والفــن لحــن القلــوب — يلعـــب بأوتارهـــا
والفــن دنيــا جميلــة — وانتـــو أنوارهـــا

(٣) من هذا السخف أن يصنع أندريه سيراتو تمثالًا صغيرًا للسيد المسيح ويضعه على صليب ويغمره فى كأس به بول، ويطلق على هذا العمل اسم «فلتتبول على المسيح Piss Christ، ويقول بعض النقاد إن هذا فنٌ، ويُباع منه عشرات الآلاف من النسخ!!

إنما هو هروب عبقرى من طغيان الواقع، باللجوء إلى الترميز والمجاز! لكن لا شك أن ليس كل انحراف عن الواقع يُعتبر فنًا، **فمتى نعتبر الانحراف فنًا؟!**

ونعلم أن هناك مدارس **فنية عديدة**، فنحن نسمع عن الفن الإسلامى، والفن المصرى القديم، والفن القبطى، واليونانى القديم، والأفريقى، والهندوسى، وفن عصر النهضة. كما نسمع عن المدارس التأثيرية والتعبيرية والتكعيبية والتجريدية... قائمة لا نهاية لها، ولكل من هذه المدارس سماته المميِّزة، ولكن **هل هناك سمات عامة تَعْبر الحدود والحضارات وتميز الفن بصفة عامة؟**

وإذا كانت مَلَكَة التعرف على الوجوه أمر فطرى، بينما تَعَرُّف الطفل على وجه أمه (بالتحديد) أمر مكتسب، **فهل للإحساس بالجمال وللتجربة الفنية عنصر فطرى وآخر مكتسب من البيئة؟**

من هذه التأملات والتساؤلات تبزغ بضعة أسئلة محورية: **هل هناك آليات عصبية مخية تمكننا من الإحساس بالجمال ومن تذوق الفن؟ هل يمكننا وضع نظرية علمية لإدراك الجمال، وبمعنى آخر نظرية علمية للتجربة الفنية؟** باختصار، **هل يمكن أن نتحدث عن الفن كعلم، ومن ثم نتحدث عن علم الفن Science of art؟**

قوانين تذوق الفن والجمال

تحتاج الإجابة عن هذه الأسئلة إلى خبير فى علوم الأعصاب وأيضًا فى الفن، وهل يكون إلا العالِم الفذ راماشاندران، فلجأت إليه:

أطرق راماشاندران قليلًا، ثم صَوَّبَ عينيه الواسعتين الفاحصتين إلى عَيْنَىّ، وبدأ كلامه قائلًا: لقد شغلتنى قضية الإحساس بالجمال وتذوق الفن، وعلاقة ذلك بنشاط المخ، فى الفترة الأخيرة. ومفتاح الإجابة عن تساؤلاتك هو كلمة **«رازا Rasa»** التى تتردد كثيرًا فى الفن الهندى، وهى كلمة باللغة السنسكريتية يصعب ترجمتها، لكنها تعنى تقريبًا **«التوصل إلى جوهر الشىء، وعرضه بأسلوب يثير مشاعر ومزاج المشاهد»، فكيف يتوصل الفنان إلى ذلك الجوهر ليعبر عنه؟ وكيف يضع المشاهد يده عليه عند تأمل العمل الفنى ليتذوقه؟**

إن مهمة الفن ليست نقل نسخة مماثلة تمامًا للوجود، وإلا لكفانا أن نسير فى الدنيا نتأمل ما حولنا، بل على العكس؛ **إن مهمة الفن هى تغيير صورة الوجود، أو التركيز** على إحدى

جزئياته، لتحقيق الإمتاع (وأحيانًا القرف!) للمشاهد، وكلما حقق الفنان ذلك، كلما تصاعدت رجفة الاستمتاع بالجمال، وكلما كان الفنان قديرًا.

وأضاف راما؛ لقد توصَلْتُ إلى عدة سمات (أو قوانين) لا بد أن يلتزم بها الفنان (أو مصمم الأزياء) من أجل أن **يحقق للمشاهد من الإمتاع والإثارة مالا تحققه الرؤية الواقعية. ولا يعنى التوصل إلى قوانين وآليات تحكم الفن فقدان البعد الروحى له**، فإدراكنا لآليات الحب وممارسة الجنس لا يلغى البعد الروحى لهما، كذلك فإن تعمقنا فى دراسة دقائق علوم اللغة لا ينتقص من استمتاعنا بمعلقات الشعر الجاهلى ولا إبداعات نجيب محفوظ، كما أن إدراكنا أن الماس يتكون من الكربون وتَوَصُلْنا إلى خطوات تكوينه فى باطن الأرض عبر ملايين السنين لا ينتقص من استمتاع النساء به. كذلك لا يعنى وجود قوانين وآليات فطرية غياب **دور التنشئة والحضارة** فى تذوقنا للفن وفى تعبيره عن مدرسة معينة.

وبدأ راما فى طرح القوانين (السمات) التى تحكم الحس الجمالى والتذوق الفنى، وقال:

● **أولها «قانون التجميع The law of Grouping»**. فأنت إذا نظرت إلى السماء التى تزينها قطع متناثرة من السحاب، قد تستطيع أن تربط بين بعض هذه القطع وتتصورها على هيئة قطة مثلًا، عندها قد تُخرج زفرة من صدرك وتقول معجبًا متعجبًا؛ «آه».

وإذا ذهبت فى رحلة إلى الأدغال، ورأيت وأنت فى سيارة السفارى بقعًا صفراء تفصل بينها أعشاب الساڤانا الخضراء، ثم فى لحظة تتواصل فى مخيلتك هذه البقع وتدرك أنك أمام أسد تخفى الأعشاب أجزاءً منه، عندها قد تُصدر «آهًا» أخرى.

وعندما تذهب المرأة لشراء حقيبة يد حمراء، فإنها تحرص على شراء حذاء أحمر، وربما حزامًا وإيشاربًا أسْوَدين، إذ ترى أن هذه الألوان متناسقة.

تقدم هذه الأمثلة **تجميعات لأشياء متناثرة**، قد لا تكون موجودة فى الحقيقة (فى مثال القط السحابى)، وقد تكون موجودة (فى مثال الأسد)، وقد تكون تجانسًا لألوان فى مناطق مختلفة يعطيك الشعور بالارتياح.

لقد «جُبِلَت = فُطِرَت» أمخاخنا على التوصيل بين الأجزاء المنفصلة لتشكل أقرب الصور المتكاملة المعروفة لديها (القط ـ الأسد)، عندها تتنشط فى القشرة المخية البصرية العصبونات المقابلة للصورة المتكاملة، فترسل إشاراتها إلى مركز الشعور (اللوزة) **فتثير ما يرتبط بالصورة**

من **مشاعر** (الارتياح لتصور القط، والخوف من الأسد). كذلك فإن **فى عقولنا نماذج للألوان المتناسقة**، لذلك ترسل القشرة البصرية المسئولة عن الألوان إشاراتها إلى اللوزة، فتثير فينا الشعور بالارتياح.

● أما القانون الثانى، فهو «**قانون بلوغ الحد الأقصى Peak Shift**». فعندما يريد **فنان الكاريكاتير** أن يُعَبر فى رسمه عن أنوثة امرأة، ضَخَّمَ السمات المميزة للمرأة والتى تختلف بها عن الرجل (الثديين ـ الأرداف ـ الفخذين ـ الخصر النحيل ـ انحناءة الجذع ـ استدارة الكتفين ـ اكتناز الشفتين ـ اتساع العينين..). وبالرغم من أن نِسَب الرسم تكون مخالفة للحقيقة وربما مثيرة للضحك، إلا أنك قد تُعَلِّق: «يالها من امرأة!».

ويقوم **الفنانون التجريديون** بنفس العمل؛ فهم يستخلصون السمات المميِّزة للعمل الذى يريدون تجسيده ثم يظهرونها ويضخمونها؛ ربما على هيئة خطوط مستقيمة أو متعرجة أو دوائر أو مربعات أو بقعًا من الألوان. إنهم بذلك يُنَشِّطون بشكل فوق طبيعى Supernormal المراكز المخية العصبية عند المُشاهد. لذلك يُطلق علماء الأعصاب على هذا التأثير اصطلاح: **التنشيط فوق الطبيعى للمراكز البصرية والشعورية**.

ويبدو أن **بأرشيف مخ كل منا صورًا للهيئات القصوى لكل سمة من السمات الجمالية**، وغالبًا ما تختلف الصورة المُفضلة من شخص لآخر. لذلك لا تندهش إذا وجدت أحد أصدقائك يتعلق إلى درجة العشق بفتاة قد تراها أنت خالية من علامات الجمال، ثم ترضخ فى النهاية وتقول إنها «الكيميا»، وكما تقولون فى مصر «**كل فولة ولها كَيَّال**» وهذا هو عين الصواب.

● إن القانون الثالث هو «**قانون التباين Contrast**». هكذا قال راما قبل أن يوجه لى سؤالًا؛ هل تستطيع أن تُميز رسمًا باللون الأبيض على خلفية بيضاء؟ ثم استطرد مجيبًا، **إن وجود التباين بين مكونات العمل الفنى أمر ضرورى لإدراكه وتذوقه**، حتى إن الحيوانات لا تلتفت إلى الثمار الخضراء غير الناضجة داخل الشجرة ذات الأوراق الخضراء، بينما يسيل لعابها إذا نضجت الثمرة وتحولت إلى اللون الأحمر أو الأصفر، لذلك أتوقع إذا كان فى كوكب المريخ أشجارٌ أوراقها صفراء، أن تكون ثمارها زرقاء اللون.

هذا وقد **فُطِرَت عقولنا على تذوق بعض أشكال التباين أكثر من البعض الآخر**. فالأزرق مع الأصفر (كما فى المريخ) أمتع من الأصفر مع البرتقالى.

ومن ثَمَّ يمكن تعريف التباين بأنه **الانتقال المفاجئ بين منطقتين متجاورتين**، سواء انتقال فى اللون أو الإضاءة أو العمق أو الملمس... وقد استغل مصممو الأزياء والديكور مفهوم التباين فى تصميماتهم إلى حد بعيد.

● والقانون الرابع للفن هو «**قانون الإبراز (العزل) Isolation**». فهل خطر ببالك لماذا تبدو بعض الرسوم التخطيطية (كرسوم الحمّام لبيكاسو) أكثر جمالًا وتعبيرًا من صورة فوتوغرافية ملونة للشيء المرسوم[(١)]؟

تكمن الإجابة فى أن **مراكزنا البصرية تهتم فى أول مراحل الإبصار بالحدود الخارجية للشيء وليس بتفاصيله الداخلية وألوانه**، وهذا ما يُركز عليه الرسم التخطيطى. لذلك فإن النظر إلى الصورة الفوتوغرافية يوزع الاهتمام بين الحدود الخارجية وبين الألوان والتفاصيل.

وقد سبق أن ذكرت لك أن **الفنان يبرز عنصرًا واحدًا يُعتبر جوهر الشيء وروحه Rasa** (قد يكون اللون ـ الشكل ـ الحركة...). لذلك إذا رأى الفنان أن سر جمال الشيء يكمن فى الألوان، فإنه يقوم بالتركيز عليها، مع التقليل من العناصر الأخرى (كالخطوط الخارجية)، وهذا ما يقوم عليه الفن التأثيرى لفان جوخ ومونيت[(٢)].

● والقانون الخامس هو «**قانون الغموض الممتع[(٣)] Perceptual problem solving**».

فهل فكرت لماذا تبدو عَيْنَىّ امرأة وقد غطت نصف وجهها الأسفل بحجاب أكثر جاذبية منها إذا كشفت وجهها تمامًا!؟ يقول الرجال أن ذلك «**يترك مجالًا للخيال**». هل معنى ذلك أن الفن ليس تعظيم مواطن الجمال، كما يعتقد البعض؟ نعم، وإلا لكانت المرأة العارية تمامًا أكثر إثارة من تلك التى تدفع خيال الرجل ليعمل بأن تغطى جزءًا ضئيلًا من جسمها، لذلك تقول القاعدة الفنية: **إنك تستطيع أن تجعل الشيء أكثر جاذبية بأن تجعله أقل ظهورًا**.

ويرجع ذلك بيولوجيًّا إلى **أن المخ البشرى قد «تم إعداده سلفًا» بحيث تعطى المراكز الانفعالية ومراكز الإثابة شعورًا بالرضا والنشوة كلما توصل المخ «بنفسه» لحل مشكلة؛ رياضية كانت أو سمعية أو بصرية أو فزورة أو...**؛ لذلك يقوم الفنان بحجب بعضًا من مكونات عمله

---

(١) لذلك اخترت رسومًا تخطيطية لبعض الشخصيات التى حاورتها فى هذا الكتاب.

(٢) والإبراز ليس قاصرًا على الرسم فقط، فلتفسير **عبقرية أينشتين** بَيَّنَ بعض من قاموا بتشريح مخه أنه كان يتمتع بتلافيف زَاوِيّة كبيرة Angular Gyrus، وهى المناطق التى تقوم بالربط بين القدرات الرقمية (الفص الجدارى الأيسر) والقدرات الفراغية (الفص الجدارى الأيمن). أى أنه **كان يتمتع بمستوى عالٍ من «الإبراز» لملكة المزج بين القدرات الرقمية والقدرات الفراغية**.

(٣) أرى أن الترجمة إلى «الغموض الممتع» تقرب المعنى أفضل من الترجمة الحرفية، وهى «حل المعضلات الإدراكية».

الفنى بحيث يدع للمشاهد المجال ليستكمل الصورة تبعًا لما يُرضيه، وبالتالى **فالإبصار ليس مجرد إدراك ما هو بالخارج، بل يتأثر تذوقنا لما نبصر بخلفياتنا وبانفعالاتنا**، ومن ثم فإن كلًّا منا يرى العمل وقد امتزج بذاته ليبلغ الصورة القصوى المُبَرمَجة فى ذهنه.

واسترسل راماشاندران قائلًا:

● أما القانون السادس، فهو شديد الأهمية من الناحية الفنية، وهو « **قانون المجاز Metaphor**». ولا شك أن استخدام المجاز فى اللغة معروف لدينا جميعًا، سواء فى الأدب أو فى حياتنا اليومية. أما غير المشهور فهو **المجاز فى الفن المُبْصَر** (**رسوم ـ تماثيل ـ معمار**)، وربما كان من أكثر الفنون اهتمامًا بالمجاز الفن الهندوسى والفن المصرى القديم.

قطعت استرسال راماشاندران، وطرحت عليه بعضًا من أمثلة **المجاز فى الفن الإسلامى**، فحدثته عن **المئذنة**، وكيف أنها تنتصب فى شموخ تعلو كل ما حولها مُعَبِرَةً عن التوحيد. أما **الشرفات الثلاث المتتالية** فيراها البعض كأنها تشير إلى مستويات: الإسلام والإيمان والإحسان، ويرى آخرون أنها تشير إلى مقامات اليقين الثلاثة؛ علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. وفى قمة المأذنة هناك **الهلال** المنفتح على السماء كذراعين ممدودتين بالدعاء، وإذا كان الهلال هو نصف دائرة يشير إلى عالم الشهادة فإن باقى الدائرة (الغائب) يشير إلى عالم الغيب، وبذلك تكتمل دائرة الوجود.

أطرق راما قليلًا ثم قال لى: اعتدت فى طفولتى أن أرى المآذن فى الهند، لكنى لم أفهم منها ما طرحت على الآن، لذلك سأضم الفن الإسلامى إلى الفنين الهندوسى والمصرى القديم باعتبار أكثر الفنون اشتمالًا على المجاز.

أما أنت قارئى الكريم، فتأمل معى **تمثال** «**نهضة مصر**» للعبقرى المصرى سليل المصريين القدماء«**محمود مختار**»، فقد طَوَّعَ خامة الجرانيت ليُخرِج لنا هذا الإبداع الذى يتكون من كتلة واحدة من عنصرين؛ الفلاحة المصرية التى ترمز إلى أُمنا مصر، وأبى الهول منتصبًا على ساقيه الأماميتين مشيرًا إلى نهوض مصر الحديثة من غفوتها. وما أحوجنا لأن نستحضر معانى هذا الرمز بعد **ثورة الخامس والعشرين من يناير**.

تأمل كذلك **كلمة «أنا» فى عنوان الكتاب على غلافه الأمامى**، ولاحظ كيف أن حروف الكلمة تتقارب وتتباعد ويحتضن بعضُها بعضًا، مشيرة إلى امتزاج عناصر «أنا» الخمسة (الجسد ـ العقل ـ القلب ـ النفس ـ الروح). ولاحظ أن نقطة النون تمثل مركزًا تحيط به باقى دوائر الذات

الإنسانية التى تقع فى قلب دائرة الوجود المتمثلة فى قرص الشمس، والتى تشع النور والدفء على كل ما حولها. ولاحظ امتداد حرفى الهمزة والألف لأعلى، خارج دائرة وجودنا المادى المحدود، وكأنها الجزء المفارق لعالم الشهادة والمُتَطَلِّع إلى العوالم الغيبية. كما يرمز حرف النون إلى وعاء الجسد الذى ينبثق منه عنصرنا الغيبى المتمثل فى حرفى الهمزة والألف.

ومن تأملاتنا هذه، يردنى راماشاندران إلى البيولوجيا، ليضع بصمته الأخيرة على قانون المجاز الذى يخضع له الجمال والفن؛ فيقول، **عادة يستشعر النصف الأيمن من المخ (النصف الفنان) جمال المجاز، قبل أن يفهم النصف الأيسر (النصف العالِم) تفسيره**. ونستشعر ذلك بشكل أوضح فى الموسيقى؛ فالمعزوفة الموسيقية تُحدث تأثيرها فى النفس قبل أن نقوم بتحليلها وإدراك ما فيها من معانٍ.

ثم استأنف راما عرضه لقوانين تذوق الجمال والفن، وقال:

- ثم يأتى «**قانون كراهية التصادف Abhorrence Of Coincidences**». تَصَّور فنانًا يرسم مكانًا فيه أشخاص ذوو قامات متساوية وتفصل بينهم مسافات واحدة، من الوارد من قبيل المصادفة النادرة حدوث ذلك فى الواقع، لكن نفسَ المُشاهد لن ترتاح لهذا المنظر، بل ترتاح أكثر لأفراد مختلفى الطول، وعلى مسافات متفاوتة من بعضهم البعض. **إن أمخاخنا تسعد أكثر بما هو شائع، وتُعافِى الاحتمالات القليلة التى لا تتواجد إلا بالمصادفة.**

- لذلك يُعتبر «**قانون الانتظام والتوقع Orderliness**» أحد القوانين الهامة للفن وإدراك الجمال. فلا شك أن مَيْل برواز الصورة ينتقص من استمتاعنا بها، وكذلك درج المكتب غير المغلق جيدًا، أو بعض الخيوط البيضاء أو قشر الشعر على كتف البدلة السوداء. إن هذا كله خروج على ما اعتدنا عليه ونتوقعه فى مثل هذه المواقف، إلا إذا كان ذلك مقصودًا لمعنى خاص. وبينما يضرب راما هذه الأمثلة، خطرت ببالى أمثلة أخرى؛ فلا شك أن خالًا (حَسَنَة) يقع أسفل الشفة إلى اليسار يكون أجمل من خالٍ يُرسَم أسفل منتصفها تمامًا. كذلك عند النظر إلى سجادة شيرازى، نتوقع وحدات متكررة تزيد السجادة جمالًا، بينما يكون وجود زهرتين أطول من باقى الزهور متساوية الارتفاع فى مزهرية أكثر جمالًا.

أفقت على تعليق راما النهائى بشأن هذا القانون، قال، **إن الفن يكمن (مع مسايرة التوقع) فى التوازن بين الانتظام المطلق المزعج وبين الفوضى المطلقة**، فهل يتبع هذا التوازن علاقات رياضية؟ وما هى؟ ولماذا؟

يتحدث الفنانون والمتخصصـون فى الرياضيات عما يُعرف بـ «**النسبة الذهبية Golden Ratio**» ويقدرونها بـ ٠١, ٦١٨ والمقصود منها العلاقة الرياضية بين موجود جزئى بالنسبة إلى الموجود الكُلى، فمثلًا علاقة طول الأنف بالنسبة لطول الوجه، أو مساحة مربع صغير داخل مربع كبير، ويعتبرون أن توافر هذه النسبة الذهبية يعطى العلاقة بين الجزئى والكلى بُعدًا جماليًّا. لكن لا شك أننا ما زلنا بعيدين عن التوصل إلى الأسس الرياضية التى تحكم الجمال[1].

● أوحى إلَىّ قانون الانتظام والتوقع بعلاقة بين الأشياء توقعت أن يكون لها دور فى تذوق الجمال، ألا وهى «علاقة التماثل». فدائمًا يعجبنى منظر المئذنتين على جانبى بعض أبواب الحرم الشريف فى مكة، كما يعجبنى تماثل جانبى المحراب فى المساجد. نقلت لراماشاندران شعورى هذا، فأيدنى قائلًا؛ نعم، إن «**قانون التماثل Symmetry**» يُعتبر أحد قوانين تذوق الجمال، فعيناك ترتاحان لتماثل فانوسَىّ السيارة، وكذلك لكرسيين موضوعين على جانبى منضدة فى أحد أركان غرفة الاستقبال فى البيت. والأرجح أن الارتياح للتماثل «**فطرى**» فى أمخاخنا، ففى أحد الاختبارات وُجد أن الطفل المولود حديثًا يركز بصره على بقع الحبر المتماثلة، أكثر من غير المتماثلة. وكذلك نعتبر أن التماثل فى بنية وخطوات الإنسان والحيوانات أثناء السير دليل على الصحة الجيدة.

● ثم أضاف راما، أما عاشر وآخر ماتوصلت له من قوانين الجمال والفن فهو «**قانون الصدى البصرى Visual Resonance (Echo)**». **فأحيانًا يعطى الشكل العام للشىء إيحاء بمعناه**، فتجد المصممين يكتبون كلمة «مائل» بحروف مائلة، ويكتبون كلمة «رعب» بخط متذبذب مرتعش ينقل الإحساس بارتعاشاتك الداخلية، وكذلك ما حدثتنى عنه من شكل المئذنة وارتفاعها الذى يوحى بالتوحيد.

عندها خطر ببالى أننى فى صباى عندما كتب مُدَرسى على السبورة ذات مرة كلمة «**فجأة**» قلت له: إن شكل حرف الهمزة المرتفع يوحى بالمفاجأة، كذلك فإن حروف الكلمة منضغطة إلى بعضها فصارت تشبه طلقة الرصاص، مما يزيد من شعورى بالمفاجأة؛ لا أدرى لماذا شعر المدرس بالمفاجأة من كلمات ذلك الصبى!

(١) **النسبة الذهبية**: إذا افترضنا أن خطًا مستقيمًا ينقسم إلى جزء كبير (أ) وجزء صغير (ب)، فإن العلاقة بينهما تصبح نسبة ذهبية إذا توافر فيها:

$$\frac{\text{أ} + \text{ب}}{\text{أ}} = \frac{\text{أ}}{\text{ب}} = ١,٦١٨$$

ب أ

ثم أضاف راما، ولا شك أنه كلما **اجتمع فى العمل الفنى قدرٌ أكبر من هذه القوانين العشر كلما زاد استمتاعنا به وقدرتنا على تذوقه**. إن ذلك يشبه الطبخة التى يستعمل فيها الطباخ العديد من العناصر، حتى يتذوق فيها آكلها العديدَ من الطعوم.

بيولوجيا تذوق الفن والجمال

ولم يفت راما قبل الانتهاء من مناقشة سمة التذوق الجمالى والفنى المميِزة لى كذات إنسانية، أن يطلعنى على بعض أسرارها البيولوجية، فقال: إن **المخ يستخدم نفس المناطق المخية تقريبًا فى إبداع الفن وعند تذوقه**. وهناك قدر من **التخصص فى مناطق المخ يتناسب مع نوع الفن**، فالفنون التى تتعامل مع الوجوه لها مركز إدراك معين [١]، والتعامل مع مناظر الطبيعة له مركز آخر [٢] ولتلك التى تستعمل الكثير من المجاز مركز ثالث[٣].

وتستخدم الفنون البصرية الجزء الداخلى من الفص الأمامى من المخ[٤]، ويحدث بين هذا الجزء وبين المنطقة المسئولة عن الذاكرة البصرية[٥] تبادل للمعلومات جيئة وذهابًا، مما يَرْقَى تدريجيًّا بتذوق المدرَكات البصرية، ويتراكم الإحساس بالجمال حتى يصل إلى **ذروة تجتاح مركز الإثابة** [٦]، فيستشعر الإنسان كمالَ الرضا والانتشاء.

الجمال والحسن بن الهيثم

انتهت إجابة راماشاندران عن تساؤلاتى حول سمة التذوق الجمالى والفنى كسمة مميِزة لذاتى الإنسانية. ثم حدث أن جلست مع ابنى ـ الذى التحق بكلية الطب العام الماضى ـ أُحَدِثَه عن القوانين العشر التى توصل إليها راما لتحكـم هـذا الأمـر. **علق ابنى قائلًا**: إننى أقرأ الآن فى كتاب Lost History [٧]، تأليف Michael Hamilton Morgan، والكتاب يتحدث عن الإنجازات العلمية والفنية والسياسية للحضارة الإسلامية، والتى أَثَّرَت فى حضارات الشرق

---

(١) التلفيف المغزلى Fusiform Gyrus

(٢) الفصيص الجدارى الأسفل الأيمن RT Inferoparietal Lobule

(٣) التلافيف الزاوية اليمنى واليسرى RT & Lt angular Gyri

(٤) Ventero - Medial Cortex

(٥) تقع فى الفص الصدغى.

(٦) Septal Nuclei & Nucleus Accunbens

(٧) صدر الكتاب عام ٢٠٠٧، وقدم له الملك عبد الله ملك الأردن، والناشر ناشيونال جيوجرافيك.

والغرب، خاصة الحضارة الغربية الحديثة. وأضاف أحمد قائلًا؛ هناك فقرة طويلة أوردها المؤلف نقلًا عن عالم الفيزياء العبقرى المسلم «الحسن بن الهيثم»[1] توضح كيف يدرِك الإبصارُ الجمالَ.

أحضر ابنى الكتاب، وأشار فى فقرة فى صفحة ١٠٥، وقرأتها، فاعترتنى الدهشة، فالحسن ابن الهيثم حدد مقاييس موضوعية لتذوق الجمال قبل راماشاندران بألف عام. وقررت أن أترجم لك الفقرة التى بين يديك الآن:

«يدرك النظر الجمال من خلال كل صفة من صفات الإبصار، بل «إن كل صفة تُشعر بنوع مختلف من الجمال»، ويؤدى «امتزاج هذه الصفات» إلى استشعار أنواع أخرى من الجمال أكثر تركيبًا:

«فموضع الأشياء» يضفى عليها جمالًا، كما أن «ترتيبها» يضفى عليها جمالًا آخر. ومثال ذلك حروف الكتابة التى يبزغ جمالها من موضعها وترتيبها، فصارت بذلك فنًا من الفنون.

كذلك فإن «انفصال الأشياء» يعطيها جمالًا، لذلك فالنجوم المتناثرة تبدو أكثر جمالًا من نجوم مجرة درب التبانة المتزاحمة، لذلك أيضًا فإن البراعم والأزهار المنتشرة فى المروج تكون أكثر جمالًا من تلك المجتمعة فى باقات.

وفى الوقت نفسه فإن «الاستمرارية» تعطى جمالًا، لذلك فالمروج الخضراء الممتدة أمام البصر (وكذلك مياه البحر) أجمل من تلك التى تقطعها المنازل والطرقات. وفى الوقت نفسه فإن «امتداد اللون الأخضر» لتلك المروج أجمل من المناطق التى تتباين ألوانها».

انتهى كلام ابن الهيثم الذى كتبه منذ ألف عام.

١٤ - أنا... صاحبة العصبونات البانية للحضارة

كانت النظرة التقليدية لوظائف المخ تقتصر على أننى عندما أرى شخصًا يمارس عملًا ما (كأن يلعب الكرة مثلًا)، يتنشط مركز الإبصار الواقع فى قشرة الفص الخلفى من مخى، وفقط. وحديثًا، ظهر باستخدام تقنيات تصوير المخ أن رؤية حركة ما تُنَشط فى مخ الرائى (أيضًا) المراكز العصبية المسئولة عن القيام بهذه الحركة، وأطلق العلماء على هذه المراكز اسم «عصبونات المحاكاة». إذًا يمكن تعريف عصوبات المحاكاة بأنها الخلايا العصبية التى

(١) الحسن بن الهيثم: من أعظم العلماء قاطبة فى علم البصريات، وكانت أعماله هى الأساس الذى بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم فى هذا الميدان، سواء فى اكتشاف المجهر والتليسكوب أو فى فسيولوجيا الإبصار.

تنشط عندما يمارس الكائن عملًا ما، وأيضًا عندما يرى هذا العمل يُمارَس أمامه، أى أنها **تحاكى العمل الذى يُمارَس أمامها**[١].

وتقع هذه العصبونات فى **المراكز الحركية والحسية**، ويبدأ نشاطها فى الإنسان بعد انقضاء العام الأول من الولادة، وهى **أكثر نشاطًا فى الإناث عن الذكور.** وقد أعاننا التعرف على هذه الخلايا العصبية المتميزة على **فهم الكثير من الوظائف المخية**؛ مثل تَعَلُّم المهارات الحركية واللغة، والوعى بالذات، ونشأة الإرادة الإنسانية، وإدراك كيف يفكر الآخرون، وكذلك التعاطف معهم[٢].

فعلى سبيل المثال، **لقد اختلف فهمنا لآليات التعلم عن ذى قبل.** فإن مشاهدتى لك وأنت تمارس لعبة تنس الطاولة، مثلًا، ليست مجرد رؤية وفقط، لكنها تنشط العصبونات المسئولة عن ممارسة اللعبة فى مخى، ومن ثم أكتسب قدرًا من المهارة دون ممارسة اللعبة، فإذا شرعتُ فى ممارستها، أديتها كأنى قد تلقيت تدريبًا عليها من قبل.

هل فكرت يومًا **كيف تَعَلَّم ابنك نفس طريقتك فى الكلام، والإشارة بيديك، والإيماء برأسك؟** لا شك أنك لم تتعمد تعليمه ذلك، كذلك فهو لا يتعمد تقليدك كما يعتقد البعض، لكنه **تقليد لا إرادى.** لقد تَعَلَّمَت عصبونات المحاكاة فى مخه جميع حركاتك من مجرد مشاهدتك؛ فصارت تعطى الأوامر لممارسة نفس الأفعال بنفس الطريقة.

كما تفسر **عصبونات المحاكاة ما يستشعره المرء من لذة** إذا شاهد فيلمًا جنسيًّا مثيرًا، فهى ليست مجرد رؤية، لكنها تنشيط لمراكز ممارسة الجنس فى المخ.

كذلك يُفسر مفهوم **عصبونات المحاكاة** ما نستشعره من **تعاطف عند رؤية شخص فى محنة.** فإذا كانت محنته تنشط بعضًا من المراكز فى مخه، فإنها تنشط أيضًا نفس المراكز فى مخ من يشاهده. ومثال **ذلك ما يستشعره البعض من وخز بالإبرة فى أذرعتهم إذا شاهدوا** مريضًا تُجرى له خياطه لجُرح فى ذراعه!. وكذلك عندما نرى رجلًا يُضرَب على عينه فإننا نبادر بوضع أيدينا على عيننا.

إن تأمل مفهوم **عصبونات المحاكاة**، يطرح على بال المرء خاطرًا مثيرًا. إن هذه الخلايا العصبية **تجعل البشر جميعًا كأنهم شخص واحد**؛ يتعلمون «فعليًّا» من بعضهم البعض،

(١) يُعتبر اكتشاف «عصبونات المحاكاة Mirror Neurons» أهم الاكتشافات الحديثة فى مجال علوم المخ والأعصاب، وقد وصفها لأول مرة عام ١٩٩٢ فريق الباحثين بجامعة بارما Parma بإيطاليا، بقيادة العالم Vittorio Gallese.
(٢) توجد عصبونات المحاكاة، بالإضافة إلى الإنسان، فى باقى الرئيسيات وفى الطيور وبعض الحيوانات الأخرى.

ويجعل ما اكتسبه الفرد من خبرة كأنه خبرة «حقيقية» للآخرين، كما يجعلنا نستشعر «فعليًا» ما يشعر به الآخرون من سعادة أو معاناة.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[١].

التحكم فى عصبونات المحاكاة

وبينما أنا أُحَدِّث بعضًا من تلاميذى عن عصبونات المحاكاة ودورها فى حياتنا، طَرَحَت إحدى تلميذاتى سؤالًا ذكيًّا ينم عن الفهم واستيعاب ما قلت؛ قالت: إذا كانت مراكز الحركة والإحساس فى أمخاخنا تتنشط، فلماذا لا نحاكى كل حركة نراها ولماذا لا نشعر بما يشعر به كل من نشاهدهم من آلام ولمسات؟ وقتها لم تكن عندى إجابة عن سؤال تلميذتى النابهة، فاعتذرت لها، ووعدتها بالبحث عن الإجابة.

حملت السؤال إلى أهل الذِكر؛ فأجابنى راماشاندران قائلًا: بالنسبة **لعصبونات محاكاة الحركة**، هناك دوائر عصبية تنقل إليها من الفص الجبهى **إشارات «كابحة»** تمنعها من محاكاة ما تشاهد من حركات.[٢]. أما بالنسبة **لأحاسيس الألم واللمس**، والتى يمكن أن نستشعرها نتيجة لتنشيط عصبونات محاكاة الإحساس، فإننا **لا نحس بمعظمها نتيجة لخروج إشارات «نافية» من الجلد** تخبر مراكزنا المخية العليا أن ليس هناك مُنبهًا (ألم ـ لمس) وصل إليها[٣].

سرحت مفكرًا فيما يقول راما.. هل معنى ذلك أن جلودنا هى المسئولة عن شعورنا باستقلاليتنا، وأنه لولا الإشارات النافية الصادرة من جلودنا لشعرنا بكل ما يشعر به الآخرون أى صرنا كأننا جسد واحد!! يا الله.

أفقت من تأملى العميق على قول راماشاندران (وكأنه قد قرأ أفكارى)؛ إذًا يمكننا القول إننا **نحيا فى تفاعل دائم مع حركات وأحاسيس الآخرين مع احتفاظنا باستقلاليتنا**، نتيجة للتنسيق بين ثلاثة عناصر: عصوبنات المحاكاة، دوائر الفص الجبهى الكابحة للحركة، والإشارات النافية للإحساس التى تُصدرها جلوُدنا.

(١) رواه النعمان بن بشير، وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٢) إذا أصاب تلف هذه الدوائر، يقوم المرء بمحاكاة كل ما يرى من حركات، وتعرف هذه الحالة بـ Echopraxia

(٣) أُجريت تجارب تم فيها وخز المتطوعين بإبر فى أصابعهم، وتم تخدير أذرع من يشاهدونهم، عند ذلك شعر المشاهدون بالوخز، إذ إن تخدير الذراع منع وصول الإشارات النافية إلى المخ.

ثم أضاف راما... **هل تعلم أن لعصبونات المحاكاة دورًا هامًا فى نشأة الحضارات الإنسانية واستمرارها حتى الآن؟** إن قيام الحضارات يعتمد على **التواصل بين الأجيال ونقل المعارف والمهارات العديدة المعقدة من الكبار إلى الصغار**، ويتم ذلك من خلال وسيطين شديدى الأهمية؛ **اللغة والتقليد**. وتقوم عصبونات المحاكاة بدور رئيسى فى كلا الوسيطين، وذلك من خلال عدة آليات:

فعندما تنشط هذه العصبونات (نتيجة لنشاطات حركية أو حسية يقوم بها آخرون) فإن نشاطها ينتقل إلى المراكز العليا المسئولة عن الإدراك، عندها ندرك ما وراء نشاطات الآخرين من مقاصد ونوايا، أى أننا **نقرأ أفكار الآخرين**؛ وهذا ما يُعرف «**بنظرية العقل**»[1]، وهو جوهر عملية التواصل.

كذلك فإن تقليد حركات الآخرين الذى تعين عليه هذه العصبونات كان له الدور الأكبر فى **تعلم المهارات** من الأجيال السابقة.

وأخيرًا، **أعانت عصبونات المحاكاة على نشأة اللغة الإنسانية** من خلال القدرة على محاكاة حركات شفاة الآخرين (محاكاة النطق)، وكذلك فهم مقصد الآخر، وأيضًا نشأة المجاز فى اللغة وفى الفن.

١٥- أنا.. الذكر.. وأنا.. الأنثى[2]

كلما تأملت الأطفال الرُّضَّع فى مهدهم، ثم وهم يَحْبُون ثم يجرون، وكلما تأملت سلوك المراهقين، ثم سلوك الرجال والنساء فى بيوتهم وفى دواوين العمل، أدركت ـ دون أدنى شك ـ **أن هناك فوارق جوهرية فى أولويات وفى أسلوب تفكير وسلوك كل من الجنسين. فيا ترى، هل ترجع هذه الفوارق إلى الاختلافات البيولوجية بين الجنسين، أم إلى اختلاف أسلوب تنشئتنا لأبنائنا الذكور والإناث؟ إنها قضية «الطبيعة Nature» أم «التنشئة Nurture»؟**

لقد تَجَمَّع لدى العلماء خلال العقود القليلة الماضية من الأدلة البيولوجية والحقائق

(١) Theory Of Mind

(٢) للمؤلف كتاب حول هذا الموضع، شارك فى تأليفه خبير التنمية البشرية د. نبيل كامل، والكتاب بعنوان «المخ ذكر أم أنثى» ـ مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة الثالثة، ٢٠١٢.

العلمية مالا يترك مجالًا لادعاء **التماثل** بين مخ / عقل كل من الرجال والنساء، ذلك التماثل الذى يدعيه بعض المطالبين **بالمساواة** بين الجنسين، فقد اختلط عليهم أن المساواة مفهوم سياسى اجتماعى، ونحن نطالب به، أما المماثلة فمفهوم علمى بيولوجى. فكما توجد فروق ظاهرية بين الذكور والإناث (فى شكل وحجم الجسم، وبنية الهيكل العظمى والأسنان، والأعضاء التناسلية والأعضاء الداخلية و...) وهى ما تُعرف «**بالفوارق الجنسية Sex**»، **فإنه توجد فروق جوهرية بين كِلا الجنسين فى بنية المخ وطريقة أدائه لوظائفه**، وتنعكس هذه الفروق على أولويات وأسلوب تفكير وسلوك كل من الجنسين، ونطلق عليها اسم «**الفوارق الجنوسية Gender**» وهذا ما أعلنته رسميًّا **الأكاديمية الأمريكية لعلوم المخ والأعصاب** عام ١٩٩٩[١].

العقل الذكورى والعقل الأنثوى

لا شك أن الغالبية العظمى من الرجال والنساء لا يدركون وجود الفوارق الجنوسية، ومن ثم يتعامل كِلا الجنسين مع بعضهما البعض كأنهما متماثلين، مما يؤدى إلى مشاكل وخلافات كبيرة بينهما. هل تعلم ـ قارئى الكريم ـ **أن نسبة الطلاق بين المتزوجين حديثًا فى مصر بلغت ٤٨٪!!**، ولا شك أن أهم الأسباب وراء ذلك هو عدم إدراك كل من الطرفين للفوارق فى أسلوب تفكير وأولويات الطرف الآخر. كما ينعكس عدم إدراك هذه الفوارق سَلْبًا على تعاملات الجنسين فى أماكن العمل والدراسة وشتى المجالات.

ألا ترى وجوب أن نشيع بيننا **ثقافة وجود الفوارق العقلية والنفسية والشعورية بين الجنسين**، وأن نتوقف عن النظر إلى الذات الإنسانية باعتبارها نسخة واحدة. لا شك **أن كلًّا من الرجال والنساء ذات مختلفة كثيرًا عن الأخرى، وكأن النساء من الزُهَرَة والرجال من المريخ**[٢]!

لم يكن من السهل التوصل إلى **عالِم «غربى» حجة** لمحاورته فى هذا الأمر. فقد خشيت إن أنا لجأت إلى متخصص من الشرق أن تشوب آراءه بعض ما يعتمل فى بلادنا من «عُرفٍ» يجور كثيرًا على المرأة. وأخيرًا وجدت ضالتى فى **الدكتور سيمون بارون كوهين** (أستاذ علم النفس والأمراض النفسية بجامعة كمبردج) (شكل ـ ٣)، فالرجل شديد الاهتمام بهذا الموضوع، وله فيه عدة مؤلفات، أهمها كتاب «الفوارق الحقيقية بين المخ الذكورى والمخ

(١) أكثر الجهات فى العالم تخصصًا فى علوم المخ والأعصاب.

(٢) إشارة إلى الكتاب المشهور Men are from Mars, women are from Venus لمؤلفه جون جراى.

الأنثوى». وما أن طرحت عليه القضية، حتىَ ابتسم وقال: خلاصة الأمر أن هناك بالفعل نوعين من الأمخاخ/ العقول، الأول خاص بالإناث، أُطلق عليه اسم **المخ/ العقل التعاطفى Empathising Brain**، والثانى خاص بالذكور وأُطلق عليه اسم **المخ/ العقل التنظيمى Systematising Brain**.

ويمكن أن نُجمل السمات المُميِّزة للمخ/ العقل الأنثوى التعاطفى فى أنه يهتم عادة بالعلاقات مع الأشخاص وبالتواصل والحميمية، وأنه يتفهم مشاعر الآخرين بشكل أفضل ويحرص عليها، إذ إنه يتميز بقدرات أعلى على قراءة الأفكار والمشاعر، لذلك فهو لا يسعى للسيادة والقيادة من خلال العنف والتنافس.



(شكل - ٣)

سيمون بارون كوهين S.B.Cohen
أستاذ الطب النفسى وعلم النفس
بجامعة كمبردج

ويُستَغرَق العقل التعاطفى فى التفاصيل المحيطة بالمواقف التى يتعامل معها، وبالتالى فإن له قدرات تنفيذية عالية (**التفكير التكتيكى**) مع قصور فى النظرة العامة المحيطة بالأمر، والتى تتغاضى عن التفاصيل (التفكير الإستراتيجى)، ويرجع ذلك إلى أن العقل التعاطفى أقل ميلًا للنشاط العقلى التحليلى والتصنيفى والإنشائى، كما أنه يضيق بالقواعد والقوانين الجامدة ويتمرد على الالتزام بها.

وأخيرًا فإن للعقل التعاطفى ردود أفعال قوية مع أسلوب ساخن فى التعبير عن المشاعر، يستغل فيه قدراته اللغوية المتميزة.

أما **المخ / العقل الذكورى التنظيمى فيتميز** بالاهتمام بالإنجاز والسيادة وبحب الرياسة، وكذلك الاهتمام بالأشياء أكثر من الأشخاص، ويُعينه على ذلك تميزه بالجرأة والمبادأة والحيوية.

ويوصف المخ / العقل التنظيمى بأنه صاحب (**تفكير إستراتيجى**)، إذ يهتم بالتركيز على الهدف الأساسى والتفاصيل المهمة، ولا يتأثر كثيرًا بالعوامل النفسية والشعورية عند إصدار أحكامه واتخاذ قراراته. ويرجع ذلك إلى تفوقه فى القدرات التحليلية والتصنيفية والإنشائية.

كذلك يتميز المخ / العقل التنظيمى فى القدرات البصرية الفراغية.

ولا شك أن **كلًّا من الرجال والنساء يتمتع ببعض السمات العقلية الممِّيزة للجنس الآخر.** فطبيعة الوجود الإنسانى تستلزم أن يتمتع الرجال بقدر من التعاطف، وأن تتمتع النساء بقدر من سمات العقل التنظيمى. ولا شك أن هذا التداخل هو سبب سوء الفهم الذى أدى إلى ادعاء التماثل العقلى بين الجنسين.

الفوارق الجنوسية فى حياتنا العملية

سألت د. كوهين، وكيف تنعكس هذه الفوارق على حياة كل من الجنسين؟

فأجابنى: **إن هذه السمات التنظيمية والتعاطفية تُفسِّر العديدَ من الفوارق العقلية والنفسية والسلوكية والعملية بين الجنسين فى مختلف المجالات**، وتتركز هذه الفوارق فى ثلاثة مجالات رئيسية: **المجال الأول هو مجال الجنس ومؤسسة الأسرة**، فنظرة كل من الرجال والإناث إلى **الجنس** تختلف إلى حد بعيد، فإذا كان الرجل يسعى إلى الممارسة الجنسية للحصول على المتعة الحسية فى المقام الأول، فإن المرأة تسعى إلى الشعور بالحميمية والمشاركة، أكثر من سعيها لتحصيل المتعة الحسية. كذلك جُبل الرجال على الرغبة فى إقامة علاقات جنسية متعددة، على عكس المرأة التى وعت منذ أزمان بعيدة أن رحمها هو مستودع الحياة، فاكتفت بالعلاقة الجنسية الأُحادية.

وتنعكس هذه الفوارق الجنسية (بالإضافة إلى الفوارق العقلية) على نظرة كل من الرجل والمرأة إلى دوره فى مؤسسة الأسرة وعلى توقعاته من رابطة الزواج.

والمجال الثانى هو مجال الأمومة والأبوة، فلا شك أن هذه الرابطة من أكثر الروابط التى تتجلى فيها الفوارق بين الجنسين. **فالأمومة غريزة فطرية** تفجرها عند الولادة التغيرات الهورمونية التى حدثت خلال الحمل، أما **الأبوة فمكتَسَبَة**. وتنعكس القدرات التعاطفية المُميِّزة للعقل الأنثوى فى أقصى درجاتها على سلوك الأم، كما يضع العقل المنطقى بصماته على السلوك الأبوى.

كذلك تُحدث الأمومة فى المخ الأنثوى تغيرات تجعل المرأة أكثر جسارة ومثابرة، وأكثر قدرة على القيام بأعمال متعددة فى وقت واحد، وتستمر هذه التغيرات بعد ذلك طوال حياة المرأة، حتى يمكننا القول بوجود ثلاثة أنماط من الأمخاخ / العقول: **المخ / العقل الذكورى، والمخ / العقل الأنثوى، ومخ / عقل الأم.**

أما المجال الثالث، فهو مجال القدرات والاهتمامات والعمل. فلا شك أن القدرات التعاطفية للإناث والقدرات التنظيمية للذكور تنعكس على ما يختاره كل من الجنسين فى دراسته وفى عمله وعند ممارسة هواياته.

فالذكور يفضلون المجالات التى تحتاج إلى قدراتهم المكانية الفراغية، كما تحتاج لتميزهم فى التفكير المجرد ونظرتهم الإستراتيجية للأمور، وتكفل لهم تحقيق الذات من خلال الإنجاز المادى والترقى فى السلم الوظيفى.

أما **الإناث** فيملن إلى المجالات التى تحقق لهن الإشباع النفسى من خلال العلاقات الإنسانية الاجتماعية، وتستغل قدراتهن اللغوية وتَميزهن فى الإحاطة بالتفاصيل.

الآليات المخية للفوارق الجنوسية

من أجل الإلمام بأطراف الموضوع، **قلت للدكتور سيمون بارون كوهين:** بعد هذه السياحة مع الفوارق العقلية والنفسية والسلوكية والعملية بين الجنسين (والتى اصطلح المتخصصون على تسميتها **بالفوارق الجنوسية Gender**، لا بد أن يثور فى الذهن سؤال حول الآليات البيولوجية وراء هذه الفوارق فقال لى:

ثبت للعلماء خلال العقدين الماضيين أن التمايز العقلى والنفسى والسلوكى والعملى بين كل من الذكور والإناث تقف وراءه **فروق مؤكدة فى بنية المخ التشريحية وفى آلية أدائه لوظائفه**، وقد أطلق العلماء على هذه الفروق اصطلاح «**الثنائية التركيبية الجنوسية ـ Sexual Dimorphism**»، ونجمل هذه الفروق فى عدة نقاط :

- اكتشف العلماء فى العقد الثامن من القرن العشرين أن **للذكاء البشرى أنواعًا متعددة تُمارَس من خلال مناطق مختلفة من القشرة المخية الجديدة.** كما ثبت **تَمَيُّز الذكور** فى بعض أنواع الذكاء (كالذكاء الفراغى البصرى والذكاء التصنيفى)، **وتميز الإناث** فى أنواع أخرى (كالذكاء اللغوى وذكاء التعامل مع الآخرين).

- ويحتوى المخ على عقلين وذاكرتين! العقل الأول هو **العقل المنطقى**، ومركزه قشرة الفص الأمامى من المخ، وهى تمثل أيضًا (بالإضافة إلى منطقة فرس البحر) مستودع ذاكرة هذا العقل. والعقل الثانى هو **العقل العاطفى / الانفعالى**، ومركزه مكونات الجهاز الحوفى خاصة اللوزة المخية، وتمثل اللوزة أيضًا مستودع الذاكرة العاطفية / الانفعالية.

وإذا كان العقلان (المنطقى والعاطفى/ الانفعالى) **يعملان فى تناغم** فيما بينهما، فقد أثبتت الاختبارات المختلفة **تَمَيُّز الذكور فى قدرات العقل المنطقى مقابل تميز النساء فى القدرات العاطفية الانفعالية.**

● كما اكتشف العلماء أن **لنصفى الدماغ وظائف مختلفة**. فالنصف الأيسر مسئول عن التفكير العقلانى: المنطق والاستنتاج والتحليل والكلام (لذلك يُطلَق عليه اسم **النصف العالِم**). أما النصف الأيمن فمرتبط بالتفكير العاطفى : الحدس والخيال والإبداع (**النصف الفنان**).وقد تبين أن **النصف الأيسر أكثر تطورًا لدى الرجال فى حين أن النصفين متعادلان لدى النساء**. كما **يمكن للمرأة أن تُشغِّل النصفين معًا فى آن واحد بقدر أكبر من الرجل**.

● واكتشف العلماء أيضًا أن **موقع بعض المهارات يختلف فى دماغ الرجل عن دماغ المرأة**. فالمهارات اللغوية، على سبيل المثال، تتمركز فى النصف الأيسر فقط من دماغ الرجل، فى حين أنها تتوزع فى نصفى دماغ المرأة. لذلك **يعمل دماغ الرجل بطريقة أكثر تخصصًا** من المرأة، فلكل وظيفة مخية مركزها المحدد فى مخ الرجل (**مفهوم أدراج المكتب المنفصلة**)، مما يُسَهل تركيز الرجل عند القيام بمهمة معينة دون تشويش من مراكز العاطفة المحيطة.

● وفى المقابل يتواصل النصفان الكرويان فى مخ المرأة **عن طريق الجسم الجاسئ بشكل أكبر من مخ الرجل**. كما أن **الإستروجين** (الهورمون الجنسى الأنثوى) ينشط الخلايا العصبية فى جميع أجزاء المخ ويدفعها إلى إقامة تواصل أفضل فيما بينها. وإذا كان ذلك يعين المرأة على استعمال ملكاتها كلها فى آن واحد، فإنه يؤدى إلى **قدر من الشوشرة والتداخل** بين الوظائف المختلفة خاصة عند اتخاذ القرارات.

● وفى عام ٢٠٠٦، توصل الدكتور ريتشارد هاير أستاذ علم النفس فى كاليفورنيا، إلى أن الرجال يستخدمون **الخلايا العصبية** فى التفكير بمعدل أكبر ستة مرات ونصف المَرَّة من النساء، بينما يعتمد التفكير عند النساء على **التواصل بين تلك الخلايا** بمعدل أكبر عشر مرات من الرجال. معنى ذلك أن التفكير فى الرجال يعتمد **على «معالجة» المعلومات**، أما فى النساء فيعتمد على **«تبادل» المعلومات**.

● كما ثبت أن **حجم ونشاط واتصالات المراكز العاطفية والانفعالية والغريزية** (تقع فى الجهاز الحوفى وبعض نُوَيَّات تحت المهاد) يختلف فى الذكور عن الإناث بطريقة تؤدى إلى التباين الواضح بين كل من الجنسين فى السلوك العاطفى الانفعالى والسلوك الغريزى.

• وأخيرًا ـ وليس بآخر ـ فإن النشاط الكهربائى لمخ الرجل ينخفض أثناء الراحة بمقدار ٧٠٪، بينما تكون النسبة ١٠٪ فقط فى مخ المرأة، مما يعنى أن مخ المرأة ـ حتى فى أوقات الراحة ـ مشغول دائمًا وبصورة آلية فى مراجعة ما مر به من مواقف، ولا شك أن هذه المراجعة تكون ذات توجهات عاطفية وانفعالية.

وأضاف د. كوهين، **لقد صارت هذه المفاهيم بمثابة أساسيات وحقائق علمية راسخة فى** علوم المخ والأعصاب، حتى إن الكثير من المراجع الأساسية لهذه العلوم (**Text Books of Neuroscience**) أصبحت **تُفرِد من بين فصولها فصلًا عن الفوارق بين مخ الذكور ومخ** الإناث.

الآليات البيولوجية لتجنيس المخ

كانت تلك الإجابة التى قدمها لى د. كوهين بمثابة الوجبة العلمية الدسمة التى استفدت منها كثيرًا، لكن بقيت جزئية أساسية حتى تكتمل فائدتها، فسألته: **وكيف تتشكل آليات التمايز** الجنوسى؟.

أجابنى د. كوهين قائلًا: تقوم «الهورمونات الجنسية» بدور محورى فى **عملية تجنيس مخ** الجنين **فى رحم الأم وأثناء مرحلة الطفولة المبكرة.** فهورمونات الذكورة تُشكل المخ على النمط الذكورى، وتستمر هذه المهمة من الأسبوع الرابع إلى الأسبوع الثامن عشر من الحمل. بينما يؤدى غياب هذه الهورمونات ووجود الهورمونات الأنثوية فى الأنثى إلى أن يستمر تَشَكُّل المخ على نمطه الابتدائى (وهو النمط الأنثوى).

وإذا كانت «**الكروموسومات الجنسية**» هى التى توجه تكوين المناسل (المبيضين فى الجنين الأنثى والخصيتين فى الجنين الذكر)، فإن لهذه الكروموسومات دورًا مباشرًا فى تجنيس المخ، يبدأ قبل تَشَكُّل المناسل التى تفرز الهورمونات الجنسية.

كذلك لاشك أن «**لعوامل التنشئة**» دورًا مهمًّا فى صقل السلوك الجنوسى. ويمكن توضيح **التكامل بين العوامل الخِلقية البيولوجية وعوامل التنشئة** من خلال هذا التساؤل المُعَبِّر: أيهما أكثر انعكاسًا على مساحة سطح ما، طول السطح أم عرضه (البيولوجيا أم التنشئة)؟ لاشك أن كليهما يؤثر بشكل مباشر فى مساحة السطح.

وينبغى أن نؤكد فى هذا المقام أن وجود «**خلفية بيولوجية**» **للسلوك الإنسانى لا** «**يفرض**» **سلوكًا إنسانيًّا معينًا**. لذلك لا ينبغى أن يُتَّخَذ من وجود الخلفية البيولوجية لسلوك ما تكأةً لالتماس العذر للقتلة والمغتصبين أو مبررًا للشذوذ الجنسى. كذلك فإن إرجاع الفوارق الجنوسية العقلية والنفسية والسلوكية بين الذكور والإناث بشكل كامل إلى التنشئة والعوامل الاجتماعية ـ كما ترى **نظرية التنشئة ـ مرفوض جملة وتفصيلًا**. ومن ثَمَّ **فإن القول** «**بالحتمية التربوية**» **مرفوض تمامًا مثل القول** «**بالحتمية البيولوجية**». **إن الصواب هو أن الخلفية البيولوجية تُمِدُّ الإنسان** «**بنمط**» **سلوكى معين، ثم تأتى التنشئة لتقوم بتوجيه هذا النمط السلوكى، وقد تنجح فى ذلك وقد لا تنجح**. فمثلًا، يمكن أن يرث الإنسان عن والديه (جينيًّا = بيولوجيًّا) سلوكًا عدوانيًّا، ثم يأتى دور التنشئة لتوجه السلوك العدوانى لهذا الشخص، فتُـرَبيه ليصبح جراحًا! أو زعيمًا لعصابة[1]!.

١٦ـ أنا ... ذاتٌ متسامية[2]

كنت أشعر منذ صباى برغبة جارفة فى **البحث عن أجوبة لتساؤلات مُلِحَّة** تعتمل داخلى حول الوجود، والحياة والموت، وحول الديانات وحول الإله. ولم تكن نفسى تقبل حلولًا لتلك المعضلات لا تُشْبع تطلعاتى المعرفية (الإجابة عن التساؤلات) وطموحاتى الشعورية (الشعور بالطمأنينة).

كذلك كان يصدمنى **تمسك الماديين بأن الديانات ابتداع إنسانى**، من أجل تحقيق فوائد مادية ومعرفية وشعورية! ومن ثم يعتبرون ما نستشعره من طمأنينة نفسية، وشعور بالتسامى وبالمشاعر الروحية، أوهامًا نفسية أو هلاوس مسئول عنها نشاط غير سَوِى لبعض مراكزنا المخية.

وإذا كان **الماديون يعتبرون الدين ابتكارًا إنسانيًّا وظاهرة تبريرية**، فدائمًا ما أتساءل: **ما هو** «**التحدى التطورى**» **الذى واجه الإنسان حتى يكسبه آليات عصبية بيولوجية تشعره بعالم علوى غيبى غير حقيقى، يتضاءل فيه الشعور بالذات**، مما يتعارض تمامًا مع هدف التطور الأساسى، وهو المحافظة على الذات، مما يعنى انعدام «**الفائدة التطورية**».

---

(١) نعرض فى الفصل الثانى بمزيد من التفصيل مبررات رفض «الحتمية البيولوجية» و«الحتمية التربوية».

(٢) للمزيد حول هذا الموضوع ارجع إلى كتاب «ثم صار المخ عقلًا» للمؤلف. مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٢. الباب الثانى بعنوان «نحن أرواح متجسدة».

كذلك أتساءل؛ إذا كان الدين أكبر الكوارث التى مُنِىَ بها الإنسان (كما يدعى الماديون أمثال ريتشارد دوكنز)، **فلِمَ لم تَقم آليات الانتخاب الطبيعى بالتخلص منه مبكرًا؟!**

الوجود المادى والوجود الغيبى

بحثت عن متخصص يجمع بين الاهتمامات الروحية والاهتمام بالبحث العلمى، خاصة فى علوم المخ والأعصاب، ليساعدنى على الإجابة عن هذه التساؤلات، فدلنى العالِمون على الدكتور **آندرو نيوبرج Andrew Newberg** (شكل ـ ٤) (أستاذ الأشعة التشخيصية ورئيس مركز الأبحاث الروحية بجامعة بنسلڤانيا وأحد مؤسسى **علم البيولوجيا العصبية للتدين NeuroTheology**، والمتخصص فى دراسة الأسس العصبية البيولوجية للمشاعر الروحية)، فحملت إليه دعاوى الماديين، لأعرف آخر ما توصل إليه العلمُ فى هذا المجال.

بدأ نيوبرج حديثه بأن طرح عَلَيَّ مُلخصًا لما أسفرت عنه الأبحاث العلمية، عن دور وظائفنا المخية **فيما نشعر به من مشاعر روحية**، فقال: يهتم مركز الأبحاث الروحية ببنسلڤانيا ـ وغيره من المراكز العالمية ـ بهذه القضية. وقد أجرينا عددًا من الدراسات على العديد من العُبَّاد من مختلف الديانات، استخدمنا فيها أحدث تقنيات التصوير الإشعاعى للمخ[1]، وقد أثبتت هذه الأبحاث **أن ما يستشعره الإنسان من طمأنينة، ومن مشاعر روحية، ومن وجود غيبى علوى يستوى على عرشه إله حق، إنما هى إدراكات لوظائف مخية سوية، وليست مجرد هلاوس وتوهمات.** كذلك أثبتت الدراسات أن تقسيم ما ترصده عقولنا إلى «وجود مادى حقيقى» و«وجود غيبى غير مادى غير حقيقى» تقسيم غير علمى. فالوجود المادى ليس إلا ما ترصده أدمغتنا بآليات الإدراك فى المخ، شأنه فى ذلك شأن الوجود الغيبى تمامًا. ويبرهن على صحة هذا الوجود الغيبى ما قدمه العلم من



(شكل ـ ٤)
أندرو نيوبرج Andrew Newberg
من مؤسسى علم البيولوجيا العصبية للتدين

---
(١) FMRI - PET - SPECT Camera

أدلة (فى مجالَىّ الكونيات والبيولوجيا) تؤكد أن الوجود الإلهى وجود حق، ويتماشى ذلك مع ما يستشعره الإنسان عن طريق آليات التسامى الروحى.

شعورنا بالتسامى

وحتى أُمسك الخيط من بدايته، **سألت نيوبرج**، هَلَّا بينت لى كيف يقوم المخ بإشعارنا بمشاعر التسامى الروحى، وبوجود عوالم علوية غيبية؟

أجابنى نيوبرج؛ بدايةً، ينبغى أن نؤكد أن للعقل الإنسانى رغبة فطرية فى تجسيد الأفكار والمشاعر، رغبة تقف وراءها مراكز ودوائر عصبية. فنحن نرى الموسيقيين، مثلًا، يحركون أصابعهم باللحن الذى يتخيلونه، كما نتمايل نحن عند الاستماع إلى قطعة موسيقيةٌ تطربنا. من هنا جاءت **رغبة المخ/ العقل فى تجسيد المعتقدات الدينية على هيئة طقوس**، خاصة المفاهيم المهمة للإنسان؛ كالموت والبعث وعوالم الغيب.

وعادة ما تكون **الطقوس الدينية مصحوبة بشحنات انفعالية**، نتيجة **لتأثير الإيقاع الحركى والصوتى للطقوس على الجهاز الحوفى والجهاز العصبى اللاإرادى والقشرة المخية**[1]. ويشارك فى هذا التنشيط ـ مع الإيقاع ـ **طقوس أخرى**، كالركوع والسجود وحركات اليدين فى الصلاة، وكهيبة المكان والصوم والتنفس المنتظم أثناء الذكر، ورائحة البخور، وغيرها، وكلها عوامل تُشعر الإنسان **بأن ما يفعله أمر مختلف عن نشاطاته المعتادة**. ويؤدى ذلك **إلى الشعور بالرهبة التى يمازجها السكون، والشعور بالورع والنشوة الدينية.**

أما دور **القشرة المخية** فى هذا السيناريو فهو حيوى للغاية؛ إذ يمتزج ما فيها من أفكار ومعتقدات **مع الانفعالات السابقة**. من هنا **يمكن النظر إلى الطقوس باعتبارها أداة تحويل المعتقدات إلى تجربة شعورية**، سواء كانت هذه المعتقدات دينية أو غير دينية؛ كالإخلاص للحزب أو لفريق كرة القدم.

آليات التسامى

قلت للدكتور أندرو نيوبرج، إن ما وصفت من مشاعر تصاحب الطقوس الدينية يكون مصحوبًا عادة **بتضاؤل الشعور بالذات**، وقد يتزايد هذا التضاؤل حتى يصل المرء إلى ما يسميه

(١) الجهاز الحوفى limbic system هو المسئول من نشاطاتنا الانفعالية، والجهاز العصبى اللاإرادى ANS هو المسئول عن وظائفنا اللاإرادية، والقشرة المخية مسئولة عن نشاطاتنا العقلية وأفكارنا ومعتقداتنا.

العُبّاد والصوفية بـ«الفناء»، وقد يصحب ذلك **مكاشفات لعوالم غيبية، وشعور بالتوحد مع تلك العوالم**، وأحيانًا مع الإله المستوىِ على عرشها، وهذا ما يسمونه تارة **وحدة شهود، وتارة وحدة وجود، هل لهذه المشاعر آليات بيولوجية عصبية؟**

أجاب نيوبرج؛ توجد فى قشرة مخ الإنسان عدة **مناطق تربيط** Association areas، تقوم بربط المعلومات الحسية والشعورية التى تَرِد إليها مع ما فى ذاكرتنا من مفاهيم، وذلك لتشكيل نظرتنا وفهمنا للعالم من حولنا، تمهيدًا لتوجيه استجاباتنا الانفعالية والمعرفية والسلوكية تجاهه.

وتُعتبر منطقة تربيط التشكيل Orientation Association area = OAA فى الجزء الخلفى من الفص الجدارى أهم المناطق التى لها دور فى المشاعر الروحية. وتوجد هذه المنطقة فى كلٍ من نصفى المخ، وهما **مختلفتان فى الوظيفة لكنهما متكاملتان؛ فالمنطقة اليسرى** مسئولة عن تحديد وإدراك صورة ثلاثية الأبعاد **لجسدنا المادى، واليمنى** مسئولة عن تحديد موضع جسمنا وعلاقته **بالوجود المحيط**. وبالتالى فالمنطقتان **تحولان المعلومات الحسية الخام إلى صورة حية لأجسامنا (الذات) وللوجود من حولنا (المحيط)**[1].

وإذا كان شعورنا بـ«الذات» و«الوجود» إنجاز مخى، تقوم به منطقة تربيط التشكيل، فإن ذلك لا يعنى أن ليس للذات والوجود من حولها وجود حقيقى، بل معنى ذلك أن هذه المنطقة تستقبل صورة الواقع وتجعلنا نستشعره، وأنها لا تُشَكِّل الذات والوجود من عدم.

وفى جميع الديانات، تتخذ طقوس التأمل عـددًا من الأشكال[2]**، تهدف جميعها إلى تسكين العقل الواعى وتَسْكين الحـواس، فتقل المُدْخَلات المُنَشِّطة إلى منطقة تربيط التشكيل** OAA

(١) قد تندهش من أننا نحتاج لإنجاز مثل هذه المهمة البسيطة البديهية (التفريق بين أنا والمحيط) إلى كل هذه الآليات المعقدة. نعم هى مهمة بسيطة **لأن منطقة تربيط التشكيل تقوم بدورها بدقة وكفاءة متناهية**. والدليل على ذلك أن الأشخاص الذين يعانون تلفًا من هذه المنطقة يجدون صعوبة كبيرة فى التنقل فى الوسط المحيط. فعندما يصلون إلى أَسِرَّتهم مثلًا، يعجز المخ عن حساب الزوايا والمسافات، وبالتالى لا يستطيعون تحديد موضع أجسادهم وموضع الفراش، ومن ثم قد يسقطون على الأرض بدلًا من أن يستَلْقون على الفراش. إن استقبال ومعالجة هذه المعلومات يتم بسرعة وكفاءة تعجز الدوائر الإلكترونية لدستة من الكمبيوترات فائقة السرعة عن القيام بها!

(٢) تعتمـد بعض الطقوس عـلى استبعاد جميع الأفكار وإلغـاء التركيز عـلى أى شىء (ويسـمى ذلك **بالأسلـوب السلبى** Passive approach)، ويعتمد البعض الآخر على التركيز الشديد على هدف محدد، كالكعبة أو شمعة متقدة أو وردة، أو على تأمل بعض النصوص المقدسة أثناء الصلاة (ويسمى ذلك **بالأسلوب النشط** active ap-proach)، ويستعمل البعض هذه الطرق جميعًا فى آن واحد.

ممـا يؤدى إلى هـدوء نشاطهـا، ويُعـرف ذلك بـ «**الإغلاق Deafferentiation**»، **مما يؤدى إلى فقدان التمييز بين** «**أنا**» و «**الوجود**». ومع استمرار طقوس التأمل تنشط آليات الإغلاق بشكل أكبر، حتى **يتلاشى الإحساس بالذات وبالوجود من حولنا، وقد يتم الشعور بالممازجة مع حقيقة غيبية أكبر من الوجود المادى**، وهو ما يُعرف بـ«**وحدة الشهود/ الوجود**».

وأضاف نيوبرج؛ إن ما شرحناه هنا من آليات الإغلاق التى تؤدى إلى التسامى **ليست قاصرة فقط على التجارب الصوفية العميقة**، بل أنت شخصيًّا (وإن لم تكن صوفيًّا) تستفيد منها كثيرًا **فى حياتك اليومية**.

فعلى سبيل المثال؛ إذا كنت عائدًا إلى بيتك بعد أسبوع عمل مجهد بدنيًّا وذهنيًّا ونفسيًّا، وقررت أن **تأخذ حمامًا بطريقة متميزة ـ تحقق لك الاسترخاء**، فأطفأت الأنوار وأوقدت الشموع وأدرت أسطوانة تحمل موسيقى إيقاعية حالمة، ثم غمرت نفسك فى حوض الاستحمام المملوء بماء دافئ مُعَطَّر، فأنت بذلك **تقوم بسلسلة من الطقوس** التى تُنَشِّط آلية الإغلاق لمنطقة تربيط التشكيل، **فتبدأ بالإحساس بحالة من الصفاء الممتع**. ومع استمرار الموسيقى الإيقاعية يزداد الإغلاق فيزداد الصفاء وتبدأ فى **التوحد مع الموسيقى**.

إن نفس التأثيرات يمكن أن نحصل عليها من **أى إيقاع رتيب يصاحب التركيز على شىء نقوم به**، كقراءة الشعر، وهدهدة الطفل، والصلاة. كذلك فإن **الإيقاعات المنتظمة السريعة**؛ كالجرى لمسافات طويلة وممارسة الجنس والهتاف مع آلاف الأشخاص فى مبارة لكرة القدم مثلًا، يمكن أن تؤدى إلى تنشيط عملية الإغلاق والشعور بالتوحد مع الآخرين.

لذلك يمكن القول **بأن بنية المخ البشرى مجهزة تمامًا للتعامل مع بنية الدين**، ويظهر ذلك فى عدة مستويات، تبدأ بالقدرة على **الفهم العقلى للوحى السماوى**، ثم وجود **الشوق الفطرى إلى مفاهيم الألوهية والدين، والرغبة الفطرية فى تجسيد المفاهيم العقلية، ثم القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادى مع استحضار مشاعر التسامى**.

وأنهى نيوبرج طرحه بتساؤل؛ **كيف تم إعداد المخ بهذه الهيئة ليكون ملائمًا تمامًا لبنية الديانات، أو كيف تم صياغة الديانات لتكون ملائمة تمامًا لبنية المخ البشرى**؟

ليس لدى الدراونة الماديين إجابة عن هذين التساؤلين.

الارتقاء بالتسامى

ثم سألت أندرو نيوبرج سؤالى الأخير حول «التسامى» كسمة مميزة لذاتى الإنسانية؛ **هل يمكن تدريب المخ ليُحَسِّن من أدائه فى الجوانب الروحية؟**

أجابنى نيوبرج: لقد تَبَدّلَت النظرة السابقة التى كانت تعتبر المخ تكوينًا ثابتًا غير قابل للتغيير، كما تبدل المفهوم الذى روج له الفرويديون من أن العقل اللاواعى هو القائد الذى يوجه الإنسان. إن النظرة العلمية الآن ترى **أن المخ تكوين ديناميكى يمكن بالتدريب تعديله بيولوجيًّا لإعادة صياغة اللاوعى وللتحكم فى اللاشعور.**

لذلك وضع المتخصصون **عددًا من التدريبات والوسائل** التى تُعين على **تحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية**. وبعد تحقيق ذلك يمكن للمرء اللجوء إلى «**التأمل**» **الذى يحقق للإنسان السكينة والسمو الروحى**. وتمثل **مجاهدة النفس** عاملًا مهمًّا فى نجاح تلك الممارسات.

وأضاف نيوبرج، وأستطيع أن أقول ـ بناء على دراساتى على عدد من العُبَّاد المسلمين ـ **أن عبادات الدين الإسلامى (من صلاة وذكر وقراءة القرآن)** تشتمل على الكثير من الآليات التى وصفها العلماء المتخصصون **لتحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية، ولتحقيق السكينة والسمو الروحى**. كذلك فإن **التوجه إلى الله ﷻ بصفته الرحمن الرحيم يؤدى إلى المزيد من السكينة والسمو**. أما العبادة التى تُـرَكز على الخوف من الله ﷻ ذى البطش الشديد، وكذلك التطرف الدينى، فيؤديان إلى تلف الكثير من الدوائر العصبية المخية، ومن ثم إلى الشقاء النفسى والأمراض العضوية والشيخوخة المبكرة.

لماذا العبادات؟

وبينما كان أندرو نيوبرج يسترسل فى هذا العرض الشيق للآليات المخية لاستشعار المشاعر الدينية والروحية، تذكرت سؤالًا سألنى إياه ابنى الأصغر عام التحق بالجامعة، قال:

لماذا تشتمل الديانات السماوية على عبادات؟ ألا يكفى أن تكون هناك **عقيدة فى الإله** نؤمن بها، ثم **نلتزم بمكارم الأخلاق وحسن معاملة الآخرين**، وكفى، مثل كثير من ديانات الشرق الأقصى؟

وقتها، أجبت ابنى بما كان فى جعبتى، وقلت له: **إن أهمية العبادات بالنسبة للديانات ترجع إلى أنها:**

أولًا: دليل على طاعة المؤمن لأوامر الله ﷻ، حتى وإن لم نعرف لها تفسيرًا. مثل عدد الركعات في كل صلاة، وأن يكون بعضها سرًّا وبعضها جهرًا. ومن ثَمَّ فهى دليل على صدق العبودية لله ﷻ.

ثانيًا: للعبادات فوائد شخصية واجتماعية هامة. فالصلاة ـ مثلًا ـ تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم ترقية للنفس وإشعار بمعاناة الفقراء، والزكاة تكافل اجتماعى....

هاتان الفائدتان من أهم مقاصد الشريعة، وكنت أعرفها منذ صباى. ولكنى استشعر الآن أن ما قلته كان قاصرًا. ولا شك أن فيما ذكره نيوبرج إضافات سوف أعرضها على ابنى، وهى:

ثالثًا: العبادات تجسيد لمعتقداتنا ومشاعرنا، وهذه فطرة لها آلياتها فى المخ/ العقل، وتُعتبر خطوة هامة لتعميق معتقداتنا.

رابعـًا: العبادات ـ بما تحويه من طقوس ـ **تُحَول العقيدة من مفاهيم عقلية إلى تجارب ذاتية ومشاعر وأحاسيس**.

خامسًا: عندما تؤدى ممارسة العبادة إلى إغلاق مناطق الشعور بالذات وبالمحيط، **يستشعر الإنسان قدرًا كبيرًا من التسامى، قد يصل إلى التواصل الحقيقى مع الوجود الغيبى المتوحد المطلق**.

لقد جَعَلَتنى تلك الحقائق فخورًا بأننى من المتدينين الحريصين على ممارسة طقوس دينهم.

القارئ الكريم

اخترت أن أبدأ الكتاب بهذا الفصل، الذى حَدَّثْتُكَ فيه عن **أهم النشاطات العقلية التى تميز ذاتى الإنسانية**، والتى جَعَلَتْ منى سيدًا مسيطرًا على هذا الكوكب، بينما أوشَكَتْ قِرَدَة الشمبانزى على الانقراض، بالرغم من التشابه الشديد بين بنيتنا الجينية وبنيتها!

وكان طبيعيًّا أن أبدأ الحديث عن ذاتى الواعية، ففى غياب **الوعى** ليس هناك مجالًا **للنشاطات العقلية الأخرى**. ثم تابعَتُ عرض النشاطات العقلية لذاتى الإنسانية، ولا أستطيع أن أحدد أى النشاطات أَهَم؛ الإدراك، أَم الفهم والتفكير، أَم التوحد والتجسد، أَم حرية الاختيار، أَم الخيال، أَم الذكاء والإبداع، أَم القدرة على الانتقال عبر الزمن، أم...، أم...

وقد استمتعت كثيرًا وأنا أُحدثك عن **ذاتى ذاتَ البيان**، بل إننى صرت أتأمل كلامَ من يخاطبوننى؛ فأنظر فى بنية الجمل وتناسقها، وما تحمله الكلمات من معانٍ، وأقوم فى الوقت نفسه بمقارنة هذا الكلام بمثيله فى اللغة الإنجليزية، فأُدرك تميز **لغتنا العربية** التى كنت أتذوقها فى الشعر العربى بمختلف عصوره، ثم صرت أعشقها منذ اهتممت بالترجمة والتأليف.

وقد أسعدتنى صحبة **العلامة الفذ راماشاندران**، خاصة وهو يحدثنى عن **الجمال والفن**، وعن نظريته فى الربط بين نشاطات المخ وبين التذوق الجمالى، وأقوم كلما سنحت لى الفرصة بتطبيق هذه النظرية بقوانينها العشرة على ما تقع عليه عينى من جمال، فيزداد استمتاعى ويتضاعف.

وقبل نهاية الفصل حرصت على أن أُبين **الفوارق بين المخ/ العقل الذكورى والأنثوى**، حتى لا يتبادر لذهن القارئ من حديثى عن الذات الإنسانية أنها ذات واحدة، فَتَعُمُّ البلوى، لما يسببه ذلك من صِدَام بين الجنسين!. ولن تكون النشاطات العقلية مكتملة دون الوصول إلى ذروة الغاية من الوجود الإنسانى، وهى **مفارقة العالم المادى، والتسامى والعروج إلى العوالم التى جاء منها الإنسان وإليها منتهاه، لذلك كانت وقفتنا مع التسامى**.

القارئ الكريم... أتمنى مع نهاية هذا الفصل أن تكون قد ازددت معرفة بذاتك الإنسانية، ولا تنسى أن «**من عَرِفَ نفسه... عَرِفَ ربه**».

***

الفصل الثانى

الوعى يقهر اللاوعى

- فرويد وما بعد فرويد
- الفطرة أم التنشئة
- نضج المخ البشرى
- التنشئة نوع من الهندسة الوراثية
- مخاطر التنشئة اللاتوافقية
- الفطرة أم التنشئة . . .
  القول الفصل
- حرية الإرادة الإنسانية . . .
  والعلاقة بين الوعى واللاوعى
- التحكم فى اللاوعى والنشاطات اللاإرادية
- آليات التحكم فى اللاوعى والنشاطات اللاإرادية
- هل من سبيل لإعادة البرمجة؟
- دور الوعى واللاوعى فى الصحة والمرض
- القارئ الكريم

يعرض فيلم «الإشعاع Shine» ـ الحائز على جائزة الأوسكار ـ قصة حقيقية فى حياة عازف البيانو الأسترالى الشهير ديفيد هلفجُت David Helfgott. لقد تربى ديفيد كطفل وصبى يهودى على الخوف من الاضطهاد النازى، الذى عانى منه والده بشدة، ومن ثَمَّ فقد تمت برمجة عقله على ألا يَظهر اجتماعيًّا، وعلى **أن النجاح فى حياته العملية يجعله عُرضة للشهرة، مما قد يُعَرِضَه للاضطهاد والبطش.**

ثم قُدِّر لديفيد أن ينجح فى حياته العملية كعازفٍ ماهرٍ للبيانو. وفى إحدى المسابقات فى لندن، كان ديفيد يعزف كونشرتو البيانو الثالث للموسيقيِ الروسى راخما نينوف. وقبل نهاية الفيلم، ركز المخرج على ما يعتمل فى نفس ديفيد من صراع؛ **بين عقله الواعى الساعى للفوز فى المسابقة، وبين عقله اللاواعى الذى تمت برمجته على أن يخشى من الشهرة لِمَا يمكن أن تجره عليه من عواقب.** نتيجة لهذا الصراع والتوتر، بدأ العرق يتصبب من جبينه، وأخذ قلبه يدق بشدة. بذل ديفيد أقصى الجهد للتغلب على مشاعر الخوف، ولإلزام نفسه بإتقان العزف حتى نهاية الكونشرتو. بعدها ذهب فى إغماءةٍ طويلة نتيجة للجهد الهائل الذى بذله للتغلب على ما سبق برمجته فى عقله اللاواعى، وكان الثمن الذى دفعه ديفيد لانتصار عقله الواعى فى هذا الصراع أنه **عندما أفاق كان مصابًا بلوثة عقلية!!**

تُظهر هذه القصة الواقعية مدى تَجَذُّر ما يتم برمجته من مفاهيم فى عقلنا اللاواعى أثناء تنشئتنا. ولا شك أن تلك المفاهيم تتباين فى تأثيرها وسيادتها تبعًا لعمقها وخطورتها. فالمفهوم الذى تربى عليه ديفيد؛ من أن النجاح والشهرة يمكن أن يُعَرِّضا الإنسان للبطش والهلاك، يتعلق بشكل مباشر بحياة الإنسان، لذا لم يكن من السهل تجاوزه، بل دفع ديفيد ثمنًا باهظًا للتغلب عليه.

ويمكن النظر إلى العقل اللاواعى باعتبار أنه يتكون من شِقّين؛ شق غريزى وشق مكتسب. وقد اهتم عالم النفس النمساوى سيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م) بالشق الغريزى، واعتبر أن عقلنا الواعى ما هو إلا واجهة تخفى وراءها ٩٠٪ مما يتم بشكل لا شعورى داخل أمخاخنا، كما اعتبر أن عقلنا اللاواعى كثيرًا ما يجتاح عقلنا الواعى عند اتخاذ القرارات، ليس ذلك فقط، بل إنه يؤثر فى أدائنا الجسدى العضوى، كما رأينا فى قصة ديڤيد هلفجُت.

وترى نظرية فرويد فى التحليل النفسى أن المنظومة البنائية لوصف العقل تتكون من ثلاثة عناصر، يمكن النظر إليها مجتمعة باعتبارها «الذات الإنسانية» وهذه العناصر هى:

١ - الـ(هذا)[1] ID؛ ويشير إلى دوافع الإنسان الغريزية (المستوى الغريزى)، وأهمها غريزة الجنس والغرائز العدوانية. وينظر فرويد إلى هذه الغرائز باعتبارها دافع الإنسان الرئيسى للقيام بكل نشاطاته، حتى ما نعتبره نشاطًا روحيًا كالدين.

٢- الأنا الأعلى Super Ego؛ وهو الذى تعارفنا عليه باسم «الضمير» الذى يوجه الإنسان لاتباع المُثل العليا «افعل - لا تفعل». ويمثل كل من الهذا والأنا الأعلى (الشق اللاواعى للعقل).

٣ - الـ(أنا): Ego، والأنسب تسميته (I)؛ وهو العنصر الذى يستقبل مدخلات الـ «هذا» و«الأنا الأعلى» و«الوسط المحيط» ويمازج بينها ليشكل السلوك المناسب الذى نتعامل به فى حياتنا. و يمثل هذا العنصر (الشق الواعى للعقل).

وبين العقل الواعى والعقل غير الواعى توجد «النشاطات العقلية قبل الواعية» Pre Concious، كالذاكرة التى تحتفظ بالمعلومات التى لا نفكر فيها الآن.

يُؤخَذ على هذه المنظومة البنائية لفرويد أنها لا تفسر الكثير من النشاطات العقلية (كحرية الإرادة)، وأنها تختزل كل دوافع الإنسان فى الدوافع الغريزية (الجنسية والعدوانية). ويرجع ذلك إلى أن فرويد قد انطلق فى نظريته من حالات مَرَضِّية قليلة قام بتحليلها نفسيًّا ثم بَسَطَ استنتاجاته على توصيف سلوك الإنسان السَّوِى.

ولتصحيح هذه النظرة القاصرة، ظهرت نظريات فرويدية حديثة، تصف للإنسان

(١) يُتَرجم مصطلح «ID» أيضًا إلى «الذات»، ونرى أن الذات تشمل العناصر الثلاثة، كما يُتَرجَم إلى الـ«هو»، ولم نستخدم هذه الترجمة لأنها توحى بأننا نتحدث عن شخص آخر!

دوافع أخرى عديدة، وترى أن جزءًا كبيرًا من هذه الدوافع يُكتسب خلال حياة الإنسان المبكرة (الشق المكتسب).

كذلك ظهرت المدرسة المعروفة بـ «**علم نفس الأنا Ego Psychology**» التى تَنسب الكثير من نشاطاتنا العقلية إلى **نشاط الأنا الواعى**، وتجعل للـ «هذا» و«الأنا الأعلى» الممثلين للعقل اللاواعى دورًا أقل، ولا شك أن ذلك يرفع الإنسان من الهوة التى وضعها فيها الماديون الفرويديون[1].

وإذا كانت نقطة انطلاق مختلف مدارس **علم النفس هى العقل** «كأفكار ومشاعر وسلوك»، ومنه تحاول أن تصل إلى العلاقة بين النشاطات العقلية وبين بنية المخ، ففى المقابل، ظهرت **مدرسة علم النفس المعرفى Cognitive Psychology**، التى **تنطلق من المخ ومراكزه ودوائره العصبية**، لتفسر مختلف النشاطات العقلية والنفسية.

لذلك فإن **العلم التجريبى الحديث**، بعد أن ناطَح الفلسفة وأزاحها عن عرشها كوسيلة وحيدة لقرون عديدة لسبر أسرار العقل، فقد أخذ يناطح أيضًا علم التحليل النفسى الذى وضع أُسسه فرويد، والتى أُعتبرت لفترة غير قصيرة الأساس لفهم وظائفنا العقلية.

الفطرة أم التنشئة

وإذا تأملنا عقلنا اللاواعى، واجهتنا متقابلة:

«**الفطرة / الطبيعة / البيولوجيا**» فى مواجهة «**التنشئة / التربية**»

Nature Vv Nurture

وهى تعنى: أيهما المتحكم فى سلوك الإنسان، عوامله الوراثية التى تنتقل إليه من والديه، أم ما يُنَشِّئونه عليه من مفاهيم.

وكعادة الثورات (العلمية وغير العلمية) أعقب «الثورة الجينية» تطرف كبير. **فصار الناس (حتى العلماء منهم) يعتقدون أن دور الأبوين تجاه أبنائهما يقتصر على إمدادهم بالجينات التى تحمل**

---

(١) بالرغم من الكثير من المفاهيم الخاطئة التى طرحها فرويد، فلا ينبغى أن ننكر عبقريته التى تمثلت فى ثلاثة إنجازات رئيسية، **قلبت الكثير من مفاهيمنا عن المخ والعقل**. لقد كان فرويد من الرواد الذين قالوا بأن **الطبيعة البشرية يمكن أن تخضع للتمحيص العلمى**، ومن ثَم يمكن أن نستخرج القوانين والمفاهيم التى تحكم حياتنا العقلية والنفسية، تمامًا كما يدرس أطباء أمراض القلب وظائف القلب. كما نبهنا فرويد إلى أن **عقلنا الواعى ما هو إلا واجهة تخفى وراءها الكثير مما يتم بشكل لا شعورى داخل أمخاخنا**. وأخيرًا، وضع فرويد يده على **آليات الدفاع النفسى التى نمارسها يوميًّا**، وطرحها للتحليل العلمى؛ فصرنا نسمع عن آليات الإنكار، والكبت، والقمع، ورد الفعل، والتبرير، والإسقاط،......

برامج تشكيلهم، وليس عليهم بعد ذلك إلا إمدادهم بالغذاء والملبس والمأوى، تلك الاحتياجات التى يمكن أن توفرها أى دور للحضانة، وياها من فكرة مناسبة لأبوين مشغولَين أو كسولَين.

وبالرغم من تلك الفكرة التى يروج لها الإعلام كثيرًا، فقد أثبت العلم الحديث أن الحقيقة غير ذلك تمامًا. انظر إلى ما يطرحه توماس ڤيرنى Thomas Verny (من رواد علم نفس الأجنة! والأطفال المولودين حديثًا)، يقول: لقد أثبتت مراجعة الأبحاث العديدة التى أُجريت على مدى عقود، **أن لتنشئة الوالدين لأطفالها تأثير كبير على حالتهم النفسية والعقلية، ويبدأ هذا التأثير من مرحلة ما قبل الولادة**[1]. لقد ثبت خطأ الاعتقاد بأن أمخاخ أولادنا لا تعمل إلا بعد الولادة. بل إن الجهاز العصبى وذاكرة الأجنة تعمل بهمة كبيرة، وتُكَوِّن ما يُعرف بالذاكرة المطلقة Implicit Memmory. ويبين ڤرنى كذلك خطأ مفهوم «فقدان الذاكرة الطفولى Infantile Amnesia» الذى طرحه فرويد، والذى يعنى أن معظم الناس ينسون ما حدث لهم خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حياتهم[2].

ويقول ديڤيد شامبيرلين David Chamberlain (من رواد علم نفس الأجنة! والأطفال المولودين حديثًا): فى الحقيقة، لقد ثبت خطأ الكثير مما اعتقدناه حول أبنائنا، فهم ليسوا كائنات بسيطة ساذجة، **بل إنهم كائنات شديدة التركيب وذوو أفكار فطرية كبيرة**[3].

ويقول عالم النفس د. بيتر ناثانيلز Peter Nathanielsz [4]: تتجمع الشواهد على أن **برمجة عقولنا التى تقوم بها الظروف المحيطة بنا فى حياتنا الجنينية، لا تقل أهمية ـ إن لم تزد ـ عن البرمجة الجنينية الوراثية (عن طريق الجينات)**، وبالتالى فهى تحدد مصائرنا؛ أى كيف سيكون آداؤنا النفسى والعقلى والسلوكى والبدنى. ومن ثم **فإن قصر النظر الجينى Gene Myopia الذى يرى أننا نتاج لبرمجة جيناتنا وفقط، مفهوم خاطئ تمامًا.**

نضج المخ البشرى

إذا كانت الرئيسيات المختلفة تولد بمخ يقارب حجمه حجم أمخاخها عند البلوغ، فإن مخ الإنسان الوليد يبلغ حجمه ربع حجم المخ البالغ، وما يتبع ذلك من نمو مطلوب

(١) Verny and kelly ١٩٨١

(٢) فى كتابه المنشور عام ١٩٨١: The Secrete life of the unborn child

(٣) فى كتابه المنشور عام ١٩٩٨ The mind of New born baby

(٤) فى كتابه The origin of health and diseose عام ١٩٩٨.

للتدرج فى التعلم. وقد أثبتت الدراسات المقارنة، أنه كلما كان الكائن أعلى فى سلسلة التصنيف كلما ازداد دور القدرات المكتسبة بالتنشئة. لذلك يؤكد عالما الأنثروبولوجيا شولتز ولافندا[١] **أن السلوك الإنسانى ـ لما يتسم به من تعقيد شديد ـ يعتمد على التعلم (وليس الجينات) أكثر من أى كائن آخر.**

وقد أظهرت الأبحاث الحديثة أن **نشاط المخ البشرى يتطور مع المراحل العمرية**، بحيث يصبح مؤهَّلًا لبرمجته بكم هـائل من السلوكيات والمعتقدات. وقد أجرت د. ريما لايبو Rima Laibow [٢] أبحاثًا هامة على **نشاط المخ الكهربائى فى تلك المراحل**[٣]، فوجدت أن ما بين الولادة وسن العامين تكون الموجات الكهربائية السائدة فى المخ هى موجات دلتا البطيئة (Delta 0.5 - 4 HZ)، ثم تسود موجات ثيتا (Theta 4 - 8 HZ) الأنشط قليلًا بين العامين والستة أعوام. **ومع موجات دلتا وثيتا يكون المخ أكثر قابلية للبرمجة والإيحاء**، فيُراكم مخ الطفل كَمًا هائلًا من المعارف السلوكية والمعتقدات. لذلك ننصح بعدم توجيه الملاحظات السلبية لأطفالنا (مثل أنت غبى، أنت لاتستحق...) حتى لا يتم برمجتها وبالتالى يعتبرها المخ من الحقائق البديهية التى يصعب تغييرها فيما بعد.

ومع التقدم فى السن، تسود **موجات ألفا الأسرع** (Alpha 8 - 12 HZ)، التى يصحبها شعور بالوعى وبالذات. ومن سن الثانية عشرة تظهر **موجات بيتا الأكثر سرعة** (Beta 12 - 35 HZ)، وتسود فى فترات التركيز الواعى، مثل قراءة هذا الكتاب.

وحديثا تم وصف **موجات جاما** (Gama < 35 HZ) التى تظهر فى حالات التركيز الشديد كقيادة الطائرات وإجراء العمليات الجراحية والتأمل.

سبحان الله الخالق الحكيم؛ أبهذه الدقة يتم إعداد المخ فى المراحل العمرية المختلفة: فى البداية، يتم إعداده ليتقبل البرمجة بما سيُعتبر فيما بعد من البديهيات، ثم يُعد للإدراك الواعى واستشعار الذات، ثم ليكون مؤهَّلًا للتركيز الواعى والعمليات العقلية العليا، ما رأيكم أيها الدراونة القائلين بعشوائية الخلق؟!

* * *

---

(١) A. Schultz &Robert Lavenda 1987

(٢) د. ريما لايبو تشغل منصب المدير الطبى لمؤسسة Natural Solutions Foundation

(٣) Quantitative EEG and Neurofeedback 1999,2002

التنشئة نوع من الهندسة الوراثية

وبينما أتأمل المعنى السابق، الذى يدور حول نضج المخ البشرى، تردد فى خاطرى مفهـوم مرتبط به، طرحه **عبقرى علـم النفس دانييـل سيجـل Daniel Siegel**[1] **فى كتابه The developing mind**، وهو **«أن التنشئـة نوع من الهندسـة الوراثية»**، فأردت أن أستوضح من هذا الخبير مراده، وأن أعرف كيف يقوم الوالدان (أو قل المهندسَيْن الوراثيين) بدورهما الأمثل فى تنشئة أبنائهما.



(شكل ـ ١)
دانييل سيجل Daniel Siegel
أستاذ علم النفس وأبحاث المخ

حملت تساؤلاتى إلى دانييل سيجل (شكل ـ ١)، وبادرته قائلًا: عندما ذكرت أن التنشئة نوع من الهندسة الوراثية، هل كنت تشير إلى مفهوم علمى، أم أنه قول أدبى بلاغى لإظهار أهمية دور التنشئة؟ **أجابنى سيجل**؛ بل إنه مفهوم علمى دقيق، ألا تعلم ـ وأنت الأستاذ فى الطب ـ **أن الجينات يتم تنشيطها وتفعيلها أو يتم إيقاف دورها تبعًا لعوامل بيئية تُعتَبَرَ التنشئة من أهمهـا**، وهـذا ما يعرف بـ **«علم التحكم فى الجينات Epigenetics»**. **إن طريقة تواصـل الوالدين مـع أطفالهما يمثل أهـم عامل مؤثر فى تنشيط الجينات Gene Expression المسئولة عن تكوين دوائر السلوك وبرمجة المفاهيم التربوية فى الذاكرة.**

كان طبيعيًّا أن أسأل د. سيجل؛ وما الذى ينبغى على الوالدين فعله حتى تُنتج هندستهما الوراثية مُنْتَجًا جيدًا؟! فأجابنى قائلًا: إن ذلك يبدأ قبل حدوث الحمل! ثم أضاف قائلًا؛ لقد أثبتت الدراسات أن فى آخر مراحل **نضج البويضات والحيوانات المنوية** (التى ستُكَوِّن الجنين) **يتم ضبط نشاط مجموعات معينة من الجينات المسئولة عن الكثير من صفات**

(١) ولد دانييل سيجل عام ١٩٥٧، واستكمل دراسة الطب بجامعة هارفارد، وتخصص فى علم نفس الأطفال والمراهقين والكبار فى جامعة UCLA حتى صار أستاذًا بها. وبالإضافة لذلك فهو يرأس مؤسستين كبيرتين لأبحاث المخ وعلم النفس. وهو من رواد علم جديد صار يعرف بـ Interpersonal Neurobiology، ويهتم بالأسس العصبية للعلاقات بالآخرين. وله عدة كتب أهمها The mindful brain، The Developing mind

الطفل[1]؛ لذلك فإن ما يجرى فى حياة الوالدين فى هذه المرحلة يكون له تأثير كبير على جسم وعقل أبنائهما[2].

ويضرب **عالم نفس الأجنة ڤيرنى**[3] على ذلك مثالًا مهمًا، فيبين أن هناك فرقًا بين **حدوث الحمل** فى جو من الحب أو العجلة أو الكُرْه، وفرق بين أن يكون الطفل مرغوبًا فيه أم لا، كذلك هناك تأثير إيجابى كبير لأن يعيش الوالدان فى جو مستقر مدعومين من الأهل والأصدقاء. وقد أدرَكَت الحضارات القديمة أهمية ذلك منذ آلاف السنين، فكانوا يُجرون طقوسًا لتطهير أجسادهم وعقولهم قبل اللقاء الزوجى الذى قد ينتج عنه الحمل.

ويستمر سيجل فى النقل عن ڤيرنى قائلًا: **وأثناء الحمل**، يتجاوب الجنين مع كل فعل للأم أو فكرة أوشعور، وينعكس ذلك على تشكل مخ الجنين وعقله وعلى مزاجه وشخصيته. **فلو هجر الأبُ الأمَ** ـ مثلًا ـ وبدأت فى تحمل مسئوليات الحياة فى وحدة قاتلة، تأثر الجنين إلى حد كبير. كما أظهرت دراسة شيقة أُجريت فى إيطاليا ـ باستخدام تصوير الموجات الصوتية ـ أن عِراكًا **بين الأم والأب** يجعل الجنين يقفز خوفًا وقلقًا[4].

ولا شك أن تمسك العلماء لفترة طويلة بفكرة الحتمية الجينية وإنكارهم لدور العوامل المكتسبة، جعلت **أطباء النساء والتوليد لا يبالون إلا بأمور سطحية بالنسبة للأم الحامل**؛ هل تأكل جيدًا، هل تأخذ الڤيتامينات، هل تمارس الرياضة... أما الآن فالصورة قد تغيرت. **فالجنين لا يأخذ من أمه الغذاء فقط**، بل إذا كانت الأم **دائمة التوتر** فإن ذلك يؤدى إلى إفراز كميات كبيرة من هورمونات التوتر (الأدرينالين ـ النورأدرينالين ـ الكوريتزون) التى تصل إلى الجنين وتؤدى إلى تنشيط الدورة الدموية فى عضلاته ومنطقة تحت المهاد فى المخ، على حساب الدم الذى يغذى مقدمة المخ، مما يؤثر فى قدراته العقلية والسلوكية[5].

كذلك ظهر أن تلك **الظروف البيئية تؤثر فى معامل الذكاء** بمقدار ٥١٪، مقارنة بدور الجينات التى لا يتجاوز تأثيرها ٣٤٪[6].

---

(١) تعرف هذه المرحلة بـ Genomic Imprinting

(٢) Surani 2001- Reik and walter 2001

(٣) فى كتاب: pre–parenting: Nurturing your child from Conception.2002

(٤) دراسة أجرتها Italian Concious Parenting Organisation

(٥) Lesage 2004 - Christensen 2000 - Arnsten 1998 - Leutwyler 1998 - Sapolsky 1997 - Sandman1994.

(٦) دراسة تحليلية لنتائج ٢١٢ دراسة سابقة، قام بها عام ١٩٩٧ بيرنى ديڤلين Bernie Devlin أستاذ الطب النفسى بجامعة بتسبرج.

يضاف إلى هذه التأثيرات العقلية والنفسية والسلوكية فى الجنين عددٌ من **التأثيرات الجسدية**، قد تؤدى إلى أن يولد الطفل ناقصًا فى الوزن، وقد تؤدى فيما بعد إلى زيادة احتمال حدوث عدد من الأمراض بنسب تتراوح بين ٢٥ - ٣٠٪. وأهم تلك الأمراض ارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والسكرى ومشاكل الكليتين والسِّمنة[١].

وختم د.سيجل حديثه عن تلك المرحلة من حياة الإنسان قائلًا: **لا شك أن الزمن الذى كنا نعتبر فيه الأجنة كائنات غير ناضجة بالقدر الكافى، ولا تتأثر إلا بالعوامل الغذائية، قد وَلَّى إلى الأبد.**

أثار هذا التعليق فى ذهنى تساؤلًا، **فقلت لسيجل: ولماذا زُوِّد الجنين بآليات تجعله يتفاعل مع بيئة ومزاج والديه؟! فأجابنى**: يبدو أن ذلك **لأن الجنين سيجد نفسه بعد قليل فى هذا الوسط، ومن ثم ينبغى إعداده مُسبقًا ليحيا فيه.**

ثم استأنف د. سيجل طرحه لدور الوالدين كمهندسين وراثيين لأبنائها، وانتقل إلى **مرحلة ما بعد الولادة**، فقال: وتؤدى **الرضاعة الطبيعية** دورًا حيويًّا فى تنشئة الطفل. جاء فى إحدى توصيات مؤتمر أكاديمية نيويورك للعلوم الذى عُقد عام ١٩٩٦ : أن **الرضاعة الطبيعية لا تقدم فقط تركيبة غذائية مناسبة، بل إنها تمثل خطوة مهمة فى نُضج المخ بما لها من تأثير على الجهاز العصبى والجهاز الهورمونى للطفل**. وهذا ما قصده طبيب الغدد الصماء «أيزاك كوخ ـ Yetizhak Koch» حين قال: **إن لبن الأم ليس مجرد مصدر للغذاء، إنه طريق تنقل به الأم المعرفة لطفلها**. كذلك فإن **للحميمية الجسدية** (احتضان الطفل وحمله أثناء إرضاعه) دورًا كبيرًا فى **توصيل عواطف الأمومة المتدفقة إلى الوليد**[٢].

وبالنسبة **لأسلوب معاملة الأطفال**، يؤكد العالم النفسى «دانييل شتيرن» على أهمية تبادل النظرات واللمسات وتكرار المداعبات بين الوالدين والطفل. ويعتقد «شتيرن» **أن غرس المفاهيم الأساسية للحياة العاطفية للإنسان يتم خلال هذه اللحظات الحميمة**، فهى تجعل الطفل يُدرك أن مشاعره تُقابَل بالتعاطف وأنها مشاعر مقبولة ومتبادَلة، وقد أطلق على هذه العملية اسم «**التوافق**».

ويرى «شتيرن» أن **اللحظات المتكررة من التوافق، أو عدم التوافق**، بين الوالدين

---

(١) ناثانيلز Nathanielsz، ١٩٩٩، فى كتابه Life In The Womb

(٢) قام الباحثون فى إحدى التجارب بإرضاع القرود الوليدة عن طريق أمهات صناعية تم تصنيعها من مواد مختلفة على هيئة أنثى القرد، لقد فَضَّل الرضيع الأم المصنوعة من القطن والقماش اللين الناعم عن الأم المصنوعة من السلك !.

وأطفالهما تشكل ما سيحملونه معهم فى شبابهم من سلوكيات يتعاملون بها مع الآخرين. إن هذه اللحظات قد تكون أكثر تأثيرًا من أكبر الأحداث التى تمر بهم فى طفولتهم. وقد أظهرت دراسات أُجريت فى المعهد القومى للصحة النفسية بالولايات المتحدة أن اختلاف الأطفال فى مقدار تعاطفهم مع الآخرين يرجع إلى **الكيفية التى دَرَّب بها الآباء أطفالهم على التعاطف**. فالأطفال الأكثر تعاطفًا هم الذين **لَفَت والداهم انتباهَهم إلى ما يسببه تصرفهم من آلام لشخص آخر**، كأن يقال للطفل إذا أساء التصرف مع أخته مثلًا «انظر كيف جعلتها تشعر بالحُزن...» بدلًا من القول «لقد كان سلوكك هذا عنيفًا».

كما يتشكل تعاطف الأطفال مع الآخرين من خلال **رؤيتهم لرد فعل المحيطين بهم تجاه شخص يمر بمحنة**. ومع محاكاتهم لما يرونه من ردود الأفعال ينمو لدى الأطفال مخزون من استجابات التعاطف، كما تتكون لديهم الرغبة فى تقديم المساعدة للآخرين الذين يمرون بضائقة.

مخاطر التنشئة اللاتوافقية

لا شك أن **نقص التوافق والتعاطف فى علاقة الطفل بوالديه يكلف المجتمع والإنسان ثمنًا باهظًا طوال حياته**. وقد أظهرت دراسة أُجريت على مجموعة من المجرمين الذين ارتكبوا أقسى الجرائم عنفًا اشتراكهم فى سِمَة واحدة يختلفون بها عن المجرمين الآخرين، فهؤلاء **لم يتمتع معظمهم فى طفولتهم بالاستقرار**، إذ تَنَقَّلوا من بيت من بيوت رعاية الأحداث إلى بيت آخر، أو نشأوا فى ملاجئ الأيتام.

لقد أطفأ الإهمال العاطفى عند هؤلاء الأطفال جذوة التعاطف مع الآخرين، نتيجة الإيذاء العاطفى الحاد والمستمر الذى تعرضوا له من جَرَّاء المعاملة القاسية المُتَّسمة بالتهديدات السادية والإذلال والإشعار بالدونية، ومن ثَمَّ شَبَّ الأطفال الذين عانوا كل هذا وقد امتلأت قلوبهم **بمشاعر سلبية** لا تبالى بالمَرَّة بالآخرين من حولهم.

لذلك نجد **المجرمين المصابين بهذا الاضطراب النفسى** (السيكوباثيين Psychopaths) يتصفون بالتجرد التام من أى شعور بالندم، بل نجدهم يتحدثون عن أشد جرائمهم قسوة وبشاعة بلذة ونشوة ومباهاة.

كذلك تغيب المَلَكَات التعاطفية بصورة مأساوية عند من يرتكبون **جرائم الاغتصاب والمتحرشين بالأطفال والنساء**. بل إنهم يبررون جرائمهم بالكذب على أنفسهم وعلى الآخرين،

فيقولون مثلًا «الواقع أن النساء يرغبن فى الاغتصاب ... » أو «المرأة إذا قاومت، فهى تتمنع لكى تزيد من رغبة الرجل ...». ويقول المتحرشون بالأطفال: «أنا لا أؤذى الطفل، أنا أظهر له الحب فقط ...» أو «إن الصبية يفعلون ذلك مع بعضهم ...».

وبينما كان د.سيجل يعرض هذه الأنماط من الانحراف السلوكى، تجسدت فى خاطرى بعض الحوادث التى تتكرر فى الشارع المصرى. فبعض الأطفال الذين حُرموا من «التوافق» مع الوالدين أصبحوا يشكلون ظاهرة «**أطفال الشوارع**»، وعندما يكبرون يمارس المنحرفون منهم **البلطجة (كما حدث عقب ثورة ٢٥ يناير)** والاغتصاب والتحرش بالأطفال والنساء، كما ظهرت نماذج مثل «**التوربينى**» الذى كان يتخلص من ضحاياه من الأطفال بإلقائهم من فوق القطار التوربينى، ولا شك أن عدم التعامل بحكمة وجدية مع ظاهرة أطفال الشوارع يمكن أن يحول هذا النموذج التوربينى إلى ظاهرة.

وتنبهت على صوت د. سيجل وهو يقول، ومن الأمثلة البارزة التى تنتجها التنشئة الخالية من التوافق والتى تُطفئ جذوة التعاطف عند الطفل بل وتحوله إلى مسخ بشرى، هو **السلوك الديكتاتورى عند الحكام المستبدين**.

وإذا كانت الحضارات البشرية تقدم نماذج من الحكام المستبدين، ابتداءً من فرعون موسى إلى هولاكو إلى هتلر وموسولينى، فإن الأسلوب الديكتاتورى لا يحتاج بالضرورة إلى حاكم ومحكومين، بل قد يمارسه **قزم صغير** يترأس مؤسسة كبرى أو ناظر مدرسة يبطش بتلاميذه. وبينما د. سيجل يطرح هذه الأمثلة للاستبداد، طافت ببالى أمثلة أخرى، مثل استئصال المستوطن الأبيض الأمريكى للهنود الحُمر والوضع المشابه فى فلسطين، والتصفية العِرْقية فى البوسنة والهرسك.

ثم أضاف سيجل، وقد صدرت المئات من الدراسات والكتب عن «**سيكولوجية الديكتاتورية والاستبداد**»، وتتفق كلها على أن هؤلاء المستبدين **يجمعون كل السمات النفسية للمنحرفين الآخرين**؛ فالديكتاتور المستبد يمتلئ قلبه بمشاعر لا مبالية بالمرة بمن حوله، ويتسم بالتجرد التام من أى شعور بالندم رغم كل ما يسببه من مصائب، كما يبرر جرائمه بالكذب ويَدَّعى أن الآخرين لا تُصلحهم إلا هذه المعاملة المهينة أو تلك. وهو فى كل الأحوال يمارس استبداده وهو فى حالة من السرور الخفى، وكلما ازداد بطشه ازداد هدوءًا وارتياحًا. وربما كان هذا السلوك من أشد ما استثار الشعوب العربية، التى

قامت بثوراتها التى عُرفت باسم «الربيع العربى» ضد حكامها الديكتاتوريين فى الفترة الأخيرة.

وأثناء استماعى لحديث د. سيجل عن دور برمجة اللاوعى التى تقوم بها التنشئة، أَدْرَكت حكمة الإسلام حين أخبرنا رسول الله ﷺ أن **أول حقوق الطفل على أبيه أن يُحسن اختيار أمه**، وأن تكون الأولوية فى المفاضلة عند الزواج (سواء فى الرجال أو النساء) **لذوى التدين**، فإن ذلك سينعكس بشكل مباشر على أسلوب تربيتنا لأبنائنا[١]. كما أوصانا الإسلام بأن **نجمع فى أسلوب تربيتنا بين التوجيه المباشر والحنان الدافق**[٢]، حتى لا نخرج للمجتمع مسوخًا بشرية تُعيث فيه فسادًا وإفسادًا.

الفطرة أم التنشئة...

القول الفصل

واستطرد د. سيجل فى حديثه عن عمق تأثير التنشئة وعلاقتها بالفطرة (البيولوجيا/ الجينات) فقال: وإذا أردنا أن نلخص رأى العلم فى قضية كل العصور؛ الطبيعة أم التنشئة Nature Vv Nurture، وجدنا أنه إذا كان للجينات بعض دور فى تحديد صفاتنا العقلية والنفسية والسلوكية (الإيجابية والسلبية)، فإن تلك الجينات يتم تفعيلها وتوجيهها من قِبَل الظروف المحيطة. لذلك لن يفيد كثيرًا أن يمتلك الجنين (ثم الطفل) جينات إيجابية بدرجة كبيرة، إذا كان سيواجه الإهمال وسوء التوجيه الذى سيعطل تلك الجينات.

معنى ذلك، أن الجينات تُحدد الاستعداد الوراثى، أما التنشئة فتحدد نوع السلوك الذى يتبناه الشخص. فعلى سبيل المثال، قد يرث طفلان من والديهما جيناتٍ تدفع للسلوك العدوانى، ثم يأتى دور التنشئة لتوجه هذا السلوك، فيستخدم أحدهما عدوانيته ليكون بطلًا فى المصارعة أو جراحًا!، بينما يُنَشَّأ الآخر ليكون زعيمًا لعصابة.

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَالَ «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. [سنن الترمذى].
عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ». [صحيح البخارى].

(٢) قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسًا، فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قَبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يرحم. [صحيح البخارى].

حرية الإرادة الإنسانية...

والعلاقة بين الوعى واللاوعى

أضاف د.سيجل: وإذا كان لكل من الفطرة والتنشئة دور أساسى فى تشكيل ذواتنا الإنسانية، فليس معنى ذلك أن تأثيرهما مُلزم . بل يتضح مما ذكرت أن مفهوم «**الحتمية الجينية**» قد ذهب إلى الأبد، كما أن مفهوم «**الحتمية التربوية**» ـ أى أننا عبيد لأسلوب تربيتنا ـ ينبغى أن يذهب أيضًا. فدائمًا هناك دور لـ «**حرية الإرادة الإنسانية**»، **ذلك الدور الذى يقف وراءه الوعى البشرى فى مواجهة اللاوعى**[1].

أثار حديث د.سيجل عن العلاقة بين الوعى واللاوعى، وعن حرية الإرادة الإنسانية اهتمامى. فالحرية ـ دون شك ـ أهم مكونات ذاتى الإنسانية، ولولاها لما كان لوجودى معنى، ولِمَا كان للديانات التى تقوم جميعها على الثواب والعقاب أى معنى. فى نفس الوقت كانت فكرة «الحتمية الجينية» و « الحتمية التربوية» ما زالت تؤرقنى، فرويت لسيجل قصة عازف البيانو الأسترالى ديفيد هلفجُت (القصة التى ذكرتها فى أول الفصل) وكيف أنه دفع ثمنًا باهظًا ليتحرر مما تم برمجته فى عقله اللاوعى، ثم قلت له: لقد فهمت من حديثك أنه ينبغى أن ننظر إلى «السلوك الإنسانى» من خلال ثلاثة مستويات؛ **المستوى الأول يمثله اللاوعى الغريزى** الذى تحدث عنه فرويد وساندته مدرسة الحتمية الجينية، **والمستوى الثانى ويمثله اللاوعى المكتسب** الذى يهتم به التربويون كثيرًا (مدرسة الحتمية التربوية)، **وأخيرًا حرية الإرادة** المسئول عنها العقل الواعى. **ثم سألته: ما حقيقة العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة؟**

أجابنى د.سيجل: يمكن النظر إلى **العقل اللاواعى فى الإنسان باعتباره الطيار الآلى Auto pilot الذى يوجهنا**، بينما **يمثل العقل الواعى التحكم الإرادى** (اليدوى) **Manual Control**. ومن أجل تحقيق ذلك، زُوِّد العقل اللاواعى بقدرة هائلة على استقبال ومعالجة قُرابة العشرين مليون رسالة فى الدقيقة، مقارنة بالعقل الواعى الذى يستقبل ويعالج أقل من ٢٥٠٠ رسالة فى الدقيقة!. لذلك إذا اقتربت كرة قذفها طفل من عينك ـ مثلًا ـ فإن العقل الواعى لن يجد وقتًا لإدراك الموقف والتصرف تجاهه، أما العقل اللاواعى فسيدفعك لأن تتحاشى الكرة أو يدفعك لأن تضع يدك على عينك، أو لأن تغلقها.

(١) سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل القادم.

كذلك يقوم العقل الواعى ببرمجة العقل اللاواعى (الطيار الآلى) بالكثير من البرامج التى يستعملها فى مهامه. تَذَكَّر أول مرة جلست فيها أمام عجلة قيادة السيارة؛ كم عدد الأشياء التى كان عليك استحضارها بشكل واع فى وقت واحد؟، كان عليك أن تركز على الطريق (عرضه - منحنياته - السيارات التى تشغله...) وفى نفس الوقت كان عليك النظر فى المرايا التى أمامك وعلى جانبى السيارة (لتدرك ما يدور خلفك وعلى جانبيك) وأن تنظر إلى عدادات السيارة (السرعة - الحرارة - الزيت...) وأن تُحَرَّك قدميك بين دَوَّاسات القيادة الثلاث فى تناغم مع تحريك يدك اليمنى لناقل التروس. ومع كل ذلك عليك أن تحافظ على أعصابك هادئة. إنها مهام شاقة لا يستطيع الوعى أن يستمر فى ممارستها لفترة طويلة، ولا مفر من تدريب اللاوعى على القيام بها بتلقائية عجيبة، حتى إنك قد تقود السيارة بأمان فى طريق مزدحم بينما يقارن عقلك بين المرشحين لرئاسة الجمهورية، أيهما تختار؟

وبالإضافة لقيام العقل الواعى ببرمجة العقل غير الواعى، فإن الأول يقوم أيضًا بمراقبة أداء الثانى لمهامه، ويتدخل وقت اللزوم لإيقافه، ويقوم بتولى المهمة بنفسه، وربما يوجهها لاتجاه آخر، وهذا هو جوهر «الإرادة الحرة»، التى لا تتركنا رهنًا لبرامج مسبقة. وما أن ينسحب العقل الواعى بعد ذلك (ليقوم - مثلًا - بالتخطيط لأمر مستقبلى، أو للانغماس فى بعض أحلام اليقظة) حتى يعود العقل اللاواعى للإمساك بالدفة.

وأضاف د. سيجل، أما قصة عازف البيانو ديڤيد هلفجُت فتبين أن أكبر معوقات النجاح هو تعارض ما تم برمجته فى العقل اللاواعى مع طموحاتنا الواعية، والقصة فى نفس الوقت خير دليل على قدرة العقل الواعى فى تجاوز برامج اللاوعى (حرية الإرادة الإنسانية)، فقد استمر ديڤيد فى العزف وكسب المسابقة. أما الثمن الفادح الذى دفعه فيرجع إلى أن ما بُرمج فى اللاوعى كان أمرًا شديد الخطورة وقد يكلف ديڤيد حياته. أما فى معظم مواقفنا الحياتية التى يتصدى فيها الوعى للاوعى لا تكون المعاناة بهذه الشدة ولا يكون الثمن بهذه الفداحة.

ولا تعتقد أن العلاقة بين الوعى واللاوعى سلبية فى جميع جوانبها. فإذا نظرنا إلى الوجه الآخر للعملة، وجدنا أنه يمكن برمجة لا وعى أطفالنا من أجل تحقيق النجاح وإقامة علاقات طيبة مع الآخرين (عكس ما تم مع ديڤيد)، عندها سيكون السعى لتحقيق النجاح العملى والاجتماعى أمرًا فطريًّا بديهيًّا لا يحتاج منا لجهد كبير.

التحكم فى اللاوعى والنشاطات اللاإرادية

سألت د. سيجل: وهل خضعت العلاقة بين عقلنا الواعى واللاوعى للأبحاث والتجارب العلمية؟

ابتسم سيجل وقال: لقد أثبت العلم التجريبى أن **لعقلنا الواعى وإرادتنا قدرة على التحكم فى نشاطات عقلنا اللاواعى وكذلك فى عملياتنا الحيوية اللاإرادية**. وأذكر لك طَرَفًا من جهود العلماء من أجل إثبات قدرة الإنسان على هذا التحكم.

فى شتاء عام ١٩٨٥ جلست مجموعة من **الرهبان البوذيين فى أعالى جبال الهيمالايا فى شمال الهند يمارسون «التأمل» فى هدوء عميق**، وبالرغم من ثيابهم القليلة فقد بدا عليهم عدم الاكتراث بالبرودة التى وصلت إلى حدود التجمد، بل كان يمر عليهم راهب شاب يلف كلًّا منهم ببشاكير مبللة بالماء البارد. فى هذه الظروف ـ عادة ـ تنخفضَ درجة حرارة الجسم ويصاب الشخص بصدمة ويفقد وعيه خلال دقائق. وبدلًا من الارتجاف، بدأ الرهبان يَتعَرَّقُون، وارتفع البخار من البشاكير المُبللة، وخلال ساعة كانت جافة تمامًا. استبدل الراهب الشاب البشاكير الجافة بأخرى مبللة شديدة البرودة، فجفت أيضًا، وكذلك دُفعة ثالثة. **لقد تحولت أجسام الرهبان إلى ما يُشبه الفرن!**

وفى تلك الأثناء، كان يقف فريق من العلماء بقيادة **هيربرت بينسون Herbert Benson**، وهو طبيب متخصص فى القلب فى كلية الطب بجامعة هارڤارد، يرقبون المعدات الطبية الموصولة بأجسام الرهبان، لالتقاط أى دليل يشير إلى الآليات الفسيولوجية التى تجعل الجسم يُنتج هذه الكمية الاستثنائية من الحرارة. باختصار، **لقد كان الرهبان قادرين على «التحكم» فى معدل الأيض (الاحتراق) فى أجسامهم من خلال قوة أفكارهم فقط[1]!**

أمضى بنسون سنوات يدرس **تأثيرات «التأمل» على الدماغ وبقية وظائف الجسم**، وكانت مادته البحثية هى الرهبان البوذيون فى أقصى الأرض. بل لقد لفتت أبحاث بنسون وحماسته اهتمام مؤسسات أكاديمية كبيرة فى أنحاء الولايات المتحدة، وبحلول القرن الحادى

(١) هذا بالرغم من أن الأيض يُعتبر أحد العمليات الحيوية «اللاإرادية» التى تمارسها الكائنات الحية.

والعشرين كان هؤلاء الرهبان مادة التجارب المفضلة فى مختبرات علماء الأعصاب، خاصة فى جامعات هارڤارد وبرينستون وديسكونسون وبنسلفانيا[1].

آليات التحكم فى اللاوعى والنشاطات اللاإرادية

سألت د. سيجل، وكيف نؤثر بوعينا فى اللاوعى وفى النشاطات اللاإرادية للمخ؟ أجابنى سيجل: لقد أُجرِيَت العديد من الدراسات لمعرفة آليات تأثير نشاطاتنا الذهنية (متمثلة فى التأمل Meditation الذى يقوم به العُبَّاد) على نشاطات المخ اللاواعية واللاإرادية.

نبدأ بتلك الدراسة التى أجراها **ريتشارد ديڤيدسون Richard Davidson** (عالِم الأعصاب وعلم النفس فى جامعة ويسكونسون) على ثمانية من كبار ممارسى التأمل عند الدلاى لاما (الزعيم الروحى لبوذىّ التبت) عام ١٩٩٢. أوصل ديڤيد سون بأدمغة كل من هؤلاء الرهبان ٢٥٦ حساسًا Sensor ليسجل النشاط الكهربائى لمختلف مناطق المخ. بعد ١٥ ثانية من **التأمل**، سجل رسام المخ الكهربائى EEG موجات متسارعة، تُعرف بموجات جاما، وتعنى أن **المخ يعمل بأقصى طاقاته**. وعندما وصل التركيز إلى أقصاه لاحظ ديڤيد سون أن **جميع مناطق الدماغ فى نصفى المخ ترسل موجات جاما بشكل متزامن**، وهذا **التزامن** أمر جوهرى لما يحسه المتأملون والمُصَلّون من مشاعر[2].

وفى دراسة أجراها العالم النفسى **دانييل جولمان Daniel Golman** [3]، وجد أن تلك الزيادة فى النشاط الكهربائى للقشرة المخية **يصحبها تحرر القشرة من تحكم مراكز العاطفة،**

---

١) بدأ الاهتمام بإمكانية التأثير الإرادى على الجهاز العصبى اللاإرادى فى العلم الغربى منذ أوائل الستينيات. فقد كان نيل ميللر **Neil Miller** عالِم السلوك والأعصاب بجامعة ييل Yale أول من طرح عام ١٩٦١ أن الناس يمكنهم أن يتعلموا التحكم فى **ضغط الدم وحركة الأمعاء**. وبعدها بفترة قصيرة بدأ د. باسماجيان **J.Basmagean** أستاذ إعادة التأهيل بجامعة ماك ماستر Mc Master فى أونتاريو بكندا، فى تدريب الأشخاص المصابين **بأذى فى النخاع الشوكى** على استعادة السيطرة على ما تبقى من خلايا سليمة فى نخاعهم. وفى نفس الوقت تقريبًا بدأ عالِم النفس إيلمار جرين من معهد مييننجر Menninger فى تدريب مرضاه على «**الاسترخاء**» **لعلاج نوبات الصداع النصفى الشديدة وكذلك علاج داء رينولد** الذى يصيب الأوعية الدموية باليدين ويسبب آلامًا شديدة بها.

ومنذ ذلك الحين، بدأ استخدام ما صار يُعرف بالتدريب الذاتى **Autogenic Training**، الذى يهدف إلى إخضاع عمليات الجسم الحيوية لإرادة الشخص، من أجل **علاج العديد من المشاكل الصحية المزمنة**: مثل نقص الانتباه وفرط النشاط، والدُوار الحركى، وتأهيل العضلات المشلولة، والربو، ونوبات الصرع، والتهاب الأمعاء التقرحى، وإزالة الألم من موضع الطرف المبتور وغيرها.

٢) توصلت إلى نفس النتائج ٢٥ دراسة أخرى أُجريت على التأمل.

٣) مؤلف كتابَىّ الذكاء الانفعالى والذكاء الاجتماعى.

مما يسمح للقشرة المخية بالتركيز بكامل طاقتها على إدراك ما يحدث فى اللحظة الراهنة. كذلك وجد أن التأمل **يجعل أدمغتنا حساسة بشكل أكبر لاستقبال المُدخلات، ويمنع الاعتياد على ما تستقبله.**

أما **سارا لازار Sara Lazar** (عالمة الأعصاب فى مستشفى ماساتشوستس العمومى وخبيرة التصوير الرنينى المغناطيسى للمخ) فلم تركز على الرهبان الذين كرسوا حياتهم للزهد والتأمل، بل **اهتمت بدراسة الأشخاص العاديين الذين يقومون بالتأمل لمدة عشرين دقيقة يوميًّا**[1]. لقد وجدت سارا أن التأمل لتلك الفترة يؤدى إلى **زيادة نشاط القشرة المخية المسئولة عن الانتباه، وكذلك زيادة نشاط الجسم اللوزى Amygdala** المسئول عن **الانفعالات وأيضًا منطقة تحت المهاد Hypothalamus المسئولة عن الأفعال اللاإرادية،** ويحقق ذلك **تكاملًا بين العمليات المعرفية الواعية والنشاطات الانفعالية واللاإرادية.** ليس النشاط فقط هو الذى يتزايد بل **إن التأمل يؤدى إلى زيادة حجم مناطق المخ المسئولة عن الانتباه والإدراك الحسى،** وكلما زادت فترات التأمل اليومى كلما تضخمت هذه المناطق، كما ثبت لها **أن التأمل يقلل من ضمور هذه المناطق مع التقدم فى السن.**

وقد قام **الدكتور أنـدرو نيوبرج Andrew Newberg** رئيس مركز الدراسات الروحية والعقلية التابع لجامعة بنسلفانيا بأبحاث متميزة ـ بالإضافة إلى مراجعة مئات الدراسات الطبية والعصبية والنفسية ـ حول تأثيرات التأمل على الإنسان، فتوصل إلى نتائج مدهشة أثبتها فى عدة كتب من تأليفه[2].

ويعتبر الباحثون أن من أهم ما تشير إليه الدراسات السابقة (وغيرها) **أن التأمل يزيد من حدة الانتباه،** وذلك يناقض ما كان متعارفًا عليه من قبل، من أن التأمل يؤدى إلى حالة من الخمول العقلى.

وختم د. سيجل حديثه قائلًا، هكذا تثبت الأبحاث العلمية **دورًا للوعى فى التأثير على النشاطات البيولوجية اللاإرادية للإنسان، وكذلك فى التأثير على المشاعر التى يقف وراءها ما تم برمجته فى اللاوعى.**

(١) تقارب مجموع فترات صلواتنا اليومية الخمس.

(٢) تم فى الفصل الأول التعريف بالدكتور أندرونيوبرج وعرض نتائج أبحاثه.

هل من سبيل لإعادة البرمجة؟

سألت سيجل، تحدثتَ عن قدرة الوعى على التحكم فى اللاواعى، كما تحدثت عما ينبغى أن نبرمج عليه لاوعينا، **فماذا عما تم برمجته بالفعل من مفاهيم سلبية، هل من سبيل لإعادة البرمجة بمفاهيم إيجابية؟**

ابتسم سيجل وقال، إن هذا السؤال هو مربط الفرس. فإن ما **يتم تنشئتنا عليه من مفاهيم سلبية يؤدى فى الأغلب إلى توتر مزمن، يعطل** عمليات البناء والنمو وتجديد الخلايا، ويؤدى إلى تناقص مناعة جسم الإنسان وضمور المخ، أليس ذلك **بمثابة انتحار يُقدم عليه من لا يتخلص من توتره؟**

أما إعادة برمجة ما تم دمغه فى اللاوعى من مفاهيم سلبية، فهذا هو جوهر العلاج عن طريق **جلسات التحليل النفسى،** وهو ما **يُعرف بالعـلاج المعـرفى السلـوكى Cognitive Behavioral Therapy**. ومن أجل أن نعرف كيف يمارس هذا العلاج دوره، نَذْكر **أن ما يمر بنا من أحداث يثير فى عقولنا (بشكل لا إرادى) أفكارًا لا إرادية تثير مشاعر لا إرادية، وحلقة الوصل بين الأحداث والأفكار هى معتقداتنا.** ففى مثال عازف البيانو هناك اعتقاد مبرمَج فى اللاوعى بأن الشهرة تجلب الموت، ومن ثم فإن حدثًا كالفوز فى المسابقة يثير أفكارًا عن البطش والتنكيل والهلاك، فتثير بالتالى مشاعر الخوف والفزع والهلع. ودور **العلاج المعرفى السلوكى هو إقناع المريض بخطأ هذا المعتقد، فيتبدل ما يثيره الحدث من أفكار ومشاعر لا إرادية.**

دور الوعى واللاوعى فى الصحة والمرض

سألت د. سيجل، هل يمكن أن نستغل قدرة العقل الواعى فى التأثير على نشاطاتنا اللاإرادية فى **العلاج من الأمراض؟ فأجابنى:** لاشك أنك كطبيب قد سمعت عن «**العلاج الإيحائى**»، وهو ما يُعرف بـ «**تأثير البلاسيبو Placebo Effect**» (يُعرف أيضًا بتأثير الإدراك أو تأثير الإيمان). والبلاسيبو من المفاهيم شديدة الدلالة على وجود **تأثير كبير للأفكار الواعية على الحالة الصحية للإنسان.** والمقصود بالعلاج الإيحائى إعطاء مادة ليس لها فعالية علاجية للمرضى، مع إيهـام المريض أن هذه المادة عقار فَعَّال لعلاج مرضة. وكان المعتقد أن العلاج الإيحائى يؤثر بمقدار ٣٠٪، وثبت حديثًا **أن معدل هذا التأثير قد يصل إلى**

٧٠ - ٨٠٪، خاصة فى علاج مشاكل القلب؛ وخشونة الركبتين، والربو الشُعَبى، والشلل الرَعَّاش. **بشرط اعتقاد المريض أن الدواء سينفع لعلاج هذه الحالة واعتزام المريض تناوله بدقة.**

وفى دراسة على **مرضى الاكتئاب**، ظهر أن ٨٠٪ من تأثير **العقاقير المضادة للاكتئاب** يرجع إلى التأثير الإيحائى[١]. وأيدت تلك النتيجة، دراسة دقيقة، أظهرت فيها تصاوير المخ تغييرات واضحة فى القشرة المخية قبل الأمامية عند مرضى الاكتئاب الذين استخدموا العلاج الإيحائى[٢].

وفى المقابل، فإن **المعتقدات السلبية تؤثر بالسلب على الصحة**، وهو ما يُعرف **بتأثير النوسيبو Nocebo**. فمريض السرطان الذى أخبره الطبيب أنه لن يعيش أكثر من ستة أشهر لن يُكمل هذه الفترة إذا اعتقد فيما يقوله الطبيب. لذلك فالقاعدة عندى تقول «**إذا اعتقدت أنك تستطيع، أو اعتقدت أنك لا تستطيع، فَسَتُحَصِّل فى النهاية النتيجة التى تعتقدها**».

إن الدرس الذى عَلَّمَنا إياه الرجال العظام فى تاريخ البشرية هو «**أن تدفع عقلك فى الجانب الإيجابى**». فأنت الذى تختار كيف ستحيا؛ حياة مليئة بالإنجاز، أم حياة مليئة بالإحباط. ويعجبنى قول شديد الدلالة للمهاتما غاندى، وهو: «**إن معتقداتك تشكل أفكارك، وأفكارك تشكل كلماتك، وكلماتك تشكل أفعالك، وأفعالك تشكل عوائدك، وعوائدك تشكل قيمك، وقيمك تحدد مصيرك**».

وعادة ما يكون اللاوعى هو المسئول عن الدوافع السلبية، ويكون الوعى هو المسئول عن الأفكار الإيجابية، وكثيرًا ما يفوز اللاوعى فى الصراع بين السلبى والإيجابى، لكن ـ كما ذكرنا ـ ما زال هناك إمكانية لتغيير نتيجة هذا الصراع. لذلك «**فالإرادة الحرة**» **تتركز فى قدرة العقل الواعى على التغلب على السلوك المُبَرمَج اللاواعى**.

ومن الظواهر الأخرى التى تُثبت دور التأثير النفسى للمعتقدات على الحالة الصحية للمريض ما يُعرف بـ«**التنويم المغناطيسى الإيحائى Therapeutic Hypnosis**». وفيه يتم تنويم المريض مغناطيسيًّا ثم الإيحاء إليه بأفكار محددة. ومن أشهر وأنجح الأمثلة على

---

(١) دراسة أجراها د.إرڤنج كيرش Irving kirsch أستاذ علم النفس بجامعة كونيكتيكت Connecticut، ونُشرت فى مجلة The American psychological Association: prevention and treatment، والدراسة بعنوان The Emperor's New Drugs

(٢) أجرتها جانس شونفيلد Janis Schonfeld عام ٢٠٠٢.

ذلك علاج عدد من المرضى بداء **جلد السمكة**، الذى تظهر فيه قشور في الجلد تشبه قشور السمك وتغطى معظم أجزاء الجسم[١].

وباستخدام نفس التقنية، أجرى الجراح الأسبانى د.أنجل إسكوديرو A.Escudero **أكثر من ٩٠٠ جراحة معقدة دون تخدير**. وقد قامت كاميرات محطة BBC بتصوير إحدى المريضات أثناء إجراء جراحة لساقها، وكان على المريضة ـ حتى لا تشعر بالألم ـ أن تكرر لنفسها جملة: ساقى مُخَدَّرَة!. ويتم استخدام «التنويم المغناطيسى الإيحائى» فى مجالات علاجية أخرى تتحكم فيها آليات عضوية، كالآلام المزمنة، وإيقاف النزيف من البواسير والإسراع بشفاء الحروق.

وأضاف د.سيجل، وفى محاولة لفهم ما يقوم به التنويم المغناطيسى الإيحائى، أجريتُ **دراسة هامة أظهرت نتائج مذهلة**. لقد قمت بعرض لوحات ملونة أمام المشاركين، وطلبت منهم أن يتخيلوا أن الألوان تتلاشى بينما يتبقى الأبيض والأسود ودرجات الرمادى. وقد أظهر التصوير بالانبعاث البوزيترونى PET نقص تدفق الدم ونقص النشاط فى مراكز الدماغ التى تدرك الألوان، فى حين زاد التدفق والنشاط فى المراكز التى تتعامل مع الأبيض والأسود!. ثم عكست التجربة، وطلبت من المشاركين أن ينظروا إلى صور رمادية باعتبارها ملونة،فحدثت تغيرات عكسية فى نشاط الدماغ! إن هذا يعنى **أن الدماغ أسير للفكرة، وأن التعليمات الفكرية أكثر أهمية من الصورة البصرية الحقيقة للشىء!!**

وأضاف د.سيجل مختتمًا حوارنا: ومن الحالات المثيرة للحيرة، ما يُعرف فى الطب **بحالات «الشفاء التلقائى»**. وهى حالات مرضية تصل بالمرضى أحيانًا إلى شَفَا الموت، ثم إذا بهم يتحدون تقديرات الأطباء ويقهرون أمراضهم بين ليلة وضحاها (فعليًّا) دون مساعدة أدوات الطب الحديث.

وقد ضمت قائمة الأمراض التى جمعها معهد Noetic Science لحالات الشفاء التلقائى عددًا من سرطانات الجلد والجهاز البولى التناسلى،والسكرى وتصلب الشرايين وداء أديسون[٢].وقد أظهرت دراسات المعهد **أن الكثير من حالات الشفاء التلقائى تحدث فى**

(١) فى إحدى الدراسات، تم تنويم خمسة مرضى، وطُلب منهم التركيز على أجزاء محددة من أجسامهم، وتَخَيُّل أن البشرة تعود لطبيعتها. وخلال بضعة أسابيع فقط تم شفاء ٨٠٪ من جسم كل من المرضى الخمسة شفاء تامًا، وعاد الجلد طبيعيًّا أملسَ.

(٢) مرض أديسون Addison's disease: مرض ينشأ نتيجة لنقص إفراز هورمونات الغدة الكظرية (الجار كلوية)، وخاصة هورمون الكورتيزون.

المرضى الذين تدهورت حالاتهم بسبب تراكم أفكار سلبية فى عقولهم. ويحدث الشفاء عادة بعد أن يمر المريض بتحول نفسى إيجابى كبير. والتفسير المقبول لهذه الظاهرة، **أن حالة المريض النفسية وما يعتمل فى ذهنه من أفكار يؤثر سلبًا أو إيجابًا على نشاط جهازه المناعى، ومن ثَمَّ على الأطباء أن يُعينوا مرضاهم على التخلص من الأفكار الهدامة، وأن يستبدلوها بأفكار بناءة.**

شكرت د.سيجل حوارنا الشيق حول الصراع بين الوعى واللاوعى، وقررت أن أُولى موضوع تأثير الوعى واللاوعى على الصحة والمرض - بصفتى طبيبًا - المزيد من اهتمامى.

القارئ الكريم

كانت النظرة السائدة طوال قرون تُركز على **دور الإرادة الحرة والعقل الواعى** فى توجيه السلوك الإنسانى، حتى جاء فرويد وفتح آفاق البشرية فى أوائل القرن العشرين على **دور العقل اللاواعى**، واعتَقَدَ أن عقلنا الواعى ما هو إلا واجهة تخفى وراءها ٩٠٪ مما يتم داخل أمخاخنا بشكل لا شعورى، مما يعنى تَقَلُّص دور الإرادة الحرة إلى حد بعيد. وفى منتصف القرن، توصل فرانسس كريك وجيمس واطسون إلى بنية جزىء الدنا DNA وآلية قيامه بوظائفه، مما مَثَّلَ **تأكيدًا لدور البيولوجيا فى السلوك الإنسانى**.

كانت النتيجة أن انقسم معظم العلماء إلى فريقين، يتبنى كل منهما رأيًا يجعل الإنسان أسيرًا لآليات مُلزِمة، أحدهما أنصار «**الحتمية البيولوجية**» والآخر أنصار «**الحتمية التربوية**». يرى الفريق الأول أن الإنسان أسير للظروف الطبيعية والآليات البيولوجية، ويرى الثانى أنه أسير لأسلوب تنشئته. المحصلة النهائية، أن **سقطت حرية الإرادة الإنسانية**، واعتُبِرَ الإنسان مجبرًا أى مسيرًا فى سلوكه، تبعًا للاصطلاح الدينى.

ثم دخلت الاكتشافات العلمية مرحلة يمكن أن نطلق عليها «**ما بعد العلم المعاصر**»، وثبت أن دور اللاوعى ليس بهذه الطلاقة، بل **إن الإنسان قادر بوعيه على التحكم فى وظائفه الفسيولوجية اللاإرادية، وفى نشاطاته اللاواعية**. لذلك يهتم الطب النفسى من خلال «**العلاج المعرفى السلوكى**» بإعادة برمجة عقلنا اللاواعى لاستبدال ما تم دمغه فيه من منظومات سلبية بمنظومات إيجابية.

بهذه الاكتشافات ثبت تحرر الإنسان **وتمتعه بقدر كبير من حرية الإرادة**، التى ينبغى أن تتوافر لمن جُعل فى الأرض خليفة، وليتوارى القائلون بالجبر والتسيير. لذلك نكرر ما ذكرناه من أن الدرس الذى عَلَّمَنا إياه الرجال العظام فى تاريخ البشرية هو «**أن تدفع عقلك فى الجانب الإيجابى**». فأنت الذى تختار كيف ستحيا؛ حياة مليئة بالإنجاز، أم حياة مليئة بالإحباط. وهذا ما عَبَّرَ عنه المهاتما غاندى بقوله: «**إن معتقداتك تشكل أفكارك، وأفكارك تشكل كلماتك، وكلماتك تشكل أفعالك، وأفعالك تشكل عوائدك، وعوائدك تشكل قيمك، وقيمك تحدد مصيرك**».

* * *

الفصل الثالث

لست روبوتًا

- الانقلاب الكاذب
- أكذوبة الجين الأنانى
- حوارى مع د. بروس ليبتون
  - لسنا عبيدًا لجيناتنا
  - البيولوجيا الجديدة
  - تلاشى الحتمية الجينية
  - آليات التحكم فى الجينات
  - مخ الخلية وسر حياتها
  - تجميع الخلية الحية
  - غشاء الخلية المُعجز الأعجوبة
  - الخلية والطاقة
- القارئ الكريم

حتى سنوات قليلة مضت، كانت تسوءنى عبارة ـ طالعتها فى أكثر من موضع ـ تلخص فى سطور **توجهات الفكر الغربى الحديث**، تقول العبارة:

«**هناك ثلاث ثورات أدت إلى إنزال الإنسان عن عرشه**. الأولى، **ثورة كوبرنيكوس**، التى أثبتت أن كوكب الأرض (والإنسان الذى يسكنه) ليس مركز الكون، بل ذرة من رمل فى فضاء الكون الفسيح. والثانية **ثورة دارون**، التى أظهرت أن الإنسان يشترك مع باقى الرئيسيات فى سلف مشترك، وأن الإله لم يخلقه بيديه كما تقول التوراة. ثم جاءت **ثورة فرويد**، التى ترى أن ما يظهر من سلوك الإنسان الواعى إنما هو قمة جبل الثلج، أو التنفيث عن غليان مرجل الانفعالات اللاواعية. ومن ثَمَّ **فنحن لا تحركنا الحكمة، إنما الانفعالات**. أى أن سلوكياتنا الراقية ونشاطاتنا العقلية ومشاعرنا الروحية ما هى إلا تنفيث عن غرائز بدائية، خاصة الغرائز العدوانية وغريزة الجنس».

الانقلاب الكاذب

كانت هذه الدعاوى تسوءنى، وتدفع بتساؤلات مُلِحَّة إلى خاطرى:

هل تعنى سُكناى فى **كوكب صغير** كحبة الرمل فى فضاء الكون الشاسع فقدانى لتميزى ككائن متفرد فى الكون؟!

وهل تنفى **نشأتى التطورية** عن كائنات أدنى منى ثبوت تميزى الإنسانى؟

وهل حقًّا يرجع **سلوكى الإنسانى الراقى**، الأخلاقى والروحانى، إلى غرائزى العدوانية وغريزة الجنس؟!

ما كل هذا الحقد الذى يعتمل تجاهى فى نفوس بعض بنى جِلْدتى!؟ وكأنهم، وقد عجزوا عن مجاراة النفوس البشرية السوية فى سُمُوِّها، لجأوا إلى محاولة الانتقاص من ذلك السمو. وبغض النظر عن المفاهيم الدينية، **ألا يستحق ما حققته من إنجازات حضارية وإنسانية وأخلاقية أن أكون مَلِكًا فى الكون؟!** ولا تحسب أن ما يردده هؤلاء هو رأى العلم كما يَدَّعون، فما يعرضونه هو تأويلاتهم الفلسفية لمفاهيم علمية؛ تبدلت كثيرًا خلال الربع قرن الأخير.

أقول، إن ما تطرحه العبارة السابقة من مفاهيم كانت تسوءنى، إلا أننى خلال السنوات القليلة الماضية، أعملت فيها عقلى وبحثت فى براهينها العلمية والفلسفية، فتأكد لى خطأها بشكل قاطع، **فهدأت نفسى واطمأنت إلى علو منزلتى فى الكون، وهذه حُجَجى:**

نعم... لقد أظهر العلم أن **كوكبنا كوكب متوسط الحجم**، يتبع نجمًا متوسطًا (الشمس) ينتمى إلى مجرة من بلايين المجرات فى الكون. ومع ذلك فقد أثبتت العديد من الدراسات أن الأرض كوكب متميز، حتى أطلق عليه بعض علماء الفلك اصطلاح «**الكوكب صاحب الامتيازات الخاصة**» The Privileged Planet، **فقد ثبت أن كوكب الأرض تتوافر فيه عدد من السمات جعلت منه كوكبًا ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة وتطورها وصولًا إلى الإنسان**[1]. كما يرى هؤلاء العلماء أن فرصة تكرار تلك السمات فى كوكب آخر فى كوننا بشكل يسمح بأن تنشأ فيه حياة تكاد تكون معدومة[2].

وسواء قبِلنا أو لم نقبل الرأى بأن كوكبنا يتمتع بامتيازات خاصة على باقى الكواكب، باعتباره التربة الصالحة لنشأة الحياة فى الكون، فإن كوكبنا يميزه وجودنا، أى أن **كوكب الأرض يتشرف بأن الإنسان هو ساكنه**، ولسنا نحن الذين نكتسب منزلتنا من موقع كوكبنا أو أهميته فى الكون!.

وترى **نظرية دارون** أن هناك سلفًا مشتركًا لجميع الكائنات الحية، شاملة الإنسان، وأن تلك الكائنات قد نشأت تطورًا بآلية الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية. أى يمكن النظر إلى الداروينية باعتبارها نظرية ذات شقين، الأول هو نشأة الكائنات بآلية التطور، وهذا ما يُعرف بـ«**مفهوم التطور**» **والذى صار بمثابة الحقيقة العلمية** الأكثر أهمية فى علم البيولوجيا. والشق الثانى هو **اعتماد التطور على الطفرات العشوائية**، وهذا ما يعجز العلم عن تقديم الدليل

---

(١) من هذه السمات نوع وموقع مجرتنا (درب التبانة) فى الكون، وكذلك موقع وحجم نجمنا الشمس داخل المجرة، ثم بنية كوكبنا وحجمه وموقعه وزاوية ميله فى مواجهة الشمس، وكذلك وجود القمر كتابع يدور حوله، وأيضًا وجود الكواكب المحيطة به من باقى أعضاء المجموعة الشمسية. وللمزيد حول هذا الموضوع، راجع للمؤلف كتاب «كيف بدأ الخلق» ـ الفصل الثانى ـ مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة الثانية ـ ٢٠١٢م.

(٢) توجد آيات فى القرآن الكريم تحمل إشارات بأن هناك دواب أخرى فى السموات غير الإنسان، ومن هذه الآيات:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النحل].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ... ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج].

عليه، بل إن الأدلة العلمية تؤكد عجز العشوائية عن تقديم الكم الهائل من المعلومات الجينية الإضافية المطلوبة لتحقيق الانتقال من كائن إلى كائن أرقى.

رأى الماديون فى الشق الأول من نظرية دارون (مفهوم التطور) دافعًا **لإنزال الإنسان عن عرشه**، فصاروا يركزون على جوانب التشابه بينه وبين الكائنات الحيوانية، ويتغافلون عن جوانب التمايز بينهما. كذلك رأوا فى الشق الثانى (الخلق العشوائى) دافعًا **لإنزال الإله عن عرشه بل ونفيه من الوجود!** فما الاحتياج إلى إله خالق، طالما كانت العشوائية قادرة على الخلق!

ولا شك أن كلا الادعائين الماديين مردود عليهما، فتميزى الذى أعطانى خصوصيتى كإنسان، وجعلنى أتربع فوق عرش الكائنات، مصدرة ملكاتى العقلية التى يعجز التطور عن إيجادها، فأنا إنسان بالعقل وليس بالجسد[1]. كذلك فإن الخلق بالتطور لا ينفى الألوهية، فالله ﷻ **له أن يخلق خلقًا مباشرًا أو أن يخلق خلقًا تطوريًا باستعمال التطور كآلية**، خاصة وقد أثبت العلم عجز العشوائية عن إحداث التطور، وهذا ما صار يُعرف **بالتطور الموجه أو التطوير الإلهى**[2].

أما بالنسبة **لمفاهيم فرويد**، التى تُرجع سلوكيات الإنسان السامية إلى الدوافع الغريزية العدوانية والجنسية، فقد ثبت خطأها، وحل محلها **دوافع أخلاقية ودينية غريزية ومكتسبة**. وأصبحت نظرية فرويد خطوة ـ تم تجاوزها ـ فى طريق فهمنا للنفس البشرية[3].

أكذوبة الجين الأنانى

اطمأنت نفسى إلى ما عرضت من حجج لدحض أوهام الماديين فى نفى خصوصيتى وإنزالى عن عرشى. وبَقَيْتُ على ذلك لسنوات، حتى صك أُذُناى صَخَبٌ وضجيج يدور حول كتاب للبيولوجى **البريطانى ريتشارد دوكنز**، حادى الملاحدة فى الرُبع الأخير من القرن العشرين،

(١) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر]، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص].

(٢) فى هذا المعنى يقول فرانسس كولنز (رئيس مشروع الجينوم البشرى، وأحد أكبر المتخصصين حاليًّا فى علم البيولوجيا الجزيئية): «من الذى يَحجُر على الله فى أن يستخدم آلية التطور فى الخلق». وللمزيد عن هذا المفهوم انظر الفصل الخامس من الكتاب.

(٣) هذا ما بَيّناه ببعض التفصيل فى الفصل الثانى.

وعنوان الكتاب «**الجين الأنانى Selfish Gene**»،والكتاب يتبنى نفس النظرة القديمة؛ نظرة الازدراء التى ينظر بها الماديون والملاحدة لذاتى الإنسانية!.

فدوكنز فى كتابه يرى أن **الكائن الوحيد الحقيقى فى الوجود هو الجين**، وأن **الجين يستغل الكائنات المختلفة لتكاثره وتحقيق خلوده**، لذلك أطلق عليه اسم «**الجين الأنانى**». ومن ثم، يَدَّعى أن الكائنات المختلفة (شاملة الإنسان) ليست سوى آلات حية (روبوتات) صممتها الجينات لتخدم تلك الغاية. ويرى دوكنز أيضًا أن الجينات تفرض على الإنسان سلوكياته المختلفة، لذلك فإن **سلوكى كإنسان تسوده التوجهات الأنانية**، كنتيجة تراكمية لسلوك الجينات الأنانى. ومن ثم فالجينات هى **المُخَطِط الاستراتيجى** Primary Policymaker، أما المخ فدوره لا يتجاوز دور **القائم بالتنفيذ** The Excutive.

عجبًا، ما كل هذا الهُراء!؟ لقد أصاب أينشتين حين قال **إن معظم العلماء فلاسفة ضعاف**.

إن هذا الطرح لدوكنز يعجز عن الإجابة عن العديد من التساؤلات، منها:

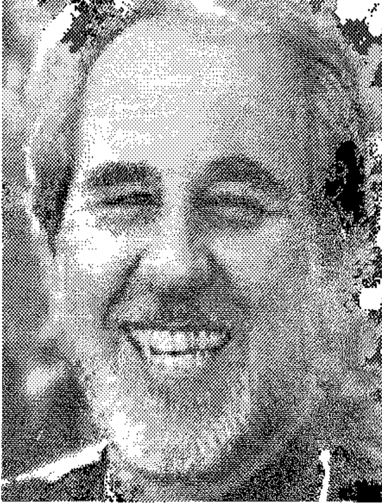
أولًا: كيف يكون كل جين كائنًا أنانيًا يدير وظائف جسم الإنسان وخلاياه لصالحه، وفى الوقت نفسه **يشتمل النشاط الفسيولوجى للكائن الحى على التضحية ببعض خلاياه**، مما يعنى إفناء جيناتها. مثال ذلك قيام **خلايا الدم البيضاء** بمحاربة الميكروبات الغازية للجسم مما يؤدى إلى مقتل العديد منها، أليس فى ذلك إيثار لمصلحة الكائن الحى، كيف تُقبل الجينات الأنانية لكرات الدم البيضاء على مثل تلك التضحية؟!

ثانيًا: إذا قبلنا اعتبار بعض النشاطات الإنسانية، كالتكاثر، سلوكًا أنانيًا للإنسان وللجينات، فلا أستطيع قبول إدعاء دوكنز بأن باقى السلوكيات الإنسانية هى محصلة لسلوك الجينات الأنانى، خاصة وقد ثبت **أن السلوك الإنسانى أمر شديد التعقيد، ولا يمكن تفسيره بالنشاطات الجينية وحدها**.

ثالثًا: وكما تمارس بعض خلايا الجسم سلوكًا يتسم بالإيثار والتضحية، فبعض البشر يمارسون سلوكًا مشابهًا لتحقيق مصلحة المجتمع. **وهذه التضحية بالنفس لا يفسرها مفهوم الجين الأنانى**، حتى وإن ادعَّى دوكنز أن ذلك سلوك يتم اكتسابه وتعلمه، وأن ذلك يتم لخدمة الجينات الأنانية!! **كيف ذلك يا دوكنز**؟!

***

حوارى مع د. بروس ليبتون



(شكل - ١)
بروس ليبتون Bruce H.Lipton
من مؤسسى علم
«البيولوجيا الجديدة للخلية»

أردت أن أعرف وجهة نظر البيولوجيين المتخصصين فيما طرحه ريتشارد دوكنز فى كتابه الجين الأنانى، وأيضًا معرفة وجهة نظر العلم فى اعتراضاتى؛ هل هى موضوعية صائبة أم أنها محاولات ذاتية للدفاع عن منزلتى فى الوجود. حملت ملف القضية إلى أحد العلماء المتخصصين فى بحوث علم الخلية، حملته إلى **البروفسور د.بروس ليبتون Bruce H.Lipton** (شكل ـ ١) الأستاذ بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة، وهو من الرواد الذين وضعوا أسس ما يُعرف بعلم **«البيولوجيا الجديدة للخلية New Cell Biology»**.

لسنا عبيدًا لجيناتنا

سألت د.بروس ليبتون عن حقيقة دور الجينات، فأجابنى قائلًا: فى كتاب أصل الأنواع (عام ١٨٥٩)، افترض **دارون** أن هناك عوامل وراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وأنها هى التى تحدد سمات الإنسان. وبعد قرابة قرن من الزمان، توصل **جيمس واطسون وفرانسيس كريك** إلى بنية وطريقة أداء جزىء الدنا DNA لوظائفه وإلى دوره فى نشاط الخلية. عندها **اعتبر العلماء أننا قد توصلنا إلى سر الحياة**، ونظروا إلى الدنا باعتباره الجزىء المحورى الذى يتحكم فى بيولوجيا الخلية وفى صفاتنا البنائية. ثم تَوَسَّعَت النظرة وساد الاعتقاد بأن الدنا يتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا كذلك، أى أنك إذا ورثت جين نقص السعادة، فستظل غير سعيد فى حياتك!!

وفى هذا الطرح **ثلاثة أخطاء فادحة**. الأول، أن الجينات التى تتحكم فى صفاتنا البنائية، **لا تستطيع أن تتحكم فى نفسها! ولا بد لها من مُنظِّم يوجه نشاطها**. والخطأ الثانى يكمن فى **اعتبار أن الجينات تتحكم فى جميع العمليات البيولوجية فى الخلية**، ومن ثم فى حياتنا، وهذا يُعتبر تعصبًا غير منطقى لا يقل عن تعصب المتدينين المتطرفين! والخطأ الثالث هو **اعتبار أن جينات**

قليلة تتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا، فالثابت الآن أن هذه الوظائف يتحكم فيها العديد من العوامل البيئية والنفسية بالإضافة إلى تواصل هائل بين العديد من المراكز المخية.

وأضاف د.ليبتون، إن ما ذكرت لك من مفاهيم بيولوجية خاطئة أفرزت نظرة فلسفية لا تقل خطأً، فقد أصبحت الداروينية تنظر إلى الحياة باعتبارها **حلبة للصراع**، وأن البقاء للأقوى/ الأصلح. بينما **تبدو لى الحياة ـ عند تأمل الطبيعة ـ ككائن واحد، يعمل فى توازن دقيق من أجل تحقيق التفاهم والانسجام، ليس بين الكائنات الحية فقط، ولكن بين جميع مكونات الطبيعة كمنظومة متكاملة**. إن البيولوجيا التقليدية لا تعطى اهتمامًا كافيًا لهذا التعاون منذ أن شبهها دارون بحلبة المصارعة، وقد آن الأوان **لأن نرسم خطًا يفصل بين عالمين؛ العالم الداروينى الذى تتصارع فيه روبوتات حية، وعالم البيولوجيا الجديدة التى تنظر إلى الحياة باعتبارها رحلة يتعاون فيها إناس أقوياء من أجل الحياة فى سعادة وحب**. ولقد آن الأوان لأن نعرف أننا **لسنا عبيدًا لجيناتنا، لكننا سادة لمصائرنا**.

البيولوجيا الجديدة

بدت على وجهى علامات الإعجاب، فاستطرد ليبتون شارحًا؛ وقال: إن ما أطرحه عليك ليس نظرة حالمة لرجل رومانسى، بل لقد تَكَشَّفَت للعلم الحديث منذ العقد الأخير من القرن العشرين معارف قلبت الكثير من مفاهيمنا البيولوجية التقليدية رأسًا على عقب. فلقد **ثبت أن الوسط المحيط (البيئة) بظروفه الطبيعية وما فيه من طاقات، وكذلك المتغيرات الداخلية فى جسم الإنسان هى المنظم لنشاط خلايانا، لذلك فإن وعى الخلية بما حولها وبما داخلها هو المتحكم الأول فى حياة الخلية. وبذلك وقف دور الجينات الأساسى عند توجيه بناء الخلايا والأنسجة والأعضاء**.

بناء على المفاهيم السابقة، تأسست **البيولوجيا الجديدة New Biology**، التى تقوم على علمين جديدين تمامًا: الأول هو **علم التحكم فى الجينات Epigenetics**، ويقوم بدراسة آليات تأثير البيئة (الداخلية والخارجية) على نشاط الجينات (تنشيط، كبت، تعديل نشاط) دون تغيير بنية الجينوم، وتُعرف هذه التعديلات **بالتعبير الجينى Gene Expression**. والعلم الثانى هو **علم تحويل الإشارات Signal Transduction**، الذى يهتم بدراسة التفاعلات الكيميائية داخل الخلية، والتى تستجيب بها الخلية للمتغيرات البيئية، وتؤثر بشكل مباشر على التعبير الجينى.

وإذا كان لوعى الخلية بما حولها وبما داخلها هذا التأثير الكبير على نشاط الخلية الواحدة، فلا شك أن له تأثير مشابه على الخمسين تريليون خلية التى تشكل جسم الإنسان. لذلك **ينبغى النظر إلى جسد الإنسان باعتباره مجتمعًا يضم خمسين تريليون فرد (خلية)**، ولكل من هذه الأفراد آلياته التى تساهم فى نشاطاته لتُخرج لنا فى النهاية هذا الإنسان. إن هذه النظرة الجديدة ترفع الإنسان من اعتباره ضحية لجينات فُرضت عليه، إلى أن يكون مشاركًا فى توجيه مصيره.

استقبلت ما طرحه عَلَىَّ د.ليبتون بدهشة شديدة، ولا شك أن الأمر احتاج إلى المزيد من الإيضاح، فسألته: حدثتنى عن الجديد فى **بيولوجيا الخلية**، ثم انتقلت منه إلى **بيولوجيا جسم الإنسان** ككل، فما حقيقة العلاقة بينهما؟

أجابنى ليبتون قائلًا، إنها علاقة شديدة التعقيد، **فإن كل خلية منفردة تمثل كائن حى يستطيع الحياة بمفرده**، ولا توجد وظيفة واحدة فى الجسم البشرى لا تقوم بها الخلية المنفردة! بدأ ظهور الكائنات وحيدة الخلية بعد أن استغرق كوكب الأرض الوليد ٦٠٠ مليون سنة ليبرد، ثم ظلت هذه الكائنات هى السائدة فى الأرض طوال ٢,٧٥ بليون سنة، قبل أن تبدأ الكائنات عديدة الخلايا فى الظهور منذ ٧٥٠ مليون سنة. **إن الدافع التطورى لنشأة الكائنات عديدة الخلايا كان «توفير الطاقة»** عن طريق تقسيم العمل[1]، بدلًا من أن تقوم كل خلية بالمهام كلها، وتُعرف هذه العملية **بالتمايز Differentiation**. وإذا كانت الخلية بعد تخصصها تقوم بمهام محددة، فإنها تحتفظ فى شفرتها الوراثية بآليات القيام بباقى مهام الجسم، وقد تأكد لنا ذلك بعد أن نجح العلماء فى استنساخ كائن متكامل (النعجة دوللى) من إحدى خلايا الغشاء المخاطى.

تلاشِى الحتمية الجينية

قلت لدكتور ليبتون؛ ذكرت أن عقب اكتشاف واطسون وكريك لبنية الدنا وطريقة أدائه لوظائفه اعتقد العلماء أن الدنا هو سر الحياة، وبعد ذلك أثبتت البيولوجيا الحديثة خطأ هذا المفهوم، فهلا زدتنى إيضاحًا. قال ليبتون: قبل اكتشاف واطسون وكريك بفترة، اعتقد العلماء أن **البروتينات تحدد** صفات الكائن الحى ونشاطاته، ثم أثبت هذا الاكتشاف دورَ الدنا فى بناء البروتينات، فتبدلت النظرة وأصبح **الاعتقاد أن الدنا** هو المايسترو المنظم للحياة، هذا بالإضافة إلى دوره الأساسى فى عملية التكاثر.

(١) للاستدلال على فاعلية تقسيم المهام، نذكر أن مصانع فورد للسيارات كانت تستغرق أسبوعين لتجميع السيارة الواحدة، وقد انخفضت هذه المدة إلى تسعين دقيقة بعد أن استخدم هنرى فورد خطوط الإنتاج التى تتخصص فيها كل مرحلة فى خطوة محددة.

ولما كان جسم الإنسان يشتمل على مائة ألف نوع من البروتينات، وعملًا بالقاعدة السائدة حينها بأن «**كل جين يُشَفِّر لبروتين واحد**»، فبحسبة بسيطة، تحتاج الخلية إلى مائة ألف جين لبناء بروتيناتها، بالإضافة إلى قرابة عشرين ألف جين لتنظيم عمل الجينات السابقة، أى أن نواة كل خلية فى جسم الإنسان ينبغى أن تحتوى على مائة وعشرين ألف جين.

ثم جاءت المفاجأة مع إعلان نتائج مشروع الجينوم البشرى عام ٢٠٠٠. فقد ثبت أن عدد جينات خلايا جسم الإنسان **لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف جين**، أى ٢٠٪ من العدد الذى سبق تقديره! إن ذلك يعنى ببساطة أن عدد الجينات ليس كافيًا ليفسر حياة الإنسان تبعًا لمفاهيمنا السابقة، وعلينا أن نبحث عن آليات أخرى. وقد عَبَّر عن ذلك عالِم البيولوجيا الكبير ديفيد بالتيمور David Baltimore ـ الحائز على جائزة نوبل ـ بقوله: «إن تميزنا عن الكائنات الأدنى منا، لا يرجع إلى زيادة عدد الجينات، ومن ثم لم يعد ممكنًا الاعتماد على الآلية الجينية وحدها لتفسير التطور. **إن التميز الإنسانى ما زال سرًا يحتاج إلى المزيد من البحث**»[1].

وأضاف، لذلك فإن من أهم النتائج الفلسفية لمشروع الجينوم، **تلاشِى نظرة الحتمية الجينية Genetic Determinism**، والتى تعنى أن الجينات تحدد مصائرنا، وقد تأكد خطأ ذلك بعد أن ثبت أن التغيرات البيئية، كالتغذية ودرجة الحرارة وكذلك التغيرات الداخلية كالانفعال، يمكن أن **تُغَيِّر من نشاط الجينات دون تغيير فى بنية الجينوم الأساسية** (علوم التحكم فى الجينات Epigenetics)، بل ويمكن أيضًا تمرير تلك التغيرات (فى النشاط) إلى الأجيال التالية.

آليات التحكم فى الجينات

واستطرد د. ليبتون قائلًا: وتعتمد **آلية التحكم فى الجينات** على ما ثبت من أن الدنا DAN يمثل فقط نصف محتوَى الكروموسومات، أما النصف الآخر فيتكون من بروتينات تنظيمية Regulating Proteins كان الباحثون يلقونها فى صناديق القمامة أثناء شغفهم الزائد بدراسة

(١) لتوضيح على هذا المعنى، نعقد مقارنة بين جيناتنا وجينات ثلاثة كائنات. **فالدودة البدائية** المعروفة باسم Caenorhabditis تتكون من ٩٦٩ خلية، منها ٣٠٢ خلية تُكَوِّن المخ (حوالى ١/ ٣ خلايا الجسم)، وبكل خلية من خلاياها قرابة ٢٤,٠٠٠ جين، أما **الإنسان** الأرقى منها كثيرًا والذى يتكون جسمه من خمسين تريليون خلية، فيتكون مخه من ١٠٠ بليون خلية (١/ ٥٠٠ من خلايا الجسم!) وبكل خلية من خلاياه ٢٥,٠٠٠ جين. أى يزيد عن الدودة البدائية بمقدار ١٠٠٠ جين فقط!. أما **ذبابة الفاكهة** (الأكثر تعقيدًا من الدودة) فتحوى كل خلية من خلاياها قرابة ١٠,٠٠٠ جين أقل من الإنسان، بينما تتساوى عدد جينات **الفأر** مع جيناتنا. وتبين هذه المقارنات أن عدد الجينات ليس بالعامل الحاسم فى تفوق الكائنات!

الدنا. وتُشكل هذه البروتينات غلافًا يحيط بالدنا ويمنع قراءة ما به من المعلومات؛ ومن ثم يمنعه من ممارسة مهامه. وهنا يأتى دور المؤثرات البيئية، فهى تغير من شكل الغلاف البروتينى، فينفصل عن الدنا، مما يسمح بقراءته وتنفيذ ما يحمل من معلومات.

وبدلًا من أن كانت **البطولة الأولى للجينات**، وكانت معادلة الحياة هى:

الدنا ←— الرنا[1] ←— البروتينات.

صارت **البطولة الأولى للعوامل البيئية**، وأصبحت معادلة الحياة هى:

المؤثر البيئى ←— البروتين المُنَظِّم ←— الدنا ←— الرنا ←— البروتينات

كذلك ثبت أن الآلية البيولوجية «**الفطرية**» لا تنفرد بتوجيه عملية بناء البروتينات، بل تشاركها آلية أخرى، وهى آلية بيولوجية «**مكتسبة**» محورها العوامل البيئية التى تتحكم فى الجينات. ولهذه الآلية المكتسبة فاعلية كبيرة، حتى إن تعامُل العوامل البيئية مع أحد الجينات يؤدى إلى اختيار واحد من ألفى نوع من البروتينات التى يمكن أن يقوم هذا الجين ببنائها! هذا بعد أن كان المفهوم السائد «جين واحد لبروتين واحد». أليس هذا دور هائل للعوامل البيئية؟

كما ثبت للبيولوجيين أن الجينات ليست بالثبات الذى كانوا يتصورنه، ويوضح ذلك الظاهرة المعروفة **بالانتقال الجينى Gene Transfer**، حيث تنتقل بعض الجينات من كائن إلى كائن آخر من نفس الجنس، بل وإلى جنس آخر، **وكأن ليس هناك فاصلًا حقيقيًّا بين الأجناس!**. وإذا كانت الجينات تمثل أرشيف المعلومات المتوارَثة وأيضًا المكتسبة، فإن الانتقال الجينى يؤكد **إمكانية تبادل المعلومات بين أرشيفات الكائنات، وكأن الطبيعة تسلك لمصلحة كائن واحد، وهو الحياة على كوكب الأرض**. ويجب ألا نغفل أن الانتقال الجينى ـ عندما يتدخل الإنسان فى توجيهه ـ يمكن أن يؤدى إلى **أضرار كثيرة!** فإذا كانت هندسة الجينات قد استطاعت أن تضفى على الطماطم مقاومة أكبر وحياة أطول، فقد تنتقل هذه الصفات من الطماطم (أثناء الهضم) إلى البكتريا غير الضارة التى تعيش فى أمعاء الإنسان، فتزيد من ضراوتها بشكل يهدد بقاء الجنس البشرى!

أستدرجتُ على معلومة ذكرها ليبتون فى حديثه، وسألته، **وهل تُسَجَّل الصفات المكتسبة فى جينات الخلية؟**

---

(١) الرنا RNA، ثانى الأحماض النووية فى نواة الخلية، وهو أبسط تركيبًا من الدنا DNA، ويقوم بالدور الرئيسى فى نقل المعلومات من نواة الخلية إلى خارجها، ثم يقوم بتوجيه عملية بناء البروتينات.

أجابنى ليبتون قائلًا؛ إذا كان الإنسان يتعلم من البيئة المحيطة فإن الخلايا أيضًا تتعلم من بيئتها المحيطة. ومن أهم أمثلة ذلك **خلايا المناعة**، التى تُكَوِّن ذاكرة خلوية تُسَجَّل فى جيناتها وتجعلها قادرة على التعرف على البكتريا الغازية إذا هاجمت الجسم مرة أخرى، ويتم تمرير هذه المعلومات المكتسبة عن طريق الجينات إلى الأجيال الجديدة من الخلايا. وهذا **ينفى ما يتمسك به المتحمسون للحتمية الجينية من أن الصفات المكتَسَبَة لا تُسَجَّل فى الجينات ومن ثم لا تُوَرَّث**، ويُعَد بحق ثورة فى معلوماتنا البيولوجية.

مخ الخلية وسر حياتها

من أجل الاستزادة عن دور الجينات فى حياة الخلية؛ سألت ليبتون: إذا كان المخ هو العضو المسئول عن التحكم فى وظائف أعضاء وسلوك الكائن، وإذا كان تلفه يعنى الموت، فهل تمثل النواة للخلية نفس الأهمية، أى **هل النواة هى مخ الخلية**؟

أجابنى ليبتون قائلًا؛ من أجل الإجابة عن سؤالك المحورى هذا، قام علماء الخلية بعدد من التجارب **أزالوا فيها نواة الخلية** Enuclcation، ثم تابعوا ملاحظتها لينظروا كيف تسلك. كانت النتائج مذهلة، لقد عاشت كثير من الخلايا لمدة شهرين بدون نواتها (بدون جيناتها). لقد احتفظت الخلية بقدرتها على الحركة، وابتلاع الطعام، والتمثيل الغذائى، والتنفس، والهضم، والإخراج، والتواصل مع الخلايا الأخرى، والتفاعل تجاه المتغيرات البيئية. فقط لم تستطع الخلية الانقسام والتكاثر، بالإضافة إلى عدم القدرة على تجديد ما يَنفد من بروتيناتها، وهذا هو سبب موتها فيما بعد. إن ذلك يعنى **أن مخ الخلية ظل موجودًا ويعمل فى غياب جيناتها**. لذلك نعتبر ـ مع بعض التجاوز ـ **أن النواة ليست مخ الخلية، بل هى غددها التناسلية (المناسل) التى تقابل المبيضين والخصيتين فى الحيوانات!**

أثار ما قاله ليبتون دهشتى، وبَدَّدَ الغيوم التى تجمعت فى عقلى طوال أكثر من عامين، نتيجة لما قرأته وسمعته فى الإعلام، عندما أعلن **عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكى كريج ڤنتر** فى العشرين من مايو عام ٢٠١٠ أنه **قام باستبدال كروموسوم**[١] **خلية بكتيرية بكروموسوم آخر قام بتجميعه من مكوناته** (الأحماض النووية) فى المعمل، وقد استمرت الخلية فى الحياة وقامت بالانقسام وبتصنيع البروتينات تبعًا لشفرة الكروموسوم المُصَنَّع الجديد. عندها قامت الدنيا

(١) يحتوى الكروموسوم على مجموعة من جينات الخلية.

ولم تقعد، تعالت صيحات الإعلام: أول خلية صناعية، حياة صناعية، خلقوا الخلية، خلقوا الحياة، أضافوا كائنًا جديدًا إلى قائمة الكائنات الحية، وغيرها[1]...

سألت ليبتون عن حقيقة ما فعله كريج ڤنتر، فأجابنى؛ الأمر كما ذكرت تمامًا، فقد أحضر ڤنتر خلية بكتيرية من جنس المايكوبلازما ونزع كروموسومها الأوحد، أى أزال الأرشيف الخاص بكيفية تصنيع البروتينات فى الخلية وبآلية التكاثر، **وبقيت الخلية حية**. ثم صَنَّعَ ڤنتر كروموسومًا مطابقًا لكرموسوم بكتريا من نوع آخر من نفس جنس المايكوبلازما، وقام بوضع هذا الأرشيف الجديد (الكروموسوم) فى الخلية الأولى التى بقيت حية، عندها قامت الخلية المُجمَعَّة بالانقسام وبناء البروتينات تبعًا للمعلومات الموجودة فى الأرشيف الجديد.

وأضاف ليبتون؛ إن ذلك يثبت ما سبق أن ذكرتُه من أن الجينات (التى يتكون منها الكروموسوم) ليست هى سر الحياة وليست هى مخ الخلية، إذ بقيت الخلية حية بعد أن نزع ڤنتر نواتها.

سألت ليبتون، وكيف تصف أو تُصَنِّف ما فعله ڤنتر؟ أجابنى، **لقد قام ڤنتر بعملية «استبدال»**، إذ استبدل أرشيفًا للمعلومات الخاصة بمهمة معينة بأرشيف آخر، تمامًا كما يستبدل الجراحون عضوًا تالفًا فى جسم الإنسان بعضو آخر، خاصة الكبد، إذ إن كرموسومات خلايا الكبد تحمل الأرشيف (الشفرة) الخاص ببناء الكثير من بروتينات الجسم.

سألت ليبتون؛ إذا لم تكن الجينات (التى تتكون منها كرموسومات النواة) هى سر الحياة، وليست هى مخ الخلية، فما هو مُكَوِّن الخلية الذى يمكن نسبة هذه المهام إليه؟

ابتسم ليبتون وقال؛ قد تندهش إذا عرفت أننى أعتبر أن مخ الخلية وسر الحياة هو **«غشاء الخلية»** الذى يحيط بها ويحفظ مكوناتها! **ذلك الغشاء المُعجِز الأعجوبة**.

وبدأ ليبتون يشرح لى حيثيات رأيه، فقاطعته قائلًا؛ قبل أن تسترسل فى تلك التفاصيل العلمية، يُلِحُّ علىَّ سؤال مهم، هل سيتمكن العلماء من تصنيع غشاء الخلية فى المعمل فى المستقبل، فأجابنى؛ الأرجح جدًّا أن لا. فقاطعته؛ وإذا استطاعوا، **هل نقول أنهم قد صَنَّعوا الحياة فى المعمل**، فنظر إلَىَّ ليبتون نظرة ذات معنى، وتأرجَحَت على شفتيه ابتسامة، وهز رأسه بالإيجاب!.

كان الوقت قد أزف، وافترقنا أنا وليبتون على موعد بلقاء آخر بعد أيام.

* * *

(١) راجع تفاصيل ما قام به كريج ڤنتر فى كتابى «كيف بدأ الخلق»، الفصل الرابع، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الثانية ٢٠١٢.

تجميع الخلية الحية

طوال أيام انتظارى لموعد لقائى مع د. ليبتون، كانت هناك فكرة محددة تطفو على السطح ثم تغيب فى أعماق عقلى؛ **هل يستطيع العلماء حقًّا أن يُصَنِّعوا الحياة فى المعمل!** ألا يتعارض ذلك مع تحدى الله ﷻ للكفار مجتمعين بأن يخلقوا ذبابًا؟!. وهل يدعم ذلك رأى الماديين الملاحدة الذين يَدَّعون أن إيجاد الحياة لا يحتاج لخالق ذى قدرات إلهية، بل إنه أمر يمكن أن يقوم به العلماء فى المعمل!؟

أَخَذَت هذه الفكرة تراودنى فى يقظتى ومنامى، وأَخَذْتُ أفكر فى احتمالاتها وتداعياتها، ولا شك أن عقلى اللاواعى كان يتعامل مع الفكرة أيضًا، ذلك أننى قبل موعد لقائى التالى مع ليبتون بيوم واحد تَكَوَّن فى ذهنى **تصور علمى فلسفى متناسق شبه مكتمل**، يجيب عن هذه القضية الحرجة، فقررت أن أطرحه على ليبتون لأستطلع رأيه فيه أثناء لقائنا نا الذى انتظرته متلهفًا.

قلت لليبتون: أرى أن العلماء إذا نجحوا فى تصنيع غشاء الخلية وباقى مكوناتها، كما سبق وصَنَّعوا كروموسوم بكتريا الميكوبلازم، فإنهم بذلك يكونون قد **«جَمَّعوا» الخلية من عناصرها، ولا أقول قد «قلدوا» الخلية**، فالتقليد يتطلب بناء هذه العناصر من موادها الأولية، وهم لم يفعلوا ذلك عند تصنيع الكروموسوم، بل جَمَّعوه من مركبات معقدة موجودة بالفعل، تُعرف بالقواعد النيتروجينية (النيكلوتايد Nucleotides)[1]. حتى وإن صَنَّع العلماء مكونات الخلية من عناصرها الأولية، فإنهم يكونوا قد **صَنَّعوها من عناصر أوجدها الخالق** ﷻ، **وأيضًا بناء على المعلومات التى صَنَّعَ الله ﷻ بها هذه المكونات وهذه الخلية**. أى أنهم يكونون قد استخدموا **«المُكون المادى»** الذى خلقه الله ﷻ، واتبعوا نفس **«المُكون المعرفى»** الذى ابتدعه الله ﷻ، والذى يشتمل على كم هائل من المعارف يتجاوز **تريليونات البَيْتَات** Bites بلغة الكمبيوتر. ويصف المتخصصون فى علم المعلومات هذا المكون المعرفى بأنه **سر الصنعة The Know How**، لذلك تحتفظ به الشركات العالمية الكبرى كأهم الأسرار الخاصة بمنتجاتها.

وأعقبت رؤيتى هذه بأن شرحت لليبتون معنى **«الخلق» كما نعرفه فى العقيدة الإسلامية**، فهو **«الإيجاد من عدم على غير مثال سابق»**، ثم سألته، إذا نجح العلماء فى تصنيع كل مكونات الخلية هل نعتبرهم قد خلقوا الخلية أو خلقوا الحياة تبعًا لفهمنا الإسلامى؟ أجابنى ليبتون

---

(١) يتركب جزىء النيكلوتايد من: (١) جزء من السكر الخماسى (الريبوز) منزوع الأكسجين و(٢) قاعدة نيتروجينية. و(٣) مجموعة فوسفاتية.

قائلًا: بالقطع لا، بل إننى أوافقك تمامًا فى أنهم لم يوجِدوا الخلية من عدم، بل **استخدموا «المكون المادى» الذى خلقه الإله**، كما أنهم لم يوجدوا الخلية على غير مثال سابق، بل **استخدموا نفس «المكون المعرفى» الذى ابتدعه الإله**.

نكتة !!!

سعدت كثيرًا عندما وافقنى ليبتون على رؤيتى التى تثبت خطأ ادعاء الملاحدة بأن العلماء يمكن أن «يخلقوا» الحياة فى المعمل. وعندها رويت له «**نكتة**» كنت قد قرأتها للصحفى الأمريكى «لى ستروبل»[1] فى كتابه «قضية الخالق»، فهذه النكته تجسد المعانى التى طرحتها تمامًا، يقول ستروبل:

جلس مجموعة من العلماء يتحاورون مع الإله! قال بعضهم: نستطيع أن نفعل كل الأشياء التى فعلتها! فسألهم: مثل ماذا؟

قالوا: نستطيع أن نخلق إنسانًا!

سألهم الإله: كيف؟

قالوا نُحضِر بعضًا من التراب...، وقبل أن يكملوا كلامهم قاطعهم الإله قائلًا: أَحضِروا ترابَكم الخاص بكم، ولا تستخدموا التراب الذى خلقته أنا!

قال بعضهم: حسنًا، لقد بدأتَ الخلقَ من العدم بمنتهى البساطة، فقد قَسَمْتَ العدم إلى سالب وموجب، وخلقتَ منهما الوجود. بدليل أننا لو جمعنا سوالب الكون وموجَباته حصلنا على صفر (العدم)، ونحن سنُصَنِّع التراب بنفس الطريقة.

أجابهم الخالق ﷻ، عليكم أولًا أن تخلقوا قانونًا مثل (−) + (+) = صفرًا، أو على الأقل عليكم أن تُفَعِّلوا هذا القانون! الذى خلقته أنا.

ضحكت أنا وليبتون كثيرًا، وعلق قائلًا؛ إن هذه النكتة تغنى عن صفحات طويلة من الطرح العلمى والفلسفى، بل وتغنى عما أنفقتَ فيه الليالى متفكرًا محتارًا قلقًا. ولا شك أنها تضع الملاحدة فى حرج شديد لا يزول مهما حقق العلم من إنجاز.

---

(١) ظل لى ستروبل ملحدًا حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم آمن بوجود الإله الخالق.

غشاء الخلية المُعجِز الأعجوبة

قلت لليبتون: نعود إلى قضية مخ الخلية وسر الحياة. لقد ذكرت أن «غشاء الخلية» هو أقرب مكوناتها لأن يستحق هذا الوصف، فكيف ذلك؟

أجابني ليبتون: إذا كان **الدنا DNA** يحمل المُخَطَط التفصيلي Blue Print لكيفية تكوين البروتينات اللازمة لبنية ووظيفة الخلية، فإنه ليس مسئولًا بشكل مباشر عن **تعامل الخلية مع الوسط المحيط**، تلك المهمة التى تتوقف عليها حياة الخلية، ومن ثم، ليس الدنا هو المسئول الأول عن حياة الخلية. **إن مهمة التعامل مع الوسط المحيط يقوم بها غشاء الخلية**، الذى إذا **أُتلف ماتت الخلية**، وإذا تم إعطاب ما به من «مكونات نشطة» **دخلت الخلية فى غيبوبة** تشبه حالة الموت الدماغى فى الإنسان! لذلك **استحق غشاء الخلية أن يُعتبر هو مخ الخلية وسر الحياة.**

سألت ليبتون؛ ما هى تلك «**المكونات النشطة**» التى إذا أُعطبت دخلت الخلية فى غيبوبة؟!

أجاب ليبتون: من أجل أن يقوم غشاء الخلية بمهامه الذكية، تم تزويده بـ«**مستقبلات Receptors**» **تعمل كهوائيات أو قرون استشعار تدرك ما حولها خارج الخلية وأيضًا ما بداخلها**. كما تم تزويد غشاء الخلية بـ«**مستجيبات Effectors**» تتلقى التعليمات من المستقبلات، **فتفتح بواباته أو تغلقها**، لتسمح أو تمنع مرور المواد المختلفة إلى داخل وخارج الخلية، وذلك تبعًا لما ترصده المستقبلات من ظروف بيئية داخل الخلية وخارجها.

وهناك مئات الآلاف من المستقبلات والمستجيبات فى غشاء كل خلية، تعمل معًا فى **تناغم وتنسيق**، وهو ما يُسمى بـ«**الأسلوب الجَمعى Holisitic**» الذى يعتمد على فيزياء وكيمياء الكوانتم. والمدهش، أن **تلك المستقبلات والمستجيبات فى غشاء الخلايا البكتيرية عديمة النواة، تقوم بجميع المهام التى يقوم بها المخ البشرى!**

سألت ليبتون سؤالًا ربما بدا له ساذجًا: لقد ذكرت أن مستقبلات ومستجيبات غشاء الخلية تعمل تبعًا لكيمياء وفيزياء الكوانتم، وأنا أعرف أن رقائق الكمبيوتر Computer Chips تعمل أيضًا تبعًا لقوانين الكوانتم، **فهل يمكن تشبيه أداء غشاء الخلية بأداء رقائق الكمبيوتر**؟

صاح ليبتون، براڤو! لقد أصبت، فكلاهما عبارة عن بللورات سائلة[1]، تخضع فى عملها لنفس القواعد.! وإذا كان يمكن تعريف غشاء الخلية بأنه «**غشاء من بللورات سائلة، له القدرة على التوصيل المتمايز Semiconductor (يسمح بمرور مواد ولا يسمح بمرور مواد أخرى) ومزود ببوابات (المستقبلات) ومسارات (المستجيبات)**»، فإن هذا ينطبق تمامًا على شرائح الكمبيوتر التى تُوصَف بنفس الوصف: Semiconductor Crytals with gates and channels.

وإذا نظرنا إلى شرائح الكمبيوتر، وجدنا منها أنواعًا عديدة تبعًا لوظيفتها، ومن أهمها تلك التى **تستقبل المُدخَلات وتعالجها ثم تمرر التعليمات إلى تراكيب أخرى لتقوم بالتعامل معها**، وهذه إحدى وظائف جدار الخلية.

ومن جوانب الشبه الأخرى بين غشاء الخلية وشرائح الكمبيوتر، أن **كليهما تتم برمجته من الخارج**؛ المبرمِج فى حالة الكمبيوتر، والبيئة ـ وليس الجينات ـ فى حالة غشاء الخلية. لذلك **ينبغى النظر إلى نواة الخلية باعتبارها اسطوانة الذاكرة Memmory Disc التى تحمل وصفة بناء البروتينات، وليس باعتبارها المبرمِج**. والدليل على ذلك ـ كما ذكرنا ـ أن إزالة نواة الخلية يؤدى إلى فقدان القدرة على بناء البروتينات، وليس إلى فقد برامج الخلية.

لذلك نعتبر أن المسئول عن التعامل مع المتغيرات داخل وخارج الخلية بل والتعامل مع مختلف مشاعر الإنسان هو جدار الخلية، مما جعله **جديرًا بأن يوصف بأنه (وليس النواة) مخ الخلية الحقيقى**.

عند ذلك الحد، وجدت نفسى أهمس قائلًا: **سبحان الله**...

ثم أضاف ليبتون قائلًا؛ وبالرغم من ذلك، ما زال الكثير من علماء البيولوجيا ينظرون إلى الجينات باعتبارها المسئولة عن برمجة الخلية، ويعتبرون أن هناك حتمية جينية، أى أنه لا يمكننا الفرار مما تم برمجته فى جيناتنا. وهذا **خطأ كبير لن يتم إصلاحه إلا بإعطاء غشاء الخلية ما يستحقه من اهتمام**. إن التخلص من مفهوم الحتمية الجينية يضع مصير حياتنا فى أيدينا، فنحن

---

(١) البللورات عبارة عن تكوينات تتراص جزيئاتها فى شكل منتظم متكرر، (كالجنود الواقفين فى طابور عسكرى)، ومن البللورات ما هو صلب كالماس وملح الطعام، ومنها ما هو سائل كتلك المستخدَمة فى واجهة الساعات الرقمية وشاشات الكمبيوتر الشخصى. وغشاء الخلية بللورات من النوع الثانى، الذى تسمح حالته السائلة بأن ينثنى ويَتَلَوى دون أن تفقد جزيئاته تراصها، تمامًا كالطابور العسكرى إذا سار ودار حول مبنى وظل محتفظًا بتراص جنوده.

قادرون على برمجة الخلية من خلال غشاء الخلية (عن طريق ظروفنا البيئية وحالتنا النفسية والروحية)، ومن ثم **فنحن سادة مصائرنا ولسنا ضحايا لجيناتنا**.

الخلية والطاقة

شجعني هذا الوضوح والبساطة في العرض، الذين تميزت بهما إجابات د.ليبتون على أن أستزيد وأطرح عليه سؤالًا طالما شغل بالي. سألته؛ لا شك أن «**الطاقة**» إحدى المؤثرات التي تستشعرها مستقبلات غشاء الخلية، ومن ثم تؤثر في نشاطها، وبالتالي في نشاط وتوازن الإنسان ككل. فهل يدعم ذلك ما نسمع عنه الآن كثيرًا في الشرق والغرب، بخصوص **العلاج بالطاقة والعلاج الروحاني وغيرها من أنواع العلاج التي يختلط فيها العلم والدَّجَل**؟ وهل لهذه الدعاوَى أساس علمي؟

أجابني ليبتون: ما زال **اختبار هذه الأنواع من العلاج بالمنهج العلمي الصحيح في بداياته**[1]، وهذا هو المقياس الحاسم للتفريق بين العلم والدجل، لذلك **لا أؤيد اللجوء إلى هذه العلاجات حتى يتضح الأمر**. ولكن دعني أحدثك عما ثبت من **دور الطاقة في نشاطات الخلية ونشاطات جسم الإنسان**. لقد ثبت أن العديد من أشكال الطاقة الكهرومغناطيسية تؤثر في بناء جزيئات الدنا والرنا والبروتينات، وأنها تتحكم في عمل الجينات وانقسام الخلايا وتخصصها وانتظامها في أنسجة وأعضاء، وكذلك في إفراز الهورمونات، وأيضًا في نمو الأعصاب ونشاطات الخلايا العصبية.

كما ثبت **أن الموجات الكهرومغناطيسية أكثر كفاءة بمقدار مائة مرة - على الأقل - من الوسائل الكيميائية**[2] **في مجال نقل المعلومات إلى مختلف أجزاء الخلية**. ولما كانت المعلومات حيوية جدًا للحياة، فانظر أي الوسيلتين أفضل لتداولها داخل الخلية؛ الموجات التي تنتقل بسرعة الضوء (١٨٦,٠٠٠ ميلا في الثانية) أم الرسائل الكيميائية التي تنتقل بسرعة ١ سم في الثانية؟. كذلك فإن العمليات الكيميائية يصحبها فقدان كميات كبيرة من الطاقة، ومن ثم فما يتبقى من طاقة يكون محدودًا (نسبيًّا) مما يحد من كمية المعلومات التي يتم نقلها[3].

كذلك ثبت أن الذرات داخل وخارج خلايا الجسم تكون في حركة دائبة يمكن قياس

---

(١) سنعرض في الفصل القادم أهم ما تم من أبحاث هذا المجال.

(٢) تعتمد على الهورمونات والناقلات العصبية وغيرها.

(٣) من بحث نشره C.w.f. Mc Clare بعنوان Resonance in Bioenergetics

تردداتها، وتُنتج الذرات المتحركة موجات كتلك الناشئة عن إلقاء حصاة فى الماء. وتختلف موجات كل ذرة عن الأخرى، وعندما تتلاقى الموجات الناشئة من الذرات المختلفة فإنها إما **تتناغم** فترتفع قممها **(التداخل البَنَّاء)** وإما **تتعارض** فتخمد **(التداخل الهَدَّام)**[١]، ولا شك أن ذلك يؤثر فى تبادل المعلومات داخل الخلية. ألم يحدث فى موقف ما أن شعرتَ فجأة بالإجهاد وبأنك قد فقدت الكثير من طاقتك، وفى موقف آخر تشعر بالهمة والنشاط يجتحانك، وكأنما قد تم شحنك بالطاقة فجأة! **إنه التداخل البناء والتداخل الهدام!**[٢].

واختتم د.بروس ليبتون حواره معى قائلًا: وهكذا **ثبت خطأ مفهوم الحتمية البيولوجية، بعد أن تبين أن النشاطات الرئيسية للخلية وكذلك مشاعرنا وسلوكياتنا تتحكم فيها عوامل خارجية وعوامل داخلية ليس لجيناتنا دخل فيها.**

القارئ الكريم

لقد كان «**للبيولوجيا الجديدة**» الفضل فى أنها أطلقت إسارىِ من قيود أكذوبة «الحتمية البيولوجية»، **فأنا (الذات الإنسانية) لست عبدًا لجينات أنانية تجعلنى مُسَيَّرًا مقهورًا، بل إننى سيدًا لمصيرى.**

إن الخلية الحية كائن متكامل، يحكمه مخ متفاعل مع البيئة المحيطة والوسط الداخلى للخلية، إن هذا المخ ليس هو جيناتنا، لكنه **غشاء الخلية** المحيط بها، ذلك الغشاء المُعجِز الأعجوبة، والذى تموت الخلية من فورها إذا تم إعطابه. إن القائلين بسيادة الجينات لم يهنئوا بأوهامهم قصيرة العمر، بعد أن أظهر العلم أن الحياة والمشاعر والسلوك أمور شديدة التركيب.

لقد أَسدلت «البيولوجيا الجديدة» الستار على عالم الداروينية، الذى يصور الدنيا كحلبة للصراع بين روبوتات ينتصر فيها الأقوى، وفى الوقت نفسه فتحت آفاقنا على حياة جديدة تمثل **رحلة يتعاون فيها إناس أقوياء من أجل الحياة فى سعادة وحب.**

* * *

---

(١) Oschaman 2000

(٢) وبالرغم مما ذكرنا من معارف، حول دور الطاقة فى وظائف الخلية، فلا شك **أن العلماء لم يستخدموها حتى الآن فى المجال التطبيقى إلا بقدر ضئيل للغاية**. مثال ذلك استخدام الصدمات الكهربائية للمخ لعلاج حالات الصرع والاكتئاب والانفصام، والتى يتم استبدالها الآن بالتنشيط المغناطيسى للمخ. وكذلك استخدام مبدأ التداخل البناء فى تفتيت حصوات الكلى عن طريق طاقة الموجات فوق الصوتية.

الفصل الرابع

قوى الإنسان الخفية

- دعوة واستجابة
- تحذير
- الطاقة؛ بيولوجيًا وكونيًا ... تأثير متبادل
  أولًا: المجالات المغناطيسية تؤثر فى بيولوجيا الإنسان الجسدية والعصبية
  ثانيًا: قلوبنا تدق معًا
  ثالثًا: أفكارنا تؤثر فى النباتات
  رابعًا: بعض القدرات الخارقة
  خامسًا: العلاج عن بُعد
  سادسًا: تأثير النية العدوانية ـ من شر حاسدٍ إذا حسد
  سابعًا: أفكارنا تؤثر فى عالم الإلكترونيات
- آليات التواصل والتأثير
  ١ - صبى يتأمل: الإنسان مُرسِل ومُستقبل
  ٢ - تسجيل وقياس النشاطات الكهربائية لأفكارنا!
  ٣ -كذلك الطاقة المغناطيسية
  ٤ -وأيضًا طاقة ضوئية
  ٥ - ما تأثير هذه الطاقات على المادة؟
- حواراتى مع ويليام تيللر
  - موقف الأوساط العلمية التقليدية من المفاهيم الجديدة
  - رحلة ويليام تيللر الفكرية
  - ما بعد الفيزياء المعاصرة
  - تجارب ويليام تيللر
  - طاقة الضوء .. والتأثير عن بُعد
  - الطاقة غير المتشكلة
  - العالم الداخلى والعالم الخارجى
  - كيف نُغَيِّر العالم
  - معراج الروح
- القارئ الكريم

أتعرض فى هذا الفصل لأحد أشد المفاهيم غموضًا وأكثرها تحييرًا عن ذاتى الإنسانية، وهو الخاص بقوى الإنسان الخفية.

فمما لا شك فيه أن **هناك العديد من الظواهر التى لا تخضع لأسس ومفاهيم العلم** المعاصر، الذى لم يجد بُدًّا من **تجاهلها، انتظارًا** لتقديم المزيد من الأدلة عليها. وفى نفس الوقت فإن **حضارات الشرق الأقصى** عبر آلاف السنين تعترف بالكثير من هذه الظواهر، وتُقَدِّم على حدوثها الأدلة ولحدوثها التفسيرات، كما تضع لها تطبيقات عملية ناجحة متعددة.

ولعل من أشهر هذه الظواهر **العلاج بالإبر الصينية Acupuncture**، الذى أَقَرَّت أخيرًا **الهيئة القومية للصحة NIH بالولايات المتحدة** بدوره فى التشخيص والعلاج، فأصدرت بيانًا جاء فيه: بالرغم من أنه يصعب تفسير الكثير من جوانب الطب الصينى التقليدى فى ضوء مفاهيمنا التشريحية والفسيولوجية، فسيظل لاستخدام الإبر الصينية دور كبير فى تشخيص وعلاج العديد من الحالات المرضية.

ومن هذه الظواهر أيضًا، ما **أطلَقَت** عليه علوم المخ والأعصاب **«ظواهر الإدراك خارج الحس Extra - Sensory Perception»**، كالتخاطر عن بُعد Telepathy، والرُؤَى المُسبَقَة، والرُؤَى الصادقة، والرؤية عن بُعد. **وهناك مجموعة من الظواهر الميكانيكية؛ كتحريك الأجسام عن** بُعد Telekinesis، ورفع الأجسام والأشخاص فى الهواء Object lifting. وهناك أيضًا ظواهر تشمل القدرة على **التأثير غير الميكانيكى عن بُعد، كالمعالجة من الأمراض** (يقال أن راسبوتين، الشخصية الروسية الغامضة كان ممن يتمتعون بهذه القدرة) وغير ذلك من الظواهر.

دعوة واستجابة...

إذا كانت هيئات علمية محترمة (على رأسها الهيئة القومية للصحة NIH بالولايات المتحدة) قد أَقَرَّت بأن لدى الحضارات الشرقية مفاهيم صحيحة غريبة على العلم المعاصر، **فقد آن الأوان**

أن يأخذها العلم بجدية، وأن يُنفق على دراستها بسخاء، ليتحرى صدقها ولتفسير الصحيح منها، بدلًا من تجاهلها بأسلوب يُضَيِّع حقائق علمية شديدة الأهمية.

وإذا كنا نُقَدِّر دافع العلم المعاصر لتجاهل تلك المفاهيم، إذ لا يمكن تفسيرها فى إطار الأسس التى اعتمدها المنهج العلمى، كما أن البراهين الجازمة بصحتها لم تُقَدَّم بعد، فيجدر هنا الإشارة إلى مقولة لعالم الفيزياء الكبير ويليام تيللر[١] تحدد ما ينبغى أن يكون عليه العلم من عقل منفتح وصدر رحب، يقول: «إن كل تقدم فى العلم يُعتبر تطرف فى موضع ما، وكل اكتشاف علمى جديد هو ـ فى جزء منه ـ تَحَدٍ لوجهات النظر القائمة، **ولكى تكون مستكشفًا حقيقيًّا للعلوم عليك ألا تخاف من اقتراح ما لا يمكن التفكير فيه**».

وإذا كان **فلاسفة العلوم يُعرِّفون المنهج العلمى لدراسة الظواهر الطبيعية بأنه**: «طرق التوصل إلى المعرفة باستخدام منهج الملاحظة وإجراء التجارب التى يوصلنا تكرارها إلى نفس النتائج»، فإن هذا التعريف لا يأخذ فى الاعتبار أن **هناك طرقًا ذاتية داخلية لسبر العالم الخارجى، مثل الحدس والبداهة والحس الباطنى والتوقع**. وقد أسقط العلم هذه الطرق من اعتباره، إذ لا يمكن إثباتها بالأسلوب العلمى التقليدى، بالرغم من صدقها فى كثير من الأحوال، مثال ذلك إحساسى بـ «**أننى أحب أبنائى**»، فبالرغم من صدق ذلك الشعور، فإنه لا يمكن إثباته بالأسلوب العلمى، إن ذلك مثال لما نصفه بأنه «حس ذاتى Noetic».

ولما كان **وعينا الإنسانى** (غير المادى) هو محصلة نشاط المخ وتواصله مع نشاطاتنا الجسيمة ومع العالم المحيط، فيمكن القول إن **تجاربنا الذاتية تنبع من المادة**، مما يؤكد **العلاقة بين ما هو ذاتى وما هو مادى**. لذلك فقد تأسست حديثًا مجموعة من العلوم تُعرَف بـ «**علوم البصيرة = علوم المعرفة الذاتية Noetic Sciences**» التى **تهتم باستخدام المنهج العلمى لدراسة التجارب الذاتية، وكذلك دراسة الآليات التى يمكن أن يؤثر بها وعينا (أفكارنا ونياتنا) فى العالم المادى**. والكلمة اليونانية Noetic تعنى «**الحكمة الباطنة**»، أو «**الفهم الذاتى**» أو «**المعرفة المباشرة**». وقد عَرَّفَها الفيلسوف الكبير William James عام ١٩٠٢ بأنها: **كشف الحكمة الباطنة الخفية باستخدام العقل المنطقى والمنهج العلمى**.

وفى عام ١٩٧٣، أسس رائد الفضاء الأمريكى إدجار ميتشيل Edgar Mitchell [٢] مؤسسة علوم البصيرة **The Institute Of Noetic Science IONS**. وقد قال معلقًا على

(١) سيتم التعريف به بعد قليل.
(٢) أحد أفراد رحلة أبوللو ١٤ وسادس رجل سار على القمر.

رحلته الفضائية، ومفسرًا سر اهتمامه بهذه العلوم: «لقد أدركت بشكل مباشر معنى التواصل مع الكون، كما أدركت أن الكون لا يمكن أن يكون نتاج حادث عشوائى» وأضاف «إن الحقيقة أعقد وأغرب كثيرًا مما تُظهره العلوم الطبيعية، ولا شك أن فهمنا لمعجزة الوجود لا يتحقق إلا بالتفاعل بين الوجود الداخلى والوجود الخارجى».

ولحسن الحظ، فإن عددًا من العلماء الكبار الذين يعملون فى مراكز علمية محترمة قد أخذوا الظواهر السابقة مأخذ الجد، وبدأوا فى سبر أغوارها بإجراء التجارب الدقيقة ملتزمين بالمنهج العلمى الصحيح، فتأكدت لهم صَحة عدد منها، كما وضعوا أيديهم على بعض آليات تلك الظواهر.

تحذير ...

القارئ الكريم... طالعتُ العديد من الدراسات العلمية المحترمة، وتأملت أعمال عددٍ من العلماء الكبار الذين أجروها، فتأكَدَت لى «قدرة الوعى البشرى ونشاطات الإنسان العقلية على التأثير بشكل مباشر على عالم المادة من خلال طاقة خاصة». ويُعتَبر هذا المفهوم أمرًا شديد الأهمية، فهو مرتبط، فهو بجوهر ذواتنا الإنسانية، ولا ينبغى أن يغيب عنا، وإلا لصرنا كالمسيخ الدجال، ذلك الأعور الذى لا يُبصر من الإنسان إلا جانبه المادى.

وفى نفس الوقت، هناك جانب سلبى لطرح ما توصل إليه الباحثون عن دور طاقة العقل البشرى فى التأثير على عالم المادة. ويتمثل هذا الجانب فى «الدجل» الذى يمارسه الكثيرون بادعائهم القدرة على استخدام طاقاتهم فى علاج الكثير من الأمراض الخطيرة، وفى زيادة طاقات الرجال الجنسية، وفى الكيد للآخرين، وفى فك السحر وغير ذلك من صنوف الدجل. وإذا كان ما سنعرضه من أبحاث فى هذا الفصل يبين إمكانية استخدام الطاقة على أيدى قلة نادرة من البشر الذين يصلون إلى تلك القدرة بعد تدريبات ومجاهدات طويلة شاقة، فقد اتسع الخَرقُ على الرتق، وكثر الدجالون الذين يمارسون النصب باسم الطاقة.

لذلك عند كتابتى هذا الفصل، كنت بين إقدام وإحجام، أُقَدِّم قدمًا وأؤخر الأخرى، كنت فى حيرة بين أن أعرض عليك جانبًا لا ينبغى إغفاله عن ذاتى الإنسانية، وبين أن يتخذ الدجالون مما أكتب سندًا لما يمارسونه من دجل، بدعوى أن كتابًا موضوعيًّا لكاتب مُحَقِّق دقيق يؤيد إمكانية أن نؤثر بأفكارنا فى عالم المادة. وبعد أن فكرت فى الأمر مَلِّيا، اخترت أن أعرض

عليك ما تَوَصَّلَت إليه الأبحاث العلمية الدقيقة، وأن أحذرك فى الوقت نفسه من أن معظم ما يُمارَس من علاجات وتطبيقات باسم الطاقة ينقصه الكثير من العلم والخبرة، كما يؤدى ـ فى الحالات المرضية ـ إلى التراخى فى طلب العلاج الطبى من مصادره المعتمدة، مما يسبب تدهورًا كبيرًا فى حالة الكثير من المرضى.

الطاقة؛ بيولوجيًا وكونيًّا ... تأثير متبادل

والآن، أعرض عليك بعض الظواهر التى تتجلى فيها العلاقة بين الطاقات الكونية ووظائف الإنسان البيولوجية، وكذلك العكس، أى العلاقة بين الطاقات الإنسانية وأحداث العالم الخارجى.

أولًا: المجالات المغناطيسية تؤثر فى بيولوجيا الإنسان الجسدية والعصبية

يستحق فرانز هالبيرج Franz Halberg [(١)] أن يُلَقَّب بأبى البيولوجيا الزمنية Chronobiology، التى تهتم بالإيقاعات الحيوية اليومية Circadian Rhythm [(٢)]، والتى تعنى أن الكائنات الحية تلتزم بإيقاع زمنى فى العديد من نشاطاتها الحيوية، وذلك على مدارٍ يومى، نصف أسبوعى، أسبوعى، شهرى أو سنوى.

وإذا كانت هذه النشاطات غريزية فى الكائنات، توجه إيقاعاتَها نشاطاتٌ مخية يؤثر فيها نشاطُ الغدة الكظرية التى تُفرز الكورتيزون، فإن اكتشاف هالبيرج المذهل الأخير (وهو فى الثمانينيات من عمره) أن هذا التزامن تتحكم فيه الشمس وباقى الأجرام الفلكية، لذلك أعاد تسمية هذا العلم، وأطلق عليه اسم «البيولوجيا الزمنية الفلكية **Chronoastrobiology**». وإذا كان العلم قد أثبت أن البقع الشمسية[(٣)] تسبب عواصف مغناطيسية تصيب الأرض، وتؤثر بشكل كبير على تقنياتنا الحديثة، مثل تعطيل محطات توليد الطاقة الكهربائية والتشويش على الاتصالات عالية التقنية وأنظمة ملاحة المركبات الفضائية والأقمار الصناعية، فالجديد الذى أظهره العلم أن لتلك العواصف المغناطيسية تأثير على الكائنات الحية.

(١) التحق كشاب نمساوى بكلية الطب فى هارفارد، وأنهى حياته المديدة فى مختبره للبيولوجيا الزمنية بجامعة مينيسوتا.
(٢) باللاتينية: Circa = حول ، Dien = اليوم
(٣) البقع الشمسية دوامات هائلة من الحقول المغناطيسية المُرَكَّزة التى تحدث ـ فى المتوسط ـ كل أحد عشر سنة، وقد تصل طاقتها إلى طاقة ٤٠ مليار قنبلة نووية! وتمطر غلافنا الجوى بالإشعاع والأيونات.

ومن هذه التأثيرات، ما اكتشفه العلماء الروس من أن **بعض رواد الفضاء عانوا من نوبات قلبية أثناء العواصف المغناطيسية**، نتيجة لاضطراب إيقاع ضربات القلب HRV [1]، مما يؤثر على الجهاز العصبى اللاإرادى، وكذلك نتيجة لتزايد لزوجة الدم. وقد لاحظ علماء أكاديمية أذربيجان الوطنية للعلوم فى باكو أن **قراءات رسام المخ الكهربائى** أثناء العواصف المغناطيسية تبين زيادة نشاط الجهاز العصبى اللاإرادى وانخفاض النشاط فى غيره من أجزاء المخ.

كذلك ثبت أن للحقول المغناطيسية للأرض (**الحقول الجيومغناطيسية الطبيعية**)[2] **تأثيرًا كبيرًا على العمليات الخلوية والكيميائية فى الكائنات الحية**. وليس ذلك غريبًا، فالحقول المغناطيسية تَنتُج من تدفق الإلكترونات والأيونات، وذلك يؤثر فى وظائفنا الحيوية التى تعتمد على النشاطات الكهربائية.

وقد اكتشف **العلماء السوفييت** (فى مركز أبحاث الفضاء فى الأكاديمية الروسية للعلوم) أن **تصنيع البروتينات فى البكتريا** الموجودة فى أجسام رواد الفضاء وكذلك **تصنيع المواد الغذائية فى النباتات** يتأثر بالحقول الجيومغناطيسية. كما وجد علماء الأكاديمية البلغارية للعلوم فى صوفيا أن غياب الحقول الجيومغناطيسية فى المحطة الفضائية الروسية «مير»، أدى إلى عدد من **الاضطربات فى نشاط الموجات الدماغية**، مما أثرَّ على النوم العميق لرواد الفضاء.

ومن **علماء الغرب** المهتمين بتأثير المجالات المغناطيسية على وظائفنا الحيوية، **عالِم الأعصاب الكندى مايكل بيرسنجر Michel Persinger** الذى جهز مركزًا لهذه الدراسات فى قبو بحرم جامعة لورينتيان Laurentian الكندية. وكان بيرسنجر يقوم بتنشيط مناطق مختلفة فى مخ المتطوعين باستخدام المجالات المغناطيسية عن طريق خوذة يرتديها المتطوع (أسماها **خوذة الإله** The God Helmet)، ثم يسجل ملاحظاتهم؛ وكم من متطوع رأى الجنة، أو أحس - على الأقل - بتسامٍ روحى.

وفى عام ١٩٩٨، قام بيرسنجر باختبار تأثير اضطراب الحقول الجيومغناطيسية على **القدرات المجاوزة للحواس** (كالرؤية عن بُعد والتحريك الذهنى) عند بعض الأشخاص، فوجد أنها تتأثر

(١) Heart Rate variability

(٢) **الحقول الجيومغناطيسية الطبيعية** هى محصلة (بالإضافة للمجال المغناطيس للأرض) للعديد من العوامل؛ مثل النشاط الشمسى وحركة الكواكب وموقع القمر ودوران الأرض والمياه الجوفية. والحقول الأكثر تأثيرًا على النشاطات البيولوجية هى تلك ذات الترددات المنخفضة جدًا (أقل من ١٠٠ هرتز).

بشدة بهذه الحقول. وقد أيدت تجارب جارى شوارتز أيضًا هذه النتائج[1]، مما جعلهما يستنتجان **أن المعلومات المرسَلَة والمستقبَلَة من قِبلَ هؤلاء الأفراد لها مُكَوِّن مغناطيسى قوى.**

كذلك اهتم بيرسنجر بدراسة **تأثير الاضطرابات المغناطيسية التى تحدثها التكنولوجيا الحديثة** فى الوسط المحيط؛ مثل ملاصقة الهواتف المحمولة للأذن أو استخدام سماعاتها اللاسلكية، وذكر أن لهذه التكنولوجيا تأثيرات شديدة الإضرار، قد تصل إلى إحداث اضطراب يشبه نوبات خفيفة من **صَرَعْ الفص الصدغى.** كذلك قـد يصاب الشخص **بالهلوسة** نتيجة لاختلال التوازن بين نشاط الفصين الصدغيين الأيمن والأيسر. هـذا بالإضافة إلى رفع درجة حرارة المـخ فى الجزء المحيط، مما يؤدى على المدى البعيـد إلى «**شَىّ المخ**» عـلى نارٍ هادئة[2].

تثبت الدراسات العديدة السابقة، أن **الإنسان ليس كائنًا يعيش فى صومعة تعزله عن الطبيعة.** فإذا كانت **للظواهر الطبيعية الملموسة** (كالأمطار والفيضانات والصواعق والزلازل والبراكين) تأثيرات مباشرة على البشر، كالغرق والاحتراق والدهس، فإن علاقتنا بالطبيعة لا تقف عند ذلك، **بل إن هناك نشاطات (كالنشاطات المغناطيسية التى تقع فى الشمس وغيرها من النجوم الأبعد) لا تخضع لملاحظتنا** المباشرة، **لكنها تؤثر بشكل مباشر على قدراتنا وصحتنا، ووعينا بأنفسنا وبما حولنا، وبمزاجنا وبمشاعرنا الروحية!! إن ذلك يجعلنا جزءًا من منظومة الوجود نتأثر بها إلى حد بعيد يفوق توقعاتنا.**

ثانيًا: قلوبنا تدق معًا

منذ عام ١٩٦٣، بدأ اهتمام مجتمع علماء القوى الذهنية بما يُعرف بـ Direct Mental Interacting Living Systems DMILS، وترجمته «**التفاعل الذهنى المباشر مع الأنظمة الحية**».

كانت البداية على يد عِالِم النفس والباحث فى الوعى **تشارلز تارت Charles Tart**، الذى قام بإجراء التجارب على نفسه، لدراسة تفاعل الأشخاص مع آلام الآخرين. لقد عَرَّضَ تارت نفسه لصدمات كهربائية خفيفة، فى حين خضع متطوع «معزول فى غرفة أخرى» للمراقبة الطبية، لملاحظة ما إذا كان جهازه العصبى الودى Sympathetic N.S. يلتقط رد فعل تارت

(١) لنا وقفة بعد قليل مع التعريف بجارى شوارتز وأبحاثه.

(٢) تنشر شركات الهواتف المحمولة آراءً تتنكر لهذه النتائج، وتعلن أنه لم يثبت بالدليل القاطع أن هذه التقنيات تأثيرات ضارة!!

بشكل ما. كانت النتيجة مدهشة، فكلما كان تارت يتعرض لصدمة كهربائية، كان المتطوع يعانى من انخفاض ضغط الدم وزيادة معدل نبض القلب، وكأنه هو الذى يتعرض للصدمة.

أُجريت دراسة أخرى على التوائم. فكان أحد التوأمين يُغمض عينيه، فتتباطأ الإيقاعات الكهربائية فى دماغه إلى مستوى موجات ألفا، عندها تتباطأ موجات دماغ توأمه أيضًا، رغم أن عينيه مفتوحتان على اتساعهما(١).

ومن الدراسات المهمة فى مجال التأثير الذهنى المباشر، تلك التى قامت بها عام ٢٠٠٥ مجموعة من الباحثين فى جامعة باستير وجامعة واشنطن. لقد جمعوا ثلاثين زوجًا من الأفراد ممن لهم خبرة فى التأمل، وتربط كل زوج منها علاقات عاطفية ونفسية قوية. ثم وضعوا أفراد المجموعة فى غرف تبعد بعضها عن بعض بمقدار عشرة أمتار، وتم تعريض أحد الأفراد إلى ضوء وامض، وطُلب منه أن يرسل بذهنه صورة هذا الضوء لشريكه، وتم تسجيل النشاط الكهربائى لمخ هذا الشريك، فظهرت لديه زيادة فى نشاط القشرة البصرية الدماغية فى نفس اللحظة التى يرى فيها الشخص المُرسِل الضوء. أظهرت هذه الدراسة أن دماغ المُستَقبِل يتفاعل وكأنه يرى الصورة نفسها التى يراها المُرسِل فى ذات الوقت، وإن كانا متباعدين ومنفصلين.

ما تفسير هذه الظاهرة التى طالعناها فى التجارب الثلاث السابقة؟:

فى عام ١٦٦٥، لاحظ عالم الرياضيات الألمانى كريستيان هيجنز C.Huygens أن بندولى الساعتين المنتصبتين بجانب بعضهما يتأرجحان بحركة موحدة، حتى وإن بدأت حركتهما فى لحظتين مختلفتين ومن جهتين متعاكستين. والآن تُفَسَّر تلك الظاهرة بحدوث تبادلات ضئيلة للطاقة بين البندولين، مما يسبب تباطؤ أحدهما وتسارع الآخر حتى يصلا إلى التوحد الحركى، وتُسمى هذه الظاهرة بـ «الإفضاء Entrainment».

وعادة ما يحدث الإفضاء (تبادل الطاقة) بين مصدرين لهما تردد موجى متقارب. وقد تُفَسِّر هذه الظاهرة ما حدث فى التجارب الثلاث السابقة. كما قد تُفسِر ظاهرة الإفضاء ما يحدث بين المحبين من ارتياح وانجذاب. فقد أظهرت أبحاث DMILS أن ترددات موجات قلوبهم وأمخاخهم تكون متقاربة. ومن ثم يمكن أن يحدث تبادل لطاقات نبض القلب وموجات الدماغ، ونشاط الجهاز العصبى اللاإرادى بين شخصين متحابين، ليصلا إلى مستويات متقاربة حتى وإن كانا متباعدين.

(١) حصل على هذه النتائج (كلٌ على حِدة) عالِم الأعصاب الألمانى هارالد والاش H.Walach فى جامعة فريبورج، وعالم فيزيولوجيا الأعصاب جاكوبو جرينبرج G.Grinberg فى المكسيك.

ثالثًا: أفكارنا تؤثر فى النباتات

كان **كليف باكستر Cleve Backster**[(1)] أحد أول من افترضوا **أن النباتات تتأثر بالنشاطات الذهنية البشرية، وأن الكائنات الحية يمكن أن تقرأ أفكار الشخص ونيته وتتجاوب معها!** وقد اُعتبرت أفكاره شاذة وسخيفة لفترة استمرت أربعين عامًا[(2)]، قبل أن يتم قبول الكثير منها. لقد كان لباكستر خبرة كبيرة فى العمل على **جهاز كشف الكذب**، الذى يقيس تزايد توصيل الجلد للكهرباء إذا اضطر الإنسان للكذب، ذلك نتيجة لزيادة التعرق التى تسببها زيادة نشاط الجهاز العصبى الودى Sympathetic Nervous System، ويقوم الجهاز بتسجيل الزيادة فى **التوصيل الكهربائى للجلد** على هيئة رسم بيانى.

خطرت ببال باكستر فكرة؛ إذا كان نشاط الجهاز العصبى الودى (ومن ثَمَّ التوصيل الكهربائى للجلد) يزداد عند الكذب، وأيضًا **عندما يقع ما يهدد حياة الإنسان**، فهل يحدث رد فعل مماثل إذا هددنا حياة النبات؟!

لدراسة ذلك، أوصل باكستر أقطاب جهاز كشف الكذب بإحدى **أوراق نبات الدراسينيا الطويلة**، ثم «**فكر**» فى أن يهدد حياة النبات بأن يحرق طرف الورقة المتصلة بأقطاب الجهاز بعود من الثقاب. **فى اللحظة التى «فكر» فيها باكستر بذلك**، تأرجح قلم تسجيل الرسم البيانى فى جهاز كشف الكذب إلى أعلى مستوى، إنه لم يحرق النبات بل لم يشعل الثقاب، إنما «**فكر**» ـ مجرد تفكير ـ **فى ذلك!** أبعد باستر الفكرة الشريرة عن ذهنه فهدأ الرسم البيانى، ورسم القلم خطًا مستقيمًا. كرر باكستر التجربة عدة مرات فحصل على نفس النتيجة!

إن تفاعل نباتات باكستر مع أفكاره السلبية لم يرتبط بالمسافات، بل لقد تفاعلت النباتات الموجودة فى الغرف البعيدة. كذلك شاركت الكائناتُ الدقيقة (كالباراميسيوم والفطريات

---

(١) عمل باكستر كثيرًا مع المخابرات الألمانية على جهاز كشف الكذب أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب أسس مدرسة باكستر، التى لا تزال تحتل المرتبة الأولى فى العالم فى تعليم تقنيات كشف الكذب بعد خمسين عامًا من إنشائها.

(٢) نشر باكستر نتائج أبحاثه فى عدد من **المجلات العلمية المحترمة المتخصصة فى الفيزياء**، وأعلن أفكاره فى محاضرة أمام جمعية القدرات الذهنية الخارقة Parapsychology Association فى مؤتمرها العاشر. وحققت تجاربه نفس النتائج عندما **كُررت** فى عدد من المختبرات المستقلة، خاصة مختبر ألكساندر دوبروف Dubrov، العالم الروسى المتخصص فى فيزيولوجيا النبات. ومع ذلك لقى باكستر الكثير من **السخرية والاستهزاء** فى الأوساط العلمية التقليدية، حتى صار اصطلاح « **تأثير باكستر** » مثارًا للسخرية، ثم تغيرت النظرة إلى أفكاره وصار هذا الاصطلاح مقبولًا علميًّا.

(بكتريا) الموجودة فى المعمل النباتات ردودَ الفعل. ففى أحد الأيام، صَبَّ باكستر بعضًا من ماء المغلى فى حوض بغرفة أبحاثه، فوجد أن مؤشر الجهاز سجل حدوث رد فعل شديد فى النبات. باستقصاء الأمر، وجد باكستر بعض الترسبات فى بالوعة الحوض، وعندما فحصها بالمجهر وجد بها غابة من الكائنات الدقيقة. فَسَّرَ باكستر الأمر بأن **هذه الكائنات أرسلت صيحة استغاثة قبل أن يقتلها الماء المغلى، وأن النبات قد التقط هذه الاستغاثة وتفاعل معها.**

كرر باكستر التجربة باستخدام عدد من **قشريات الجمبرى الحية**، وفى كل مرة يلقى فيها جمبرى فى الماء المغلى كانت النباتات الموصولة بأجهزة كشف الكذب ـ فى نفس الغرفة وفى الغرف المجاروة ـ تُظهر استجابات كبيرة.

لم يَدَّعِ باكستر أن النباتات كانت تقرأ أفكار الإنسان، بل كان التفسير المقبول الذى قدمه، هو **أن أفكار الإنسان السلبية تطلق موجات (وكذلك الجمبرى والكائنات الدقيقة المُحتَضِرَة) تلتقطها النباتات وتتفاعل معها.**

اضطر باكستر للانتظار عدة سنوات **متحملًا سخافات المهاجمين**، قبل التوصل إلى **آلية التواصل بين الكائنات الحية**. وقد توضحت هذه الآلية عندما اكتشف **عالم الفيزياء فريتز ألبرت بوب** ما أُطلق عليه اسم «**الفوتونات الحيوية**»[1]، التى تنقل المعلومات بين مختلف أجزاء الكائن الواحد وبين الكائنات الحية المختلفة.

إن تلك النتائج تعنى أن أشكال الحياة المختلفة متوالفة بدقة مع بعضها البعض، وأن الكائنات الحية ترسل معلومات تخاطرية فيما بينها فى كل لحظة، مستخدِمة ـ فى الأرجح ـ الفوتونات الحيوية.

رابعًا: بعض القدرات الخارقة

يُعتبر بروس ڤرانتزيس Frantzis أحد أعظم أساتذة التشى كونج Chi kung فى الغرب[2]، ويحمل أحزمة سـوداء فى خَمسٍ من الفنون القتالية اليابانية. وقد شاهَدَته لين ما

(1) **الفوتونات** هى وحدة الطاقة الضوئية، ولنا وقفة أخرى مُفَصَّلَة بعد قليل مع فريتز ألبرت بوب والفوتونات الحيوية.

(2) **تشى كونج**: ممارسة روحية تنتمى إلى الصين القديمة، تعتمد تدريباتها على ممارسة الرياضة العنيفة والتأمل والتحكم فى التنفس والالتزام الغذائى. وبعد سنين من التدريب الشاق، يصبح هؤلاء الأشخاص قادرين على التحكم فى مجالات الطاقة داخل أجسامهم، مما يكسبهم القدرة على التحكم فى النفس والدفاع عن أنفسهم، ويكتسبون مَلَكَات روحية، وبعد ذلك يكتسبون القدرة على التحكم فى طاقات الوجود، والقدرة على معالجة الآخرين عن بُعد.

كتاجرت **Lynn Mc Taggart** [1]، بعد بضع دقائق من التركيز المكثف، وصفائح جمجمته فى قمة رأسه تتراقص. كما تم تصويره وهو يجعل الأشخاص يطيرون فى هواء الغرفة **بتوجيهه لطاقة التشى كونج**، ومنذ فترة **أصبح يحتفظ بتلك الطاقة لمعالجة** المرضى.

وقد أظهرت الأبحاث أن لدى **بعض أفراد الجنس البشرى** قدرات كبيرة على التواصل عن بعد، إرسالًا واستقبالًا. من هذه الأبحاث تلك التى قام بها د. **مايكل بيرسنجر** أستاذ علم النفس بمختبره فى كندا. فوجد من هؤلاء المتميزين إيجنو سوان، وشين هاريبانك اللذين يتمتعان بقدرة أكبر على الرؤية عن بعد (عبر مئات الكيلو مترات). وقد وجد أن أمخاخهما تتمتع بنشاط كهربائى عال (موجات جاما) وحجم أكبر من المعتاد فى القشرة البصرية اليمنى والفص الجدارى الأيمن.

خامسًا: العلاج عن بُعد

بالنسبة لجراح مثلى، اعتاد التعامل المباشر مع أعضاء الجسم وأنسجته بالمشرط وبالإبرة والخيط، يُعتبر العلاج عن بُعد أمر شاذ، وربما أَمِيلُ لاعتباره ضربًا من الوهم. **فليس من السهل أن أتقبل فكرة تحقيق الشفاء عن طريق الاستحضار الذهنى للمريض ومشكلته عن بُعد** مع **تركيز النية على معالجته**، الأمر الذى يقوم به بعض المعالجين المتخصصين. إلا أن هذا النمط من العلاج معروف فى معظم الثقافات القديمة، خاصة فى حضارات الشرق الأقصى، فتعال نلقى نظرة على ما كشفته الأبحاث الحديثة فى هذا المجال.

ولعل **المعالجة عن بُعد** Remote Healing من أوضح مجالات التأثير عن بُعد Remote Influence. وقد أُجرِيَت لدراسة ذلك أكثر من ١٥٠ دراسة (مختلفة الدقة من حيث صرامة المعايير العلمية) أدقها دراستين أشرفت عليهما د. إليزابيث تارج E.Targ فى فترة الانتشار الأعظم لمرض الإيدز فى الثمانينيات، وقد أظهرت الدراستان (التى اشترك فيها ٤٠ معالجًا عن بُعد فى أنحاء الولايات المتحدة) **قدرة المعالجين على تحسين الحالة الصحية لمرضى الإيدز فى المراحل النهائية من المرض، رغم أنهم لم يتواصلوا جسديًّا مع هؤلاء** المرضى.

(١) **لين ما كتاجرت**: صحيفة بريطانية، تحقق كتبها دائمًا مرتبة أفضل الكتب مبيعًا، وأشهرها كتاب **The field**. وهى مؤسِسة مجلة What doctors Don't tell you، ولها شركة تقوم بعقد مؤتمرات على مستوى عال من الشعبية حول الصحة والروحانيات، حتى تحولت إلى اسم مرموق فى ميدان علوم الروحانيات. وقد رجعنا إلى كتاباتها كثيرًا عند تأليف هذا الفصل.

وفى عام ١٩٩٩، أُجريت دراستان هامتان فى معهد كاليفورنيا والباسفيك الطبى فى سان فرانسيسكو[1] لاختبار نتائج المعالجة عن بعد Remote Healing لمرضى المراحل الأخيرة للسرطان، مع الالتزام باشتراطات الموضوعية العلمية فى البحث. وقد حقق هؤلاء المرضى نتائج أفضل كثيرًا من المرضى الذين لم يتعرضوا لنفس النوع من العلاج. وكانت هاتان الدراستان من أوائل الدراسات العلمية المُحْكَمَة حول القدرة على المعالجة عن بُعد.

وقد أظهرت الدراسات الدقيقة حول **آليات هذه القدرة**[2] أن الخطوة الأولى المهمة للتأثير بالعلاج عن بُعد هى **وصول المعالج إلى ما يُعرف بـ «التركيز الثاقب» أو «ذروة الانتباه»**. ويمكن تحقيق ذلك باستخدام إيقاع قوى متكرر، ثبت حديثًا أنه يؤدى إلى «إغلاق» المراكز المخية المسئولة عن الشعور بالذات وبالوسط المحيط، كذلك تنقل الحرارة الشديدة (كما فى غرف الساونا) الفرد إلى حالة مغايرة تجعله مؤهَلًا لذلك[3]. ومن تلك الوسائل أيضًا الصلاة، والتركيز الذهنى مع الشخص المقصود أو مع صور أو كلمات رمزية.

وفى أبحاثه على المعالجين عن بُعد، اكتشف طبيب النفس المهتم بالسرطان د. لورانس شان Le shan أن هؤلاء المعالجين بعد وصولهم إلى حالة التركيز الثاقب **يحققون قدرًا من الشعور بالتوحد مع الشخص الذى يعالجونه، ثم يصبح كلاهما متحدًا مع ما يسمونه «المُطلق ـ The Absolute»**.

ويمكن تقسيم المعالجين عن بعد إلى **مجموعتين**؛ الأولى، اعتبر أفرادها أن **إمكانية المعالجة ترجع إلى قدراتهم الخاصة**. أما المجموعة الأكبر، فيعتبر أفرادها أنفسهم «**قناة**» **تتدفق عبرها طاقة الشفاء، أى أنهم وسيلة لنقل قوة أكبر منهم**. وفى هذا المعنى يقول أحد أنجح المعالجين (هارى إدواردز) **أن المعالج يتقدم برجائه إلى قوة أعظم منه لتمنح المريض الشفاء**، أي أن القضية إيمانية غيبية. **وفى كلتا الحالتين فإن خُلُق التعاطف واللطف والحب هو الباب لإيصال الطاقة والنية الإيجابية للشفاء، مع اقتناع واستسلام المستقبِل لهذه القوة. أليس ذلك كدعائنا ورضانا بالشفاء؟!**

---

(١) قام بالدراستين الطبيبة النفسية إليزابيث تارج E.Targ وعالم النفس فريد سيشر F.Sicher

(٢) منها تلك الدراسات التى أجراها ستانلى كريبنر Stanly Krippner وتلميذه آلان كوبرشتين Alan Cooperstein فى كلية سايبروك Saybrook بجامعة ييل بالولايات المتحدة.

(٣) تستخدم قبائل الأوجيبا وأنبينو الأمريكية الأصلية ـ للوصول إلى هذه الحالة ـ قرع الطبول والرقص عراة بالخطوة المتكررة حول الأحجار المشتعلة.

سادسًا: تأثير النِيَّة العُدوانية ـ من شر حاسد إذا حسد

من النتائج التى أظهرتها تجارب العلماء المهتمين بتأثيرات الطاقة أن **النوايا العدوانية والأفكار السلبية يمكنها أن تؤثر على العالم بدرجة أكبر من الأفكار الإيجابية**، أى أن **نية الإيذاء هى الأقوى**. ومن البديهى أن إلحاق الضرر بنظام سليم أسهل من إصلاح شىء مكسور أو تنظيم وجود فوضوى.

لذلك لجأ عدد من رواد طب المعالجة الذهنية الذين اهتموا بمرض السرطان [1]، إلى استغلال تلك الفكرة فى علاج مرضاهم. فأصبحوا **يطلبون من المرضى استحضار نية عدوانية وهى إبادة العدو، ويتخيلون ساحة معركة يتغلب فيها المريض على السرطان**، حيث ينزل المريض إلى مجرى دمه! ليقود جيش خلايا المناعة الذى يقاتل الخلايا السرطانية، أو يتخيل أنه يقوم بإغلاق صنبور الدم الذى يغذى تلك الخلايا. وقد يحتاج الأمر استحضار بعض التفاصيل العلمية؛ مثل إيقاف عمل إنزيمات الخلايا السرطانية أو التأثير على خطوات تصنيع بروتينات تلك الخلايا. وقد يقوم المرضى بتخيل أنفسهم وهم يشاركون فى لعبة ڤيديو عنيفة يدمرون فيها الخلايا السرطانية[2].

وقد كان د. **عبد الوهاب المسيرى ـ رحمه الله ـ صاحب موسوعة الصهيونية**، أحد من مارسوا هذا الأسلوب الصينى من العلاج لمقاومة ورم سرطانى أصيب به فى نخاع العظام Solitary Myeloma، وأخبرنى أنه كان يشعر بتحسن كبير بعد كل جلسة علاجية. وقد تَعَلَّم د.المسيرى هذا العلاج من صديق بريطانى يعمل فى نفس تخصصه (الأدب الإنجليزى) ويعانى من نفس مرضه، وكان الأطباء قد قَدَّروا أن هذا الصديق سيحيا لبضعة أشهر فقط، ثم التقى به د.المسيرى وهو بصحة جيدة بعد عشر سنوات من هذا التقدير!.

ويثير مفهوم قدرة **النوايا العدوانية السلبية** عددًا من التساؤلات؛ **هل من الممكن إنزال الأذى بالناس عن طريق أفكارنا، كالحسد** الذى تُحَدِّثنا عند الديانات والمتعارف عليه فى معظم الحضارات؟ هل يمكن أن **تنعكس أفكارنا السلبية على أنفسنا** (أنا غير موهوب وكسول...)؟ هل يمكن أن نؤذى أطفالنا فأفكارنا السلبية عنهم (ياله من أَخرق ـ إنها سيئة فى الرياضيات...)؟.

---

(١) من هؤلاء الأطباء د. بيرنى سيجل B.Siegel ـ د. كارل سيمونتون C.Simonton وعالم النفس الأسترالى إينسلى ميرز I.Meares

(٢) لا شك أن الأفكار السلبية والأفكار الإيجابية مفهوم نسبى، فما هو سلبى بالنسبة للخلايا السرطانية يُعتبر إيجابى بالنسبة للمريض.

وإذا كنا نستقبل ـ غافلين ـ تأثيرات سلبية، فماذا علينا أن نتخذ من إجراءات لإعاقتها؟ لقد طرح المهتمون بهذا الأمر عددًا من **الوسائل الوقائية**، وقد ذكر لارى دوسى ـ أحد أبرز الباحثين فى هذا المجال ـ أن أقوى ترياق ضد النية السيئة هو **الدعاء بعبارات تحمل معنى** «**انقذنا من الشر**». ليتك قارئى الكريم تتأمل سورتَىّ المُعَوِّذَتَين ـ الأخيرتين فى القرآن الكريم ـ فسترى أنهما بالفعل تحملان كل معانى اللجوء إلى الله ﷻ من أجل تحقيق تلك الحماية.

سابعًا: أفكارنا تؤثر فى عالم الإلكترونيات

ماذا عن تأثير الأفكار التى تدور فى عقولنا على **الأشياء الجامدة** فى محيطنا؟

تتردد حول بعض الأشخاص سُمْعَةَ بأنهم يملكون **تأثيرًا إيجابيًّا أو سلبيًّا على المعدات الإلكترونية!** ويوصَف التأثير السلبى من هذا النوع **بتأثير الجريملين**[1] **Gremlin effect**. وقد اشتهر أحد آباء نظرية الكَمْ، وهو الفيزيائى اللامع وولفجانج باولى Pauli، بامتلاكه لحقل تأثير سلبى قوى، فكثيرًا ما كانت الآلات تتعطل فور وصوله إلى مختبره، خاصة إذا كان مزاجه سيئًا، لذلك كثيرًا ما كان فريق عمله يخرجه من المعمل بتهذيب وحَزم.

ويهتم المعمل الدولى لأبحاث الوعى[2] بدراسة «**قوة النية الموجهة فى التأثير على الآلات**». وقد أمضى رئيسا المركز د. روبرت جان Robert Jahn العميد السابق لكلية الهندسة بجامعة برنستون Princeton وعالمة النفس برندا دون Brenda Dunne الأستاذة بنفس الجامعة، أكثر من ثلاثين عامًا يجمعان الأدلة حول هذا الموضوع، مع تحرى المنهجية العلمية، وقد توصلا إلى الكثير من الأدلة المقنعة على وجود تأثير للأفكار على الآلآت الإلكترونية.

وقد اكتشف جاك بينفينيست J.Benveniste **تأثير الجريملين** أول مرة عندما كان يُجرِى تجارب على التواصل بين الخلايا. ومنذ عام ١٩٩١، اعتبر بينفينيست **أن الإشارات الرئيسية بين الجزيئات الحية ليست كيميائية، لكنها إشارات كهرومغناطيسية ذات ترددات منخفضة، تختلف من جُزىء لآخر**. ولا شك أن الإشارات الكهرومغناطيسية أكثر عُرضة من الرسائل الكيميائية للتأثر بما قد يصدر عن عقولنا وأفكارنا من طاقة، مما قد يفسر قدرة النية السيئة والهدامة (مثل الحسد) على إنزال الضرر بالآخرين، كما يفسر تأثير بعض الأفراد على المعدات الإلكترونية.

---

(١) الجريملين مخلوق خيالى يؤذى الآلات والأدوات والمعدات الإلكترونية.
(٢) International Conciousness Research Laboratory

آليات التواصل والتأثير

بعد هـذا الاستعراض للتأثيرات المتبادلة بين نشاطـات عالمنا الداخـلى (متمثلة فى أفكارنا ونوايانا) وبين العالم الخارجى (متمثل فى الطبيعة والكائنات الحية والأجهزة الإلكترونية)، يجىء أوان محاولة فهم آليات هـذه التأثيرات، من خـلال طرح أبحاث العلماء فى هـذا المجال:

١ ـ صبى يتأمل: الإنسان مُرسِل ومستقبِل

فى عام ١٩٥١، كان **جارى شوارتز Gary Schwartz** (أستاذ علم النفس الشهير بجامعة بنسلفانيا) طفلًا فى السابعة من عمره، وكان شغوفًا باللعب بالأجهزة الكهربائية القديمة. وفى أحد الأيام، قام جارى بفك وصلة هوائى الاستقبال من جهاز التليفزيون، فانقطعت البرامج وملأ التشويش الشاشة، ثم وضع إصبعه حيث يتصل الهوائى بالجهاز، فوجد ما كان تشويشًا وضجيجًا يتحول إلى صورة وصوت مثاليين صافيين. وبالرغم من صغر سنه، أدرك شوارتز أن **جسمه تصرف كهوائى التليفزيون**، وأنه استقبل المعلومات الخفية الموجودة فى الفضاء على هيئة موجات.

وعندما بلغ الخامسة عشر من عمره، تَعَلَّم جارى عزف الجيتار الكهربائى، وكان يُعجَب بخطوط الموجات المرسومة على الشاشة الموصولة بالجهاز، والتى تتراقص مع الموسيقى. ومن باب التجريب، أوصل جارى الشاشة بميكروفون ونطق أمامه ببعض الكلمات، فحصل على موجات ذات ترددات مشابهة لترددات أصوات الجيتار.

فى هذه السن المبكرة، اكتشف جارى شوارتز **أن جسمه قادر على إصدار واستقبال موجات الطاقة**.

٢ ـ تسجيل وقياس النشاطات الكهربائية لأفكارنا !

وفى عام ١٩٩٤، قام جارى شوارتز فى مختبر أبحاثه بجامعة بنسلفانيا ببناء غرفة جدرانها الأربعة وسقفها من الألومنيوم، لتعمل كمستقبِل للإشارات الكهربائية، وأوصل جدران الغرفة والسقف بمكبر للإشارات الكهربائية الميكروفولتيه، ثم بجهاز لتسجيل النشاطات

الكهربائية بيانيًّا. بذلك حصل على آلة حساسة عبارة عن مُستقبِل ومكبر ومسجل للإشارات الكهربائية الضعيفة حتى جزء من المليون من الڤولت.[١]

بعد إجراء تجارب عديدة، توصل كل من إيلمار جرين (صاحب فكرة الغرفة الأول) وجارى شوارتز (كلٌ بصفة مستقلة) إلى أن **كل جزء من أجسادنا يرسل إشارات كهربائية عند قيامنا بأى حركة**؛ كأن نُلَوِّح بأذرعتنا، وحتى عندما يقف الإنسان فى الغرفة ساكنًا فإن تنفسه ونبض قلبه ينتجان مجالًا كهربائيًّا تعادل قوته ١٠ ـ ١٥ مللى ڤولت، يسجله جهاز الرسام الكهربائى، ولم لا، أليست أنسجتنا الحية مشحونة بشحنات كهربائية.

وفى التجارب التى أُجريت على **العُبَّاد** أثناء قيامهم بتدريبات التركيز العقلى والتأمل، صدرت أدمغتهم مجالات كهربائية بلغت قوتها ثلاثة ڤولتات. وفى أثناء عمليات المعالجة عن بُعد التى يقوم بها أشخاص متخصصون متدربون وصلت النبضات إلى ١٩٠ ڤولت فى بعض الأحيان! يا الله، **ليست حركاتنا فقط هى التى تولد الطاقة، بل وأيضًا أفكارنا!!**

وقد قام عالِم ورئيس قسم فيزياء المواد بجامعة ستانفورد د. **ويليام تيللر William Tiller بتصميم وبناء جهازًا عبقريًّا لقياس قوة مجالات الطاقة الكهربائية التى تنتجها أفكارنا**[٢]. طلب تيللر من متطوعين عاديين أن يمدوا أيديهم إلى مسافة ١٥ سم من الجهاز، وأن يركزوا نيتهم الذهنية فى أن يُزيدوا قراءة عداد الجهاز، فى أغلبية الحالات (فى أكثر من ١٠٠٠ تجربة) اكتشف تيللر أن عدد النبضات يزداد بمقدار ٥٠,٠٠٠ مرة عن الأوقات العادية، وأن ذلك يدوم لقرابة خمس دقائق.

بهذا أكدت تجارب ويليام تيللر **أن أفكارنا تنتج طاقة فيزيائية كهربائية، وأن مجالاتها قابلة للقياس!**

٣ ـ كذلك الطاقة المغناطيسية

لما كانت الطاقة المغناطيسية هى الطاقة الكونية الأكثر قوة، كما أنها تؤثر فى الظواهر البيولوجية الزمنية، فقد قام جارى شوارتز بدراسة التغيرات فى المجال المغناطيسى حول أيدى

(١) كان صاحب هذه الفكرة إيلمار جرين Elmar Green، أحد رواد علم التغذية الراجعة الحيوية BiofeedBack. وقد بنى أول غرفة مستقبِلة للإشارات الكهربائية من النحاس، ثم نقل عنه جارى شوارتز الفكرة.

(٢) يعتمد الجهاز على إطلاق تيارٍ مستمرٍ من الغاز، ثم يسجل عداد الجهاز أى تغيير فى النشاط الكهربائى لذرات الغاز، نتيجة للتأين الذى قد تحدثه المجالات الكهربائية التى تنتجها أفكار الأشخاص الخاضعين للتجريب.

مجموعة متمرسة من المعالجين بالنية عن بعد، باستخدام جهاز صممته زميلته ميليدا كونور Melida Conor، فوجد تغيرًا كبيرًا فى المجال المغناطيسى أثناء تمرير الطاقة عن طريق أيدى هؤلاء الخبراء، مقارنة بالأفراد العاديين.

٤ ـ وأيضًا طاقة ضوئية

فى أواسط السبعينيات، اكتشف عالِم الفيزياء الألمانى فريتز ألبرت بوب Freitz Albert Pop **أن جميع الكائنات الحية، من وحيدات الخلية إلى أكثرها تعقيدًا (البشر) تبعث تيارًا ضئيلًا مستمرًا من الفوتونـات (وحـدات الضوء) أطلق عليها اسم «الانبعاثات الفوتونية الحيوية Biological photons»**، واعتقد بوب ـ بحق ـ أنه **اكتشف وسيلة التواصل الرئيسية بين أجزاء الكائن الحى، وأن هذا الإشعاع الضئيل أهم من الكيمياء الحيوية كوسيلة للتناغم وتنسيق العمليات بين الخلايا الحية. واكتشف أيضًا أنها وسيلة التواصل بين مختلف الكائنات الحية، وكذلك بينها وبين العالم الخارجى.**

ولإثبات وجهة نظره، **قام بوب بابتكار أول جهاز لتصوير الفوتونات الحيوية**، واستطاع به تسجيل **الترددات الضئيلة التى انبعثت من الحمض النووى الدنا DNA**. ووجد أن هذه الانبعاثات تبلغ عدة مئات من الفوتونات فى الثانية من السنتيمتر المربع الواحد من سطح الكائن الحى، كما لاحظ **أن هذه الفوتونات الحيوية تنخفض بشدة إذا أُصيب الكائن باضطراب أو مرض، وأنها تعود إلى نشاطها بعد العلاج.**

وبعد أن أثبت بوب نظريته، أصبح مشهورًا عالميًا، وأسس فيها بعد **المعهد العالمى للفيزياء الحيوية**[1] **IIB**، الذى ضم ـ بحلول القرن الحادى والعشرين ـ أكثر من أربعين عالمًا معروفًا فى أنحاء العالم[٢].

أثار إثبات انبعاث الفوتونات الحيوية من الخلايا الحية اهتمام جارى شوارتز، فبحث عن آلة شديـدة الحساسيـة تستطيـع تصويـر أكثر الانبعاثات الضوئيـة خفوتًا، فوجد ضالته فى **كاميرات الشحن المزدوج شديدة التبريد CCD**، ذات الحساسية الشديدة والتى تُستخدَم فى

(١) International Institute of Biophysics

(٢) يتوزع هؤلاء العلماء فى خمسة عشر من المراكز العالمية حول العالم؛ منها معهد CERN بسويسرا، وجامعة نورث ايسترن فى الولايات المتحدة، ومعهد الأكاديمية العلمية للفيزياء الحيوية فى بكين، وجامعة موسكو.

تصوير المجرات العميقة فى الفضاء[1]، وأعانته فى ذلك د. كاثى كريث Cathy Creath أستاذة علم البصريات فى جامعته. **ولأول مرة فى التاريخ، استطاعا تصوير الضوء المنبعث من ورقة نبات الجرمانيوم، وذلك بدقة شديدة وتفاصيل مذهلة.**

كذلك قام شوارتز بتقطيع كمية من حبوب الفاصوليا، وفصل بينها بحواجز يتراوح سمكها بين ١ ـ ١٠ مم، واستخدم كاميرا CCD لتصويرها، فاكتشف أن الكثير من الضوء (الفوتونات) ينتقل بين تلك الأجزاء عَبْر الحواجز، مما يدل على أن كل قطعة منها استمرت فى التواصل مع بقية القطع.

لم يقف الأمر عند ذلك، بل استطاع شوارتز أن يسجل صورًا واضحة تخلب اللب لتيارات **من الضوء تتدفق من أطراف أصابع خبراء المعالجة عن بعد**، ومن ذلك استنتج **أن نية المعالجة لدى هؤلاء الخبراء تُوَلِّد موجات من الفوتونات الحيوية**، التى كانت من أكثر موجات الضوء فى الطبيعة انتظامًا، وتتفق مع ما يُطلِق عليه الفيزيائيون اصطلاح «**الفوتونات المتماسكة**»[2].

٥ ـ ما تأثير هذه الطاقات على المادة؟

مما سبق، يتضح أن الكائنات الحية تعمل كمرسلات ومستقبلات لثلاث أشكال من الطاقة: التيارات الكهربائية والمجالات المغناطيسية والفوتونات المتماسكة، وكلها طاقات قابلة للقياس. وكما تُنتج **النشاطات البيولوجية الخلوية** هذه الطاقات، فقد بَيَّنَّا أنها تَصدر أيضًا **نتيجة لنشاطاتنا الذهنية.** فهل هذه الطاقات قادرة على إحداث تغيير فى الروابط بين جزيئات المادة، ومن ثم يمكن أن تُحدث تغييرًا فى البنية الجينية للخلايا الحية؟

للإجابة عن هذا التساؤل، قام بيرنارد جراد Bernard Grad[3] بدراسة تأثير الطاقات التى يطلقها المعالجون عن بُعد على عينات من الماء باستخدام التحليل الطيفى بالأشعة تحت الحمراء Infrared Spectroscopy، **فاكتشف حدوث تغيرات جذرية فى روابط الأكسجين والهيدروجين بين جزيئات الماء (الرابطة الهيدروجينية Hydrogen Bond)**، وهذه التغيرات تشبه ما يحدث عند تعريض الماء لمغناطيس قوى. كما سجل آخرون فى دراسات مماثلة **حدوث تغيير فى صفات**

---

(١) تُبَرِّد هذه الكاميرا الوسط المحيط إلى ١٠٠ درجة فهرنهيتية فوق الصفر المطلق، وتستطيع تسجيل ٧٠٪ من أى ضوء بغض النظر عن درجة خفوته.

(٢) يناقش د. وليم تيللر ظاهرة «الفوتونات المتماسكة» بعد قليل.

(٣) الأستاذ المساعد لعلم البيولوجيا فى جامعة ماكفيل فى مونتريال بكندا.

أخرى للماء، خاصة امتصاصه للضوء. ولا شك أن هذه التأثيرات على جزيئات الماء تنعكس على جميع النشاطات البيولوجية فى الكائنات الحية.

القارئ الكريم...

لا شك أن هذه المفاهيم التى جمعناها من مصادر علمية موثقة، وصنفناها فى تسلسل مبسط، تُعتبر بمثابة **ثورة فى مفاهيم العلم المعاصر**. وبالرغم من حجية مصادر ما ذكرناه، فقد أردت أن استزيد من توثيق ما فيه من معلومات فيزيائية. إن الاحتكام فى موضوع كموضوعنا؛ «**تأثير النشاطات الذهنية على عالم المادة**»، يحتاج إلى الحَكَم الخبير الذى يجمع بين مجالين؛ الفيزياء، والنشاطات الذهنية والروحية. نَقَّبتُ عن هـذا الحَكَـم، فـدلونى على رجل وصفه البعض قائلين «من حُسن حـظ البشرية فى هـذا الزمان أن يحيا فيها رجل مثل ويليام تيللر William Tiller»!

* * *

حواراتى مع ويليام تيللر

صرت شغوفًا إلى درجة التوتر لأن ألتقى بهذا الرجل العظيم بسبب ما عرفته عنه، فأنت لا تلتقى كل يوم (أو كل عام) برجل تتشرف البشرية بوجوده فيها. وبعد أن تبادلنا التحية وبعض الكلمات الودية، أزال ما عليه الرجل من تواضع جَم ما كان يعتمل داخلى من قلق. ثم انتقلت مباشرة إلى لُب الموضوع:

موقف الأوساط العلمية التقليدية من المفاهيم الجديدة

سألت د. ويليام تيللر (شكل ـ ١)؛ هل حقًّا **للنشاطات الذهنية تأثير على عالم المادة**؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فما **موقف الأوساط العلمية التقليدية من هذا المفهوم**؟

ابتسم تيللر ونظر إلىّ بعينيه الثاقبتين ذواتا النظرة الوَثَّابّة، التى لم تطفئها ما حفرته سنون العمر فى وجهه من تجاعيد وما كست به شعره ولحيته من بياض، وقال لى: بالرغم من قبول هذا المفهوم لدى الكثير من المفكرين والفلاسفة، **فإن الأوساط العلمية التقليدية ما زالت تمثل السد المنتصب فى مواجهة قبول هذا المفهوم، حتى بعد أن أثبتت التجارب العلمية الدقيقة أنه قد صار بمثابة الحقيقة العلمية.**

وأضاف العالِم المدقق الكبير؛ إن **المنهج العلمى المعاصر** بنى لنفسه سياجًا من المفاهيم المقدسة التى لا يسهل تعديلها. **إن الموقف يشبه ما كانت عليه الكنيسة الكاثوليكية فى روما فى العصور الوسطى**، حين وقفت معارِضة لجاليليو وكوبرنيكوس وكبلر ونيوتن. كان رجال الدين يعتقدون أنهم يملكون الحقائق المطلقة، ولا يحتاجون لإجراء التجارب أو الحسابات أو النظر خلال التلسكوب، ومن ثَمَّ كانوا يرفضون ما يطرحه العلماء مما لا ينسجم مع منظومتهم الفكرية ونظرتهم للكون.



(شكل ـ ١)
د. ويليام تيللر William Tiller
مؤسس علم «ما بعد الفيزياء المعاصرة»
رئيس قسم خواص المواد
بجامعة ستانفورد

وكان أن طُوِيَت هذه الصفحة من تاريخ الإنسانية، **وحلت محلها فيزياء نيوتن** التى نشرت النظرة الألية للوجود، طوال فترة تجاوزت الأربعة قرون، ثم شاركتها منذ مدخل القرن العشرين (بعد رفض واعتراض) **فيزياء الكم**[١] **ثم النظرية النسبية**. بذلك استقرت النظرة إلى العلم، وأصبح من المقولات الحاكمة فى المنهج العلمى ما ذكره ديكارت من «**أن السمات الإنسانية كالوعى والقصد والنية والمشاعر والعقل والروح لا تستطيع أن تؤثر فى التجارب العلمية الدقيقة التى أصبحت تُجرى فى العالم المادى، ومن ثم ينبغى إخراج هذه السمات من مجال العلم التجريبى**». والآن ـ كما سأبين لك ـ فإن الكثير من **التجارب العلمية الدقيقة تثبت خطأ هذا المفهوم تمامًا**، بل يمكن القول إن ذلك قد اتضح منذ أن أثبتت النظرية النسبية لأينشتين أن **للشخص الملاحِظ (Observer) للظواهر المادية تأثير على قراءتنا للوجود**[٢].

وأضاف تيللر؛ إن **مشكلة العلم المعاصر أنه قصر منظومته فى إطار «الزمان والمكان» وفقط**، أما ما هو خارج ذلك الإطار (كالسمات الإنسانية التى ذكرها ديكارت) فقد أخرجها العلم التجريبى من منظومته، أى أن العلماء هم الذين دفعوا هذه السمات خارج مجال العلم!، بينما الواقع أعمق كثيرًا من تلك النظرة القاصرة للوجود. وإذا كانت البشرية قد قبلت إزاحة

(١) فيزياء الكم Quantum physics: الفيزياء الحديثة المعنية بسلوك الجسيمات تحت الذرية والموجات.
(٢) سيشرح ويليام تيللر هذا المفهوم بعد قليل.

نظرة الكنيسة، وأَحَلَّت محلها فيزياء نيوتن ثم فيزياء الكم والنسبية، فإننى **لا أدعو لإزاحة تلك المستويات من الفيزياء، فتلك علوم أدت وتؤدى الكثير للبشرية، لكننى أدعو لتوسيع مداركنا ومد المجال من حولنا لنستوعب حقائق جديدة**، حقائق يرفضها الآن معظم العلماء ويضعونها تحت البساط ليريحوا أنفسهم.

رحلة ويليام تيللر الفكرية

قلت لتيللر، إن لك ولتجاربك المعملية دور كبير فى إثبات أن لنشاطاتنا الذهنية تأثير على عالم المادة، فهل نُطلق على هذا المفهوم اسم «**نظرية تيللر**»، أم ماذا نسميها؟ أجابنى: لا، **إنها جزء أصيل من الفيزياء الحديثة، وليست فقط نظرية تُنسَب إلَىَّ**. قلت له، قبل أن تشرح لى ذلك، أود أن تبين لى **كيف تطورت نظرتك من عالمٍ يشارك العلماء الآخرين نظرتهم إلى الفيزياء، إلى تَبَنِّى تلك المفاهيم الغريبة على العلم التقليدى**، إننى شغوف لأن أعرف شيئًا عن رحلتك الفكرية.

أراح تيللر ظهره الذى لم تَحنِه السنون على ظهر مقعده المرتفع، وأخذ يسرد لى رحلته، فقال: **بدأ اهتمامى** بالعلاقة بين العالَم المادى والعوالم اللامادية منذ **أوائل خمسينيات القرن العشرين**، فقد بدأت أنا وزوجتى تجاربنا المعملية حول هذا الموضوع عقب زواجنا عام ١٩٥٢. وبعد أن تركت عملى **كمستشار فى مجال صناعات التبريد والتحقت بجامعة ستانفورد** عام ١٩٦٤ بدأنا فى توسيع اهتماماتنا الروحية، وجعلنا لأنفسنا **وقتًا محددًا يوميًّا للتأمل**، وقد حقق لى ذلك هدوءًا نفسيًّا أفادنى فى عملى عندما أصبحت **رئيسًا لقسم المواد فى كلية الهندسة فى جامعة ستانفورد عام ١٩٦٦**. وفى نهاية الستينيات، حين كنت وزوجتى فى رحلة عمل فى أكسفورد ببريطانيا، قرأنا كتابًا صغيرًا بعنوان (**اكتشاف النفس خلف جدارها الحديدى**)، وقد مكننى الكتاب من أن أُبَلْوِر سؤالًا محوريًّا جمعت فيه شتات الأفكار التى طالما راودتنى: **كيف يمكن الجمع بين ما فى الوجود من عجائب مادية وغير مادية بأسلوب يخضع لتصوراتنا ومنهجنا العلمى، ولا يتعارض مع ما أعرفه من أساسيات علم الفيزياء؟**

وفى نهاية الأشهر الستة التى قضيناها فى أكسفورد بدأت ملامح الإجابة عن هذا السؤال تتجمع. وقد تأكدت تصوراتى الجديدة حين ذهبت عام ١٩٧١ إلى الاتحاد السوڤييتى فى دعوة **من جماعة روحية تمارس ما يُعرف بأنشطة «الطاقة النفسية Psychoenergetics»**. فهناك رأيت بعينَىّ رأسى ممارسات كنت أتشكك فى حدوثها؛ كتحريك الأشياء عن بُعد Telekinesis ورفع

الأشخاص فى الهواء Subject Lifting. عندها لم أستطع أن أدير ظهرى لهذه الظواهر، وقررت أن أجعل للاهتمام بها جزءًا أساسيًّا من وقتى، وكان القرار أن أسلك طريقين فى الحياة، أحدهما أهتم فيه بعملى الجامعى والمهنى والحكومى، حتى أدبر نفقات حياتى وأسرتى، وما تبقى من وقت أوجهه للطريق الآخر.

بدأت الطريق الآخر عام ١٩٧١، وكان ذى ثلاث شعب. الأولى، أن **أهتم بتشكيل نفسى وترقيتها حتى «أستشعر» داخلى مفاهيمى الجديدة.** و الشعبة الثانية، أن أستمر فى بلورة **«نظرية» تجيب عن تساؤلى المحورى** الذى ذكرته منذ قليل. والثالثة، **أن أُصمم وأن أجرى «التجارب العلمية» التى تؤكد أو تدحض نظرتى ونظريتى الجديدة.** كذلك قمت بإلقاء العديد من المحاضرات وإجراء الكثير من الحوارات ونشر المقالات والأبحاث، كمساهمة فى **توعية الناس بالعلاقة بين العالَمين؛** المادى وغير المادى، والتأثير المتبادَل بينهما.

ومن أجل الحفاظ على الطريقين كان عَلَىَّ أن **أحيا كمن يسير على الحبل فى السيرك.** فلا شك أن ما طرحت من أفكار جديدة **قد أرعب زملائى فى ستانفورد،** هؤلاء القوم الذين انتووا من قبل أن يدفعـونى إلى أعلى منزلة علمية دولية، إذا بهم يُسقطونى من أيديهم كجمرة من نار.

وبحلول عام ١٩٩٢ كنت قد انتهيت من **تأليف ثلاثة كتب فى علم البللورات،** وشعرت أننى قد أديت واجبى تجاه هذا العلم بعد أن سجلت كل ما اكتسبته فيه من خبرة. عندها **قررت الاستقالة من عملى المنتظم بستانفورد، وبقيت هناك كأستاذ فخرى** لأتمم إشرافى على عدة رسائل للدكتـوراه، ولأُكمل مشروعات بحثية كنت متعاقدًا على إجرائها، مما سمح لى بالمزيد من الاهتمام بمجالى الجديد.

وفى عام ١٩٩٧، جاءنى **دعم من أحد الأثرياء ليتولى الإنفاق على أبحاثى،** فانتقلت وزوجتى عام ١٩٩٨ إلى ولاية أريزونا الشمالية، حيث بنيت **مختبرًا أجرى فيه أبحاثى بشكل يومى.** وفى عام ٢٠٠١ أصدرت كتابًا يحتوى على نتائج أبحاثى خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وكان الكتاب بعنوان: **عمليات الخَلْق الواعية: بزوغ فيزياء جديدة.**

Concious Acts Of Creation: The Emergence Of a new Physics

بذلك اكتمَلَت براهينى وحُججى حول دور النشاطات الذهنية فى التأثير على العالم المادى، وصرت قادرًا على الوقوف وراء مفاهيمى الجديدة أمام الأوساط العلمية التقليدية. **ومنذ ذلك الحين وأنا أطرح ما لدىَّ على المجتمع العلمى، وأُنازل** المعترضين والمندهشين.

وبينما أنا أستمع إلى هذا التلخيص لرحلة ويليام تيللر الفكرية، أدركت كم هو عظيم ذلك الرجل الذى أحاوره، وأدركت كم هو مفيد **أن يَطَّلع مفكرونا وشبابنا على الرحلات الفكرية للرجال العظماء.** لقد خرجت مما سمعته بدروس كثيرة، لعل من أهمها **أن الإنسان يأتى إلى هذه الحياة ليبحث عن الحقيقة، وعليه التخطيط بدقة من أجل الوصول إليها مهما تَكَلّفَ من تضحيات، فالحكمة ضالة المؤمن**، كما قال الرسول الكريم ﷺ.

ما بعد الفيزياء المعاصرة[1]

أفقت من تأملاتى، وعَبَّرت لتيللر عن إعجابى الشديد برحلته، ثم قلت له: نعود إلى ما ذكرت من أن مفاهيمك الجديدة جزء من الفيزياء الحديثة، هلا بينت لى ذلك؟

اعتدل تيللر فى جلسته، **إيذانًا بالانتقال من رحلته الذاتية إلى رحلة علم الفيزياء**، لم يتعامل العالِم الكبير معى بما هو أهل له من مرتبة عاليه؛ كأستاذ متمكن متمرس يخاطب مَن ليس بمتخصص، ولكن وجه إلىّ كلماته بتواضع وحياء عجيبين؛ قال لى:

لقد أُشتُقَّت الفيزياء التقليدية كلها ـ وكل العلم فى الحقيقة ـ من قوانين الحركة والجاذبية التى اكتشفها سير إسحق نيوتن وضَمَّنهَا كتابه (المبادئ Principa) عام ١٦٨٧. وتصف قوانين نيوتن كونًا تتحرك فيه جميع الأجسام ضمن فضاء ثلاثى الأبعاد، وفقًا لقوانين محددة وثابتة للحركة، لذلك يتطلب تغيير شيء ما تسخينه أو حرقه أو تجميده أو تسييله أو ركله ركلة «قوية»! وتمشيًا مع هذا المعنى يعلن عالم الفيزياء الكبير ريتشارد فينمان Richard feynman أن **قوانين نيوتن هى قواعد اللعبة بالنسبة للعلوم، وأن تلك القوانين تعنى أن لكل موجود من الموجودات كيان مستقل، ومن ثَمَّ فالحياة تمضى من حولنا على وتيرتها بغض النظر عما نفعله أو نعتقده.**

ثم **تلقت هذه النظرة الجامدة إلى العالَم ضربة عنيفة فى بدايات القرن العشرين**، عندما بدأ رواد **فيزياء الكم** يُمعنون النظر فى قلب المادة، فوجدوا **أن أصغر جسيمات مادة الكون لا تلتزم فى سلوكها بأى قاعدة عرفها العلماء من قبل**، فقاموا بجمع هذا السلوك (غير المنضبط بقوانين)

(١) ابتكرت اصطلاح «ما بعد الفيزياء المعاصرة» لوصف المفاهيم التى نتعرض لها فى هذا الفصل. فجاء الاصطلاح على وزن «ما بعد الحداثة»، مع الفارق الكبير بين المعنيين.

فى مجموعة من الأفكار صارت تُعرف **بتفسير كوبنهاجن Copenhagen Interpretation** إشارة إلى المكان الذى صاغها فيه عالِم الفيزياء الدانماركى نيلزبور N.Bohr وزميله الألمانى ڤونر هايزنبرج W.Heisenberg . لقد أدركا أن **الذرات ليست أنظمة شمسية مصغرة ككرات البلياردو، بل هى شىء أكثر فوضوية بكثير**. كذلك فإن أى **مُكَون تحت ذرى (كالإلكترونات) ليس شيئًا صلبًا مستقرًا، بل يتواجد كـ«احتمال» تتأثر كتلته وسرعته وهيئته بالراصد!** إن معنى ذلك **أن الوعى الإنسانى يؤثر بطريقة ما ليجعل من احتمال وجود الشىء شيئًا واقعيًا**، وأننا فى اللحظة التى ننظر فيها إلى الإلكترون (مثلًا) أو نسجل قراءة لسرعته أو كتلته فإننا نحدد حالته النهائية! ومن ثم يصبح **أكثر العوامل أهمية فى تشكيل كوننا هو «وعى» المراقِب له.**

ويقف معظم علماء اليوم عاجزين أمام هذه القضية المُحَيرة ذات الشقين؛ **كيف يتصرف المُكَوِّن تحت الذرى دون انضباط تبعًا لمفاهيم الكوانتم، وفى نفس الوقت يمثل هذا المُكَوِّن جزءًا من كلٍ أكبر يلتزم بالسلوك الحتمى تبعًا لقوانين نيوتن!!** وقد قبل الفيزيائيون ـ مضطرين ـ هذا التضاد على مدى أكثر من نصف قرن، وأصبحوا يتعاملون معه كأنه سلوك منطقى تمامًا!!.

كذلك فإن أحد أغرب مفاهيم فيزياء الكم ما يُسمى «**اللاموضعية Non-locality** أو **التشابك الذرى Quantum Entanglment**». فقد اكتشف الفيزيائى الدانماركى نيلزبور N.Bohr **أن المُكَوِّنات تحت الذرية (كالإلكترونات والفوتونات) يتأثر بعضها ببعض مهما كانت المسافة بينها، بغض النظر عن القوى التى تعارف علماء الفيزياء على أنها مسئولة عن التأثير المتبادَل بين المكونات، كالطاقة والشحنة والمسافة**. ويُشَبِّه الفيزيائيون هذا التشابك بين المكونات تحت الذرية بالتوأمين اللذين فُصلا بعد ولادتهما، ومع ذلك بقيت الروابط التخاطرية بينهما بالرغم من بُعدهما عن بعض.

وقد رفض **أينشتين مفهوم التشابك**، إذ يتطلب أن تسافر المعلومات بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وهذا مستحيل تبعًا لنظرية النسبية. لكن حديثًا أثبت بعض علماء الفيزياء المعاصرين (مثل آلان أسبيكت A.Aspect وزملائه فى باريس) بشكل جازم أن **سرعة الضوء ليست الحد الأعلى المطلق فى العالم تحت الذرى.**

بذلك قَبِل علماء الفيزياء مفهوم اللاموضعية **(التشابك) كصفة ثابتة للعالَم الكوانتى (تحت الذرى)**، لكنهم تحفظوا تجاه انطباقها على أى شىء أكبر من الإلكترون والفوتون. ثم فوجئوا بأن عالِم الفيزياء تشارلز بينيت C.Bennett الباحث فى معامل أبحاث شركةIBM

يثبت أن **التشابك يحدث على مستوى الذارت والجزيئات!** ثم أثبت الفيزيائى الكبير روزنباوم Rozenbaum وتلميذته سايا Saya أن **البللورات الكبيرة** التى نرصدها بالعين المجردة والتى تتكون من الآلاف من الذرات يمكن أن **تخضع لمفهوم التشابك!** وقد نشرا أبحاثهما فى مجلة Nature عام ٢٠٠٢.

كذلك أثبت الفيزيائى الرياضى توماس ديورت T.Durt من جامعة فريج Vrije فى بروكسل ـ من خلال معادلات رياضية أنيقة ـ أن **كل التفاعلات الكوانتية (على مستوى المكونات تحت الذرية) تتسم بالتشابك**، حتى إن الفوتونات المنبعثة من النجوم تتشابك مع كل ذرة تلتقى بها فى طريقها إلى الأرض. كذلك فإن **الذرات والجزيئات فى كل مكان، حتى فى أجسادنا، لا تتوقف كل لحظة عن تبادل الطاقة جيئة وذهابًا. بذلك تسلك مادة الكون باعتبارها كلها مترابطة.**(١)

وفى اكتشاف ثورى أثبت عالم فيزياء الكم الشهير أنطون زيلينجر A.Zeilinger فى جامعة ڤيينا، فى تجربة رائعة (أمكن تكرارها) مهولة الدلالة، **أن «الجزيئات» قادرة على التواجد فى مكانين فى آن واحد. أى أن المادة كبيرة الحجم ليست شيئًا مستقرًا، وأنها تحت ظروف معينة تتجاهل قوانين نيوين وتخضع لقوانين الكوانتم**، ومن ثم فهى توجد فى حالة احتمال صِرْف وتخضع لظاهرة التشابك.

لقد **غرق العلماء فى تطبيقات فيزياء الكم**، فأخرجوا لنا كمًا هائلًا من الأجهزة الإلكترونية الحديثة، وكذلك القنابل الذرية! لقد بنينا من وراء ذلك حضارة متميزة، وجنى الكثيرون أرباحًا طائلة. لكن **غابت عن العلماء التطبيقات الميتافيزيائية لتفسير كوبنهاجن**، وأهمها **تأثير الراصد، والذى يعنى أن طبيعة الوعى بالمادة تؤثر على هيئتها**، وكذلك **مفهوم التشابك الذى يعنى أن مادة الكون كلها مترابطة!**؛ وظلت هذه المفاهيم غير مطروقة على الإطلاق.

إن هذه الاكتشافات الفيزيائية الحديثة تثبت أنه **ليس هناك قانونان للفيزياء (فيزياء الأجسام الكبيرة ـ وفيزياء المكونات تحت الذرية) ولكن هناك قانون واحد للحياة بأسرها. ومن ثم إذا كان «للراصد» دور فى عالم المكونات تحت الذرية (عالم الكم) فهل يمتد هذا الدور إلى عالَم الأجسام الكبيرة؟!**

(١) يتحدث الفيزيائيون عن «حقل النقطة صفر» **Zeiro Field Energy**. ويقصدون به أنه إذا كانت المادة كلها تتوقف عن الحركة عند درجة الصفر المطلق، فإن هناك موجات تبقى مرصودة، وهذه الموجات ـ فى الأغلب ـ هى المسئولة عن ظاهرة التشابك. ويستنتجون من ذلك **أن مادة الكون كلها تتبع حقل طاقة واحد مركزى هائل.**

تجارب ويليام تيللر

حَدَّق ويليام تيللر بنظراته إلى سقف الغرفة، وكأنه يسترجع ماضيًا بعيدًا، وقال: منذ قرابة الأربعين عامًا، اهتممت ـ وكذلك مجموعة صغيرة من العلماء الرواد فى جامعات مرموقة حول العالم ـ بتلك القضية. وطرحنا سؤالًا بديهيًّا؛ **إذا استطاع وعى الراصد (الانتباه) أن يؤثر على المكونات الفيزيائية تحت الذرية، فهل يؤثر على الأجسام الكبيرة؟ وهل للنية (الرغبة الأكيدة لإحداث التغيير) تأثير على تلك المادة!؟** وقد صمم كل منا ما استطاع من تجارب علمية للإجابة عن هذا التساؤل.

قلت لتيللر؛ لقد اطلعت على العديد من التجارب التى أجراها هؤلاء العلماء، وكذلك تلك التى أجريتها أنت، فهلا لخصت لى ما أَظهَرته تجاربُك.

أجابنى تيللر: تدور تجاربى حول فكرة محددة، وهى: **إذا كان لوعى الراصد ونيته تأثير على عالم المادة فلن يكون ذلك إلا عن طريق إطلاق تلك النشاطات الذهنية طاقة تمارس هذا التأثير.** من أجل ذلك ركزت فى تجاربى على هذه الفكرة، والتى تُعتبر نتائجها بمثابة نقلة هائلة فى علم الفيزياء، بل إننى أُشَبِهُها بتأثير ثورة كوبرنيكوس العلمية على علم الفلك.

لقد أردت **اختبار تأثير «النية البشرية» (التركيز الذهنى على إحداث تغيير ما فى الوسط المحيط) على بعض العمليات الكيميائية والبيولوجية**. فكنت أجلس أنا وزوجتى وشخصان آخران من خبراء التأمل أمام تجربة معينة، ونستحضر فى داخلنا بشكل مُلِّح الرغبة فى إحداث تغيير ما فى وسط التجربة، مع ذِكر وتكرار نيتنا بصوت مرتفع وتوجيهها بشكلٍ آمر لوسط التجربة، وكنا نكرر ذلك على مدى أيام إذا احتاجت التجربة، ولضمان عِلمية التجربة أجرينا معها تجربة حاكمة Control group، كانت النتائج مبهرة.

فعلى **المستوى الكيميائى**، استطعنا عن طريق التركيز الذهنى (استحضار النية) أن **نُغَيِّر درجة حموضة الماء (pH) بالزيادة والنقصان بمقدار وحدة كاملة** دون أى إضافات كيميائية. وهذا مقدار كبير بمقياس درجة الحموضة (pH) يستحيل حدوثه تلقائيًّا. وقد حقق آخرون فى الولايات المتحدة وأوروبا نفس النتائج حين كرروا التجربة.

وعلى **المستوى البيولوجى، أجرينا تجاربنا على ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا)**، ونجحنا باستحضار النية وتوجيهها إلى يرقات الذبابة وطورها البالغ ـ عبر عدد من الأجيال على مدى ثمانية أشهر ـ **أن نزيد من معدل إنتاج جزىء الفوسفات القاعدية الثلاثية ATP** (جزىء تخزين

الطاقة فى الكائنات الحية) من سلفه جزىء الفوسفات القاعدية الثنائية ADP، بمعدل تراوح بين ١٥ - ٢٠٪. وقد قلل ذلك من فترة نضح اليرقات إلى الطور البالغ بمقدار ٢٥٪، كما زاد من الكفاءة الصحية للذبابات البالغة.

وفى تجاربنا على **الفئران**، استطعنا عن طريق استحضار النية وتوجيهها إلى وسط التجربة لمدة ٣٠ دقيقة من **رفع كفاءة أحد أهم إنزيمات الكبد (إنزيم الفوسفات القاعدية Alkaline Phosphatase)** بمقدار ٢٥ ـ ٣٠٪.

لقد أثبتت هذه التجارب (بموضوعية) أنه **يمكن إحداث تغييرات كيمائية وبيولوجية فى الوسط المحيط عن طريق استحضار النية الذهنية**. ثم خطر ببالى خاطر جرىء (قد يرتعد الكثير من العلماء من مجرد التفكير فيه)؛ إذا كانت الأفكار تؤثر فى الوسط المحيط عن طريق إطلاقها للطاقة، **فهل يمكن تخزين الأفكار البشرية (الطاقة) فى ذاكرة إلكترونية ونقلها إلى مكان آخر لتؤثر فى العالم المادى؟!** والسؤال بأسلوب تطبيقى؛ هل يمكن أن نشحن جهازًا بسيطًا ذا ذاكرة إلكترونية بطاقة نية بشرية، واستخدامها للتأثير على عمليات كيمائية وبيولوجية بعد نقل الجهاز إلى مكان آخر؟. من أجل دراسة ذلك، طورنا (فى عام ١٩٩٧) تجاربنا الثلاث السابقة، لذلك قمنا بتصميم جهازٍ إليكترونى صغيرٍ (بحجم كف اليد) يستطيع رفع مستوى الطاقة الكهرومغناطيسية التى تنتجها نشاطاتنا الذهنية ويختزنها ثم يبثها عند اللزوم، وأسميناه (**جهاز تخزين النية Intention - Host Device**)[1].

وكنا نقوم نحن الأربعة (أنا وزوجتى وخَبيرَىّ التأمل) باستحضار النية وترديدها (كالتجارب السابقة) فى وجود جهاز تخزين النية، ثم ننقل الجهاز إلى مكان آخر يبعد ١٥٠٠ ميل نجرى فيه التجارب. وفى وسط التجربة، كنا نُدير الجهاز فيبث ما سجلنا فيه من نية منطوقة طوال فترة إجراء التجربة.

والمدهش، أننا حصلنا على نفس النتائج التى سبق أن حصلنا عليها عندما أجرينا التجارب فى حضورنا. **إن ذلك يعنى أنه يمكن تخزين طاقة النشاطات العقلية (النية) لفترات ونقلها إلى مكان آخر لتمارِس فعلها!!**.

---

(١) يحوى الجهاز مكثفات تزيد الطاقة (من ١ إلى ١٠ ميجاهيرتز)، ثم ذاكرة إلكترونية (تستقبل الموجات الكهرومغناطيسية التى تم تكثيفها) وهذه الذاكرة قابلة للتسجيل والمسح والبرمجة، وأخيرًا يحوى مُسَرِّعات الكوارتز التى تبث تلك الموجات الكهرومغناطيسية عند إعطاء الأمر بذلك.

وأضاف تيللر؛ ربما كان ما توصلنا إليه من إمكانية شحن الأشياء المادية بأفكارنا، هو **الأساس لفنون الشعوذة فى كثير من الحضارات القديمة**، وفيها تُحَمَّل التمائم والتماثيل والدُمى والعرائس الورقية بنوايا سلبية، وتُستخدَم لإنزال الأذى بالآخرين.

وبينما عالم الفيزياء الكبير يروى لى هذه التجارب ونتائجها المذهلة **بمنتهى الهدوء والثقة**، والتى قد لا أصدقها لو شاهدتها فى أحد أفلام الخيال العلمى، كنت أستمع فاغرًا فاهى (أحيانًا) ورافعًا حاجِبَىَّ (أحيانًا) من **فرط الاندهاش**. كان تيللر يلاحظ رد فعلى هذا طوال حديثه، لذلك ما أن انتهى من وصف تجاربه أضاف قائلًا: **إن تجاربى ليست غريبة أو شاذة كما تعتقد. فتأثير النشاطات الذهنية على الكائنات الحية والتفاعلات الكيميائية وكذلك على الأجهزة الإلكترونية** أصبح مجال اهتمام العديد من العلماء، حتى إننى حتى الآن أعرف ـ بقدر علمى ـ أسماء ٦٨ باحثًا مستقلًا توصلوا فى أبحاثهم إلى نتائج تثبت تلك التأثيرات.

ومن أكثر الأبحاث دقة وإقناعًا، تلك التى أجراها **ويليام براد W.Braud** [(١)] فى تكساس، والتى أظهرت أن الأفكار البشرية يمكنها التأثير على **اتجاه سباحة الأسماك وحركة حيوانات أخرى كالجرذان. كما أظهرت أبحاث براد الدقيقة أن الإنسان قادر على التأثير على الجهاز العصبى اللاإرادى** لشخص آخر ، إذ سجلت تجاربه أن توصيل الجلد للكهرباء يتغير عندما يحملق فيه أحد، إذ إن ذلك يعرضه للضغط النفسى.

ولا شك أن أكثر التجارب موضوعية (وأسهلها رصدًا) **هى محاولات التأثير على رمية النرد**. وفى مجموع ٧٣ دراسة اختبرت ٢٥٠٠ شخص للتأثير على أكثر من ٢,٥ مليون رمية نرد، كانت النتيجة قاطعة فى صالح تأثير النية الإيجابى مقارنة بالصدفة.

وينبغى ألا نتجاهل النتائج المثيرة للاهتمام فى نجاح النشاطات الذهنية فى «**لَىّ الملاعق**»، وهى التجارب التى قام بها جون هاستد J.Hasted فى كلية هيركبيك بجامعة لندن.

يتضح من كل التجارب السابقة أن الذهن البشرى مرتبط ارتباطًا لا ينفصم بالمادة، وأنه قادر على تغييرها عن بُعد من خلال النشاطات الذهنية، وأن هذه النشاطات يمكن تخزينها ونقلها إلى مكان آخر لتمارس تأثيرها هناك.

(١) ويليام براد، عالم النفس ومدير أبحاث مؤسسة Mind Science Foundation فى سانت أنتونيو بتكساس، وكذلك مدير أبحاث معهد Transpersonal Psychology

طاقة الضوء... والتأثير عن بُعد

كان شرح ويليام تيللر شديد الوضوح والدلالة، وهذا شأن أصحاب الخبرة الحقيقية. وما أن انتهى من كلامه، **قلت له**: لقد عرضت علينا **تجاربك على الموجات الكهربائية والمجالات المغناطيسية الصادرة عن النشاطات الذهنية**، ولا شك أن تلك الموجات والمجالات قصيرة المدى، بينما تتم بعض التأثيرات الذهنية (كالعلاج عن بُعد) عبر مئات وآلاف الأميال، **فما رأى علم ما بعد الفيزياء المعاصرة فى دور الطاقة الحيوية (التى هى فوتونات ضوئية) فى التأثير والتواصل عن بُعد، وما آلية ذلك؟**

أجابنى تيللر:

من عطاءات أينشتين المتعددة للعلم، طرحه عام ١٩٢٤ لفرضية أطلق عليها اسم **تكثيف بوز - أينشتين**.[١] وتدور الفرضية حول أنه إذا كان للذرات المختلفة سرعات مختلفة، فإن عند درجات الحرارة شديدة الانخفاض (بضع درجات فوق الصفر المطلق) تأخذ الذرات فى التباطؤ حتى تصل إلى سرعات متطابقة، عندها **تفقد مجموعات الذرات فرديتها، وتتصرف كذرة واحدة عملاقة**، وهذه حالة جديدة للمادة، تكتسب فيها المادة خواص مختلفة تمامًا عن أى شيء معروف فى الكون، وصارت تعرف **بالحالة الخامسة للمادة**[٢].

وعندما نشر أينشتين أبحاثه تلك، كان متشككًا فيها! كذلك لم يقتنع بها علماء الفيزياء الآخرين إلا بعد سبعين سنة (فى الخامس من يونيو عام ١٩٩٥)، حين استطاع كورنيل 'Cornel وويمان Wieman **إثبات هذه الفرضية على مستوى «الذرات»** معمليًا، لذلك حصلا عام ٢٠٠١ على جائزة نوبل[٣]. وبعدها بسنوات استطاع كورنيل **إثبات نفس التأثير معمليًا على مستوى «الجزيئات»**. كما أثبتت د. جوش نفس التأثير على مستوى **«البللورات»**[٤].

---

(١) كان صاحب الفكرة الأساسية هو عالم الفيزياء الهندى ساتيندا ناث بوز Bose

(٢) الحالات الثلاث الأولى هى الحالات الغازية والسائلة والصلبة. والحالة الرابعة هى حالة «البلازما» وفيها تكون البروتونات والنيوترونات والإلكترونات حرة وغير متجمعة على هيئة ذرات.

(٣) يعمل **إيريك كورنيل** وكارل **ويمان** ضمن برنامج JILA المُمَوَّل من المعهد الوطنى للمقاييس والتقنيات وجامعة كولورادو. وقد نجحا فى تبريد مجموعة صغيرة من ذرات الروبيديوم إلى ١٧٠ جزءًا من المليار من الدرجة فوق الصفر المطلق، فبدأت فى التصرف كأنها اندمجت فى كيان واحد، وبالرغم من أنها بقيت فى حالة غازية، إلا أنها تصرفت بشكل أقرب إلى سلوك المادة الصلبة. وبعد ذلك بأربعة أشهر حصل وولففانج كيترل **Ketterle** من معهد MIT على نفس النتائج باستخدام ذرات الصوديوم.

(٤) أجرت سيانتانى جوش S.Ghosh فى أطروحتها للدكتوراه تحت إشراف روزنباوم عام ١٩٩٩ تجارب على البللورات باستخدام المجالات المغناطيسية والتسخين، أظهرت أن «البللورات»، **تحت ظروف معينة، تتصرف كأنها ذرة واحدة عملاقة، وكأنها متشابكة.**

وعندما درس د.كيترل فى معهد MIT خواص تلك الحالة الجديدة للذرات والجزيئات والبللورات، وجد هذه الجسيمات تدور فى تناغم تام، وكأنها الفوتونات فى شعاع الليزر، **وتصرفت كأنها فوتون واحد عملاق.**

وأضاف تيللر، لعلك تسأل؛ وما علاقة هذه الجولة الفيزيائية بموضوعنا. وأجاب عن تساؤله قائلًا؛ المدهش **أن الفوتونات الحيوية التى اكتشفها فريتز ألبرت بوب وفريق العاملين معه كانت شديدة التماسك وذات تردد شديد القوة، وهى ظاهرة يُشار إليها بمصطلح «الإشعاع الفائق»، وتشبه تكثف بوز ـ أينشتين وتشبه أشعة الليزر**[١].

كذلك أثبت عالِم الفيزياء الحيوية الألمانى هيربرت فروليش H.frolich أن الطاقة البيولوجية (الفوتونات الحيوية) تترابط مع الحقول الكهرومغناطيسية فى الطبيعة، ولا تتصرف كل من هذه النظم كوحدات مستقلة، بل تتصرف كأنها فرقة مشاة مدربة جيدًا تسير سيرًا متناغمًا. أى **أن أنظمة الطاقة البيولوجية «تتوالف» مع أنظمة الطاقة الأخرى فى الكون فى حالة واحدة متماسكة عملاقة!** كما أنها **تنتقل ـ مثل ضوء الليزر ـ عبر مسافات هائلة فى زمن ضئيل للغاية دون أن تفقد طاقتها.**

ولما كانت النشاطات الذهنية تصدر طاقات كهربائية ومغناطيسية (كما ذكرنا منذ قليل)، فقد افترض بعضُ العلماء **أن تلك النشاطات ـ مثلها مثل الأنشطة البيولوجية الأخرى ـ تُوَلِّد أيضًا الضوء المتماسك تبعًا لتكثفات بوز ـ أينشتين.**

وأضاف تيللر، ولاستكمال الصورة بخصوص انبعاث الفوتونات الحيوية عن الكائنات الحية، أشير إلى ما صار يُعرف باسم **تأثير كيرليان Kirlian effect**، نسبة إلى المهندس Kirlian [٢]، الذى اكتشف عام ١٩٣٩ **أن الكائنات الحية والأجسام غير الحية إذا تعرضت لطاقة كهرومغناطيسية فإنها تولد تفريغًا حلقيًّا حول الجسم يظهر على هيئة حلقة من الضوء الملون يمكن التقاط صورتها على فيلم حساس، وأطلق عليها اسم الحقول الحيوية** Biofields.

---

(١) افترض عالِم الفيزياء البريطانى روجر بينروز R.Penrose وزميله طبيب التخدير ستيوارت هاميرون S.Hameron من جامعة أريزونا أن الأنابيب المجهرية Microtubules فى النباتات (التى تشكل البنية الهيكلية الأساسية للخلايا) هى أنابيب ضوئية تتحول فيها موجات الضوء العادية إلى فوتونات عالية التماسك ليتم إرسالها إلى باقى أجزاء الجسم، أى أنها البديل البيولوجى عن درجات الحرارة شديدة الانخفاض.

(٢) لقى كيرليان الإهمال حتى عام ١٩٦٠، عندما نشط الاهتمام باكتشافه، واعتُبر بطلًا قوميًّا فى الاتحاد السوفييتى، واستُخدم اكتشافه فى أبحاث الفضاء.

وقد اهتم عالم فيزياء الكم الروسى قسطنطين كوروتكوف K.korotkov[1] بجامعة سانت بطرسبيرج للتقنية بتأثيرات كيرليان، وابتكر **آلية للتصوير تعطى** وضوحًا أكبر بملايين المرات من الأجهزة العادية. وقد أجرى كوروتكوف دراساته على العلاقة بين الحقول الحيوية وبين الوعى ونشاطاتنا الذهنية، واكتشف **اختلافات فى التفريغات الحلقية عند المعالجين بالنية عن بُعد ومعلمى التشى كونج عن الأفراد العاديين.**

الطاقة غير المتشكلة

بعد هذه الجرعة الدسمة الممتعة من الفيزياء، كان طبيعيًّا أن أسأل د. تيللر: هل يتم تأثير النشاطات الذهنية على عالم المادة من خلال الطاقات (الكهربائية والمغناطيسية وربما الفوتونية) التى تطلقها عقولنا والتى حدثتنى عنها فقط، **أم أن هناك آليات أخرى؟**

أجابنى تيللر؛ تخبرنا الفيزياء الحديثة أن **الفراغ Vaccum يحتوى على طاقة هائلة كامنة غير متشكلة Dense Energy Potential**، ونَصِفُها بأنها كامنة لأن ليس لها تأثير ظاهر على الوجود الفيزيائى للكون. وقد أثبتت فيزياء الكوانتم والنظرية النسبية أن هذه الطاقة يبلغ مقدارها $١٠^{٩٤}$ جرام لكل سم^{٣} من الفراغ. ولتصور **عِظَم هذا القدر** نقول إن فراغًا يبلغ حجمه مقدار طرف عقلة الإصبع الصغير (١ سم^{٣}) يحتوى على طاقة خام إذا تم تحويلها لمادة فستكون أكبر من مادة المجرات التى تم رصدها **مجتمعة!**، لذلك بعد أن كان العلماء يتحدثون عن فيزياء الكم باعتبارها «**أُم الفيزياء**»، طرحوا حديثًا علم «**فيزياء الفراغ**» باعتبارها الأساس الذى ينبغى أن يبدأ منه تفسير جميع الظواهر الفيزيائية. إن ذلك يعنى **أن كل هذا الوجود الذى يشغلنا لا يمثل إلا كمًّا يكاد يكون مهملًا من الوجود الحقيقى.**

وأعتقد أن تأثير الوعى/ الأفكار/ النية (بالإضافة إلى الآليات التى ذكرناها) يمكن أن يتم من خلال **تشكيل جزء من هذه الطاقة غير المتشكلة، والانتقال بها من الطور الكامن إلى الطور الفَعَّال المرصود فى وجودنا الفيزيائى**، وهذه الطاقة الفعالة تؤثر فى الذرات والجزيئات والتفاعلات الكيميائية. لذلك فإن مستقبلنا ومصيرنا يكمن فى تنظيم الطاقات الكامنة فى فراغ الذرات والجزيئات والكواكب والنجوم والمجرات.

---

(١) ألَّفَ كوروتكوف خمسة كتب حول (الحقل الطاقى الحيوى للإنسان Biofield)، واعتمدت وزارة الصحة الروسية اختراعه كأحد التقنيات الطبية والتشخيصية والعلاجية لكثير من الأمراض بما فيها السرطان والضغط النفسى، وكذلك لتقدير قدرات الرياضيين ومدى تعرضهم للإنهاك عند الإفراط فى التدريب.

العالَم الداخلى والعالَم الخارجى

قلت لتيللر: إن طرحك هذا يغير من نظرتنا تجاه عالمين؛ الأول، **العالَم الفيزيائى**، الذى لا تقف به عند حدود الطاقة والمادة المعروفين، والثانى هو **عالَم النفس البشرية**، فأنت تخرجها عن إطار النظرة المادية وتكشف الكثير عن قواها الخفية وتجعل لنشاطاتها الذهنية تأثيرًا مباشرًا على العالم المادى. والآن هلا طرحت عَلَىَّ تصورك عن **العلاقة بين عالم الإنسان الداخلى والعالم المادى الخارجى**.

أجابنى تيللر: تكمن حقيقة الإنسان فى أننا «**أرواح متجسدة**»، أى أن **جوهرنا (الروح) يسكن فى أجساد مادية** عندما نأتى إلى هذه الحياة، وأرواحنا هى المسئولة عن نشاطاتنا الروحية والعقلية. ويمكن تشبيهنا بإنسان قابع داخل **غواصة كروية ذات ثلاث طبقات** متتالية؛ **فجوهر الإنسان (الروح) يُحاط بثلاثة مجالات**، أَنْظر إليها كالحُلَل الحيوية (أى ذات طاقة). وألصَق هذه المجالات بالروح هو «**المجال العقلى**»، يتلوه للخارج «**المجال الانفعالى**»، وكلا المجالين غير ماديين. ويُنتج ما تمارسه الروح من نشاط عقلى (المجال العقلى) كَمًّا من الطاقة (كما ذكرنا) التى ترفع من طاقة المجال الانفعالى، وهذه بدورها ترفع من طاقة المجال الثالث الخارجى وهو «**مجال كهرومغناطيسى**»، وهو فى الحقيقة الوجود المادى المحيط بنا، بما فيه من طاقات كهربائية ومجالات مغناطيسية.

وبتكرار نشاطاتنا العقلية تتكرر عملية التنشيط من المجال العقلى إلى المجال الانفعالى إلى المجال الكهرومغناطيسى (المادى الخارجى)، مما يجعل طاقة هذا العالم المادى أكثر نشاطًا ويصبح متشكلًا بهيئة تختلف تبعًا لنوع ما نمارسه من نية وقصد، أى أن **واقعنا يتبدل كَمًّا وكيفًا، ويصبح لدينا واقع فيزيائى مختلف**.

بعد أن عَرَضَ تيللر رؤيته (التى أدهشتنى) لتأثير عالَم الإنسان الداخلى على العالم الخارجى المادى، ختم كلامه قائلًا: بالرغم من غرابة الفكرة، فإن هذا التأثير معروف للإنسان منذ قرون! **فأصحاب القلوب الحساسة إذا دخلوا أحد دور العبادة القديمة استشعروا فيها جَوًّا من الروحانية لا يستشعرونه فى دور العبادة الحديثة**، مهما بلغ ما فيها من نقوش وتزيين. يرجع ذلك إلى أن هذا المكان تردد عليه عبر قرون العديد من العُبَّاد والأولياء، ومارسوا فيه الصلاة والذكر والتأمل، فارتفع مستوى ما فى المكان من طاقة تشكلت بهيئة ترفع مستوى المشاعر الروحية لأصحاب

القلوب الحساسة من المترددين. وقد أظهرت بعض تجاربى أن هذه الطاقات تبقى فى المكان لفترات طويلة قد تصل إلى سنة كاملة، وتتناقص ببطء قبل أن تتلاشى.

وبينما كان د.تيللر يطرح هـذا المفهـوم، استحضرتُ بعضًا من تجاربى الشخصية فى هذا المجـال. فأنا أستشعر روحانية خاصة عنـدما أُصلى فى **مساجد القاهرة القديمة**، لا استشعرها فى المساجد الأخرى. وفى أحد الأيام زارنى فى بيتى رجل أُحسن الظن فى تدينه، وعندما دخل غرفة الاستقبال سألنى مبتسمًا؛ ماذا تفعلون فى هذه الغرفة؟ فنظرت له مستفسرًا، فأضاف، **إنى أرى أنوارًا واستشعر روحانية عالية فى المكان**. فأخبرته أننى ومجموعة من الأصدقاء نعقد بصفة دورية فى هذه الغرفة مجلسًا للعلم ولذكر الله وتلاوة القرآن.

أفقت من تأملاتى وقلت لدكتور تيللر؛ إن الإسلام يوصينا بأن **نؤدى بعض الصلوات فى بيوتنا (سنن الصلاة)** وأن نَعْمُرها بقراءة القرآن، وإلا لصارت كالقبور[1]. والآن عرفت أن **هذه النشاطات الذهنية والقلبية ترفع (فعليًّا) من روحانية المكان.**

كيف نُغَيّر العالَم..!

ثم **سألت تيللر**؛ إذا كنا نستطيع بالعبادة والذكر أن نغير العالم، وأن نجعله مكانًا أفضل نحيا فيه، ألا ترى أن هذا المفهوم يتفق مع ما يتبناه المتواكلون الذين لا يربطون بين المقدمات والنتائج (يتركون الأخذ بالأسباب) ويتراخون فى اقتحام المشاكل بأسلوب عملى علمى، ويكتفون بالعبادة والذِكْر!؟

أجابنى تيللر: إن معاناة إنسان الحضارة المادية التى نحياها تشبه السرطان المستشرى فى الجسد، علينا أن نهاجمه بكل الوسائل. على الجراح أن يستأصل ما يمكن استئصاله من الورم، وعلى طبيب الأورام أن يتصدى له **بالعلاج الإشعاعى والكيميائى**. وفى نفس الوقت ينبغى اتخاذ الإجراءات اللازمة **لرفع كفاءة الجهاز المناعى للمريض**، وكثيرًا ما يكون هذا أهم الخطوط العلاجية. ورفع كفاءة جهاز المناعة يقابل ما يمكن أن نُحْدثه داخلنا وفى الوجود من حولنا من تغييرات أشرنا إليها، عن طرق نشاطاتنا الروحية والذهنية.

سألت تيللر؛ ما الذى تقصده بالسرطان المستشرى فى الجسد؟ أجابنى؛ إنه عدم القدرة على **أن يحب بعضُنا بعضًا**. لذلك ينبغى أن نتعلم كيف نتحاب بشكل أعمق، ويتحقق ذلك بأن

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفرُ من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة» أخرجه مسلم فى صحيحه.

ننظر إلى العالَم بقلوبنا (مشاعرنا) كما ننظر إليه بعقولنا، وأن نهتم بعمارة داخلنا، وأن نعتبر أنفسنا جزءًا من الآخرين وأنهم جزءٌ منا، فما نضيفه إليهم هو إضافة لنا.

قلت لتيللر، أراك قد تركت حديث العلم وأدلته وتحدثت بكلام عاطفى بلاغى. قال على الفور؛ لا يا عزيزى، فما زلت أتحدث حديث العلم، فإن تعميق الحب بيننا يتحقق بأن تشع من روحك (التى هى لُب الحُلَل الثلاث) طاقة تشحن بها المجالات الثلاثة التى تحيطها، فتُغَيِّر هذه الطاقة الوجود من حولك وتحقق لك التواصل مع الآخرين. فكما ذكرنا، نحن على المستوى الخارجى (المجال الكهرومغناطيسى) «متشابكون Entangled »[١]، بحيث يؤثر ما يقوم به كل منا فى الآخرين ويتأثر بهم، كما أننا «متواصلون» روحيًّا وعقليًّا وشعوريًّا.

وما أدعو إليه من حب نتبادله فيما بيننا، هو امتداد «للحب» المتبادل بين الإله والروح، فمنه ينبثق «الوعى»، ومن الوعى تنبثق «الطاقة» التى تؤثر فى «المادة». والعلاقة بين الطاقة والمادة تتبع معادلة أينشتين الشهيرة $E=MC^2$ [2]، ويبقى علينا أن نبحث عن المعادلة التى تحكم العلاقة بين الوعى والطاقة!

وأضاف تيللر؛ إن الحب هو الخَلْق، إنه مصدر كل شىء. فالحب يُجَمِّع والكُرْه يُفَرِّق. نحن لم ندرك بعد ما هو الحب. فقبل الانفجار الكونى الأعظم، قبل الوجود المادى، لم يكن إلا الروح الكلى[٣]، الذى «أَحَبَّ أن يخلق» العقل[٤] والشعور. ثم شاء القصد الإلهى أن يخلق الوجود المادى الذى أمد العقل والشعور بغلافهما المادى الذى نكتسبه عندما نولد، ونفقده عندما نموت. أما الوجود الروحى فهو خالد أبدًا.

كاد ما طرحه تيللر من مفاهيم متلاحقة تدير العقول أن يبعثر ثوابتى العلمية أشلاء. فالرجل ببساطة شديدة يُبرز أمور كنت أعدها من المفاهيم الإيمانية الغيبية، ويعيد فى ضوئها نسج المنظومة العلمية التقليدية، فيُخرج لنا لحنًا متناغمًا متناسقًا، أو قل يُعِدُّ لنا شرابًا من أمزجة مختلفة لم أذق فى حياتى مثيلًا له.

(١) عرضنا مفهوم التشابك Entanglement صفحة ١٤٧.
(٢) الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء.
(٣) تشير ديانات الشرق الأقصى إلى الله ﷻ باسم الروح الكلى.
(٤) قال رسول الله ﷺ لما خلق العقل، قال له أَقبِل فأَقبَل، ثم قال له أدبر فَأَدْبَرَ.... أخرجه الإمام الطبرانى فى المعجم الكبير.

معراج الروح

جَمَعتُ أشلائى العقلية والشعورية، وسألت تيللر: تحدثت كثيرًا عن الوعى، الذى تنظر إليه علوم المخ والأعصاب باعتباره عكس الغيبوبة، وباعتباره المدخل لباقى النشاطات العقلية **فكيف تنظر أنت إلى الوعى؟**

أجابنى تيللر: أنظر إلى الوعى باعتباره **طريقًا صاعدًا ذا ثلاث مراحل**. المرحلة الأولى هى مرحلة «**الشعور بالذات**» وتمثل كل ما نفعله ومَا ننجزه، وهذا يجعلنا فخورين بإنجازاتنا وأنفسنا **ويجعل ذواتنا متورمة!**. وإذا كنتَ محظوظًا، تُسْلِمُكَ هذه المرحلة إلى «**مرحلة التسليم**»، وفيها تنشغل عن ذاتك الإنسانية وأنانيتها بذاتٍ أكبر تُسلِمُ لها نفسك، عندها تدرك أنك جزء من **حقيقة وجودية أعمق**. وإذا وصلت إلى هذا المستوى فقد تنطلق إلى المرحلة الأخيرة، وهى «**الذروة**»، عندها تدرك أنك جزء من رقصة الحياة الكبرى **وأن الحقيقة المطلقة تستخدمك فى توجيه العالم**.

سألت تيللر؛ من الناحية العملية، **كيف نحقق هذا الترقى عبر مستويات الوعى؟** فأجابنى: إن ذلك يتحقق بالهروب من المُشتّتات والشواغل التى تحيط بمجالنا الخارجى، وبالخروج من دائرة الزمان والمكان، وبالتحكم فى الذات والتواصل الأعمق معها. ويتحقق ذلك بتهدئة العقل، والحياة مع بصيرة القلب، عن طريق المجاهدة والتأمل والذكر[1].

إن مفتاح ذلك كله أن تحب الإله بكل قلبك وعقلك وروحك، وأن تحب جميع المخلوقات وأن تغمرها بعطائك باعتبارها أعمال الإله، وأن تنظر إلى الحياة باعتبارها رحلة ممتعة فى عالم الزمان والمكان، وأنها سرعان ما تنتهى لنلحق بوجودنا الأبدى المطلق.

عند هذا الحد، أدركت أن رحلتى العلمية والفكرية والروحية مع د. ويليام تيللر قاربت هى أيضًا على الانتهاء، وبدأت أُعد نفسى للحظة الفراق (التى تمنيت من كل قلبى ألا تأتى) وتبادلنا نظرات الوداع، ومددنا أيدينا للمصافحة، وأمسك تيللر بيدى وهو يقول لى: **تذكر دائمًا أن الوجود وحدة واحدة متشابكة، وأن الإنسان يؤثر بعقله ونيته وإرادته فى العالم المادى وفى حقائقه الفيزيائية**، وأضاف، **إن الطبيعة أغزر كثيرًا وأغنى كثيرًا من كل تصوراتنا، إننا مجرد أطفال نحبى تحت أقدام الوجود... ثم افترقنا.**

---

(١) ألا يتطابق ذلك مع قول الحق ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران].

القارئ الكريم

بعد أن دَوَّنْتُ الحوار مع ويليام تيللر، أخذت أعيد قراءته والنظر فيه، ثم أخذت أُسائل نفسي، مع أي رجلين كنت أتحاور؟ أمَعَ عالم بارز في الفيزياء، أم مع صوفي عاشق؟ فقد كان الرجل نسيجًا وحده.

وما كنت أظن أنني سألتقي - في هذا الزمان المادي - بمن يشاركني الاهتمام بمشروعي الفكري، الذي يدور حول «تجديد مُزدَوَج»؛ «تجديد الخطاب العلمي» ليكون دالًا على الدين، و«تجديد الخطاب الديني» ليكون مُحَفِّزًاعلى الأخذ بالعلم، فيقيني أننا قد صرنا نحيا في زمان قول الحق ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ **[فصلت]**.

إن ويليام تيللر هو أحد الرجال الذين يهتمون بتلك المعادلة الصعبة بحماس فائق، لقد أدركت الآن لماذا وصفوه بأن البشرية تفخر بأنه أحد أبنائها، ولعلك تشاركني الرأي.

طويت صفحات الحوار مع د.تيللر، وظل الكثير من كلماته يتردد في خاطري، ويختلط بالكثير من المفاهيم والمقولات التي وعيتُها في شرخ شبابي:

يقول الحق ﷻ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم].

وقال الرسول ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[1].

وقد رُوى عن عيسى عليه السلام: لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قالوا من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها.

ومن الحِكَم العطائية: **«متى أوحشك من خَلقِه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به»**.

والآن أدركتُ معنىً آخر لهذه الحكمة العطائية[2]، فالوحشة من الخَلْق لا تعني أن تبغضهم أو تعتزلهم، ولكن تعني أن تنظر إليهم باعتبارهم خلق الله وأعماله، عندها تقطع الصلة بهم كذوات منفصلة، وتشعر في تعاملك معهم بالأنس بالله ﷻ.

---

(1) صحيح البخاري.

(2) الحكم العطائية، أقوال شديدة البلاغة عميقة المعنى، تدور حول علاقة الإنسان بالله ﷻ. وصاحبها هو الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري (المتوفى عام ٧٠٩هـ) الذي جمع السبق في علوم الشريعة والفقه مع السبق في علوم التصوف.

الفصل الخامس

كيف صرتُ بشرًا

- رحلة فى الأزمان الغابرة
  - رتبة الرئيسيات
  - موجات أشباه الإنسان
  - ثم ظهر الإنسان الحديث
  - أين نشأ الإنسان الحديث
- الفرق بيننا وبينها
- كيف صرنا بشرًا
- التطور الجينى للإنسان
  - الإنسانية تقابل المزيد من المعلومات
  - جينات كانت خاملة وتم تنشيطها فى الإنسان
  - ثم نطرق أبواب الشيخوخة
- وقفة مع حجم المخ
  - مع القشرة المخية والفص الجبهى
  - لماذا كبرت أمخاخ أسلافنا، بينما بقى مخ الشمبانزى على حجمه
- القارئ الكريم

أصابتنى فى مرحلة الشباب المبكر حيرة شديدة، دارت حول كيفية نشأة الإنسان. فقد كنت فى طفولتى وصباى أسمع من **خطباء المساجد ومن المتحدثين فى البرامج الدينية** أن الله ﷻ قد شكَّلَ جد البشرية الأول (آدم عليه السلام) كتمثال من صلصال، وتركه أربعين سنة فى الجنة، حتى جَفَّ وصار فخارًا، ثم نفخ فيه من روحه فصار بشرًا، أُهبط إلى الأرض بعد أن عصى ربه. وعندما تجاوزت الثالثة عشرة من عمرى وازداد نهمى للقراءة، طالعت كتبًا علمية مصورة عن نظرية التطور لداروِن، والتى تخالف التصور السابق، وقد أكدت لى **دراستى فى المرحلة الثانوية ثم الجامعية** صحة تلك النظرية، التى ترى أننى قد نشأت نتيجة لتطور عشوائى عن أسلاف أدنى منى، وأن هذه الأسلاف تتسلسل للوراء عبر كائنات أدنى منها حتى تصل إلى الخلية الأولى التى نشأت عنها جميع الكائنات الحية، نباتية وحيوانية. معنى ذلك أن **العلم لا يقبل سيناريو الصلصال والفخار ونفخة الروح والهبوط من جنة السماء إلى الأرض**.

فى البداية، كان يؤرقنى التباين بين «**النظرة الدينية**» و«**النظرة العلمية**» بخصوص أسلوب نشأتى. وبعد سنوات قليلة، نتيجة لكثرة ترديد كلتا النظرتين، اعتدت على أن أستمع فى المساجد وفى الإعلام الدينى غير ما أستمع إليه وأطالعه فى المصادر العلمية. وبذلك **تَرَسَّخَتْ** فى داخلى قناعة، شاعت فى الفكر الغربى، بأن للعلم مجاله وللدين مجاله، وأن «**راحة الدماغ**» **تتحقق بالفصل بين المنظورين**.

عشت على هذا الفهم المريح سنوات طويلة، حتى بزغ داخلى **الاهتمام بالتوفيق بين النظرة العلمية والنظرة الدينية** فى جميع قضايا حياتنا، خاصة قضية الخلق. فإذا كان التعارض بين النظرتين سمة سائدة فى الفكر الغربى، الذى تنطلق نظرته الدينية من الفهم الكنسى التقليدى لِسِفر التكوين من التوراة، **فلا ينبغى أن نجد مثل ذلك التعارض بين العلم وآيات القرآن الكريم**. فإذا كان القرآن الكريم هو **كتاب الله المسطور**، فإن الكون (الذى يتعامل معه العلم) هو **كتاب الله المنظور**، وهيهات أن يوجد تعارض حقيقى بين كتابين خالقهما هو الله ﷻ. لذلك نذرت حياتى

لتعلم (وتعليم) كيف نقرأ آيات كتاب الله المنظور، لننطلق منها إلى معرفة الله ﷻ. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] صدق الله العظيم.

وإليك محصلة رحلتى لاستكشاف كيف صِرتُ بشرًا.

رحلة فى الأزمان الغابرة[1]

منذ أكثر الحضارات إيغالًا فى القدم، وحتى منتصف القرن التاسع عشر (مرورًا بسفر التكوين من التوراة) والجنس البشرى يُنظر إليه باعتباره وجودًا منفصلًا تمامًا عن الطبيعة، ولم **يجرؤ أحد على لفت الأنظار إلى الشبه بينى وبين القردة العليا** Apes.

وعندما طرح **دارون** نظريته من خلال كتابه «**أصل الأنواع** ـ عام ١٨٥٩»، حرص على أن يتجنب أى ذكر عن تطور الإنسان، ليس لأنه اعتبرنا مُستثنَين من التطور، بل لأنه لم يُرد إثارة زوبعة من الجدال، ولكن الكتاب **أثار الزوبعة** بطبيعة الحال. وفى عام ١٨٧١، أحس دارون أنه لم يعد لديه ما يخسره، فنشر كتابه «**أصل الإنسان**».

وتتكون نظرية دارون من شقين رئيسيين، الأول؛ أن **الإنسان قد خُلق تطورًا**، وهذا ما أكده العلم. والشق الثانى هو أن **التطور كان عشوائيًّا**، وهذا ما لا يملك العلم له إثباتًا، بل إننى أرفضه وأتبنى بدلًا منه مفهوم «**التطوير الإلهى أو التطور الموجه**»[2] الذى يوجهه الخالق ﷻ. لذلك ينبغى التفرقة بين «**نظرية دارون**» ككل، والتى ينبغى رفضها، وبين «**مفهوم التطور**» الذى أثبته العلم (الشق الأول).

وقد جعل «مفهوم التطور» من تَحَدُّر الإنسان من أسلاف شبيهة بالقردة العليا استنتاجًا لا بديل عنه، نظرًا لقوة الشواهد المستَمَدَّة من التشريح المقارن وعلم الأجنة ومن الحفريات، والتى أكدها أخيرًا **علم البيولوجيا الجزيئية** بأدلة لا تُدحَض.

فى البداية، أُؤكد للمعترضين على مفهوم التطور (بدوافع دينية يعتقدون فى صحتها) أن **العلم الذى أثبت أن النشأة الجسدية للإنسان** قد تمت تطورًا عن أسلاف أدنى منه قد أثبت أيضًا **أن تميزنا يرجع إلى قدراتنا العقلية والروحية (التى أرجعها القرآن الكريم إلى نفخة إلهية)** وليس

(١) هذه الرحلة نقلًا (بتصرف) عن كتاب المؤلف (ثم صار المخ عقلًا)، الفصل الخامس، بعنوان كيف صرنا بشرًا؟، الناشر مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٢.

(٢) للمزيد عن هذا المفهوم،راجع كتاب «كيف بدأ الخلق» للمؤلف. الناشر مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة الثانية ـ عام ٢٠١٢. الفصلين التاسع والعاشر.

إلى قدراتنا الجسدية. وأُؤكد أيضًا ـ من منطلق الأدلة العلمية ـ أن **تطورنا لم يتم عشوائيًّا، ولكنه كان تطورًا موجهًا من قِبَل الخالق الحكيم القدير، وأن الآيات القرآنية الخاصة بخلق الإنسان يمكن أن تُؤوَّل في ظل مفهوم التطوير الإلهى، بأسلوب يتفق تمامًا مع نص الآيات، ويكون أكثر انسجامًا من التفسيرات التراثية التى تتبنى مفهوم الخلق الخاص**[١].

ولا شك أن **الاكتشافات العلمية المستمرة** قد تغير من تفاصيل سيناريو نشأة الإنسان. فالبعض ـ مثلًا ـ يُرجع خروج الفرع الذى أدى إلى ظهور الإنسان عن مسار باقى الرئيسيات إلى ثمانية ملايين عام مضت، ويرى آخرون (بعد اكتشاف الحفرية التى أُطلق عليها اسم «إيدا») أن ذلك قد يرجع إلى أربعة وأربعين مليون سنة. ولكن الفكرة الرئيسية فى نشأة الإنسان تطورًا عن سلف مشترك جمعنا مع باقى الرئيسيات، تظل هى **المفهوم الذى يقوم عليه علم البيولوجيا. أى أن التَغَيُّر قد يكون فى التفاصيل وليس فى جوهر نشأتنا التطورية**. أؤكد ذلك فى مدخل الفصل حتى لا يحتج البعض بأن المفاهيم العلمية تتغير، وأنه قد يثبت خطأ مفهوم التطور فيما بعد.

رتبة الرئيسيات[٢] Primates

تمثل الرئيسيات رُتبة من طائفة الثدييات، يتميز أفرادها بالقدرة على القبض على الأشياء بأصابع اليدين والقدمين التى زُودت بالأظافر، كما تتميز بأعين أمامية تُمَكِّنها من الرؤية المزدوجة المجسمة Binocular Vision، لتعينها على الحركة بين أغصان الأشجار. علاوة على ذلك، فإن الرغبة الجنسية للرئيسيات تستمر طوال العام بخلاف باقى الثدييات التى تقتصر رغبتها على موسم التزاوج.

وقد ظهرت **أسلاف رتبة الرئيسيات** منذ ٦٥ مليون سنة، متمثلة فى إحدى الثدييات ساكنة الأشجار، وكانت كائنًا ليليًّا يتغذى على الحشرات.

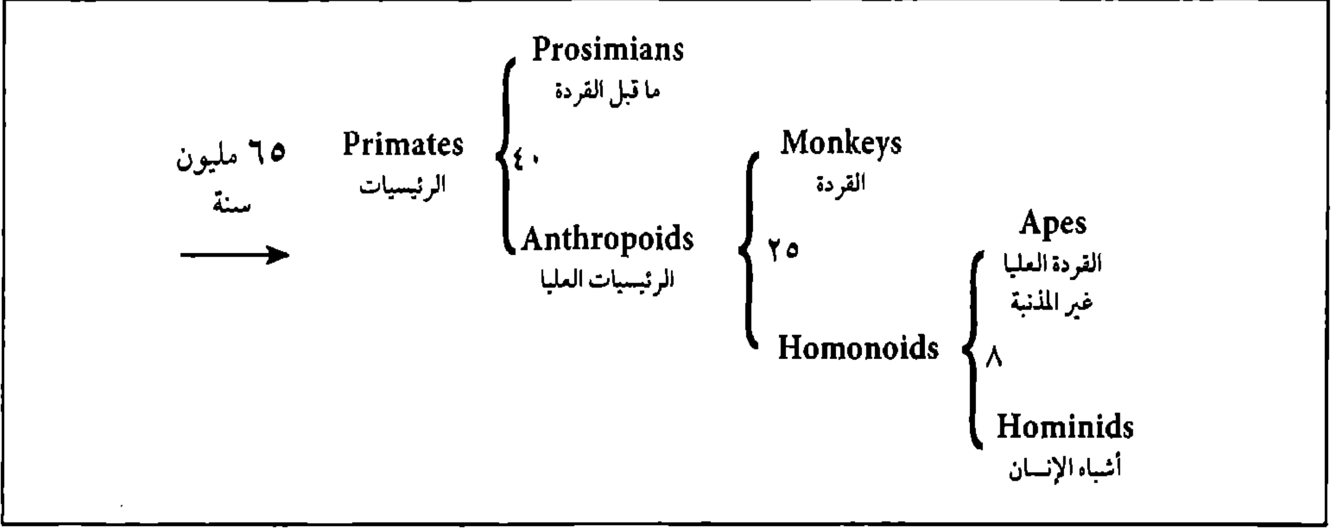
ومنذ ٤٠ مليون سنة انقسمت رتبة الرئيسيات إلى مجموعتين: إحداها أشبه بالسناجب وتُعرف بـ «**ما قبل القردة** ـ Prosimians»، ويمثلها حيوان الليمور. أما المجموعة الأخرى فهى

---

(١) للنظر فى تأويل الآيات القرآنية الخاصة بالخلق فى ضوء مفهوم التطور الموجه، يمكن الرجوع إلى كتاب «كيف بدأ الخلق» للمؤلف. الناشر مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة الثانية عام ٢٠١٢، الفصلين الثانى عشر والثالث عشر.

(٢) **تنقسم الكائنات الحية** إلى خمس «**ممالك** ـ Kingdom» (المملكة الحيوانية، والنباتية، والفطريات، والبروتستا، والمونيرا). وتنقسم المملكة الحيوانية إلى عدة **شُعَب** ـ Phylum منها الفقاريات، التى تنقسم إلى خمس «**طوائف** ـ Class» (الأسماك ـ البرمائيات ـ الزواحف ـ الطيور ـ الثدييات). وتنقسم كل طائفة إلى عدة «**رُتَب** ـ Order»، كالرئيسيات والقوارض. وتنقسم كل رتبة إلى «**عائلات** ـ Family» منها القطط وأشباه الإنسان ـ Hominids. وتنقسم كل عائلة إلى «**أجناس** ـ Genus» كالجنس البشرى ـ Homo وذوات الأنياب، ويشتمل كل جنس على «**أنواع** ـ Species» كالإنسان الحديث والذئاب.

«**الرئيسيات العليا ـ Anthropoids**»، وهى كائنات اجتماعية تعيش فى مجموعات، وتتميز بطول فترة حضانتها لأطفالها، وبالقدرة على تمييز الألوان ـ Color Vision، كما ظهر فيها تنوع فصائل الدم (A, B, O).(شكل ـ ١).



(شكل ـ ١)
شجرة الرئيسيات

ومنذ ٢٥ مليون سنة، انقسمت **الرئيسيات العليا** إلى مجموعتين، شكلت إحداها مجموعة القِرَدَة Monkeys، وأما الأخرى Homonoids فكونت الفرع الذى انقسم (منذ ٨ ملايين سنة) إلى عائلتين «عائلة القردة العليا غير المُذَنَّبة ـ Apes» وعائلة «أشباه الإنسان ـ Hominids».

وتشمل **عائلة القردة العليا غير المُذَنَّبة** (Apes) الشمبانزى والغوريلا والأورانج أوتان[١] والجيبون.

وقد عُثر على بعض **الحفريات** التى يمكن أن تكون الجد الأعلى المشترك للقردة والقردة العليا غير المذنبة وأشباه الإنسان، ومنها الحفرية التى أُطلق عليها اسم «إيجبتوبيثيكس Aegyptopithecus» (**القرد المصرى غير المذنب**) الذى يرجع إلى حوالى ٤٠ مليون سنة.

وقد أظهرت **الدراسات الجينية** أن القردة العليا غير المذنبة **من أصل آسيوى** (أورانج أوتان والجيبون) لا تشبه الإنسان وراثيًّا، أما تلك التى **من أصل أفريقى** (الشمبانزى والغوريلا) فهى الأقرب إلينا. وقد ظهر أن التشابه بين **الجينات العاملة** فى كلٍّ من الشمبانزى والإنسان يصل إلى ٩٨,٧٪، أما إذا نظرنا إلى **الشفرة الوراثية ككل** (الجينات العاملة والخاملة)، فيصل التشابه بين الشمبانزى والإنسان إلى حد التطابق (١٠٠٪)! كما أظهرت هذه الدراسات **أن علاقتنا**

(١) تعنى أورانج أوتان فى لغة شبه جزيرة الملايو: إنسان يسكن البرية، وقد بلغ من شبهه بالبشر أن أهل الملايو يعتقدون أنه يستطيع أن يتكلم لكنه لا يفعل، خوفًا من أن يُجبر على العمل.

الجينية بالشمبانزى أقرب من علاقته بالغوريلا! بل إن علاقتنا بالشمبانزى أقرب من علاقة نوعى الغوريلا (الشرقية والغربية) ببعضهما! كذلك أثبتت الدراسات أن الانفصال الكبير فى الرئيسيات لم يكن بين الإنسان والقردة العليا بل كان بين الأورانج أوتان الآسيوى والرئيسيات الأفريقية شاملة الإنسان!.

لقد أصبحت مهمة علم «البيولوجيا البشرية ـ Human Biology» وعلم «الدراسات البشرية: أنثروبولوجيا ـ Anthropology» ذات شقين: فهما من ناحية، يبرزان **تفرد النوع الإنسانى بالقياس إلى غيره**، ومن ناحية أخرى، يوضحان **كيف تَطَوَّرت الخصائص العضوية المميِّزة للإنسان عن أسلاف لنا من عالم الحيوان**. وإذا كنت فى الفصل الأول قد تناولت جوانب التفرد الإنسانى، فإننى فى هذا الفصل سأتناول الشق الثانى.

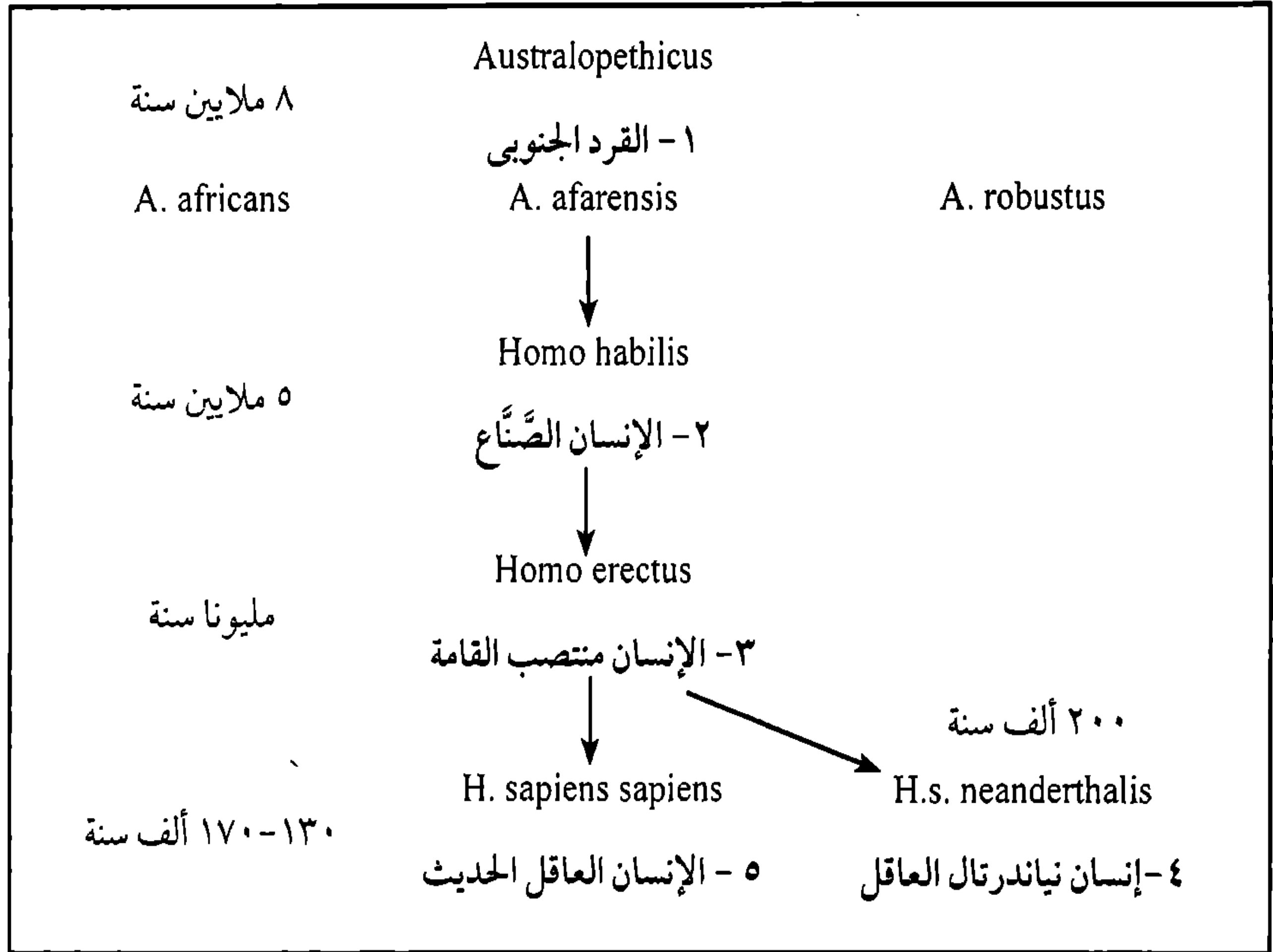
موجات أشباه الإنسان

فى أعقاب ظهور كتاب أصل الأنواع لدارون، نشطت بشكل محموم **حركة بعثات استكشافية فى مناطق العالم القديم** (أفريقيا وآسيا وأوروبا)، محاولة الوصول إلى أصل الإنسان. ويمكن تلخيص نتائج حفريات هذه البعثات، فى أن **أربع موجات رئيسية متتالية لأشباه الإنسان Hominids** قد ظهرت على وجه الأرض، حسب معلوماتنا الحالية. وقد صحب كل موجة حدوث **تطور فى البناء العضوى**، بالمقارنة بالموجة السابقة لها، حتى وصلنا إلى **الإنسان الحديث**.

فمنذ حوالى **٨ ملايين سنة**، ظهر فى غابات أفريقيا الجميلة الغنية نوع من الرئيسيات يمشى على قدمين، مما سمح له باستعمال يديه فى أغراض أخرى. وكان أقدم ما أُكتُشف من حفرياتها هياكل لكائنات أُطلق عليها اسم «**قِرَدة الجنوب**[1] ـ Australopethicus» (**تمثل الموجة الأولى**

(١) **قِرَدة الجنوب** كائنات تختلف عن الكائنات البشرية إلى حد استبعادهم من «**الجنس الإنسانى ـ Homo**»، ومع ذلك فإنها تختلف كثيرًا عن القِرَدة.
وقد عَثر على أول حفرية منها البروفيسور دارت، أستاذ التشريح بجوهانسبرج بجنوب أفريقيا. وفى عام ١٩٧٧ اكتشف عالم الحفريات الأمريكى رونالد جونسون أشهر نموذج لها، فقد عثر على «**لوسى ـ Luci**»، وعمرها ٤ ملايين سنة، وقد وُجدت فى وادى عفار فى إثيوبيا فسُمِيت Australopithecus afarensis. كما وُجدت من قردة الجنوب عدة حفريات فى جنوب وشرق أفريقيا، ولم توجد أية حفريات لها خارج أفريقيا.
إنها كلها أشباه للإنسان، تسير منتصبة القامة وتستخدم يديها، وهى صغيرة الجسم، يبلغ طول البالغ منها أربعة أقدام فقط ووزنه حوالى ١٨ كجم. أما حجم أمخاخها فيبلغ ٥٠٠ سم٣ (يعادل حجم مخ الغوريلا الحديثة)، ولكن بما أن وزنها كان ثُمن وزن الغوريلا، فإن مخ القرد الجنوبى أكبر نسبيًّا كثيرًا من مخ الغوريلا.
وقد استخدم القرد الجنوبى أدوات بسيطة جدًّا من العظم والخشب، ولم يستخدم الحجر الذى بدأت الكائنات الإنسية Homo التالية فى استخدامه.
وقد أُعلن فى مجلة Science (أكتوبر ٢٠٠٩) عن اكتشاف «آردى ـ Ardi» فى نفس الوادى (عفار)، وهو حفرية يرجع عمرها إلى ٤,٤ مليون سنة، وربما كانت أكثر شبهًا بالإنسان، واكتُشف منها ما يزيد على ٣٥ فردًا..

من **أشباه الإنسان**)، وقد عُرف منها ثلاثة أنواع[١]، اندثر نوعان منها، وتطور من النوع الثالث «A.afarensis» (منذ ٥ ملايين سنة) كائن أقرب شبهًا بالإنسان، وقادر على استعمال يديه بذكاء، لذلك سُمِّى «**الإنسان الصَّنَّاع**» «هوموهابيليس[٢] ـ Homo habilis» (**الموجة الثانية من أشباه الإنسان**) (شكل ـ ٢).



(شكل ـ ٢)

تلخيص مبسط لتاريخ الجنس البشرى

ومنذ حوالى مليونى عام، تطور عن «الإنسان الصَّنَّاع» نوعٌ آخر من الكائنات، قامته أكثر اعتدالًا، سُمى «**الإنسان منتصب القامة**» «هومو إريكتوس ـ Homo erectus [٣]» (الموجة

(١) A.afarensis, A. africans, A. robustus

(٢) فى عام ١٩٣١، اكتشف عالم الحفريات البريطانى لويس ليكى ثلاث جماجم لهذا الجنس فى تنزانيا، ووجد بجوارها أدوات حجرية بدائية، الأرجح أنها من صنعه. وكان يسير على قدميه، ويبلغ طول قامته ١,٥ متر، ويبلغ حجم مخه ٦٨٠ سم^3.

(٣) كان **هومو إريكتوس** يسير منتصب القامة بشكل أفضل من أشباه الإنسان السابقة له، وتصل قامته إلى ١,٦ - ١,٨ متر. أما تجويف جمجمته فيستوعب مخًا حجمه ٩٠٠ سم^3 تقريبًا، أى ما يساوى ثلاثة أخماس المخ البشرى الحديث، ويبلغ ضعف حجم مخ الغوريلا، فكان وسطًا بين مخ القردة العليا ومخ الكائنات الإنسية. وللجمجمة جبهة منسحبة للوراء وحاجبان بارزان.
وتشير الحفريات إلى أن الإنسان منتصب القامة هو أول من استخدم النار وأدخل اللحوم فى طعامه منذ نصف مليون سنة، كما استخدم الآلات المشحوذة من الحجر.

الثالثة من أشباه الإنسان)، وهو الذى تكاثر وهاجر إلى كافة أرجاء المعمورة، ووجدت له مئات الحفريات، وأُكتُشفت جماجمه فى الصين (إنسان بكين) وإندونيسيا (إنسان جاوه) والجزائر وأوروبا. ويمكن اعتبار هذا الشبيه «**الحلقة المفقودة**» التى ما زال البعض يُصَدِعُنا بغيابها حتى الآن، بالرغم من العثور على تلك المفقودة.

وفجأة، ومنذ ما يقرب من ٢٠٠ ألف سنة، اختفى الإنسان منتصب القامة تمامًا، وحل مكانه نوع بدائى من «**الإنسان العاقل**» «هومو سابينس ـ Homo sapiens» فى جميع أرجاء الأرض، وقد وُجدت أول هياكله فى أوروبا فى وادى نياندرتال Neanderthal بألمانيا. وكان هذا الإنسان أقل مهارة وذكاء من الجنس البشرى المعاصر، وأُطلق عليه اسم «**إنسان نياندرتال**(١)» «هومو سابينس نياندرتاليس ـ Homo sapiens neandertalis» (**الموجة الرابعة**).

استمر **إنسان نياندرتال** يسكن الأرض حوالى ١٥٠ ألف سنة قبل أن يختفى تمامًا منذ حوالى ٣٥ ألف سنة، وربما يرجع اختفاؤه إلى ظهور الإنسان الحديث، وما كان بينهما من صراع وسفك للدماء. فقد عَمَر **الإنسان الحالى** الأرض فى الوقت الذى كان فيه إنسان نياندرتال حيًّا يرزق، واستمر هذا **التداخل الزمنى** فترة بلغت ١٠ – ١٥ ألف سنة، كان خلالها إنسان نياندرتال مصدر إزعاج ورعب شديدين، بقامته القصيرة وملامحه الخشنة وقوة بدنه وقسوته فى استخدام الآلات الحجرية وكذلك السهام والحراب، لقد كان صيادًا ماهرًا سكن الكهوف والمغارات الجبلية وارتدى الملابس الجلدية.

ثم ظهر الإنسان العاقل الحديث Homo sapiens sapiens

فى عام ١٨٦٨، عثر العمال على عدد من الهياكل العظمية البشرية، تشبه عظامنا تمامًا، فى كهف كرو ـ مانيون بفرنسا، فأُطلق عليها اسم «**إنسان كرو ـ مانيون** Cro-Magnon»، ويرجع عمر هذه الهياكل إلى حوالى ٤٠ ألف سنة مضت. أما النماذج الأقدم فقد اُكتشفت فيما بعد فى

(١) فى عام ١٨٥٦، اكتشف بعض العمال داخل كهف بوادى نياندرتال بألمانيا أربع عشرة عظمة بشرية منها جمجمة، ثم توالى العثور على هياكل عظمية كاملة فى أماكن مختلفة تحمل نفس المواصفات. لقد تميز إنسان نياندرتال برأس كبير الحجم، وتحمل **الجمجمة مخًا** يتراوح حجمه بين ١٣٠٠ – ١٦٠٠ سم^3، ولكنه أصغر من الأمام، إذ تميل جبهته إلى الوراء، ولما كان الفص الأمامى يحتوى على مناطق المخ التى تقوم بالتفكير المجرد فقد كان قوم نياندرتال أقل ذكاء منا. كما كان بالجمجمة حواف بارزة من العظم فوق العينين لا وجود لها عندنا، وكانت ذقنها مرتدة إلى الخلف وأسنانها بارزة بشكل غير عادى. أما **أطرافه** فكانت عظامها غليظة وثقيلة وقصيرة نسبيًّا مما يوحى بأن قامته كانت أقصر من قامة الإنسان الحالى. وقد أظهر هذا الجنس مقدرة على صنع آلات حجرية وعظمية لا بأس بها، فقد صنع المثاقب والمكاشط والإبر العظمية والرماح والسهام والفؤوس والشواطير، كما عرف **دفن الموتى** فى قبور جُهزت خصيصًا لذلك، وكانوا يضعون مع موتاهم الطعام والأسلحة والزهور.

أثيوبيا وعمرها ١٣٠ ألف سنة، وفى فلسطين وعمرها ١٠٠ - ١٢٠ ألف سنة، إلا أن فرنسا هى التى قدمت الهياكل العظمية الأفضل حفظًا.

وقد اختلفت **الصفات التشريحية** لإنسان كرو ـ مانيون عن صفات من سبقه من أشباه الإنسان. فقد كان **طويل القامة** (حوالى ١٨٠ سم)، ويبلغ حجم **تجويف جمجمته** حوالى ١٣٥٠ سم٣، أما **جبهته** فقد أصبحت رأسية وارتفعت كثيرًا فوق مستوى الحاجبين، مما يشير **إلى نمو الفصوص الأمامية للمخ** (التى تشتمل على مراكز التفكير والسلوك). كما أصبح **فكه السفلى وأسنانه** أكثر رقة وأخف وزنًا، مع بروز الذقن التى كانت متراجعة للوراء فى أشباه الإنسان.

وقد أثبتت دراسات «الدنا ـ DNA» **أن إنسان كرو- مانيون لم ينشأ من النياندرتال، بل إن كليهما نشأ من إنسان أسبق هـو «الإنسان منتصب القامة»**، الذى تفرع إلى فرعين: أحدهما أدى إلى النياندرتال والثانى إلى الإنسان الكرو- مانيون، فهم **إذًا أبناء عمومتنا وليسوا أجدادنا**.

وقد تميز هذا الإنسان **بحس جمالى وفنى**، ظهر فى تشكيله للأدوات الحجرية والعظمية وزخرفتها، وفى إعداد الأماكن للسكنى، بل إنه عرف الرسم بالألوان على جدران المغارات[1]. كما كانت له **اهتمامات ميتافيزيقية**، إذ تحتوى مدافنه على بقايا بشرية موضوعة بشكل جنينى ومزينة بأساور وعقود وأقراط.

وللعلماء **أسلوب طريف لتبسيط المسائل المتعلقة بالزمن**، فيقومون باختصار **عمر الحياة على كوكب الأرض** (حوالى ٣,٧ مليار عام) **إلى عام واحد**، يمثل كل يوم فيه عشرة ملايين عام تقريبًا. وتبعًا لذلك التصور، تكون أشباه الإنسان قد ظهرت صباح اليوم الأخير من هذا العام، وظهر الإنسان منتصب القامة حوالى الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم. أما الجنس البشرى العاقل (هومو سابينس)، فقد ظهر قبل انقضاء الليلة الأخيرة بنصف ساعة تقريبًا، بينما لا يشغل كل ما نعرفه فى التاريخ من علماء وكُتّاب وملوك وقادة وأحداث إلّا الثوانى الأخيرة من العـام (١٠ آلاف عام).

(١) أصبحت رسومات ما قبل التاريخ التى عُثر عليها على جدران الكهوف من الفنون المثيرة للاهتمام، ومعظمها لعمليات صيد الإنسان للحيوانات. وقد وُجدت فى أماكن كثيرة من العالم، كأوروبا وأفريقيا والبرازيل والهند. وتُعتبر رسومات كهف «ألتاميرا ـ Altamira» بإسبانيا أول ما تم التوصل إليه عام ١٨٧٩، وترجع إلى حوالى ١٨,٥٠٠ سنة، بينما تعتبر رسومات كهف Chauvet بفرنسا أقدم هذه الرسومات (منذ حوالى ٣٢,٠٠٠). ويوجد فى فرنسا وإسبانيا أكثر من ٣٥٠ كهفًا بها مثل هذه الرسومات.

أين نشأ الإنسان الحديث

أفريقيا ثم أفريقيا ثم أفريقيا !!

كانت هناك نظريتان حول مكان نشوء الإنسان الحديث؛ ترى الأولى أن كل السلالات الحالية قد انحدرت من «الإنسان منتصب القامة ـ Homo erectus» **في وقت واحد في أماكن متفرقة**، حيث غطى التوزيع الجغرافي لهذا الكائن المنطقة ما بين شرق أفريقيا وجنوبها إلى شرق آسيا، وتسمى هذه النظرية «**النشأة متعددة المناطق** ـ Theory of multiregional origin».

أما النظرية الثانية فترى أن سلالة «الإنسان منتصب القامة» التي عاشت في شرق أفريقيا قد تطورت هناك إلى الإنسان الحديث، الذي تفرقت عشائره خارج أفريقيا. وكان يُعتقد أن هذه النظرية قد فقدت صلاحيتها، ولكن علم البيولوجيا الجزيئية[1] أثبت **أن الإنسان الحديث بتوزيعاته الجغرافية المختلفة انطلق من مكان واحد** منذ حوالى ١٧٠ ألف سنة، وبذلك كادت القضية أن تحسم لصالح نظرية «**انطلاقًا من أفريقيا** ـ Out- of- Africa model».

وتُظهر الأدلة القوية أن إنسان كرو- مانيون بعد أن ظهر فى أفريقيا، **هاجر منها** إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوروبا، وعاش فى هذه الأماكن مع إنسان نياندرتال لبضعة آلاف من السنين قبل أن يحل محله تمامًا (حلول استبدال وليس حلول تطور أو ذوبان) منذ حوالى ٣٤ ألف سنة.

ومنذ ١٣ ألف سنة **هاجر الإنسان الحديث من أوروبا إلى أمريكا الشمالية** عن طريق شمال شرق سيبريا، حيث كان هناك جسر عريض من اليابسة بين سيبريا وألاسكا قبل أن تذوب الثالج بعد العصر الجليدى. ومن أمريكا الشمالية اتجه الإنسان الحديث جنوبًا **صوب أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية**. كما عَبَرَ بعض أفراد الإنسان الحديث المحيط الهندى من قارة آسيا، ليستقروا فى **أستراليا**.

إذًا، يصبح **ما استقر عليه العلم (حتى الآن)** أن «القردة الجنوبيين ـ Australopithecus» نشأوا ووُجدوا فى أفريقيا فقط، وأنهم أسلاف النوع الأقدم من «الجنس الإنسانى ـ Homo» وهو «الإنسان الصَّنَّاع ـ Homo habilis»، الذى ظهر فى أفريقيا وتطور عنه «الإنسان منتصب القامة ـ Homo erectus». ويُعتبر الأخير سلف إنسان نياندرتال وإنسان كرو ـ مانيون، اللذين كان أول ظهور لهما فى أفريقيا كذلك. لذلك **استحقت أفريقيا الجميلة العظيمة أن يُطلق عليها اسم «مهد الجنس البشرى** ـ The Cardle of Humanity».

---

(١) تم هذا الإنجاز عن طريق فحص جزيئات الدنا DNA فى الميتوكوندريا (والتى نرثها من الأم)، وكذلك فحص جزيئات الدنا فى الكروموسوم الذكرى Y (والذى نرثه من الأب).

الفرق بيننا وبينها

من العرض السابق، يتبين أن العلماء قد تمكنوا من تقديم صورة (لا بأس بها، وتحتاج إلى المزيد من البحث لتكتمل) عن تطور الإنسان من سلفه المشترك مع القردة العليا غير المذنبة، مرورًا بأشباه الإنسان، حتى وصلنا إلى الإنسان الحديث. **ويمكن تلخيص ملامح هذا التطور من الناحية البيولوجية فى أربع نقاط رئيسية:**

أولًا: الزيادة التدريجية المطردة فى **سعة تجويف الجمجمة**، مما يعكس الزيادة فى حجم المخ (حجم مخ الشمبانزى ٤٥٠سم٣ ومخ الإنسان الحديث ١٣٥٠سم٣ - حوالى ثلاثة أمثال). مع ملاحظة أن جزءًا كبيرًا من هذه الزيادة حدث فى **الفص الأمامى** من المخ (المسئول عن الوظائف المعرفية والسلوكية والشعورية للإنسان). (جدول: ١)

(جدول: ١)

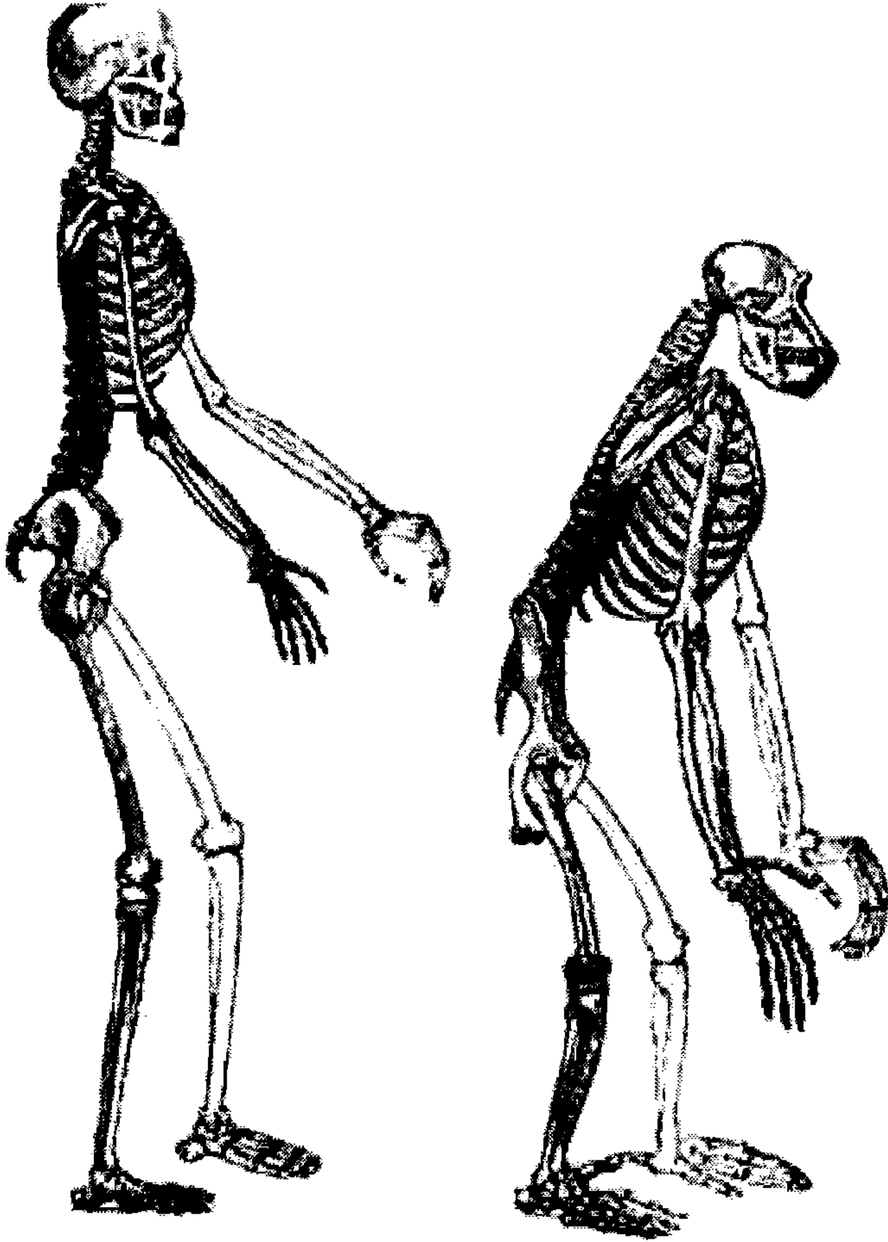
الزيادة التدريجية فى حجم مخ أشباه الإنسان والإنسان

الطبقة والنوع Genus - species	العمر	حجم المخ
القرد الجنوبى Australopithecus afarensis	٨ ملايين سنة	٥٠٠سم٣
الإنسان الصَّنَّاع Homo habilis	٥ ملايين سنة	٦٨٠سم٣
الإنسان منتصب القامة Homo erectus	مليونا سنة	٩٠٠سم٣
الإنسان العاقل النياندرتالى Homo sapiens neanderthalis	٢٠٠ ألف سنة	١٣٠٠- ١٦٠٠سم٣
الإنسان العاقل الحديث Homo sapiens sapiens	١٣٠ ألف سنة	١٣٥٠سم٣ ± ١٠٪

ثانيًا: لما كانت السمة الرئيسية التى تُمَيِّز الجهاز الحركى لـ«أشباه الإنسان ـ Hominids» **هى السير على القدمين منتصب القامة (القدمانية** Bipedalism)، فقد أصبح **العمود الفقرى** ذا

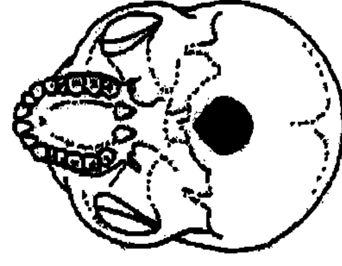
قوسين (على شكل S) بدلًا من قوس واحد (على شكل C) فى القردة العليا، وبذلك ينتقل وزن الرأس والجسم إلى الحوض الذى أصبح متسعًا ومائلًا للأمام بطريقة تنقل وزن الجسم إلى الساقين مباشرة، وقد اقتضى ذلك أن يكون أسفل عظمة الفخذ متجهًا للداخل (شكل ـ ٣).

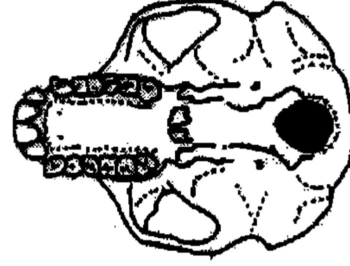
وقد تطلب الوضع المنتصب للإنسان أن يخرج الحبل الشوكى من فتحة أفقية فى منتصف قاع الجمجمة، بينما يخرج من فتحة رأسية قرب مؤخرتها فى القردة العليا (شكل ـ٣، ٤).



(شكل ـ ٣)

قارن العمود الفقرى ووضع الحوض وعظام الأطراف، فى الإنسان والشمبانزى





(شكل ـ ٤)
فتحة الحبل الشوكى فى جمجمة:
(أ) الإنسان
(ب) الشمبانزى

أما الإصبع الأكبر من القدم، فقد أصبح موازيًا لباقى الأصابع فى الإنسان، ليسمح بالسير على القدمين المتجاورين، بدلًا من وجوده متجهًا للداخل فى الشمبانزى للقيام بالقبض على الأشجار كاليدين تمامًا. وقد أصبح وزن **الطرفين السفليين** يمثل ٣٥٪ من وزن الجسم بعد أن كان ١٨٪ فى الشمبانزى، كما أصبحا أطول من الأطراف العلوية (شكل ـ ٣). ويستهلك السير على قدمين طاقة أقل ويحقق حركة أسرع وأيسر بين أعشاب الساڤانا، حيث عاشت أشباه الإنسان، كما يقلل من تعرض الجسم لأشعة الشمس الحارقة بمقدار الثلثين.

ثالثًا: تغيرات جوهرية فى **بنية وأداء «اليد»**، غيرت من تعامل الإنسان مع الوجود الخارجى. لذلك يعتبر المتخصصون (فى بداية القرن الحادى والعشرين) أن أى نظرية عن الذكاء الإنسانى لا بد أن تشتمل ـ بجانب نضج المخ ـ على الدقة فى بنية واستخدام اليد، ويتمشى ذلك مع نظرة الفليسوف الكبير إيمانويل كانْت الذى اعتبر أن اليد هى **«مخ الإنسان الخارجى»**.

ويمكن تلخيص هذه التغيرات فى **ثلاثة فوارق جوهرية** بين يد الإنسان وغيره من الرئيسيات:

١ - **تَحرُر اليدين للاستخدام بعد أن انتصب الإنسان واقفًا، وقد صحب ذلك نقص وزن الطرفين العلويين** (أصبح ٨٪ من وزن الجسم فى مقابل ١٥٪ فى الشمبانزى).

٢ - تغيُّر فى بنية **اليد** نفسها، فأصبح للإنسان إبهام أطول وعظام سلاميات أقل تقويسًا، مما **يحقق القبضة القوية والعمل الدقيق فى آن واحد.** فيد الإنسان تستطيع أن تحمل الأثقال الكبيرة وأيضًا أن تمرر خيطًا فى ثقب إبرة. وإذا كانت القردة العليا قادرة على أن تلمس السبابة بإصبعها الإبهام، فإنها تعجز عن ثنى إبهامها عبر كفها، وهى الحركة التى تمكن الإنسان من القبض على الأشياء بقوة.

٣- القـدرة على **التحكم العصبى الدقيق فى عضلات اليـد**. وإذا كان للغوريلا إبهام قريب الشـبه بإبهـام الإنسـان، فإنهـا تفتقـر إلى هذا التحكـم الدقيـق، ومن ثم لا تسـتطيع أن تستعمل الأدوات.

وقد مَكَّنَ ذلك الإنسان من **استخدام اليدين فى العديد من الأغراض**:

- جمع الغـذاء والصيد وحمـل أفـراد الأسـرة. وبذلك نشـأ **مجتمـع «الصيد وجمع الثمار Hunter - Gatherer»**، وفيه يقوم الرجال بالصيد وتقوم الإناث بجمع الأغذية النباتية، وهو أسلوب المعيشة الذى استمر ما يزيد عن مليونى سنة. وقد أمكن ذلك من **تكوين الأسرة وتماسكها**[1].
- مكَّن الذكاءُ الإنسانَ من استعمال اليدين فى شطف الأحجار وتشكيلها، مما أدى إلى **تقدم «تكنولوجيا» الصيد وسلخ الجلود ونزع اللحم عن العظام**، وبذا أمكن توفير نوعية من الغذاء أكثر ثراءً وكفاءة من الأغذية النباتية. وقد تطورت هذه المهارات إلى الاستخدام المعاصر لليدين فى مختلف المجالات التكنولوجية والفنية.
- أُستعملت اليدان فى **الإشارة**، وأدى ذلك (مع استعمال عضلات الوجه فى التعبير) إلى تحسن المقدرة على التواصل، والتى تطورت مع تشكيل المقاطع الصوتية إلى **ظهور اللغة**.

رابعًا: إعداد الحنجرة لإنتاج الكلام: بالرغم من أن نشأة اللغة قد حدثت بشكل مفاجئ، دعى حجة اللغة ناعوم تشومسكى لأن يُطلِق عليها اصطلاح **الانفجار اللغوى الأعظم**»، فلا شك أن هذه النشأة قد احتاجت إعدادًا مُسبقًا لجهاز إخراج الأصوات فى الإنسان. وقد اخترت من بين الدراسات العديدة التى أجريت فى هذا الشأن أن ألخص لك ـ قارئى الكريم ـ **مقالًا نُشر فى مجلة «العلوم الأمريكية ـ Scientific American»**، عدد ديسمبر ٢٠٠١، لمؤلفه عالِم البيولوجيا والأنثروبولوجيا الأمريكى أيان تاتيرسل Ian Tattersell، أمين متحف الأنثروبولوجيا فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بمدينة نيويورك، والمقال بعنوان:

(١) وساعد على تكوين الأسرة أيضًا قبول أنثى الإنسان **ممارسة الجنس** فى أى وقت، على عكس غيرها من إناث الثدييات التى لا تقبل الجنس إلا عند التبويض، أحيانًا مرة كل ستة أشهر. وقد صاحب ذلك اختلاف أسلوب الممارسة الجنسية عن باقى الثدييات (أصبح وجهًا لوجه). وقد سمح تكوين الأسرة **بإطالة فترة الحضانة** لعدة سنوات، يكتمل خلالها نمو المخ واكتسابه خبرات أكبر. ومع تعدد العوامل التى ساعدت على تكوين الأسرة، فإن أهمها ـ بلا شك ـ هو ميول الإنسان الاجتماعية.

كيف صرنا بشرًا How we came to be Human

«عندما نتأمل إنجازات الإنسان الحديث الحضارية وقدراته الإدراكية غير العادية، ندرك **مقدار الإعداد والتوجيه والتخطيط فى عملية نشوئه**، حتى أصبحنا على الصورة التى نحن عليها الآن.

هناك مصطلح مهم ومحورى تم إدخاله حديثًا فى علم البيولوجيا التطورية وهو «**تَكَيُّف مسبق ـ Exaptation**»، والمقصود به «**ظهور تغيرات بيولوجية معينة فى مرحلة ما، تمهيدًا لاستغلالها للقيام بوظائف جديدة فى مرحلة لاحقة**»[1].

دعنا نتأمل علاقة التكيف المسبق بعنوان المقال: كيف صرنا بشرًا.

عندما وصل إنسان كرومانيون (الإنسان الحديث) إلى أوروبا منذ حوالى ٤٠ ألف سنة، مارس سلوكيات وحقق إنجازات ميزته عن جميع أشباه الإنسان التى عاشت على الأرض[2]. وقد تميزت إنجازاته جميعًا بسمة مهمة، وهى «**القدرة على الإدراك والتعبير الرمزى**»، **فرسومات الحيوانات** على جدران الكهوف ترمز إلى الحيوانات ذاتها، **ودفن الموتى** فى وضع الجنين يرمز إلى الكمون قبل بداية حياة أخرى، وهكذا.

ولا شك أن «**الإدراك والترميز ـ Cognition and Symbolism**» **أهم ما يميز عملياتنا العقلية أيضًا**، فنحن «**ندرك**» العالَم من حولنا كوجود **مُقَسَّم** إلى عدد هائل من العناصر المنفصلة التى نطلق عليها أسماءً خاصة، وهذا هو «**الترميز**». ومن خلال هذه «**الرموز**»، يمكننا أن نستحضر جزئيات العالم بتفاصيلها، بل وأن نعيد تشكيلها والتعامل معها من خلال طرح أسئلة مثل: **ماذا يحدث لو لم تقع حادثة ما؟**، إن القدرة على طرح وإجابة هذا السؤال هى أساس إبداعنا الحضارى الذى نفخر به.

وتُعتَبر **اللغة أفضل مثال لعمليات الترميز التى يقوم بها العقل البشرى**. ولا شك أن لغتنا لم تنشأ من لغة بدائية لبعض الرئيسيات، ومن المؤكد كذلك أنه لا يتم إبداعها من جديد فى كل

---

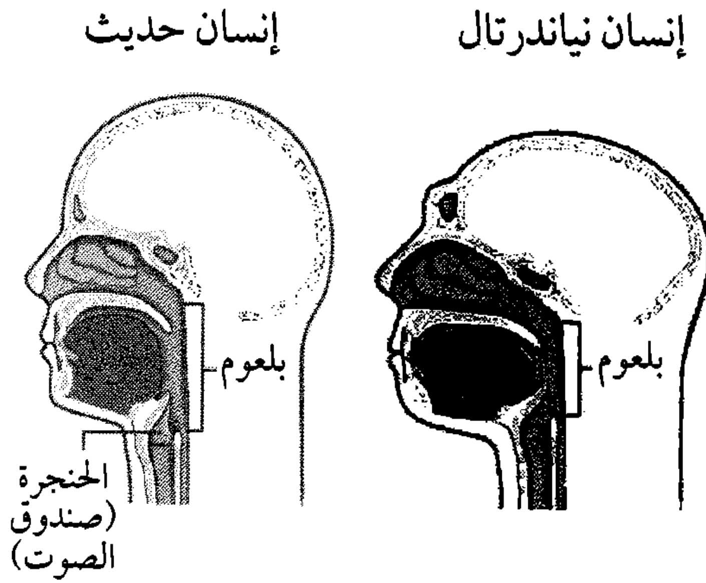
(١) المثال الكلاسيكى للتكيف المسبق الذى يُستَغَل فى مرحلة لاحقة هو ظهور **ريش الطيور**، فوظيفة الريش الأساسية فى الوقت الحاضر هى الطيران، لكن الريش ظهر قبل ظهور الطيور بملايين السنين، واستُعمل وقتها للمحافظة على حرارة أجسام بعض الديناصورات الصغيرة (الأركيوبتيركس) !! تمهيدًا لاستخدامه فى وظيفته الأساسية عندما تنشأ الطيور من الزواحف.

(٢) من هذه الإنجازات أعمال النحت والنقش والرسم والحُلى والموسيقى، والفهم البارع لخواص المواد، والزركشة الدقيقة المضنية للأدوات العملية، وكذلك المفاهيم الميتافيزيقية المتمثلة فى مراسم دفن الموتى.

جيل؛ لذا لا سبيل لإنكار وجود **غريزة لغوية استقرت فى العقل البشرى**، ربما منذ بدأ نمو المخ فى مرحلة «الإنسان الصَّنَّاع ـ Homo habilis» منذ خمسة ملايين عام.

إن الانتقال من أسلوب حياة غير لغوى إلى أسلوب حياة لغوى كالذى نألفه، يمثل قفزة «**إدراكية**» ضخمة، ولا بد أنها تمت على **مراحل متعددة** تشبه الطريقة التى يكتسب بها الأطفال لغتهم؛ حيث يبدءون **باكتساب المفردات**، يلى ذلك **تشكيل الجمل** ثم **بناؤها بناءً صحيح** بعد بلوغ الأطفال سن العامين تقريبًا.

وكما تحتاج وظيفة الكلام إلى **مركز دماغى متخصص**، فإنها تحتاج إلى «**ممر صوتى**[1] ـ Vocal tract» يستجيب بشكل مناسب لتعليمات الدماغ. فالأصوات الأساسية تتولد عند الأحبال الصوتية ثم تُعدَّل بعد ذلك فى البلعوم والممرات الهوائية التى فوقه. وفى **إنسان نياندرتال وفى القردة العليا والأطفال المولودين حديثًا** يكون **وضع الحنجرة مرتفعًا** فى الرقبة، فيكون البلعوم قصيرًا، مما يقلل إمكانات تعديل الأصوات المنطوقة. ومع نمو الأطفال، **تتحرك الحنجرة لأسفل** فيزداد طول البلعوم، مما يسمح بتشكيل الأعضاء اللازمة لتعديل الأصوات المنطوقة، وتزداد معه القدرة على إخراج الكلام الواضح (شكل ـ ٥).



(شكل ـ ٥)

مقارنة بين رأس ورقبة الإنسان الحديث وإنسان نياندرتال، تبين الفرق فى بنية الممر الصوتى. إن وضع الحنجرة المنخفض والبلعوم الأطول فى الإنسان الحديث، هو الذى مكَّن من تشكيل الأعضاء اللازمة لإنتاج الكلام الواضح

---

(١) يتكون الممر الصوتى من الحنجرة وما فيها من أحبال صوتية، ثم البلعوم الذى هو الأنبوب الذى يعلو الحنجرة وينفتح على التجويفين الفمى والأنفى، ثم اللسان والشفتين والجهاز المصاحب لهما (شكل: ٥).

لقد أظهرت الحفريات أن بعض أشباه الإنسان اكتسبت الممر الصوتى القادر على إحداث الكلام الواضح قبل نحو نصف مليون سنة، أى قبل أن يصبح أسلافنا قادرين على ممارسة اللغة وعلى التكلم[1] (وهذا مثال جيد للتكيف المسبق). ويأتى الآن دور السؤال المحرج للانتخاب الطبيعى العشوائى؛ كيف يتثنى وجود هذا الممر الصوتى البشرى لعدة مئات الآلاف من السنين قبل أن ننطق كلماتنا؟

لا شك أنه «التصميم الذكى والتطوير الإلهى».

انتهى كلام عالِم الأنثروبولوجيا، إيان تاتيرسل، حول دور اللغة والترميز فى «كيف صرنا بشرًا»، وحول الإعداد المُسبق للحنجرة لإنتاج الكلام.

ولكن، هل ما ذكرنا من الفوارق الجسدية بين الإنسان الحديث وبين مَن سبقه مِن أشباه الإنسان كافٍ لتفسير ما صرنا عليه من تميز؟ هذا ما سنناقشه الآن:

التطور الجِينى للإنسان

الإنسانية تقابل المزيد من المعلومات

يَعتبر العلمُ الحديث أن الكائنات الحية تشترك مع المادة غير الحية فى اشتمالها على المادة والطاقة، ثم تميزت الكائنات الحية بإضافة «المعلومات»، واختزانها فى شريط الدنا DNA الحامل للشفرة الوراثية، ومن ثم فإن الحياة (على المستوى البيولوجى) تقابل المعلومات.

وبالمثل، فإن حقيقة الإنسان (على المستوى البيولوجى)[2] تقابل المزيد والمزيد من المعلومات. فكل خلية من جسد الإنسان الحديث Homo sapiens sapiens مزودة بشريط معلومات وراثى يحتوى على أربعة آلاف مليون معلومة (أو Bit حسب لغة الكمبيوتر ـ الفيروس يحمل ١٠٠٠٠ معلومة) تراكمت فيه بالتطور المُوَجَّه خلال ما يقرب من ٣,٧ مليار سنة، هى عمر الحياة على كوكب الأرض.

(١) كيف توصل الباحثون إلى ذلك؟ إن استطالة البلعوم لتشكيل الممر الصوتى الفعال تحتاج إلى نتوءات معينة فى قاع الجمجمة، وهذه النتوءات تُعد عيوبًا من الناحية التشريحية، ولكنها ظهرت وظلت موجودة لمدة طويلة جدًّا قبل أن يُستفاد من مزاياها اللغوية.

(٢) حديثنا هنا عن الفوارق البيولوجية المادية، وليس عما يتميز به الإنسان من ملكات عقلية وروحية. فقد تحدثنا عن هذه الملكات فى الفصل الأول.

ويختلف الإنسان عن أرقى الحيوانات (الشمبانزى) فى حوالى ٣,١٪ من شفرته الوراثية العاملة. وينبغى ألّا ننظر إلى هذه الاختلافات نظرة كَمِّية فقط، ففى هذه الـ ٣,١٪ يكمن سر التفوق المعرفى الشاسع للجنس البشرى على أرقى الحيوانات، إذ أدى هذا الاختلاف الضئيل إلى **نمو ضخم للقشرة المخية**، زَوَّدَ المخ البشرى بالقدرة على القيام بالعمليات العقلية، نتيجة لإضافة **مخزن للمعلومات** فى خلاياه يتسع لحوالى عشرة تريليونات (واحد على يمينه ١٣ صفرًا) معلومة إضافية Bit.

ويخرج الإنسان إلى الحياة ومعظم هذا المخزن المعلوماتى فى المخ فارغًا، وتتولى الأسرة والبيئة المحيطة والقراءة والتعليم والتدريب إمداده بالمعلومات. ومن هنا، **يفقد الإنسان الذى لا يتولى «رعاية» و«تدريب» هذه المخازن ولا يملؤها بالمعلومات المفيدة أغلب مبررات آدميته.**

جينات كانت خاملة وتم تنشيطها فى الإنسان

(أ) توجيه نشأة المخ

إذا كان الفرق البيولوجى الأساسى بين الإنسان وبين الرئيسيات (وباقى أعضاء المملكة الحيوانية) يكمن فى **الكم الهائل من المعلومات** الذى اتسعت له قشرتنا المخية، .فكيف تم ذلك؟

١ـ تتابع[١] تلافيف المخ HAR1[٢]

اكتشفت عالمة الإحصاء الحيوى كاترين بولارد عام ٢٠٠٤، تتابعًا (يبلغ طوله ١١٨ زوجًا من القواعد النيتروجينية) كان موجودًا فى الفقاريات **بشكل خامل** طوال عشرات الملايين من السنين، وظل خاملًا فى الشمبانزى، لكنه نَشَطَ فى الإنسان. وقد ثبت عام ٢٠٠٥، أن هذا التتابع (HAR1) له دور حيوى فى **زيادة تلافيف القشرة المخية** للإنسان، مما يزيد من حجمها، وهذا فرق جوهرى بيننا وبين القردة العليا.

وقد ثبت أن هذا التتابع يكون معطوبًا (ومشابهًا لمثيله فى الشمبانزى) فى مرض خِلقى

(١) **يُطلق اسم «الجين»** على مجموعة القواعد النيتروجينية فى الدنا التى تشكل وحدة مسئولة عن التشفير لإنتاج عدد من البروتينات. أما اصطلاح «تتابع» فنستخدمه للدلالة على مجموعة من القواعد النيتروجينية من الدنا المهمل (سابقًا)، والذى ثبت أن له دورًا مهمًّا فى التحكم فى نشاط الجينات وفى وظائف أخرى سوى بناء البروتينات.

(٢) HAR1 = Human Accelerated Region1 = **المنطقة البشرية المتسارعة الأولى**.

يعانى منه بعض الأطفال حديثو الولادة، يعرف باسم انعدام التلافيف (الدماغ الأملس - Lissencephaly).

٢- جين تكبير المخ ASPN

وهذا الجين مسئول عن **زيادة حجم المخ والجمجمة** (مع ثلاثة جينات أخرى[١])، ويوجد **بشكل خامل** فى مختلف الفقاريات وصولًا إلى الشمبانزى، لكن تم تنشيطه فى الإنسان.

كذلك ثبت أن هذا الجين يكون معطوبًا (ومشابهًا لمثيله فى الشمبانزى) فى الأطفال المصابين بالحالة المرضية المعروفة بصِغَر الدماغ Microcephaly.

(ب) جين للغة وآخر للسمع

١ - جينٌ لِلُّغَةِ

عرف المجتمعُ العلمى منذ عام ١٩٩٠، عائلةً (أُطْلِق عليها اسم K.E.)، كان نِصْفُ أفرادها، على مدى ثلاثة أجيال، يعانون من تَعَثُّر فى الكلام تطلب تدريبَهُمْ وهم أطفال على لغةِ الإشارة[٢].

وقد اتضح فيما بعد أن الجينَ المسئول عن هذه المشكلة (أُطْلِقَ عليه اسم $FOXP_2$) موجودٌ على الكروموسوم السابع. وقد أصابت هذا الجين طفرة[٣] أفقدته قدرتَه على تشكيل العُقَد العصبية فى الدوائر المخية المسئولة عن حركة الشفتين واللسان[٤].

ويوجد من هذا الجين أشكال خاملة فى الشمبانزى والغوريلا والأورانج أوتان والفأر، ثم حدث تنشيط للجين فى أشباه الإنسان خلال المائتى ألف سنة الأخيرة، فاكتسب القدرة على إحداث التغيرات التى ساعدتْ فى اكتساب البشر مَلَكَةِ الكلام[٥].

(١) CDK5RAP2 – CENPJ – MCPH1

(٢) ظهر من البداية أن هذه حالةٌ وراثية، يعانى المصابون بها من قُصورٍ فى إنشاءِ الجُمَلِ وعدمِ التمكن من فهم بعض قواعد اللغة، وكذلك من عدم القدرة على نطق كلام مفهوم بسبب قُصُورٍ فى القَدرة عَلى تحريك الشفة العليا واللسان، بجانب انخفاضِ معامل الذكاء (المتوسط = ٨٢ نقطة).

(٣) غيرت الطفرة قاعدة واحدةً فقط من بين الألفين والخمسمائة قاعدة التى يتألف منها الجين.

(٤) مجلة Nature، ٤ من أكتوبر ٢٠٠١.

(٥) كان التنشيط على هيئة تَحَوُّر طفيف فى الجين (لم يحدث فى أى ثديى آخر)، أدى إلى تغير فى حمض أمينى واحد فى البروتين الذى يشفر لبنائه. فتحول الحمض الأمينى ثريونين فى الصِّيغ غير البشرية إلى حمض أسباراجين. وقد أدى ذلك إلى أن يُطَوِّرَ الإنسانُ بِنْيَةَ الوجه والفك وأيضًا القدرةَ على التحريك الرهيف للفم والحنجرة، ليتمكن من الكلام.

٢ـ جينٌ للسَّمْع

يمتلك الإنسان جينًا اسمه «ألفا تكتورين ـ alpha tectorin» (يقع على الكروموزوم البشرى ١١)، وهو يُشَفِّر لبناء بروتين غامض بالأذن الداخلية للإنسان، وتُؤدى طفرةٌ فيه إلى إحدى صور الصَّمَمَ.

وهذا الجين البشرى يختلف كثيرًا عن نظيره فى الشمبانزى[1]، **ويُظَن أن الصورةَ البشريةَ قد تطورتْ مع جينات الكلام لتجعلَ حاسةَ السمع فى الإنسان أكثرَ حِدَّةٍ وأكثر دقة، وهذا أمر ضرورى لتفهم اللغة المنطوقة المعقدة.**

جـ) تتابع تسوية البنان[2]

فى عام ٢٠٠٨، توصل الباحثون فى مختبر لورانس بيركلى بالولايات المتحدة إلى تتابع القواعد النيتروجينية المسئول عن **تشكيل رسغ الإنسان وإبهامه**، بحيث يصبح للرسغ مجال أكبر للحركة، ويصبح مجال حركة الإبهام متعامدًا على كف اليد. وقد زَوَّدَ هذا التغير المهم فى بنية يدَ الإنسان بالمهارة اللازمة لصناعة واستخدام الآلات المعقدة.

وقد أُطلق على هذا التتابع اسم HAR2، وقد وجد نظير له فى جميع الرئيسيات لكن فى هيئة خاملة لا تستطيع القيام بتلك المهمة بكفاءة.

د) نحو هضم أفضل

إلى جانب التغيرات فى البنية الجسدية، وفى حجم المخ وتركيبه ووظائفه، مر أسلافنا بتحولات عديدة أعانتهم على **أن يتبنوا نمطًا غذائيًّا جديدًا.**

لقد أدى استئناس النار منذ مليون سنة، ثم الثورة الزراعية منذ ١٠,٠٠٠ سنة إلى التوصل إلى **الأطعمة الغنية بالنشا** (كالبطاطس والذرة والأرز). وقد صحب ذلك حدوث تنشيط **للجين AMY1** المسئول عن تكوين إنزيم الأميلاز الموجود باللعاب، الذى يُعين على هضم هذه الأطعمة التى استعاض بها الإنسان عن أكل الأعشاب الغنية بالسيليلوز كما تفعل باقى الثدييات.

(١) أحد ثلاثة جينات يختلف فيها الإنسان عن الشمبانزى، من بين ٢١ جينًا مسئولة عن السمع.

(٢) ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤].

ومنذ حوالى ٩٠٠٠ سنة بدأ تطوير **الجين** LCT المسئول عن إنتاج إنزيم اللاكتاز اللازم **لهضم حليب الحيوانات المُستأنسة**، بعد أن بدأ الإنسان فى الاعتماد عليه[١].

ثم نطرق أبواب الشيخوخة

يبلغ حجم **مخ الطفل الوليد** ربع حجم مخ الإنسان البالغ، ثم ينمو المخ ويمر بعدة أطوار إلى أن يكتمل نضجه. ويتقدم العمر بالإنسان ويطرق **أبواب الشيخوخة فتؤدى التغيرات الجينية إلى أن يصاب المخ بالضمور وينخفض عدد خلاياه العصبية**، فترق قشرته المخية ويتباطأ التواصل بين مراكزه المختلفة، كما ينخفض معدل إفرازه للناقلات العصبية الكيميائية.

ويصحب هذا الانتكاس تدهور فى وظائف المخ العقلية والوجدانية والسلوكية والشخصية. وفى الحالات الشديدة (**عته الشيخوخة**) يستمر التدهور التدريجى حتى يفقد الإنسان ذاكرته وشخصيته تمامًا ويصاب بسلس البول والبراز، **ويحيا حياة حيوانية لا يعى معها شيئًا مما حوله**، ويحتاج لمن يقوم بإطعامه والاهتمام بجميع حاجياته[٢].

ويعتقد المتخصصون أن **عته الشيخوخة** يعود ببنية ووظيفة أمخاخ بعض الناس إلى حالة تشبه ما كان عليه أشباه الإنسان (الإنسان معتدل القامة والإنسان الصَّنَّاع). وإن لم يكن لدينا تصور مفصل للوظائف المخية لهذه الأسلاف، فلا صعوبة فى ملاحظة وجود هذا التشابه مع أقرب الرئيسيات منا، ألا وهو الشمبانزى!

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨]

---

(١) المثير أن هذا التطوير حدث فى قاطنى أوروبا وأفريقيا بدرجة أكبر من سكان آسيا وأمريكا اللاتينية، لذلك نجد هؤلاء الآخرين أقل تحملًا للأغذية اللبنية، حتى إنهم قد يصابون بحالة مرضية تعرف باسم عدم تقبل اللاكتوز Lactose Intolerence بسبب امتلاكهم النسخة القديمة من جين أسلاف الرئيسيات.

(٢) فى كتاب الطب النفسى المعاصر (تأليف أ.د أحمد عكاشة و أ.د طارق عكاشة) عام ٢٠٠٩، يُقَسِّم المؤلفان التغيرات التى تصيب مريض عته الشيخوخة إلى ٤ مجموعات:

١- **تغير عقلى**: فيضطرب الفهم ويتشتت الانتباه، ويصعب التركيز وتضمحل الذاكرة، تجاه الأحداث القريبة أولًا ثم تمتد لتشمل كل حياة الفرد، مع اضطراب فى تَعَرُّف الزمان والمكان، وتدهور القدرة على الحكم والتقدير السليم.

٢- **تغير وجدانى**: يظهر عدم التناسب الوجدانى، كالضحك والبكاء دون سبب وبطريقة اندفاعية فجائية.

٣- **تغير سلوكى**: يسلك المريض سلوكًا غريبًا عن طبيعته، كالاستغراق فى الجنس واستعراض أعضائه التناسلية أمام زوجته وأولاده وأحيانًا أصدقائه، مع التصرف الصبيانى فى كثير من نواحى نشاطه العام.

٤- **تغير فى الشخصية**: يأخذ ذلك طابع الأنانية والسلبية، وكثرة الطلبات وضيق الاهتمامات، والعزلة عن الناس مع حب التملك والسيطرة.

وقفة مع حجم المخ...

ذكرتُ أن إحدى أهم السمات المميزة للإنسان والتى تمثل فارقًا كبيرًا بينه وبين أسلافه وباقى الرئيسيات، هى **كِبَرَ حجم المخ البشرى، خاصة الفص الأمامى، فهل يرجع عقل الإنسان وإنجازاته الحضارية إلى حجم مخه الكبير؟**

إذا جعلنا بدايتنا مع دارون ورفيقه هكسلى[1]، نجدهما يؤكدان أن الفوارق بين الإنسان وباقى الرئيسيات إنما هى فوارق كَمِيِّة (أى الحجم) وليست كيفية.

أما سير ألفريد والاس[2] (نظير دارون) فيرى استحالة إرجاع الملكات العقلية للإنسان إلى التطور وزيادة حجم المخ، ويعتبر أن عقل الإنسان منحة إلهية. ومع تقدم العلم، نجد رالف هولواى (أستاذ الأنثروبولوجيا الكبير بجامعة كولومبيا) يعارض التبسيط المخل لدارون وهكسلى، ويؤكد (فى منتصف ستينيات القرن العشرين) أن قدرات الإنسان العقلية المتميزة إنما **ترجع إلى إعادة تنظيم بنية المخ ووظائفه، أكثر من مجرد زيادة الحجم**. ويدرس تود بريوس Todd Preuss (عالِم المخ والأعصاب بالمركز القومى لدراسة الرئيسيات بالولايات المتحدة) قضية حجم المخ بالتفصيل، ويلفت نظرنا إلى:

١ ـ أن الكثير من الثدييات لديها **أمخاخ أكبر من مخ الإنسان**، فحجم مخ الحوت الأزرق يبلغ خمسة أضعاف حجم مخ الإنسان، فهل هو أذكى منا خمس مرات؟! بالتأكيد لا.

٢ ـ وإذا نظرنا إلى **وزن المخ مقارنة بوزن الجسم**، وهو ما يُعرف بـ«**وزن المخ النسبى**» وجدنا أن وزن مخ الإنسان يمثل قرابة ٢٪ من وزن جسمه، ويمثل فى الحوت الأزرق قرابة ٠١, ٠٪، بينما يبلغ وزن مخ فأر الجيب Pocket Mouse ١٠٪ من وزن جسمه!، أى خمسة أضعاف الوزن النسبى لمخ الإنسان. لا شك أن هذه المقارنة تقلل من شأن حجم المخ بالنسبة للقدرات العقلية.

٣ ـ أن **حجم المخ النسبى** للإنسان يزيد على باقى الرئيسيات. فوزن ذكر الشمبانزى يبلغ ٣٥ ـ ٧٠ كجم بينما يبلغ حجم مخه ٤٠٠ سم٣ (حوالى ٨سم٣/ كجم) فى حين يبلغ حجم مخ الإنسان البالغ (٧٠كجم) قرابة ١٣٥٠ سم٣ (حوالى ٢٠ سم٣/ كجم).

---

(١) توماس هكسلى Thomas Huxley: عالم البيولوجيا البريطانى، أكثر المتعصبين والمدافعين عن الداروينة، حتى لُقِّب بـ «كلب داروين البولدوج Darwin's Bulldog».

(٢) للمزيد عن سير ألفريد والاس ارجع إلى الفصل الأول.

٤ ـ يبلغ وزن مخ إنسان نياندرتال (الذى يقاربنا وزنًا) ١٥٢٠ سم٣، مقارنة بحجم أمخاخنا البالغ ١٣٥٠ سـم٣. أى أن حجم مخ الإنسان الحديث يقل بمقدار ١٧٠ سم٣، بالرغم من تفوقنا فى القدرات العقلية، وهذا دليل آخر على أن حجم المخ ليس كل القضية.

مع القشرة المخية والفص الجبهى

لا يمكن الحديث عن أهمية حجم المخ بالنسبة للقدرات العقلية دون الحديث عن القشرة المخية. ويتفق جميع المتخصصين على أن **هذه القشرة تتميز فى الرئيسيات بزيادة الحجم**. فهى تبلغ فى القنفذ ١٦٪ من حجم المخ، وتبلغ فى قرد الجالاجو الصغير ٤٦٪ وفى الشمبانزى ٧٦٪ وفى الإنسان ٨٥٪. تطرح هذه الإحصائيات سؤالًا مهمًا؛ إذا كان حجم القشرة المخية النسبى فى الإنسان والرئيسيات متقاربًا، **فإلى أى أجزاء المخ يرجع التفوق العقلى للإنسان؟**

تُرجِع الكثير من الدراسات الحديثة تفوق الإنسان العقلى إلى **تغير فى «بنية القشرة المخية» فى الجزء الأمامى من الفص الجبهى Pre- Frontal Cortex**. فهذه القشرة تتكون فى الثدييات (السابقة للرئيسيات) من منطقتين مسئولتين عن الجانب الانفعالى للكائن[(١)]، بينما تزيد فى الرئيسيات بمنطقة ثالثة تُعرف **بالمنطقة العاشرة**[(٢)]. ولهذه المنطقة دور هام فى اتخاذ القرار، وتثبيط الاستجابات اللا إرادية تجاه بعض المواقف. وتبلغ **المساحة النسبية لهذه المنطقة فى مخ الإنسان ضعف مساحتها فى مخ الشمبانزى**.

كذلك تتميز هذه المنطقة الأمامية فى مخ الإنسان عن باقى أجزاء الفص الجبهى بوجود طبقة إضافية من الخلايا العصبية، تعرف باسم **الطبقة الحُبيبية الداخلية الرابعة** Internal Granular Layer IV، وينسب المتخصصون إلى هذه الطبقة العديد من قدرات الإنسان العقلية.

لماذا كبرت أمخاخ أسلافنا، بينما بقى مخ الشمبانزى على حجمه؟

قدم بروس لان Bruce Lahn وفريقه البحثى فى شيكاغو، مع بداية القرن الحادى والعشرين تفسيرًا مقبولًا لهذا السؤال شديد الأهمية. فقد وجدوا أن نسبة الجينات المسئولة عن

---

(١) The Orbital Prefrontal Region: مسئولة عن الاستجابة للمثيرات الخارجية.
The Anterior Cingulate Cortex: مسئولة عن الاستجابة للحالة الداخلية.
(٢) Lateral Prefrontal Cortex

تشكيل المخ فى الإنسان أعلى من الشمبانزى. ولاحظوا كذلك أن عدد «**الجينات الفاعلة**» فى مخ الإنسان يبلغ ٣ ـ ٤ أضعاف عددها فى مخ الشمبانزى، بينما يتساوى عدد تلك الجينات فى باقى أعضاء الجسم.

واستنتج الباحثون من ذلك، **أن جينات تشكيل المخ فى الفرع التطورى الذى جمع الإنسان والشمبانزى قد حدث فيها طفرات أكثر فى بعض أفراده، أدت إلى ظهور أشباه الإنسان، بينما حدثت فى أفراد آخرين طفرات أقل، أدت إلى ظهور الشمبانزى.**

سبحان الله...

أبهذا القدر الضئيل من التعديلات الجينية اختلف الإنسان عن أقرب الثدييات الرئيسية إليه! فساد كوكب الأرض، بينما أوشكت باقى الرئيسيات على الانقراض.

لا... إن الأمر لا يقف عند الجينات، **إنها النفخة الإلهية التى ميزت الإنسان حتى سجدت له الملائكة والكون كله.**

القارئ الكريم ...

أظهر العديد من الدراسات التطورية **أن الفرع الخاص بالإنسان قد انفصل عن باقى الرئيسيات فى أفريقيا** فى فترة التغيرات البيئية الجذرية، التى أدت إلى تآكل الغابات واستبدال الكثير من مناطقها بأعشاب السافانا، التى كانت وسطًا مناسبًا للانتقال من حياة الكائنات التى تقفز على الأشجار إلى الكائنات التى تسير على قدمين.

وقد عاشت أشباه الإنسان فى بيئة السافانا، على الصيد وأكل الأعشاب والثمار، وكانت فرائس سهلة لحيوانات السافانا المفترسة كالنمور والسباع، ومع ذلك **حدثت المعجزة، واستطاعت أشباه الإنسان البقاء والتطور بدلًا من أن تنقرض؛ كيف؟**.

لقد أعان على ذلك أيضًا **حدوث قفزة عقلية،** أَمَدَّت أشباه الإنسان بالذكاء المطلوب لمواجهة تلك التحديات. وقد استخدمت تلك الكائنات ذكاءها لتحقيق «ثورة معرفية تقنية» تمثلت فى صناعة الأسلحة وعمل المصايد وغيرها من الابتكارات، كما عاش أفرادها فى جماعات ليحتمى بعضهم ببعض. وقد أعان على ذلك ما ذكرناه من **تعديلات جسدية أساسية** أوصلتنا إلى بنيتنا النهائية.

وما كان لهذه التعديلات أن تؤتى ثمارها لو لا أن تعلم الإنسان الحديث الترميز فى التفكير والترميز فى التعبير (ملكة الكلام). وقد تم الإعداد تشريحيًّا لنشأة اللغة قبل أن يبدأ أسلافنا فى الكلام بفترة طويلة. كما أُعطِىَ الإنسان المقدرة الفطرية على تكوين الجمل الصحيحة وبنفس البنية اللغوية، وإن اختلفت اللغات. هذا، وقد مَكَّن «الترميزُ» الإنسانَ من أن يصير مخلوقًا مفكرًا بانيًا للحضارة وناقلًا فكره للأجيال التالية.

والمدهش أن تحقيق كل هذه التعديلات الجسدية تم من خلال تعديلات بسيطة فى شفرتنا الوراثية.

وينبغى أن نؤكد هنا أن ما ذكرناه من مفاهيم حول نشأة الإنسان قابل للتعديل فى التفاصيل، بناء على ما يكتشفه المتخصصون من حفريات . لكن لا شك أن الخطوط العريضة التى ينبنى عليها هذا السيناريو ستظل كما هى، كما أثبت علم البيولوجيا الجزيئية.

وأختم الفصل بقول (يفرض نفسه عَلَىَّ بإلحاح) لإيان تاتيرسل جاء فى مقال (كيف صرنا بشرًا) الذى عرضناه، يقول تاتيرسل ما نصه:

«إن تَعَلُّم الإنسان الترميز فى التفكير والتعبير (اللغة) يعنى أنه قد أطلق على كل شىء اسمًا، يرمز به إليه».

ألا يُذَكِّرك ذلك بأن الله ﷻ عندما أَعَدَّنا للخلافة فى الأرض منحنا مَلَكَة باهَى بها ملائكته، فقال:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

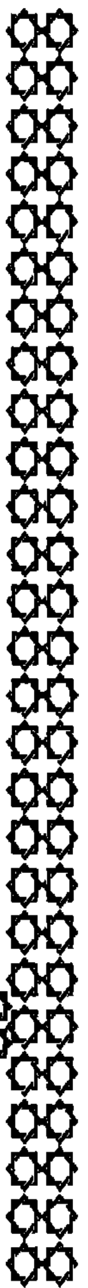
وسبحان القائل: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن].

صدق الله العظيم

الباب الثانى

أنا...

فى العلوم الإنسانية




الفصل السادس

أنا في المرآة

- **تأملات فلسفية**
- **حوارى مع الفيلسوف كارل بوبر ـ الفلسفة المادية والخَلق**
  - تهاوى المادية
  - بين الانبثاق والخلق خطوة
  - انهيار الاختزال والحتمية
  - الماديون يعارضون الانبثاق
  - كيف تنتج المادةُ الحياةَ والعقل
- **مع كارل بوبر، وتسلسل النظرة إلى الذات الإنسانية**
  - ثنائية الروح والجسم قبل التاريخ
  - جولة حضارية وفلسفية
- **الفلسفة اليونانية**
  - الروح/ العقل موجود مادى
  - التصور الأخلاقى للروح/ العقل
  - إضفاء الصبغة اللامادية على الروح/ العقل
- **الفلسفة الحديثة**
  - مبدأ التفاعل لديكارت
  - منهج ديكارت لمعرفة الإنسان لذاته وللإله
  - مذهب التوازى لسبينوزا
  - مذهب ليبنتز: التناسق سابق التقدير
  - المذهب المادى بعد الديكارتيين
  - الداروينية
- **الذات الإنسانية فى الفكر الشرقى القديم**
  - **الديانة الهندوسية**
    - العقائد الهندوسية
    - لماذا خُلقنا؟ ـ وحدة الوجود
    - الذات الإنسانية فى الفكر الهندوسى
  - **البوذية**
    - مفهوم المعاناة فى الفكر البوذى
    - الاستنارة والطريق إلى اللاذات
    - وَهْم الذات الإنسانية
    - النيرفانا
- **الإنسان المصرى القديم والذات الإنسانية**
  - ثنائية الوجود وثنائية الذات الإنسانية
  - عالم الموتى، بين طبقية ومساواة
  - الأخلاق الفاضلة، الطريق إلى الخلود
- **القارئ الكريم**

كيف نظر الإنسانُ إلى نفسه؟...

كيف نظر العقلُ إلى الإنسان؟...

كيف نظرت الفلسفةُ إلى الذات الإنسانية؟...

سؤال واحد، يطرح نفسه بأشكال مختلفة... ولا يتكامل حديث «أنا» عن «نفسها» دون الإجابة عنه.

منذ فجر التاريخ، ومنذ أن وعى الإنسان بنفسه، نشطت فى عقله مَلَكَةٌ فطرية مُلِحَةٌ تدفعه للبحث عن أصل كل شىء. فبدأ بالتفكر فى **علة ما حوله**؛ من أين تأتى الشمس فى الصباح، وأين تذهب بعد غروبها؟ مصدر وسبب المطر، ثورة البراكين، برودة الطقس، اشتعال النار، نمو النبات... ثم انتقل الإنسان إلى **التفكر فى ذاته**؛ ما الذى أصاب رفيقى فَخَرَّ صريعًا دون أن يمسه مكروه؟ وهل تلاشى تمامًا أم رحل إلى مكان آخر؟ ما الفرق بين طفل وُلد حيًّا وآخر وُلد مَيْتًا؟ لماذا أُحب هذا الشخص وأكره الآخر؟ كيف توصل أخى إلى حل تلك المعضلة فى الوقت الذى عجزت فيه أنا؟...

للإجابة عن تلك **التساؤلات حول الطبيعة، وحول الذات الإنسانية**، صاغ الإنسان البدائى **الأساطير**، التى صارت تُعرف بـ«**فلسفة ما قبل الفلسفة**». وعندما تقدم الإنسان فى المعرفة، وصار أكثر قدرة على التمييز بين المعقول واللامعقول وأكثر قدرة على التفكير المنهجى، **بزغت الفلسفة**، التى يمكن اعتبارها أعظم إنجازات العقل البشرى، ولِمَ لا؟.. أليست هى «**حب الحكمة**»...

تأملات فلسفية

يقول **الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت**[1] فى كتابه الأشهر «نقد العقل الخالص»: إن شيئين يملآن عقلَه بالإعجاب والإجلال المتجددين والمتزايدين على الدوام: **السموات**

(١) **إيمانويل كانت Immanuel Kant**، ولد فى ألمانيا (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م)، من أكثر فلاسفة نظرية المعرفة تأثيرًا فى عصر التنوير، يتبع طريقًا وسطًا بين التجريبية والعقلانية. دعا إلى تصحيح المفاهيم الميتافيزيقية. وقد أثّر كانت فى مجرى الفكر البشرى كله، فكان معظم الفلاسفة المحترفين فى أوروبا الغربية، وإنجلترا، وأمريكا ـ على مدى مائة سنة بعد وفاته ـ من تلاميذه.

المرصعة بالنجوم من فوقه، والقانون الأخلاقى فى داخله. فالسماء ترمز عنده إلى معرفتنا عن العالم الفيزيائى ومكاننا فى هذا العالم. والأخلاق تتصل بالذات غير المرئية؛ بالشخصية الإنسانية خاصة حرية الاختيار. الشىء الأول يلغى أهمية الإنسان إذا نظرنا إليه كجزء من العالم الفيزيائى. والثانى يُعِلى قيمتَه إلى غير حد بوصفه كائنًا ذكيًا ومسئولًا.

قد يفهم البعض من نظرة «كانت» المترددة بين نجوم السماء وبين الذات الإنسانية، أن على الإنسان أن يتبنى إما النظرة المادية وإما النظرة الإنسانية. ولكنى فى الحقيقة أرى بين النظرتين علاقة تبادلية، **فنظرة الإنسان لـ «ذاته» تتوقف إلى حد بعيد على نظرته لـ «ما حوله»**. فإذا كانت نظرة الإنسان للوجود ـ فى مرحلة من مراحل الحضارة الإنسانية أو فى مجتمع من مجتمعاتها ـ تتسم بالمادية، فستكون تلك أيضًا نظرته لذاته. أما إذا كان يرى الوجود كجذع شجرة تمتد جذورها فى عالم الغيب وتتفرع أغصانها وتورق وتُزهر فى سماء الأبدية، فلا شك أنه سيرى نفسه كقطرة ماء تسرى فى عروق تلك الشجرة، فى رحلة تمتد من الجذور، عبر الجذع، إلى الأغصان والأوراق والأزهار.

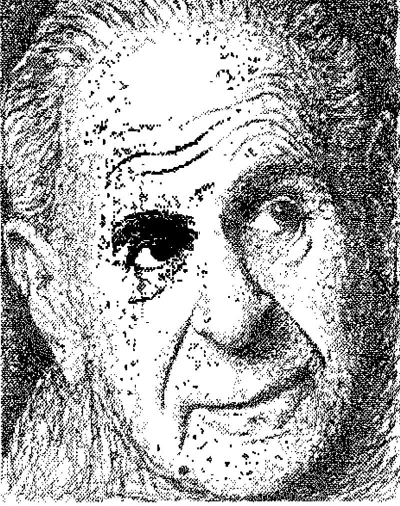
معنى ذلك، أن الإنسان عندما ينظر فى المرآة فإنه يرى ذاته **كجزء من صورة تتناسب مع الوجود المحيط به**، فلا يمكن ـ مثلًا ـ أن ترى نفسك فى المرآة كطائر يرفرف بجناحيه داخل تربة من الطين الأسود، فالطائر يرفرف فى سماء مفتوحة. والعكس أيضًا صحيح، فديدان الأرض لا تستطيع أن تزحف فى الفضاء.

وبينما أنا غارق فى تأملاتى، بحثت عمن يمكن أن يستعرض لنا نظرة الإنسان إلى نفسه، مَنْ مِن الفلاسفة (فرسان هذا المضمار) الأقدر على ذلك؟. المشكلة، أن الفلسفة (كما أراها) أشبه ببستان للزهور، ألقى بعضُ مرتاديه حول أسواره شيئًا من النفايات. لذلك، كما يمكن أن تقع عيناك على إحدى زهور البستان، فيمكن أيضًا أن تصطدم بأى من النفايات!. نقلت حيرتى إلى أستاذتى الدكتورة يمنى طريف الخولى[1] فدلتنى من فورها على أستاذها **الفيلسوف الكبير كارل بوبر**، عملاق فلسفة العلوم فى القرن العشرين، وقالت؛ هو من تبحث عنه، بل وأهدتنى بعضًا من كتبه.

(١) د. يمنى طريف الخولى: أستاذة فلسفة العلوم، ورئيسة قسم الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة. لها العديد من المؤلفات والكتب المترجمة فى هذا المجال.

حوارى مع الفيلسوف كارل بوبر

الفلسفة المادية والخَلْق



(شكل ـ ١)
كارل بوبر Carl Popper
فيلسوف العلوم الأشهر
فى القرن العشرين

قصدت إلى كارل بوبر[1] **Carl Poper** (شكل ـ ١)، وجلست بين يديه صامتًا مطرقًا رأسى، فأنا ممن يعرفون أقدار الرجال. قطع العملاق الصمت، وبدد بنظراته الدافئة ما بداخلى من رهبة وتردد انعكستا على وجهى، وسألنى: ما الذى يشغلك ويحيرك؟

أجبته، سيدى: إذا كان الشاغل الأكبر للفلسفة منذ أشرقت شمسها هو: الخالق والمخلوق، فأنا يشغلنى هذه الأيام قضية: كيف نظر الإنسان إلى ذاته.

ابتسم كارل بوبر ابتسامة هادئة تجمع بين سكينة الواثقين واندهاش الفلاسفة العظماء وطفولتهم، وقال: يا عزيزى، إن قضيتك تلك تتغلغل فى نسيج الفلسفة كله، فمن أين تريد أن أبدأ؟. قلت لبوبر: فلنجعل بدايتنا: **مدى تأثير نظرة الإنسان إلى الوجود فى نظرته لذاته.**

تهاوِى المادية

قال بوبر: لا شك أن هناك تأثيرًا قويًّا متبادلًا بين نظرة الإنسان للوجود ونظرته لذاته، حتى إنك عندما تتابع الكتابات الفلسفية المادية قد لا تلاحظ أن الفيلسوف قد انتقل من الحديث عن مادية الوجود إلى الحديث عن مادية الإنسان، والعكس أيضًا صحيح. **ومع تبدل نظرة الإنسان الفلسفية والعلمية إلى المادة تبدلت نظرته إلى ذاته الإنسانية**، لذلك إذا أردنا أن ندرك تطور النظرة الثانية علينا أن نفهم تطور الأولى.

---

(١) كارل بوبر **Carl Popper**: ولد فى ڤيننا عام ١٩٠٢ ومات فى لندن عام ١٩٩٤. من أعظم فلاسفة العلوم فى القرن العشرين. والداه يهوديان، ويصف نفسه بأنه لا أدرِىّ Agnoistic. درس الرياضيات والتاريخ وعلم النفس والفيزياء والموسيقى. حصل عام ١٩٦٥ على لقب سير، وعمل بين عامى ١٩٤٩ ـ ١٩٦٩ أستاذًا للمنطق والمناهج العلمية بجامعة لندن.

كان الفيلسوف الكبير بيرتراند رسل[1] يعتبر أن العلم والفلسفة وُلِدَا على يد اليونانيين القدماء،[2] وأنه يمكن التأريخ لذلك الميلاد بالفيلسوف اليونانى طاليس فى القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ ذلك الحين ـ ولقرون عديدة ـ ظل العلم والفلسفة ينظران إلى «المادة» باعتبارها **شيئًا ما يشغل مكانًا**، وأنها **جوهر** substance (موجود حقيقى مستقل تُفَسَّر به الأشياء) وأنها **نهائية** ultimate (لا يحتاج وجودها إلى تفسير)، وأنها **ماهوية** Essential (تحمل داخلها خواصها التى تميزها). إذًا، تنظر **الفلسفة المادية التقليدية والفيزياء الكلاسيكية** إلى «**المادة**» باعتبارها **جسم جوهر، يشغل مكانًا، غير قابل (ولا يحتاج) لتفسير آخر، بل تُفَسَّر به الأشياء**. و«**يتفاعل**» هذا الجسم مع الأجسام الأخرى بـ«**الدفع Push**»، الذى هو فعلٌ بالتلامس. واعتبر الفلاسفة أن الدفع «علة» حركة الأجسام، ونظروا إلى «**العالم**» باعتباره آلة هائلة تتكون من مجموعة من الأجسام يدفع بعضها بعضًا كتروس الساعة.

ثم جاءت **الفيزياء الحديثة** لتُبطل تدريجيًّا هذا الرأى عن المادة، بعد أن طرحت نظريات تفسيرية لوجودها ولخواصها[3]، ومن ثم **لم تعد المادة جوهرًا نهائيًّا**. أى أن الفيزياء التى أقنعتنا من قبل بمفهوم المادية هى التى قدمت أهم الأدلة ضد المادية الكلاسيكية.

لقد كان أول صدع فى المادية الكلاسيكية هو **تصور إسحق نيوتن عن الجاذبية**، فهى قوة «**جذب**» وليست قوة «**دفع**»، وهى **فعل عن بُعد** (لا فعل بالتلامس). وقد تطلب الخروج من هذا المأزق أن أضاف الفلاسفة «**الشد الجاذبى**» ـ كما سبق أن أضافوا الدفع ـ كأحد صفات المادة الأساسية التى لا يلزمها تفسير آخر.

كذلك كان أحد أهم الأحداث فى مسار تجاوز المادية لذاتها هو اكتشاف طومسون **للإلكترون**، والذى وصفه بأنه شظية دقيقة من الذرة. بذلك **أصبحت الذرة مكونة من جسيمات وأصبحت قابلة للانقسام**، على عكس التعريف المادى الكلاسيكى الذى يرى أنها وحدة مصمتة غير قابلة للانقسام.

---

(١) **برتراند راسل Bertrand Russell**: وُلد فى ويلز بالمملكة المتحدة (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠م). فيلسوف ورجل منطق عظيم، من علماء الرياضيات، ومن المناهضين للحروب وللتوسع الاستعمارى، حصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٠.

(٢) نتبنى رأيًا مخالفًا لذلك، طرحه فلاسفة آخرون، وهو أن حضارات أقدم كثيرًا من الحضارة اليونانية حققت إنجازات فلسفية وعلمية كبيرة. بل إن الكثيرين من فلاسفة اليونان تعلموا لسنوات عديدة فى مصر، وأشهر هؤلاء أفلاطون وفيثاغورث.

(٣) مثال ذلك تقديم التفسير لحالات المادة (الصلابة ـ السيولة ـ الغازية)، وللمرونة، والتماسك، وشغل المكان،...

كذلك فسرت **النظرية الكهربائية للذرة** (النواة موجبة الشحنة والإلكترونات سالبة الشحنة) صفتى الدفع والشد بين الأجسام، بذلك لم تعد هاتان الصفتان خاصيتين جوهريتين للمادة لا تفسير لهما، بل أصبحتا **قابلتين للتفسير**.

كما أظهرت الفيزياء الحديثة **إمكانية تحول المادة إلى طاقة** (فى الانفجارات الذرية) وتحول الطاقة إلى مادة، **مما** ينفى عن المادة صفة الثبات وعدم القابلية للتغير، أى أن المادة (طاقة معبأة) **قابلة للتحول** وليست جوهرًا لأنها غير ثابتة، بل يمكن أن تُدَمَّر ويمكن أن تُخَلَّق.

بذلك استُبدل الرأى القائل بأن الحيوانات والبشر آلات بالمعنى الميكانيكى (روبوتات) بتصور الحيوانات والبشر كآلات كهروكيميائية.

لقد أصبحت الفيزياء الحديثة تهيب بنا أن نتخلى عن مفهوم الكيان المادى الدائم الثابت عبر الزمن، وأن نعتبر أن ليس هناك جوهر حامل لخصائص الشىء وصفاته. إن العالم اليوم لا يبدو كتجمع من الأشياء، بل **كمجموعة متفاعلة من الأحداث Events أو العمليات Processes**. وكما تتعامل الفيزياء مع **الجسيمات**، فقد صارت تتعامل أيضًا مع شتى صور **النشاط الإشعاعى**، بل وأيضًا مع **طاقة الفراغ** الهائلة غير المتميزة[1]. معنى ذلك أن الفيزياء **تحتم علينا عند تفسير بنية المادة أن نتخلى عن المادية.**

انهيار الاختزال والحتمية

قلت لكارل بوبر مستفسرًا: من المناهج التى يستخدمها العلماء لدراسة الظواهر المختلفه، «**المنهج الاختزالى ـ Reductionism**»، الذى يقوم بتحليل أية ظاهرة أو قضية إلى عناصرها الأولية، ثم دراسة كل عنصر على حدة، واعتبار **أن خواص الكل هى مجموع خواص عناصره.** لذلك قام البيولوجيون عند دراسة «**ظاهرة الحياة**» بتحليل الكائن الحى إلى عناصره: أجهزة الجسم ثم الأنسجة ثم الخلايا ثم الجزيئات العضوية ثم الذرات ثم الـمُكَوِّنات تحت الذرية (البروتونات ـ النيوترونات ـ الإلكترونات)، وقالوا لنا لم نعثر إلا على مادة، ليس هناك إلا المادة لتفسير الحياة. لقد فات هؤلاء أن ظاهرة الحياة التى يدرسونها **بمنهجهم الاختزالى تكون قد اختفت تمامًا** عندما قاموا بعملية الاختزال والتحليل، وأنهم قد **حولوا البيولوجيا إلى فيزياء.**

---

(١) عبر عن ذلك ج. أ. هويلر (عام ١٩٧٣) بقوله: إن فيزياء الجسيمات تحت الذرية ليست هى نقطة البداية الصحيحة للفيزياء، لكن نقطة البداية هى فيزياء الفراغ Vacuum Physics. وقد شرحنا طاقة الفراغ فى الفصل الرابع على لسان عالم الفيزياء ويليام تيلر.

أجابنى بوبر: لا شك أن هذا المثال يبين خطأ ما يؤمن به أصحاب المنهج الاختزالى، من أن الأشياء (أو الأحداث أو الظواهر) فى كل مستوى يمكن أن تُفَسَّر فى ضوء ما يحدث فى المستوى الأدنى، أى أن المستوى الأدنى يمكنه أن يُفَسِّر المستوى الأعلى، وهو الفهم الذى أطلقوا عليه اصطلاح «**العِلِّية الصاعدة**[1] **upward causation**». ففى المثال السابق، لا شك أن المستوى الأدنى (خصائص جزيئات المادة وذراتها) لا تفسر ظاهرة الحياة. ومن الأمثلة الأخرى لـ(تَعَطُّل العلية الصاعدة) أن الحيوان قد يبقى حيًا بعد موت الكثير من خلاياه أو بتر طرف من أطرافه.

وفى مقابل العلية الصاعدة، يمكن للمستويات الأعلى أن تؤثر (فى بعض الحالات) فى المستويات الأدنى، ونطلق على هذا التأثير اصطلاح «**العِلِّية الهابطة Downward Causation**»، ومثالها تلك الآلات التى نصممها بحيث إذا زادت السرعة (المستوى الأعلى) يتم تقليل الوقود (المستوى الأدنى) حتى تعود السرعة لمعدلها السابق. وتمارس العِلِّية الهابطة دورًا هامًا فى الوظائف المختلفة فى جسم الإنسان؛ فإذا زاد معدل السكر فى الدم مثلًا (المستوى الأعلى) أدى ذلك إلى انخفاض إفراز هورمون الإنسولين (المستوى الأدنى) حتى يعود السكر إلى مستواه الطبيعى، وتسمى هذه العملية بالتغذية المرتجعة feed back.

إن تَعَطُّل مفهومى العِلِّية الصاعدة والعِلِّية الهابطة (فى كثير من الأحيان) يدعم رفضى **لاعتبار أن عالمنا الفيزيائى عالم حتمى يسير فى اتجاه واحد تفرضه البنية الذرية**. بل إن الفيزياء الحديثة (فيزياء الكم) أثبتت من خلال مفهوم اللاحتمية أن هناك (على المستوى تحت الذرى) احتمالات مختلفة لوقوع الحدث الفيزيائى الواحد، مما قضى على مفهوم الحتمية المادية تمامًا[2].

كيف تُنتج المادةُ الحياةَ والعقل

أعجبنى كثيرًا طرح كارل بوبر لتطور النظرة إلى المادة، وسألته: كيف فَسَّرَ الماديون ظهور الحياة والوعى والعقل من المادة بصفاتها، سواء الصفات الكلاسيكية أو الصفات التى انكشفت للفيزياء الحديثة؟

---

(١) اصطلاح «العِلِّيَة» مشتق عن «علة»، وعلة الشىء بمعنى سببه.

(٢) ذكرنا فى الفصل الرابع أن هناك شواهد فيزيائية تشير إلى أن مفهوم اللاحتمية ـ الخاص بالجسيمات تحت الذرية ـ يوجد أيضًا على مستوى الذرات والجزيئات! ومن ثم لم تَعُد هناك حاجة لنوعين من الفيزياء، بل إن فيزياء الكم تحكم العالم الكبير كما تحكم العالم تحت الذرى!

أجابنى بوبر: ترى المدرسة المادية (بدءًا من الفلسفة اليونانية القديمة[1] حتى الماديين المعاصرين[2]) أنه **لا توجد إلا ذرات تتحرك فى فضاء فارغ**، وأن التغيرات الوحيدة الممكنة هى حركة الذرات واصطدامها ببعضها واتحادها، بما فى ذلك الذرات بالغة الدقة التى تُكَوِّن أرواحنا، ومن ثم فإن التغيير الحقيقى مستحيل ووهم. معنى ذلك أنه **لا يوجد إلا كيانات مادية**، وأن ليس هناك أحداث أو خبرات عقلية لا مادية، أى أنه **لا جديد تحت الشمس**.

وكمحاولة لتفسير ظاهرتى الحياة والعقل فى إطار منظور تفاعل الذرات المادى، طرح بعض الفلاسفة الماديين منظورًا شديد الغرابة، لا يفسر المشكلة، بل يزيدها غموضًا، أطلقوا عليه اسم «**مذهب شمول النفس Panpsychism**». ويرى هذا المنظور **أن المادة متأصل فى بنيتها خاصية تشبه الحياة والعقل**، وأن هذه الخاصية تظل كامنة فى المادة غير الحية، ثم تُفَعَّل لتصبح حياةً فى الكائنات الحية ثم وعيًا وعقلًا مع تطور الحيوانات العليا. لقد أراح هذا المنظور الماديين، إذ فسر لهم انبثاق القدرات العقلية فى المادة دون الاحتياج لتَدَخُّل من خارجها، وهو ما عبر عنه الماديون بأن «**كوننا مغلق**»، **مكتفٍ بذاته، ليس فى حاجة لتدخلات خارجية**، أى أنه ليس كونًا مفتوحًا للتدخلات الإلهية والميتافيزيقية.

قلت لبوبر: ألا ترى ـ سيدى ـ أن الماديين الذين قالوا بشمول النفس، ليؤكدوا أن عالمنا مغلق مكتف بما فيه، فإنهم قد **أَضْفَوا على المادة صفات عاقلة واعية حساسة فوق ما يحلم به المتدينون**؟

أجابنى بوبر: نعم، لذلك أرى أن مذهب شمول النفس ليس مذهبًا ماديًّا، بل هو أقرب إلى المذهب الروحى الرافض للمادية.

بين الانبثاق والخلق خطوة

قلت لبوبر: إننى (كبيولوجى) أرى **أن الحياة والوعى والعقل ظواهر جديدة تمامًا على الكون المادى** (أى خطأ مفهوم أن لا جديد تحت الشمس)، وأن المادية تعجز عن تفسير تلك الظواهر، وأرى أنها تحتاج إلى إيجاد جديد تمامًا، وهو ما يسميه المتدينون «**الخَلق» من قِبل خالق يتمتع بهذه الصفات**، ولا يكون هذا الموجد إلا إلهًا. أى أن كوننا ليس كونًا ماديًّا مغلقًا، بل هو **كون مفتوح للتدخلات الإلهية**». فكيف يرى الفلاسفة هذا الطرح العلمى الدينى؟

(١) يمثل الفلسفة اليونانية المادية الفيلسوف العظيم بارمنيدس، منذ ٢٥٠٠ سنة، واقتفى أثره مؤسسًا النظرية الذرية ليوسيبوس وديمقريطس.
(٢) مثل الفيلسوف كواين.

ابتسم كارل بوبر وقال: يمكننا أن نحلل تلك القضية إلى مستويين، المستوى الأول هو: هل تُعتبر ظواهر الحياة والوعى والعقل **إيجادًا جديدًا تمامًا**، أم أنها بعض النواتج التى كان يمكن التنبؤ بها من دراسة خواص المادة (العِلِّية الصاعدة)؟ وإذا أقررنا أن هذه الظواهر جديدة، عندها يأتى السؤال التالى: **كيف جَدَّت هذه الظواهر؟**

واستطرد محدثى الكبير مجيبًا على تساؤليه بثقة كبيرة: أُشهدك أننى أذهب إلى أن الحياة، والخبرات الواعية للحيوانات، ثم العقل والوعى الإنسانى بالذات وبالوجود، وما ترتب على ذلك من إبداع، هى ظواهر جديدة كل الجِدَّة، وهو ما أصفه بأن تطور العالم كان «**تطورًا انبثاقيًّا Emergent**»، بل إننى استخدم أيضًا اصطلاح المتدينين بأنه ـ كان «**تطورًا خالِقًا Creative**».

أخرج كارل بوبر من أحد أدراج مكتبه نسخة من كتابه (الذات ودماغها)[1] وفتح أحد صفحاته وأشار إلى مخطط بها، وقال: إننى أنظر إلى العالم باعتباره متكون من ثلاثة مستويات، تمثل مراحل تطور الكون.

العالم ـ ٣ **(عالم منتجات العقل الإنسانى)**	(٦) الأعمال الفنية والعلمية (شاملة التكنولوجيا) (٥) اللغة البشرية، نظريات النفس والموت
العالم ـ ٢ **(عالم الخبرات الذاتية)**	(٤) الوعى الإنسانى بالذات وبالموت (٣) الإحساس (الوعى الحيوانى)
العالم ـ ١ **(عالم الأشياء الفيزيائية)**	(٢) الكائنات العضوية الحية (١) العناصر الأثقل، السوائل والبلورات (صفر) الهيدروجين والهيليوم

فى هذا المخطط أرمز إلى **عالم الأشياء الفيزيائية (العالم المادى) بـ «العالم ـ ١»**، وأرمز إلى **عالم الخبرات الذاتية (عالم النفس) بـ «العالم ـ ٢»**، كما أرمز إلى **عالم منتجات العقل الإنسانى بـ «العالم ـ ٣»**. ويشمل هذا العالم الأخير الشعر والفن والموسيقى والتكنولوجيا والنظريات العلمية والأساطير وحكايا الأشباح... إننى أرى **أن العالم ـ ٣ إبداع جديد تمامًا، إنه انبثاق أو خلق.**

وينبغى ملاحظة أن الكثير من موضوعات (العالم ـ ٣) كالأفكار، تتجسد فى (العالم ـ ١)

(١) كتاب The Self and its Brain تأليف كارل بوبر وسير جون إكلز عالِم بيولوجيا الأعصاب الكبير والحائز على جائزة نوبل. وترجم الكتاب إلى اللغة العربية د. عادل مصطفى تحت اسم «الذات ودماغها»، وقامت بنشره دار رؤية ـ عام ٢٠١٢. **وعن هذا الكتاب أخذنا ما نطرح هنا من أفكار على لسان كارل بوبر.**

كلوحات فنية وسيارات وطائرات. كما أن بعضها يوجد بشكل مُشَفَّر، مثل التسجيلات وكل ما يُكتب باللغات المختلفة (التى هى شفرات). والبعض الآخر من موضوعات (العالم ـ ٣) قد يوجد كموضوعات للعالم ـ ٢، ومثال ذلك ما يرتبط بإبداعاتنا الفكرية من مشاعر وأحاسيس. كذلك يمكن أن يحوى العالم ـ ٣ موضوعات افتراضية لا يمكن تجسيدها ولا تشفيرها، مثال ذلك ما يُعرف بالأرقام الافتراضية التى ليس لها وجود حقيقى مثل $\sqrt{-٤}$ (١)!

طلبت من الفيلسوف الكبير أن يزيدنى إيضاحًا لفكرة التطور الخالق أو التطور الانبثاقى. فقال: **لا أنكر غموض الفكرة**، لكنى سأحاول إلقاء المزيد من الضوء عليها.

فى بداية التكوين، لم يكن فى الوجود إلا عنصرى الهيدروجين والهيليوم. فى ذلك الوقت لم يكن بمقدور عالِمٍ مُلِم بقوانين الطبيعة السارية آنذاك (لو افترضنا وجوده) أن يتنبأ بخصائص العناصر الأثقل التى لم تظهر بعد، ولا مجرد أن يتنبأ بظهورها، كما لم يكن بمقدوره التنبؤ بخصائص أو حتى بظهور أبسط الجزيئات المُرَكبة كالماء.

بعد ذلك ظهرت فى الكون بشكل متتالٍ مركبات وظواهر جديدة تمامًا، منها تَكَوُّن المركبات العضوية البسيطة من العناصر الكيميائية، ثم تَكَوُّن مركبات الحياة (جزيئات البروتين والرنا RNA والدنا DNA وأيضًا السكريات والدهون)، ثم ظهرت الكائنات وحيدة الخلية، ثم الكائنات عديدة الخلايا، ثم حدث الانتقال من التكاثر اللاجنسى إلى التكاثر الجنسى، ثم الترقى فى سلم التطور البيولوجى ونشأة الأصناف الأكثر تعقيدًا من الكائنات النباتية والحيوانية، ثم ظهور الوعى البدائى فى الحيوانات العليا، وأخيرًا نشأة الإنسان الحديث بما يتمتع به من وعى خاص وقدرات عقلية متميزة. إنى أرى **أن ظهور كل هذه المركبات والظواهر كان أمرًا غير متوقع على الإطلاق، ويستحيل التنبؤ به من خلال معرفة تركيب وتفاعل جسيمات المادة، لقد كانت كل خطوة انبثاقًا جديدًا Emergent phenomenon، بالمقارنة بالخطوة السابقة لها.**

سألت كارل بوبر: ما هو المقياس الذى تحتكم إليه لتعتبر أن وجودًا ما عمل إبداعى انبثاقى؟

أجابنى بوبر: عندما أقول إن للعالم قدرة إبداعية فإن الدليل على ذلك أننا «**كنا غير قابلين للتنبؤ بنا قبل ظهورنا**»، بل كان **يتعذر التنبؤ بانبثاق الحياة على الأرض من إدراك خصائص مكونات المادة الحية**. ومن ثم فإن (**عدم القابلية للتنبؤ**) هو المقياس الذى نحكم به على الانبثاق والإبداع الجديد:

---

(١) الجذر التربيعى للرقم (٤) هو (٢)، أما الرقم (ـ ٤) فليس له جذر تربيعى حقيقى.

سألت كارل بوبر: أنت **تتفق مع المتدينين** فى أنه لا يمكن التنبؤ بظواهر الحياة والوعى والعقل من خلال معرفة بنية العالم المادى، واعتبرتها **ظواهر جديدة تمامًا**، وبالتالى طرحت فكرة **«التطور الخالق أو التطور الانبثاقى»** وهى **مجرد** وصف لما حدث دون تفسير كيفية حدوثه، فلماذا لا تقبل التفسير البسيط والمباشر الذى يؤمن به المتدينون، وهو أن **الإله قد خلق هذه العوالم الجديدة تمامًا على عالم المادة؟**

ابتسم كارل بوبر لملاحظتى وقال: إن الفلسفة عندما تسعى لتفسير الظواهر فقد ألزمت نفسها أن يكون ذلك فى إطار ما تحت أيدينا من أسباب، وألا تلجأ إلى الأسباب الميتافيزيقية إلا إذا أعجزها تمامًا العثور على تفسيرات من عوالمنا الملموسة، أى **أن الفلسفة تجتهد فى أن تظل نظرتها إلى الكون باعتباره كونًا مغلقًا، وليس كونًا مفتوحًا للتدخلات الخارجة عنه**، كما ذكرنا من قبل.

بالطبع لم يقنعنى هذا التبرير لكارل بوبر، فأساطين الفلسفة اليونانية الثلاثة (سقراط ـ أفلاطون ـ أرسطو)، وكذلك الديكارتيون **كانوا من المؤمنين بوجود الإله** وبدوره فى عملية الخلق.

الماديون يعارضون الانبثاق

سألت كارل بوبر: إن فكرة الانبثاق قريبة جدًّا من فكرة الخلق الإلهى، فهل تَقَبَّلها الماديون أم عارضوها؟ فأجابنى قائلًا: لقد **واجهت الفكرة اعتراضات كثيرة من قِبَل الماديين.**

إن فكرة التطور «الخالق Creative» أو «الانبثاقى Emergent» بسيطة للغاية، وإن تكن آلياتها غامضة. إنها تعنى أن فى مسار نشأة الكون وتطوره تتكون أشياء أو تقع أحداث جديدة، غير قابلة للتنبؤ، وذات خواص غير متوقعة. وقد ركز المعارضون على **رفض فكرة (استحالة التنبؤ)**، وينتمى هؤلاء لثلاث مدارس رئيسية:

الأولى: المدرسة الحتمية، وقد جَسَّد لابلاس[1] رأيها بقوله: «ينبغى أن نعتبر الحالة الحاضرة للعالم نتيجة لحالته السابقة، وسبب لحالته التالية. فإذا افترضنا إمكانية معرفة جميع القوى التى تُسَيِّر الطبيعة، وحالة جميع العناصر المُكَوِّنة لها فى لحظة معينة، فبالنسبة لعقولنا لن يكون هناك أى شيء غير معلوم علم اليقين، وسيكون المستقبل، كالماضى، حاضرًا أمام عيوننا».

وأنا أرى أن لابلاس لا يستطيع أن يقدم أى دليل علمى على افتراضه هذا.

(١) لابلاس Pierre Simon Laplace: ١٧٤٩ ـ ١٨٢٧م، الرياضى والفلكى الفرنسى ـ كان معاصرًا لنابليون بونابرت.

الثانية: المذهب الذرى، الذى يرى أن الاختلاف بين الموجودات يرجع إلى الاختلاف فى تنظيم الذرات وتفاعلها، ومن ثم يمكن التنبؤ بمولد وخصائص أى منظومة محتَمَلة من خلال معرفة خصائص الذرات. وقد بينا (فى مثال الحياة) خطأ هذا المذهب، ويمكن إدراك هذا الخطأ أيضًا من تأمل الاختلافات الجوهرية بين أفكار وسلوك شخص وآخر، بالرغم من تطابق البنية والوظائف الذرية للدماغ.

الثالثة: مذهب شمول النفس، الذى طرحناه منذ قليل، وطرحنا اعتراضاتنا عليه.

وأضاف بوبر قائلًا؛ إن ما ذكرنا منذ قليل من تهاوى المادية وانهيار مفهومى الاختزال والحتمية، يُقَوِّض نقد الماديين لفكرة التطور الانبثاقى، وبذلك يثبت أن ظواهر عديدة أهمها الحياة والوعى والعقل الإنسانى، وكذلك اللغة الإنسانية، ظواهر انبثاقية جديدة تمامًا على عالم المادة.

هززت رأسى وابتسمت معجبًا بطرح كارل بوبر الذى اتسم بالوضوح والتبسيط لقضايا فلسفية وفيزيائية شديدة التعقيد، وهذا دائمًا شأن الكبار الذين يُلِمون جيدًا بأبعاد تخصصاتهم. ثم انتقلنا إلى المرحلة التالية من الحوار:

مع كارل بوبر
وتسلسل النظرة إلى الذات الإنسانية

قلت لكارل بوبر: سيدى، لقد أكدتَ ارتباط نظرة العقل للذات الإنسانية بنظرته للمادة، ثم أثبتَ تهاوى النظرة المادية الجذرية للوجود وللإنسان. لقد آن الأوان لمناقشة تطور نظرة العقل البشرى للذات الإنسانية.

ثنائية الروح والجسم قبل التاريخ

قال بوبر: لتكن بدايتنا موغلة فى القِدَم بقدر ما يسمح العلم؛ نستطيع أن نرصد إدراك **إنسان نياندرتال**[1]، الذى ظهر منذ قرابة ٢٠٠,٠٠٠ سنة، لثنائية الروح ـ الجسم. فعادات الدفن التى مارسها هؤلاء تؤكد أنهم كانوا يعتقدون فى البعث بعد الموت، إذ كانوا يدفنون مع موتاهم عطايا يرونها مفيدة فى الرحلة إلى عالم آخر. فقد عُثر فى كهف شانيدار فى شمال

(١) **إنسان نياندرتال Homo - neandertalis**، آخر أنواع الجنس البشرى ظهورًا قبل الإنسان العاقل الحديث، وقد عاصره أسلافنا لفترة ٣٠,٠٠٠ سنة قبل أن ينقرض منذ قرابة ٣٥,٠٠٠ سنة.

العراق على مقبرة دُفن فيها أحدهم على فراش من أغصان مزين بالزهور، كما عُثر على هيكلين عظميين لإنسانين مُعَوَّقين، يظهر من رقدتهما أن جماعتهما كانت تحتملهما وتساعدهما فى هذه الحياة وتعدهما للحياة الأخرى.

كما تظهر ثنائية الروح والجسم المادى وتفاعلهما فى **الديانات البدائية والأساطير والمعتقدات السحرية**. ففى **الشامانية**[1] نجد أن روح الشامان يمكن أن تترك الجسم وتذهب فى رحلة، وعند الأسكيمو تذهب الروح إلى القمر بينما يبقى الجسم فى نوم عميق أو غيبوبة حيًّا دون طعام.

وأضاف بوبر: وفى أقدم مصادرنا الأدبية وبخاصة عند **هوميروس**[2]، نجد ثنائية الجسم والعقل واضحة. فنجد الكثير من الألفاظ التى تشير إلى الروح/ العقل/ الوعى، كالشعور والإدراك والتفكير. وهناك أوصاف للروح بأنها طيف أو شبح ذو شكل مماثل للجسم، ولكنها أرق منه وأقل مادية، فهى كالبخار أو النَفَس[3]، أى أنها أشبه بالهواء.

ويمكن أن نعتبر أن الأساطير والملاحم والمعتقدات الدينية البدائية هى محاولات لتفسير العالم الذى نعيش فيه، ولتفسير تفاعلنا مع هذا العالم. ومنها ندرك أن الإنسان البدائى قد **وَعَى ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم** عندما نظر إلى نفسه، وأنه اعتبر أن **الروح هى محرك الجسم وسر حياته**.

جولة حضارية وفلسفية

قلت لكارل بوبر، أراك ـ سيدى ـ فى حديثك عن نظرة العقل للذات الإنسانية، قد انتقلت من الحديث عن الحضارات البدائية إلى الحديث عن هوميروس، **وأغفلت مفاهيم حضارات راسخة** سادت قبل هوميروس وقبل الفلسفة اليونانية، كالحضارة المصرية القديمة، وحضارات بين النهرين، وحضارات الهند والصين وأمريكا الجنوبية، فلماذا؟

أجابنى بوبر: تُعتبر نظرة الإنسان لذاته فى الحضارات التى ذكرتها **مزيج من نظرة العقل**

(١) **الشامانية Shamanism**: ظاهرة دينية نشأت فى التبت، وموجودة فى أنقى أشكالها فى سيبريا وآسيا الوسطى وعند السكان الأصليين بالأمريكتين. والشامان سحرة دينيون يقولون إن لديهم القدرة على السيطرة على الأرواح ومعالجة المرضى والتواصل مع الموتى، ويؤمنون بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف.

(٢) **هوميروس Homer**: شاعر ملحمى إغريقى، يُعتقد أنه مؤلف ملحمتى الإلياذة والأوديسة اللتين تدوران حول حروب طروادة ـ ربما عاش عام ٨٥٠ ق. م. تقريبًا.

(٣) جاء ذكر الروح/ العقل عند هوميروس بثلاثة ألفاظ: **تايموس** Thymos: قوام الروح ـ الروح البخارى ـ المادة النشطة الفعالة الشاعرة المفكرة المرتبطة بالدم، وهى تتركنا حين يُغمَى علينا أو مع النَفَس الأخير قبل الموت.
سايك Psyche: وهى البقية التعسة التى تبقى عندما نموت، أو الشبح غير المفكر الذى يبقى بعد الموت.
نوس noos – nous: وهى تقابل العقل mind أو الفهم understanding

والفكر الديني، أما أكمل محاولات النظر العقلي إلى الذات الإنسانية بمعزل عن الديانات فنراها في الفلسفة اليونانية، التي يمكن الرجوع بميلادها إلى القرن السادس قبل الميلاد على يدي **طاليس**[1] **اليوناني**. فهذه الفلسفة هي الأولى في التاريخ التي تفرغ فيها أصحاب العقول الحكيمة للتأمل في الوجود وفي النفس البشرية، حيث تركت طبقية المجتمع لفئات أخرى المهام العسكرية والحِرَفية والخِدَمِّية.

ويمكن التأريخ لنهاية الفلسفة اليونانية **بشيوع الفكر المسيحي في القرن السادس الميلادي**، فمنذ ذلك الحين اصطبغت الفلسفة بالفكر الديني ولم تعد عملًا عقليًّا مجردًا، وظلت على هذا الحال حتى نهاية العصور الوسطى في أوروبا، قبل أن تعود - مرة أخرى - عملًا وعقليًّا مجردًا في ظل الفلسفة الحديثة على يَدَىَّ **رينيه ديكارت**.

ولا شك أنك تعلم **أن الفلسفة الإسلامية** لم تكن عملًا عقليًّا رائدًا، كما لم تكن طرحًا للقضايا الوجودية بالمنظور الإسلامي الصحيح، لكنها كانت محاولة للتوفيق بين الفلسفة اليونانية - خاصة مفاهيم أرسطو وأفلوطين[2] - وبين المنظور الإسلامي، ويرجع ذلك إلى تأثر - بل انبهار - الفلاسفة المسلمين بهاتين القمتين. أما الفلسفة الإسلامية الخالصة فتجدها في **علم الكلام ورسائل إخوان الصفا**.

وأضاف بوبر: لذلك فسأكتفي في طرحي لنظرة العقل (الفلسفة) للذات الإنسانية على جتهادات **الفلاسفة اليونانيين ثم الفلاسفة المعاصرين**، وذلك لقصر الطرح على إنجاز العقل البشري المجرد في هذا المجال. ولا شك أن الإحاطة بهاتين المرحلتين أمر مستحيل، لذلك سيقتصر طرحي على بعض النماذج التي تمثل **محطات هامة** في مسار الفكر الإنساني.

وافقت كارل بوبر على رؤيته لمسار الفلسفة، وقلت له: فلنبدأ بالفلسفة اليونانية التي تعتبرها الرائدة في النظر العقلي الصِرْف للذات الإنسانية.

---

(١) **طاليس Thales** (٦٢٤ - ٥٤٦ ق. م.).

(٢) **فيلسوف الإسكندرية أفلوطين** (٢٠٤ - ٢٦٩م)، يُعرف منهجه بالأفلاطونية الحديثة التي مزج فيها بين فلسفة أفلاطون اليوناني وبين الفكر المسيحي.

وعندما تصدى أفلوطين لكيفية الخلق، تردّى في هوة من الأوهام حين رأى أن الله لا يمكن أن يخلق العالم مباشرة، لأنه لو خلقه مباشرة لاضطر للاتصال به، وهو منزه عن ذلك، كما أن الواحد لا يصدر عنه العالم المتعدد! وللخروج من هذا المأزق طرح **نظرية الفيض وتعدد الوسائط**؛ فهو يرى أن تفكير الله في نفسه فاض عنه (العقل)، ومن العقل انبثقت (نفس العالم)، ومنها انبثقت (النفوس البشرية) كما انبثقت (الطبيعة). بذلك تصبح نفس العالم وسيط بين العقل وبين العالم المحسوس. لقد أخذ كبار الفلاسفة الإسلاميين الكثير عن أفلوطين، فتجد فلسفاتهم مليئة بهذه الترهات (الفيض - الانبثاق - العقول - النفوس - ...) التي ليس لها أي أصل إسلامي. ويطلق الفلاسفة الإسلاميين على الأفلاطونية الحديثة اسم مذهب (الإسكندرانيين) ويسمون أفلوطين (**الشيخ اليوناني**).

الفلسفة اليونانية[1]

بدأ كارل بوبر عرضه لنظرة الفلسفة اليونانية للذات الإنسانية بقوله: لقد تميزت نظرة الإنسان لذاته فى معظم مراحل الفلسفة اليونانية **بإدراك ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم**، وإن كانت هذه الثنائية قد مرت ـ فى تفاصيلها ـ **بثلاث مراحل**:

(١) **الفلسفة اليونانية**: يؤرخ المؤرخون لبداية الفلسفة اليونانية بالفيلسوف **طاليس** فى القرن السادس قبل الميلاد، ويحددون نهايتها بالقرن السادس ميلاديًّا حين انتشرت المسيحية.

ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى أربع مراحل.

المرحلة الأولى: ما قبل سقراط. وكانت الفلسفة فيها تعنى بدراسة الكون الطبيعى الملموس.

المرحلة الثانية: عصر السوفسطائين وسقراط. وفيه بدأ السوفسطائيون تعليم الناس التغلب على الخصم بالحق وبالباطل. وكانوا يُحَقِّرون العقل ويعتمدون على براهين الحواس، ثم وصل بهم الأمر إلى إنكار المحسوسات ثم إنكار الإنسان لنفسه! وقام سقراط بمحاربة هذه المدرسة والقضاء عليها وإعادة الاحترام للعقل.

المرحلة الثالثة: مرحلة أفلاطون وأرسطو. نشط فيها الاهتمام بالغيبيات والإلهيات وعالم ما وراء الطبيعة.

المرحلة الرابعة: مرحلة ما بعد أرسطو. وفيها انتقلت الفلسفة من البحث فى الغيبيات إلى البحث العملى فى الإنسان (أخلاقه ـ سعادته ـ سلوكه). ونشطت فى هذه المرحلة مدرستان: **الرواقيون**، وكانوا من الشكاكين فى مسائل الألوهية، والشكاكين فى قدرة العقل على التمييز بين الحق والباطل. **والأبيقوريون**، الذين أعادوا الاهتمام إلى الإدراك الحسى، واعتبروا السعادة هى الحصول على اللذة الحسية. ويُنظر إلى المرحلة الرابعة كمرحلة تدهور واضمحلال.

ويمثل أرسطو وأفلاطون وسقراط **الثالوث الفلسفى الأعظم فى الفلسفة اليونانية القديمة**، وكان الثلاثة من الفلاسفة المؤلَّهة، وكان أرسطو تلميذًا لأفلاطون، الذى كان تلميذًا لسقراط.

أرسطو Aristotle: (٣٨٤ ق. م. ـ ٣٢٢ ق. م). من أعظم الفلاسفة عبر العصور، يلقب بالمعلم الأول، وكان أستاذًا للإسكندر الأكبر. إبداعاته فى المجالات العلمية (الفيزياء ـ الفلك ـ البيولوجيا) تنافس إبداعاته فى العلوم الإنسانية (الفلسفة ـ السياسة ـ الأخلاق ـ المسرح ـ الموسيقى ـ الإلهيات). وهو واضع أسس القياس فى علم المنطق؛ لذلك عُرِف بالقياس الأرسطى. وقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى الأفكار العلمية لأرسطو، ووضعتها فى منزلة مقدسة لا يجوز للعلماء الخروج عنها، وكان ذلك سبب ما واجه جاليليو وغيره من العلماء من اضطهاد كَنَسى.

أفلاطون Plato: (٤٢٨ ق. م ـ ٣٤٧ ق. م). فيلسوف اليونان العظيم المهتم بالأخلاق والـمُثل العليا، وقد عبر عما ينبغى أن تكون عليه حياة الناس فى المدينة الفاضلة فى كتابه «الجمهورية». وهو مؤسس أكاديمية أثينا، التى تُعتبر أول مدرسة للدراسات العليا فى الغرب القديم. وله اهتمام بالرياضيات. كما دَوَّن محاوراته مع أستاذه سقراط بأسلوب نقل إلينا أفكارهما، ولولا هذه المحاورات ما نقل التاريخ لنا شيئًا عن سقراط.

سقراط Socrates: (٤٧٠ ق. م ـ ٣٩٩ ق. م). صاحب إضافة عظيمة للفلسفة، فبعد أن كانت تقتصر على دراسة الأصل المادى للكون والحياة (التراب ـ الماء ـ الهواء ـ النار)، أضاف إليها الاهتمام بالأخلاق والقيم العليا. وأعاد الاحترام للعقل. وله اهتمام كبير بالمنطق وأصول المعرفة. سجل له التاريخ موقفه الشهير عندما حكمت عليه محكمة أثينا بالإعدام عن طريق تجرع السم، بتهمة إفساد عقول الشباب!! فرفض الهرب من السجن بالرغم من الفرصة المتاحة، حتى يعطى الشباب القدوة فى الامتثال لنظام الدولة، التى قَبِل أن يحيا تحت قانونها، ولأنه يؤمن بأن الفيلسوف لا ينبغى أن يخاف من الموت الذى يحرر الروح من سجن الجسد.

المرحلة الأولى: الروح/ العقل موجود مادى

بالرغم من أن فلاسفة هذه المرحلة نظروا إلى الروح نظرة مادية، إلا أنهم وضعوها فى **منزلة استثنائية داخل العالم المادى**. فهذا **أنكسيمينيس**(١) يرى أن **الروح نَفَس بخارى**، وأنها هواء يدخل من «الكُل» إلى داخل الحيوانات عندما يتنفسون، وكلمة **«الكُل»** تعنى أن **العالم متشرب بخامة روحية واحدة**. وقد اختارت هذه المدرسة أن تكون **الروح جزءًا من الهواء**؛ لأنه الأرهف والأخف بين الأشكال المعروفة للمادة.

وكان **أنكساجوراس**(٢) يميز تمييزًا حادًا بين العقل وبين جميع الجواهر المادية الأخرى. فهو يرى أن العقل هو أكثر الأشياء تخلخلًا وأكثرها نقاءً، وأن **لديه المعرفة المتصلة بكل شىء، بل هو المتحكم فى كل ذى حياة**.

وقد فسر **هيراقليطس**(٣) (أبعد الماديين عن النظرة الميكانيكية) الجواهر المادية جميعًا (وبخاصة الروح) باعتبارها «**عمليات مادية** Material processes»؛ فجميع الأشياء المادية فى تدفق دائب يحكمه القانون (Logos). وقد نظر إلى الروح باعتبارها **نارًا**، فالنار هى الأفضل والأقوى والأنقى والأرهف.

وتمسكت مدرسة **المفكرين الطبيين** بمادية وثنائية الروح/ العقل - الجسد. ويُعتبر **ألكميون**(٤) أول مفكر إغريقى يحدد موضع الإحساس والفكر (اللذين يميز بينهما تمييزًا حادًا) فى **الدماغ**(٥). كما تحدث عن مسارات تؤدى من أعضاء الحس إلى الدماغ.

وتُعتبر **رسالة أبقراط الطبية**(٦) بعنوان «عن المرض المقدس On the Sacred disease» هى الأهم فى هذا الشأن، ففيها يؤكد أن **الدماغ** تخبر الأعضاء **كيف تعمل**، وأن الدماغ هو الرسول إلى الوعى(٧)، وأن الهواء (الروح) هو الذى يمنح الدماغ الذكاء.

(١) **أنكسيمينيس Anaximenes**: (٥٨٥ - ٥٢٨ ق. م).
(٢) **أنكساجوراس Anaxagoras**: (٥٠٠ - ٤٢٨ ق. م).
(٣) **هيراقليطس Heraclitus**: (٥٣٥ - ٤٧٥ ق. م).
(٤) **ألكميون من كروتون Alcmaeon of croton**: فيلسوف وطبيب يونانى (٥١٠ - ؟ ق. م).
(٥) تمسكت بهذا المفهوم مدرستى أبقراط وأفلاطون، أما أرسطو فقد تمسك بمفهوم أقدم، فاعتبر أن القلب هو جهاز الحس العام، وبالتالى هو مركز الوعى، واعتبر أن دور الدماغ هو تبريد الدم باستخدام الهواء (مثل رادياتور السيارة).
(٦) **أبقراط Hippocrates**: الطبيب اليونانى العظيم (٤٦٠ - ٣٧٠ ق. م). يلقب بأبى الأطباء لتأسيسه علوم الطب على المنهج العلمى. ووضع قسم أبقراط الذى يؤديه الأطباء حتى الآن عند ممارستهم للمهنة، مؤكدين التزامهم الأخلاقى تجاه المرضى وزملائهم ومهنتهم.
(٧) الكلمة المقابلة للوعى هى sunesis، وتُترجم نفس الكلمة أيضًا إلى الذكاء والحكمة والفهم.

النظرية الذرية

ولا يمكن دراسة النظرة المادية لثنائية الروح/ العقل ـ الجسم دون الاستماع لكلمة **ديمقريطس**[1] صاحب **النظرية الذرية**، فهو الأعظم والأكثر اتساقًا بين المفكرين الماديين. وقد فسر جميع العمليات الطبيعية والجسدية والعقلية والنفسية **تفسيرًا ميكانيكيًّا** يعتمد على حركة الذرات واصطدامها، وعلى اتحادها (تركيبها) وانفصالها (تفكيكها). ويرفض ديمقريطس تمييز الروح بأصل مختلف عن الجسم كالهواء أو النار، ويرى (من خلال فيزيائه الذرية) أن **الروح تتكون من أصغر الذرات المادية**، وهى مستديرة وقادرة على الانسياب خلال أى شىء، وقادرة على تحريك الذرات الأخرى عن طريق اصطدامها بها.

ويرى ديمقريطس أن ذرات الروح تتوزع فى كل أجزاء الجسم، وأن للروح جزأين؛ الأول هو العاقل وموقعه **القلب**، بينما يتفرق الجزء الآخر فى **باقى الجسم**.

سألت بوبر: ذكرت فى بداية حديثك عن الفلسفة اليونانية أن فلاسفتها يؤمنون بثنائية الروح/ العقل ـ الجسم، ألا ترى فى النظرية الذرية لديمقريطس نوعًا من الواحدية؟

ابتسم بوبر وقال: صحيح أن **ديمقريطس كان ماديًّا ذريًّا أُحاديًّا**، لكنه فى نفس الوقت كان **يتبنى نوعًا من الثنائية!** انظر إليه وهو يخص العقل/ القلب بجزء معين من الروح، كما يطالب بأن يهتم البشر بوضع قانون (أو تصور أو نظرية) عن الروح أكثر من اهتمامهم بقوانين الجسد، ذلك لأن كمال الروح يُصلح خلل الجسد، ولكن القوة الجسدية بدون تعقل لا تُصلح الروح. وكان يقول؛ مَن اختار خيرات الروح فقد اختار ما هو الأكثر ألوهية، ومن اختار خيرات الجسد فقد اختار الأكثر بشرية، وكان يُعَلِّم تلاميذه أن مَن ارتكب ظلمًا هو أكثر تعاسة ممن يقع عليه الظلم.

المرحلة الثانية: إضفاء الصبغة اللامادية على الروح/ العقل

إذا كانت المذاهب السابقة ترى أن ماهية[2] الروح هى جوهر مادى، فقد نظرت مذاهب لاحقة إلى الروح باعتبارها **لا جسمية**. وربما كانت أكثر الماهيات بُعدًا عن الجسمية هى ما تطرحه «**النظرية الفيثاغورثية**»[3].

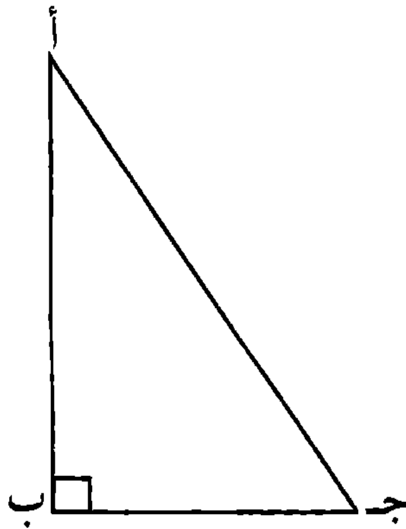
(١) **ديمقريطس Democritus**: فيلسوف يونانى (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق. م).

(٢) «**ماهية» الشىء Essence** هى طبيعة الشىء. أى ما يتعين أن يكون عليه الشىء ليكون هو، أو ليكون من النوع الذى هو منه.

(٣) تُنسب إلى الفيلسوف والرياضى اليونانى الكبير فيثاغورس Pythagorus (٥٨٠ ـ ٤٩٧ ق. م)، وقد درس فى مصر سنوات عديدة.

ففى هذه النظرية، تأخذ **الأعداد والعلاقات بينها** (كالنسب Ratios والتآلفات Harmonies) مكان الأصول الجوهرية فى المدارس المادية (كالهواء والنار)، وهذا تغير جذرى.

ولتبسيط هذا المعنى نشير إلى **النظرية الفيثاغورثية الرياضية الخاصة بالمثلث قائم الزاوية،** فهـى تنص على أن مجموع مربعى ضلعى المثلث يسـاوى مربع الوتر: (أ ب)^{٢} + (ب جـ)^{٢} = (أ جـ)^{٢}.



فعلى سبيل المثال (٤)^{٢} + (٣)^{٢} = (٥)^{٢}.

١٦ + ٩ = ٢٥

إن هذه العلاقة الرياضية هى «**الحقيقة الجوهرية**» وراء **المثلث قائم الزاوية**، وبدونها ما كان لهذا المثلث وجود. ونفس الشىء يقال عن **الأنغام الموسيقية** التى تحددها تخانات وأطوال الأوتار، وكذلك الأوزان الشعرية.

لذلك يرى الفيثاغورثيون **أن الحقيقة بصفة عامة هى العدد، وأن النسب والعلاقات الرياضية بين الأعداد هى مصدر الظواهر والأشياء الطبيعية**. أى **أن الموجودات الطبيعية مجرد محاكاة للأعداد الحقيقية**. وبعبارة أخرى؛ **تُصَب الموجودات الطبيعية فى قوالب رياضية تشكل ماهيتها**. وعلى ذلك فإن **المبادئ الرياضية هى القوانين التى تنظم الطبيعة وتتحكم فيها**. ومن ثم **لا يمكننا تفسير الطبيعة المادية للوجود إلا من خلال الرموز الرياضية.**

وعند تطبيق هذا المفهوم على **الروح**، تقابلنا نظريتان اندرجتا تحت اسم الفيثاغورثية. الأولى، ترى أن الروح الخالدة للإنسان هى تآلف أو تناغم لأعداد مجردة، وأن هذه الأعداد وعلاقاتها **سابقة على الجسد وباقية من بعده**[١]. وترى النظرية الثانية أن الروح هى **تآلف أو تناغم للجسد** مثل تآلف أو تناغم أوتار القيثارة[٢].

ويمكن النظر إلى هاتين النظريتين باعتبارهما متكاملتين وتصفان نوعين من الروح؛ الأولى تصف **روحًا خالدًا أعلى**، والأخرى **روحًا أدنى يرتبط بالجسد.**

وتبعًا لمفهوم الفيثاغورثيين، يمكن تصور أن **الجسد يتم تشكيله بناء على صورة مسبقة تحددها الروح** (تآلف ونسب الأعداد).

---

(١) تنسب هذه النظرية لفيثاغورث نفسه، أو لـ فيلولاوس الفيثاغورثى المعاصر لديمقريطس وسقراط.
(٢) تنسب هذه النظرية إلى سيمياس من تلامذة فيلولاوس.

ويشارك الفيثاغورثيين النظر إلى الروح/العقل، باعتبارها **ماهية لا جسمية**، كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين والقديس أوغسطين وغيرهم من المفكرين الدينيين والديكارتيين.

بين أفلاطون وأرسطو

وأضاف بوبر: وإذا كانت **الروح** عند الفيثاغوريين هي العلاقات بين الأعداد، فإن **الروح عند أفلاطون هي الماهية التي يتشكل تبعًا لهيئتها وقوانينها الجسد**، وتعرف هذه الماهية عند أفلاطون **بالصور أو الأفكار أو المُثُل**. ونظرية **أرسطو** للروح قريبة من ذلك، فهو يصف الروح بأنه **كمالٌ أول للجسم الحي**، والكمال الأول هو تقريبًا صورته أو ماهيته. والفرق الرئيسي بين النظريتين أن الروح عند أرسطو يكدح تجاه غاية وهدف يسعى نحو الكمال. أما الروح عند أفلاطون فقد خلقه الله على أفضل ما يكون، ومن ثم لا يسعى نحو شيء أفضل، أي أنه روح محافظ[1].

أما عن **علاقة الروح/ العقل - الجسم** فينظر إليها أفلاطون من **زاوية أخلاقية وليست ميكانيكية**. فهو يعتبر أن الجسم بمثابة سجن للروح، وفي نفس الوقت ينبغي أن يكون الروح/ العقل حاكمًا على الجسم وشهواته، وفي النهاية يصف أفلاطون الروح بأنه رُبَّان الجسم.

وفي علاقة الروح/ العقل - الجسم **يستلهم أرسطو البيولوجيا وليس الأخلاق**، فهو يرى وجود **التفاعل** بين وعينا الذاتي وبين أحاسيسنا الجسمية، وكذلك بين الغرائز (الأجزاء الدنيا غير العاقلة من الروح) وبين العقل (الأجزاء العليا من الروح).

والمدهش، أن أفكار أرسطو تَسْتَبِق - في بعض النواحي - **التطور البيولوجي**. فهو يحدد ثلاث مستويات للروح؛ **الروح الغاذية** الموجودة في كل الكائنات ابتداء من النباتات، **والروح الحاسة** التي هي مصدر الحركة والموجودة في كل الحيوانات، **والروح العاقلة** التي لا توجد إلا في الإنسان، وهذه الأخيرة واعية بذاتها وخالدة. أي أنه يقول بروح تتطور مع تَعَقُّد الكائنات.

ثالثًا: التصور الأخلاقي للروح/ العقل

في تطور النظرة إلى الروح والعقل والنفس يلعب تطور النظرة الأخلاقية دورًا عظيمًا.

فعند هوميروس، تقابلنا مشكلة. فالروح الخالدة للأفراد العاديين **تحيا في وضع فظيع محبط**، إنها تُعاقَب من غير جرم، وتعاني لا لشيء، إلا لأن المعاناة جزء من كونها ميتة.

(١) يجمع التصور الإسلامي بين النظرتين. فالروح الذي يسعى نحو الكمال عند أرسطو يقابله (النفس)، أما روح أفلاطون الذي خلقه الله على أفضل ما يكون فيقابله (الروح) الذي هو نفخة إلهية.

وقد أدت **الديانة الأورفية**[1] إلى تغير هذا الاعتقاد، فصار هناك وعد بعالم أفضل لمن آمن بالدين الحق ومارس الطقوس الصحيحة. ومع **سقراط وديمقريطس** تتأكد الفكرة وتتسامى النظرة، حيث **يؤتَى الفعل الأخلاقى من أجل ذاته فحسب**، فهو ليس ثمنًا يُدفع من أجل مقابل موعود فى حياة قادمة. وقد أدرك سقراط بوضوح أن المادية لا تتعارض مع التعاليم الأخلاقية والإنسانية المستنيرة، وقد أثبت ذلك حين آثر أن يموت بشرب السم كما حكم عليه قضاة أثينا على أن يفر من السجن ويولى الأدبار.

وقد انعكس هذا الموقف الأخلاقى على **أفكار الفيثاغورثيين**، فهم يؤمنون ببقاء الروح وتناسخها أو مسخها. فالروح تُكافأ أو تُعاقَب على فعلها تبعًا لسلوكها الحياتى. أما عند أرسطو، فيتلخص البُعد الأخلاقى للعلاقة بين الروح/ العقل ـ الجسم فى قوله: أَيَّما تَغَيُّر يعترى حالة النفس فإنه يفضى إلى تغير فى شكل الجسد، والعكس صحيح.

وختم بوبر حديثه عن الفلسفة اليونانية قائلًا: إذا أردنا **أن نُلَخِّص نظرة الفلسفة اليونانية للذات الإنسانية**، وجدنا معظم الفلاسفة يعتبرونها **بنية ثنائية من روح/ عقل وجسم**. وإذا كان لا اختلاف فى نظرتهم إلى الجسد باعتباره مكون مادى، فقد **تراوحت نظرتهم للروح ما بين المادية واللامادية**. كما يوجد بين هذين المكونين **تأثير متبادل وعلاقة تفاعلية** غير ميكانيكية، باستثناء الفلاسفة الذريين الذين اعتبروا هذا التفاعل تفاعلًا ميكانيكيًّا.

الفلسفة الحديثة[2] Modern philosophy

قلت لكارل بوبر؛ ذكرت أنك بعد الحديث عن الفلسفة اليونانية، ستحدثنا عن بعض النماذج التى اهتمت بقضيتنا فى الفلسفة الحديثة، فأيها ستختار؟

قال بوبر: من السمات البارزة للفلسفة الحديثة **شدة تباين اجتهادات فلاسفتها**، فتراوحت ما بين مادى مُغْرِق فى المادية، وروحانى مغرق فى الروحانية، وهناك مَن لم يكتف بإنكار وجود الروح/ العقل بل شطح إلى إنكار وجود نفسه بالكلية. لذلك سأحدثك عن شخصيات قَدَّمت إسهامات مهمة باقية فى مجال الذات الإنسانية.

(١) الديانة الأورفية Orphism: مجموعة من المعتقدات الدينية اليونانية القديمة، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد. وقد صاغ الشاعر أورفيس هذه المعتقدات فى قصائده، فنسبت إلى اسمه.

(٢) ظهرت الفلسفة الحديثة فى أوروبا الغربية فى القرن السابع عشر، ويعتبر رينيه ديكارت هو مؤسسها، وتنتهى فى بدايات القرن العشرين، حين أُستُبدلت بفلسفة ما بعد الحداثة Post - Modernism، التى أسسها الفيلسوف الألمانى لودويج ودجنشتين Ludwig Wittgenstein. وتشمل الفلسفة الحديثة عددًا من المدارس، منها المادية الجذرية، والعقلانية، والمثالية، والتجريبية، والوجودية،...

مبدأ التفاعل لديكارت R. Descartes

وأضاف بوبر؛ إن الدارس للفلسفة الغربية الحديثة لا بد أن يكون مدخله عبر مؤسسها وبوابتها الرئيسية، وأبو الفلسفة العقلانية، **الفيلسوف الأشهر رينيه ديكارت**[1].

وإذا بدأنا عرضنا **بكوزمولوجيا ديكارت (نظرته إلى الكون)** نجد أنه ينظر إلى العالم بوصفه **آلة ميكانيكية أوتوماتيكية ضخمة ذات ترس**، وأن جميع النباتات والحيوانات جزء من هذه الآلية الميكانيكية.

ويرى ديكارت أن **الجسد الإنسانى** يتميز على هذه الآلية بأن له **حركة إرادية**، وينظر إلى **العقل الإنسانى باعتباره الاستثناء الوحيد فى العالم كموجود لا مادى قادر على التحكم فى حركات الجسم المادية، وقادر أيضًا على إدراك القوى الفيزيائية المادية** (الضوء والصوت والملموسات..)، لذلك يعتبر ديكارت أن **الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتمتع بحياة حقيقية**.

أما بخصوص مشكلة التفاعل بين الروح/ العقل والجسم، وكيف يتسنى لوجود غير مادى أن يؤثر فى عالم مادى يعمل بآليات عمل الساعة ويعتمد على الدفع الميكانيكى، يطرح ديكارت ما يُعرف بـ «**مبدأ التفاعل**». يبدأ ديكارت طرحه بأن يُعَرِّف **الجسم (المادة)** بأنه شىء **ممتد فى المكان ثلاثى الأبعاد**، أما **العقل غير المادى فهو غير ممتد لكنه متموضع فى المكان**. ومن ثم **فالنفس** ـ عند ديكارت ـ جوهر مفكر يتموضع فى الغدة الصنوبرية، ويتحكم فى **الروح الحيوانى** (الذى هو جزء من الجهاز الجسمى الميكانيكى). وهذه الروح عبارة عن سوائل من صنف نادر جدًّا يقوم فى الحيوانات والإنسان بالكثير من العمل الآلى للدماغ، وينتقل فى الأعصاب ليربط الدماغ بأعضاء الحس والعضلات والأطراف. ويمكن النظر لهذا التصور كاستباق من ديكارت لمفهوم الإشارات العصبية الكهربائية.

وفى نفس الوقت يعترف ديكارت بأننا لا نستطيع أن نعرف كيف يتم هذا التواصل بين الروح والمادة، وبالتالى يؤكد أنه **آية من آيات الخلاق الحكيم القادر**.

قلت لبوبر: لا شك أن معظم الفلاسفة قد تلقوا مبدأ التفاعل لديكارت بالقبول، أولًا لوجاهته العقلية، وثانيًا لمنزلة ديكارت عندهم. لكن هل ثَمَّ مُعترِض؟

(١) **رينيه ديكارت Rene Descartes**: الفيلسوف الفرنسى الكاثوليكى (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م). يتبنى (مع سبينوزا وليبنتز) الفلسفة العقلانية (المنطقية) Ratisnalism. وإسهاماته فى الرياضيات لا تقل عن إسهاماته فى الفلسفة. ويُعد أبو الفلسفة الحديثة، حتى إن كل فيلسوف جاء بعد ديكارت ـ وحتى الآن ـ تأثر به إيجابًا أو سلبًا، وكلهم يرددون مفاهيم ديكارتية مؤيدين أو معترضين. وقد اشتهر عنه قوله (أنا أفكر ـ إذًا أنا موجود).

أجابنى بوبر: كان هناك من رَأَى **استحالة التفاعل بين الروح (كجوهر لا مادى)** والجسم (**كجوهر مادى**). وقد رد ديكارت هذا الاعتراض بأن استحالة التفاعل بين جوهرين مختلفين افتراض **زائف لا يمكن إثباته** بأية وسيلة كانت. كما تصدى بعض الديكارتيين لهذا الاعتراض بأن الله يتدخل بشكل مباشر فى بعض المواقف (المناسبات) لإنجاز بعض المهام، ومنها هذا الموقف. ويُطلق على هذا التفسير «**مبدأ المناسبة occasionalism**».[1] والفيزياء الحديثة فى جانب رأى ديكارت، إذ أثبتت أن الأجسام تؤثر فى بعضها من خلال وسيط هو مجالات الطاقة (حقول Fields)، فالجسم يُعَدِّل فى المجالات المحيطة، عندئذ يؤثر المجال المُعَدَّل على جسم آخر، وهكذا. أى أنه **ليس ضروريًّا أن يقتصر التأثير على المتشابهات**، كما اعتقد منتقدو ديكارت.

قلت للفيلسوف الكبير؛ أرى جوانب شبه كثيرة فى نَظْرَتَىّ ديكارت وسلفه العظيم أرسطو تجاه الكون والإنسان، فهل توافقنى على ذلك؟

أجابنى بوبر: لا شك أن كلا الفيلسوفين الكبيرين يتفقان فى جوانب ويختلفان فى جوانب، فهما يتفقان فى قولهما بمذهب لا مادية الروح ومذهب التفاعل المتبادل بين الروح/ العقل والجسم، وأيضًا فى أخذهما بفكرة التفسير الماهوى[2]. أما بالنسبة لجوانب الاختلاف، فإن عالم ديكارت **عالم ميكانيكى لا حياة فيه** (حتى النباتات والحيوانات)، والاستثناء الوحيد هو **الإنسان** الذى يتمتع بحياة حقيقية. أما عالم أرسطو فيسعى كله (الجمادات ـ النباتات ـ الحيوانات ـ الإنسان) **نحو أهداف وغايات**.

منهج ديكارت لمعرفة الإنسان لذاته وللإله

قلت لبوبر، نسمع كثيرًا قولًا يُنسب لديكارت، وهو (**أنا أفكر ـ إذًا أنا موجود**)، فما مدى حجية هذا البرهان وكيف توصل إليه؟

أجابنى بوبر: عندما نظر ديكارت إلى **وسائل المعرفة**، رأى أنها عبارة عن **الحواس الخمس** التى تُدرِك المحسوسات، وكذلك **العقل** الذى تُدرَك به المعقولات. ووجد أن الحواس والعقل كثيرًا ما يخطآن، ومن ثم لم يبق لنا وسائل نثق بها ونعتمد عليها فى معرفة الحقيقة. بعد هذا **الشك فى وسائل المعرفة**، عاد ديكارت **وجعل من البرهان على الشك برهانًا على اليقين**، وعَبَّر

(١) من الفلاسفة القائلين بذلك: جلوبرج كورديموى ـ دى لافورج ـ مالبرانش.

(٢) **التفسير الماهوى**: نسبة إلى ماهية الشىء، وهى طبيعته. والمقصود منه أن الشىء يحمل الصفات التى تحدد طبيعته.

عن ذلك ببيان ساحر وحجة بالغة حين قال: مهما شككتُ فى حواسى وعقلى، وشككتُ فى وجود العالم فإنه ستبقى لى حقيقة واحدة لا يمكن الشك فيها، بل إنها تزداد يقينًا كلما ازددت شكًا، وهذه الحقيقة هى «**أننى أشك**»، والشك تفكير، إذًا **أنا أفكر**. والتفكير لا يكون إلا من **ذات مفكرة، التى هى أنا**، وحتى لو حاولت أن أشك فى أنى أفكر، **فهذا الشك نفسه دليل على أنى أفكر**. ولما كان التفكير يحتاج إلى وجود ذات مفكرة، إذًا فإدراكى العقلى بأنى موجود إدراك صادق، مثلما أن إحساسى بأنى موجود إحساس صادق.

من هذه القاعدة (أنا أفكر ـ إذًا أنا موجود)[1] أثبت ديكارت **صدق الحواس وصدق العقل، ومن ثَمَّ أثبت وجود الذات الإنسانية**.

ويضيف ديكارت **دليلًا آخر على وجود الذات الإنسانية** من خلال **تقسيمه للأفكار** إلى ثلاثة أقسام: **أفكار مباشرة** تتجمع لدينا بشكل مباشر من المُدرَكات الخارجية للحواس، بدون إعمال الذهن. وأفكار صُنعية تشكلها عقولنا مما نتلقاه. وأفكار فطرية[2] مركوزة فى عقولنا. ويرى ديكارت أن القسمين الأولين عرضة للخطأ، أما الأفكار الفطرية (فى حالة سلامة العقل) فسالمة من الخطأ لأنها جزء أساسى من تكوين عقولنا، واعتمادًا عليها نبنى أحكامنا اليقينية كلها. ومن أهم هذه الأحكام، اليقين الفطرى بأننا موجودون.

ولإثبات الوجود الإلهى، ينطلق ديكارت من قاعدتين فطريتين بديهيتين يقينيتين، وهما أن «الشىء لا يصدر من لا شىء»، وأن «الشىء لا يمكن أن يكون أكبر من مُسببه»، ويترقى ديكارت من هاتين البديهيتين إلى الاستدلال على وجود الله بـ «**دليل الحدوث**» و«**دليل الوجوب**»، فيقول: أنا موجود حادث، وأنا لم أَخلق نفسى، إذًا لا بد لى من خالق. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود (غير محتاج إلى من يوجده أو يحفظ له وجوده)، وهذا الخالق لا يمكن أن يكون إلا إله بارئ لكل شىء وأكبر من كل ما بَرَأ.

أعجبتنى الحُجِّية والبساطة والوضوح فى استدلال ديكارت على وجود الذات الإنسانية ووجود الذات الإلهية، ووجدت أن أدلة الربوبية عنده تتمشى تمامًا مع «**علم الكلام**» **الإسلامى**، بل إن ديكارت ـ فى أكثر من موضع ـ يعلن أنه أخذ عن علم الكلام.

(١) (Je pense donc Je suis)

(I Think - Therefore I am)

(٢) من أمثلة الأفكار الفطرية البديهية أن الجزء أصغر من الكل، وأن لكل شىء حادث سببًا.

مذهب التوازى لسبينوزا Spinoza [1]

ثم أضاف بوبر، وكبديل لمذهب التفاعل، طرح الفيلسوف الديكارتى سبينوزا «**مذهب التوازى**» **Paralleism**، الذى يرى أن ليس ثمة تفاعل بين العقل والجسم، بل هناك **تواز يوهم بالتفاعل**. فعندما يود عقل الإنسان (الإرادة) أن يحرك ذراعه ـ مثلًا ـ فإن الطرف يتحرك دون أن تكون هناك علاقة سببية، والعكس بالعكس؛ فإذا تحرك عضو يظن العقل أنه صاحب القرار. بينما فى الحقيقة هناك **تواز بين الإرادة والفعل، دون علاقة سببية**، ويؤمن سبينوزا أن ذلك كله **يتم بتدخل الرب**. ويعتبر المتدينون أن هذه المعجزات المتكررة. التى تحدث فى أتفه المناسبات تُجَرد المعجزات الدينية الحقيقية من طابعها الإعجازى ودورها الإيمانى، ومن ثم فقد رفضها المسيحيون المخلصون كما رفضها الشُكَّاك والملاحدة.

ثم قدم سبينوزا طرحًا **يحافظ على مفهوم التوازى دون الاحتياج للمعجزات المتكررة**، ويعتمد هذا الطرح على تعريف ديكارت لـ «الجوهر» بأنه الشىء الذى لا يعتمد وجوده على أى شىء آخر، ومن ثم **فالجوهر الوحيد (عند ديكارت وسبينوزا) هو الرب وليس الجسم ولا العقل**. وقد اعتبر سبينوزا أن العقل/ الوعى/ الفكر، وكذلك الامتداد/ المادة/ الجسمية صفتين متوازيتين **(وجهين) لهذا الجوهر الوحيد**، ومن ثَمَّ لا لزوم للجوء لتفسير المعجزات المتكررة.

ويشرح سبينوزا علاقة المادة/ الجسم والعقل (فى ظل مفهوم التوازى) بأنهما يمضيان متوازيين مثل **الوجهين الداخلى والخارجى لقشرة البيضة**. وفى المادة غير الحية، لا يكون الوجه الداخلى للقشرة واعيًا، ومع اندماج الذرات فى جزيئات عملاقة مكونة المادة الحية تنبثق من الوجه الداخلى للقشرة ذاكرة الجزيئات، وفى الحيوانات العليا تنبثق ذاكرة الوعى. وهذا المذهب يحقق للماديين ـ فى أسلوب بسيط ـ الراحة الفكرية، فهو يتبنى أن لا جديد تحت الشمس، وأن كل شىء كامن فى المادة.

وختم بوبر كلامه عن سبينوزا قائلًا: لعلك لاحظت مما ذكرتُ أن سبينوزا من القائلين **بوحدة الوجود Panthiesm** [2]، أى أن كل ما فى الوجود هو الله، إذ إن الوجود المادى والوجود غير المادى وجهان لجوهر واحد هو الإله.

---

(١) سبينوزا **B. spinoza**: الفيلسوف والرياضى الألمانى اليهودى (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م) لُقب بأمير الفلاسفة. من المدرسة العقلانية مثل ديكارت.

(٢) لنا عودة فى هذا الفصل لمفهوم وحدة الوجود عند الحديث عن الهندوسية.

مذهب ليبنتز Leibniz [(١)]: التناسق سابق التقدير

وأضاف كارل بوبر: وهناك طرح آخر للمدرسة الدينية فى الفلسفة الحديثة بخصوص بنية الذات الإنسانية. فقد كان الفيلسوف ليبنتز ديكارتيًّا فى نظرته للروح/ العقل والجسم، لكنه خالف الديكارتيين فى كيفية التلاقى بينهما. فرفض تدخل الرب لإحداث التفاعل بين العقل والجسم (مذهب المناسبة)، كما رفض مذهب التوازى ومفهوم وحدة الوجود كما طرحهما سبينوزا. وكبديل، **قال ليبنتز بتعدد الجواهر** (الإله ـ الروح ـ المادة...) **مع تميز واختلاف جوهر الإله، فهو الذى خلق باقى الجواهر على صورته ووهبها درجات مختلفة من المعرفة والقوة.** وبناء على هذا الفهم، أنشأ ليبنتز مذهبه المعروف بـ «**التناسق سابق التقدير** pre - established harmony» الذى يقول بأن الله قَدَّرَ مُسبقًا أن تشعر عقولنا بما تفعل أجسامنا وأن تقوم أجسامنا بفعل ما تنواه عقولنا، وبالتالى لا يقتضى الأمر تدخلًا خاصًا من الرب فى كل مناسبة.

ويشرح ليبنتز مذهبه بقوله؛ إن كل خلجة عقلية تصاحبها حركة من الجسد كأن بينهما علاقة واتصال، وهما فى الحقيقة غير متصلين ولا متفاعلين، ولكن ما يظهر لنا من توافق وعلاقة سببية هو أثر للتناسق سابق التقدير الذى أسسه الإله. وأضاف كارل بوبر معلقًا؛ لا شك أن هذه النظرة تنتهى **إلى إلزام للبشر وجبرية لا تتناسب مع حكمة الله ﷻ وكماله.**

المذهب المادى بعد الديكارتيين

سألت بوبر: إلى ماذا آل حالُ الفلسفة المادية بعد المدرسة العقلانية ذات التوجه الإلهى، والتى مثلها ديكارت ثم سبينوزا وليبنتز؟ فأجابنى: اعتبر الديكارتيون أن الإنسان ليس مجرد آلة؛ لأنه يتكون من جسد وروح، وهم بذلك يُوَسِّعون الهوة بين الإنسان والحيوان. كان بوسع الماديين الذين يريدون دائمًا **تضييق الهوة بين الإنسان وغيره من الكائنات**؛ إما القول بأن الحيوانات أكثر من مجرد آلات، إذ إنها على درجة من الوعى، أو القول بأن الإنسان آلة ما دام يُصنَّف كحيوان. لم يتوقع أحد من قوم يُسَلِّمون بتفوق الإنسان على جميع الكائنات أن يُرَوِّجوا للرأيين معًا، **فيقولون إن الحيوانات أرقى من الآلات، وإن الإنسان آلة؛ أى أدنى من الحيوان!**[(٢)]، **لقد أصابتهم المادية بلوثة.**

---

(١) ليبنتز **G. Leibniz**: الفيلسوف والرياضى الألمانى الشهير (١٦٤٦ ـ ١٧١٦م). يمثل مع ديكارت وسبينوزا أعمدة الفلسفة العقلانية، صاحب إنتاج غزير لم يتم جمعه كله حتى الآن.

(٢) هذا القول لـ: بيير بايل وجوليان أوفرى دى لامترى، مؤلفا كتاب «الإنسان آلة» عام ١٧٤٧، وكتاب «الحيوانات أكثر من آلات» عام ١٧٤٩.

وكانت نتيجة مثل هذه النظرة **شطحات مُغرقة فى المادية**، فقد عَمَّم **توماس هوبز**[(١)] النظرة الآلية المادية على جميع الموجودات، شاملة النفس البشرية، التى طعنها أيضًا فى منظومتها الأخلاقية؛ إذ اعتبر أن الخير هو ما يَسرُّ الإنسان، وأن الشر هو ما يُحزنه، أى أن الأخلاق نسبية ذاتية لا علاقة للإله (المتوَّهَم) بها. أما **ديفيد هيوم**[(٢)] فقد كان ينكر وجود قوانين الطبيعة التى تحكم النظرة الآلية! وينظر إلى الأمر كله **بعشوائية مطلقة**، ويرى أن قوانين الطبيعة ما هى إلا تربيطات بين الظواهر يقوم بها العقل البشرى. وإذا كان هيوم قد بدأ بإنكار الوجود، فقد انتهى إلى إنكار نفسه!

وكَرَد فعل، **صد كانت**[(٣)] **هجمات المذهب المادى الجذرى** المتلاحقة التى قادها أكبر أنصاره؛ ديفيد هيوم. فـ «كانت» يؤكد أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكنه الأشياء، وأنه مهيأ بطبيعته لإدراك الجزيئات والظواهر فقط، فى حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهى. وإنما عرفنا الإله بالضمير وليس بالعقل، فشوقنا إلى العدل هو دليلنا على وجود العادل، كما أن ظمئنا للمياه هو دليلنا على وجود الماء.

وربما كان أهم ما خَلَّفه كانت **القول بوجود عالمين: عالم الزمان والمكان**، وهو عالم الظواهر الطبيعية التى يدرسها العلم ويكشف قوانينها. ثم **عالم اللازمان: عالم الأزل** الذى لا يستطيع العلم أو العقل البشرى أن يصل إليه، وإنما تدركه الروح عن طريق الحدس والشعور والنظرة الصوفية. ويرى كانط أنه ليس هناك تناقض فى أن **يعيش الإنسان فى عالمين مختلفين فى وقت واحد**، عالم الزمان والمكان وعالم الروح اللامتناهى. وهذا ما ينبغى أن يتبناه إنسان العصر الحديث.

الداروينية

قلت لبوبر: عند الحديث عن نظرة العقل للذات الإنسانية، لا يمكن أن نتجاهل «**نظرية داروين لتطور الكائنات الحية**». فالكثيرون يعتقدون أن الداروينية قد قدمت الدليل العلمى على خطأ مفهوم ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم، ويرون أن داروين قد أكد على **مادية الإنسان** حين أعلن أن الفوارق العقلية بينه وبين غيره من الكائنات **فوارق كَمِّية وليست كيفية**، وأنها ترجع إلى زيادة حجم وتعقيد المخ البشرى عن أسلافه من الرئيسيات. فما رأيك؟

(١) توماس هوبز Thomas Hobbes: عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزى (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م)، كان له اهتمام بالأخلاق والتاريخ.

(٢) ديڤيد هيوم David Hume: فيلسوف واقتصادى ومؤرخ أسكتلندى، (١٧١١ ـ ١٧٧٦م)، من كبار الفلاسفة العدميين.

(٣) إيمانويل كانت: قمنا بالتعريف به فى أول الفصل.

أجابني كارل بوبر: إن الحديث حول الداروينية لا ينتهى، فما من نظرية شغلت الفكر البشرى كما شغلته، حتى صار **اصطلاح ومفهوم الداروينية يتردد فى كل العلوم تقريبًا؛** الداروينية السياسية، الداروينية الاقتصادية، الداروينية الاجتماعية، الداروينية فى الأدب.... بعد أن انقلبت من نظرية علمية إلى مفهوم أيديولوجى. لكن صحة النظريات لا تتوقف على شيوعها أو على ما تسببه من جدلية. أما رأيى الذى لا أحيد عنه فهو **أن نظرية تتصدى لنشأة الإنسان وتغفل تَميُّز العقل البشرى بأن تتبنى تشكله من أسلاف حيوانية عن طريق التطور العشوائى شديد البطء، تُعتبر نظرية مهترءة وغير جديرة بالاحترام.**

قلت لكارل بوبر، ربما لا يعرف الكثيرون أن نظرية تطور الكائنات الحية ينبغى أن تُنسب إلى عبقريين من عباقرة البيولوجيا، وهما تشارلس داروين، وألفريد والاس[1]، اللذين توصلا إلى النظرية منفصلين فى وقت واحد[2]. وإذا كانا قد اتفقا على أن الجسد الإنسانى قد نشأ بالتطور عن أسلاف أدنى منه، فقد اختلفا فى نشأة العقل البشرى.

فداروين يُرجع الذكاء البشرى والقدرة على الإبداع والعبقرية إلى آلية الانتخاب الطبيعى من بين طفرات عشوائية، وفقط. بينما يرى **والاس** أن الانتخاب الطبيعى يمكن أن يفسر ظهور القدرات التى يحتاجها الكائن فى حياته وقت تطوره، ويكون ذلك استجابة لما يُعرف بالضغوط الانتخابية، **لكن الانتخاب الطبيعى لا يفسر نشأة ذكاء يظل كامنًا حتى يحتاجه الإنسان بعد عشرات الآلاف من السنين، إذ إن التطور ليس له رؤية مستقبلية.** ما الذى يدفع جينًا ما أو مركزًا عصبيًّا ما - دون الاحتياج إليهما - ليتخصصا فى المهارات الرياضية أو الموسيقية الرفيعة، ثم يتم توريثهما للأجيال المتتالية، لحين يتم الاحتياج إليهما.

لقد صار هذا يعرف بـ «**تناقض والاس Wallace's Paradox**»، الذى يدور حول: «كيف يؤدى الانتخاب الطبيعى إلى ظهور وتوريث والمحافظة على ملكات لا تُستخدم فى حينها، بينما ينقرض الأفراد الذين لا يملكون هذه الملكات، بالرغم من أنها لا تفيدهم فى البقاء. يجيب والاس بأن المخرج الوحيد من هذا التضاد هو القول **بأن الذكاء الإنسانى ليس مُنْتَج تطورى بل منحة من «الذكاء الإلهى»**.

(١) **ألفريد والاس Alfred Wallace:** (١٨٢٣ - ١٩١٢م) عالم الطبيعيات البريطانى الكبير. تخصص فى البيولوجيا والجغرافيا والأنثروبولوجيا.

(٢) المدهش أن كلًّا منهما لم ينكر فضل الآخر، حتى إن والاس كتب كتابًا عن النظرية وأسماه «الداروينية» وما أن علم داروين بذلك حتى كتب له قائلًا: ما كان يجب أن تسميه «الداروينية» فهى أيضًا «والاسية».

ابتسم كارل بوبر وهز رأسه مُؤَمِنًا على إضافتى العلمية، وملمِحًا ـ فى نفس الوقت ـ إلى قرب انتهاء حوارنا الثرى، وقال:

من المثير للدهشة أن المذهب المادى القائل بأن البشر آلات كان خليقًا بأن يقوض أى علم أخلاق إنسانى، ومع ذلك فإن **كبار الفلاسفة الماديين كانوا دعاة أخلاق إنسانية**، وكانوا منافحين عن الحرية والتنوير. من ثَمَّ فإننى أعتبر أن هناك خللًا ما فى هذا المبدأ المادى، أو قل إنه **مبدأ متناقض، يُرَوِّج لشىء ويتبنى عكسه!!**

وافترقنا... وقد زادنى الحوار مع هذا العملاق إيمانًا بمقولة حول الفلسفة، قرأتها للشيخ نديم الجسر[1] فى كتابه المتميز «قصة الإيمان»، انظر إلى قوله:

«إن الفلسفة بحر، على خلاف البحور، يجد راكبه الخطر والزيغ فى سواحله وشطآنه، والأمان والإيمان فى لُجحه وأعماقه».

الذات الإنسانية فى الفكر الشرقى القديم[2]

منذ آلاف السنين، كان حكماء الهند يتأملون طبيعة **الذات الإنسانية** وطبيعة **الواقع المحسوس** وطبيعة **الغيب**، وقد اعتقد فلاسفتهم أن هذه الثلاثية ـ على المستوى الأعلى ـ ليست **إلا وجود واحد**. وقد نشأ عن ذلك التصور **تساؤلان رئيسيان**؛ أحدهما نظرى، وهو كيفية ربط هذه الثلاثية فى كلٍّ واحد. والتساؤل الثانى عملى، وهو كيف ندرك ذواتنا الحقيقية ونصل بها إلى أقصى درجات سموها.

وإذا كانت المشكلة الرئيسية التى تواجه الفكر الإنسانى هى مشكلة **«معاناة» الإنسان فى هذه الحياة**، فقد أرجعها الفكر الشرقى القديم إلى **«الهّوة» بين ما يكونه المرء وما يملكه بالفعل، وبين ما يريد أن يكونه وأن يملكه**، لذلك كانت **«المعاناة» حتمية**. فالفقير الذى يتعلق بالثروة يعانى، والإنسان المَيِّت[3] الذى يتعلق بالخلود يعانى، والضرير الذى يتعلق بالإبصار يعانى،....

ولما كان الأمر كذلك، فإن الحل للتخلص من المشكلة ـ المعاناة ـ واضح، وهو **أن يتطابق ما هو**

---

(١) الشيخ حسين الجسر: مفتى طرابلس ولبنان الشمالى الأسبق.

(٢) المراجع: الفكر الشرقى القديم ـ تأليف: جون كولر، ترجمة: كامل يوسف حسين، الناشر عالم المعرفة.

Buddhism. by Peter Harvey.

أديان الهند الكبرى: الهندوسية، الجينية، البوذية ـ دكتور أحمد شلبى، أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ـ الطبعة الحادية عشرة (٢٠٠٠).

(٣) المَيِّت: هو الذى مصيره إلى الموت، أما المَيْت فهو الذى مات بالفعل.

كائن وما هو مرغوب فيه. وليس لذلك من سبيل إلا أحد طريقين، إما **السعى لتحصيل ما يتطلع إليه المرء**، كالاجتهاد لتحصيل الثروة إذا كان الإنسان فقيرًا، ولكن ستظل هناك رغبات يستحيل تحقيقها، كالخلود للمَيِّت والإبصار الأعمى. كذلك ستظل **المعاناة فى تزايد** حتى وإن وصل المرء إلى ما يريد؛ نتيجة للخوف من ضياع ما حَصّلَه، أو للانشغال به وبالمحافظة عليه، أو للرغبة فى المزيد. ولذلك برز الطريق الثانى، ويتركز فى **القضاء على الرغبات التى تجلب على الإنسان المعاناة والضيق والألم والشقاء**، وقد تبنت الفلسفات الشرقية بصفة أساسية المنظور الثانى.

لذلك تدور الحكمة الشرقية حول **مفهوم «اللاتعلق»**، الذى يرى أن السيطرة على الذات ـ لا إشباع الرغبات ـ هو الطريق الأساسى للقضاء على المعاناة، ولا يمكن تحقيق هذه السيطرة دون **«معرفة الذات»**. ومن هنا جاءت أهمية الممارسة الفعلية لهذه الفلسفات، وتُعَرَّف تلك الممارسة بأنها **«فن العيش فى إطار سيطرة المرء الكاملة على ذاته»** من أجل الوصول إلى الحياة الخيرة. من ذلك يتضح أن الفلسفات الشرقية ـ على خلاف معظم الفلسفات الأخرى ـ لا تكتفى بالنظر والتحليل لمعرفة الذات ولإدراك سبيل الحياة الخيرة، ولكنها تتبنى **«الممارسة العملية» كمنهج أساسى لإدراك الحقيقة**، أى أنه ليس هناك خط فاصل بين المعرفة والتطبيق، ومن هنا فإن **الفلسفة والدين** فى مفهوم الشرق الأقصى لا يُعتبران نشاطان منفصلان، بل **يمثلان عنصرًا واحدًا متكاملًا**.

الديانة الهندوسية[1]

العقائد الهندوسية

لا تُعتبر الهندوسية دينًا بالمعنى المعروف، بل هى **أشمل من الدين**، فهى مزيج من شعائر الهنود الأصلاء والقبائل الآرية التى أغارت على البلاد قبل الميلاد بعدة قرون. لذلك فهى

(١) يمكن تقسيم **تاريخ الفكر الهندى** إلى العصور التالية:
أولًا: العصر الفيدى الأول: (فيدا Vida كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة)، ويشمل ثلاث مراحل:
أ ـ مرحلة انتشار الأفكار البدائية وعبادة قوى الطبيعة: بدأت منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد.
ب ـ مرحلة تدوين الفيدا وتأويلها: تبدأ من القرن الثامن قبل الميلاد. وعندما قام البراهمة بهذا التأويل جعلوا من أنفسهم كهنة للدين وحافظوا على امتيازاتهم الطبقية المقدسة. وبهذه المرحلة تبدأ الهندوسية الموجودة الآن.
جـ ـ مرحلة تلخيص الفيدا فى أسفار مقدسة تُسمى الأوبانيشادات، وتبدأ من القرن السادس قبل الميلاد، وتستمر إلى ما بعد الميلاد بقرون.
ثانيًا: عصر الإلحاد (فى رأى البراهمة أتباع الفيدا): وفيه ظهرت الديانة الجينية والفكر البوذى، ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد، كثورة على نفوذ البراهمة.
ثالثًا: العصر الفيدى الثانى: وهو عصر انتصار الفيدا على الجينية والبوذية. وفيه وُضعت قوانين منو (كشروح للفيدا) فى القرن الثالث قبل الميلاد. وبهذه الشروح استقرت معالم الفيدا الحالية.

تعكس ملامح المجتمع الهندى، وتمثل **خليطًا يُعَبِّر عن الأمور المقدسة والأمور الدنيوية جميعًا**، ويشمل الاتجاهات الروحية والخُلُقية والقانونية، وكذلك المبادئ والقيود والعادات التى توجه الحياة الهندية وتسيطر عليها.

ويعتنق الهندوسية حوالى مليار إنسان، يعيش معظمهم فى شبه القارة الهندية. والهندوسية مجموعات مختلفة، تشترك فى **أربع عقائد أساسية:**

(١) الكارما Karma، وهى قانون الجزاء

فالكون نظام إلهى قائم على **العدل الصارم**، وفيه يتم إحصاء كل ما يفعل الإنسان لينال عليه الجزاء، إما فى هذه الحياة، وإما بعد الموت عن طريق التناسخ. وبالتالى **فالأرض هى دار الابتلاء كما أنها دار الجزاء.**

(٢) عقيدة التناسخ The Doctrine of Re-Incarnation

يقضى الموت على الجسد المادى، أما **الروح فتلحق بدورة التناسخ**. فإذا كانت الروح لإنسان خَيِّر تقمصت جسد إنسان من طبقة أعلى (كنوع من الثواب)، وإذا كانت لإنسان شرير لحقت بجسد إنسان من طبقة أدنى أو جسد حيوان (كنوع من العقاب). وفى كل الأحوال لا يدرى الإنسان شيئًا عن حياته السابقة **(أى لا يعرف إن كان قد أُثيب أو عُوقب)**.

(٣) الانطلاق Freedom

بتكرار دورات التناسخ، **يتم تطهير الروح من الشهوات واستيفاء ما عليها من ذنوب.** وعندما لا ترغب الروح فى شىء وتتحرر من الأهواء وتطمئن، فإنها لا تُعاد إلى الحواس المادية، بل **تنجو من تكرار المولد، وتمتزج بالإله (براهما)** كما تعود قطرة الماء إلى المحيط العظيم، وهذا هو هدف الحياة الأسمى.

وأفضل سبيل للانطلاق هو **الزهد والسلبية**، فصالح الأعمال وأرزلها تُدِخل الروح فى دورات جديدة من التناسخ، وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت السلبية أفضل من صالح الأعمال.

(٤) وحدة الوجود Panthiesm

انبثق الكون عن الله، وكذلك روح الإنسان، فهى أزلية أبدية غير مخلوقة، وهى من الإله مثل أن شرارة النار نار. ومن ثم **فالكون كله ليس إلا ظهور للإله، كما أن الروح الإنسانية جزء من الروح العليا.**

وعقيدة التثليث ظاهرة فى الهندوسية. فللإله الواحد ثلاث صفات، فهو **براهما** (من حيث إنه خالق)، وهو **فشنو** (من حيث إنه حافظ) وهو **سيفا** (من حيث إنه مُهلِك). وهذه الصفات الثلاث كامنة فى الإنسان.

ويقدس الهندوس الحيوانات، خاصة **الأبقار**، وذلك لعدة أسباب: فالبقرة رمز للإيثار لما تعطيه للبشر (اللبن، الرَوَّث، الجلد، اللحم)، كما أنها رمز للأخوة بين الإنسان والحيوان، بل قد تحمل الأبقار أرواح بشر تناسخت فى هذه الحيوانات. لذلك كله ينظر الهندوس إلى البقرة باعتبارها أم الإنسان الحقيقية.

وتوجد بعض عقائد الهندوسية عند بعض **معتنقى الديانات السماوية**، فنجد مفهوم وحدة الوجود فى التصوف الإسلامى الفلسفى، كما نجد عقيدة التثليث فى المسيحية.

الذات الإنسانية فى الفكر الهندوسى

ترى العلوم الباطنة الهندوسية أن **الجسم المادى للإنسان، ذا الذبذبات الكثيفة**، هو جزء من كلٍّ إنسانى، يشتمل على **عناصر أخرى ذبذبية التكوين**، وهى:

- **الجسم الأثيرى**، ومنه تمتد خارج الجسم المادى «الهالة» التى تتوقف على الحالة الصحية.
- **الجسم النجمى**، وهو جسم المشاعر والعواطف.
- **الجسم العقلى**؛ جسم الفكر والذكاء.
- **المبدأ الإشراقى**، ومقره القلب، وهو محل المعرفة والإشراق الروحى.
- وأخيرًا، **الروح**.

وتخبرنا الفيدا أن للإنسان الواحد **ثلاثة أنواع من الذات**: «الذات المطلقة» التى لا تختلف من شخص لآخر، بل تتفق فى الكل، والذات الثانية متعلقة بفردية الشخص، أما الذات الثالثة فهى الجسد الذى هو ذاتٌ مرحلية.

كذلك فإن الكون والإنسان مكونان من **خمسة عناصر** هى: التراب ـ الماء ـ الهواء ـ النار ـ والأثير. وُيفَرِّق «**الفضاء**» بين المخلوقات؛ كما يفرق بين أجسام الناس، ويفصل الفرد عن باقى موجودات الكون المادية.

والإنسان «**كون صغير**»، يشبه فى بنيته الكون المحيط والذرة[١]. فأعضاء الجسم تُكَوِّن **شبكة واحدة** كثيرة الأجزاء **نواتها القلب**، الذى يقابل الشمس، مصدر الحياة وقلب وجودنا النابض. **وينبض القلب البشرى بإيقاع قلب الشمس ذاته**، وهو على اتصال **بالقلب الباطنى للكرة الأرضية** الموجود فى مكان ما من جبال الهيمالايا. كذلك يقابل **الجهاز العصبى** طاقة الكون الكهرومغناطيسية، والجسم على اتصال دائم بالطاقة الكونية (برانا Prana) وهو يستمدها من النَفَس ومن يخضور النباتات (الكلوروفيل)، لكنها ليست الهواء ولا الماء ولا اليخضور.

وتتصل الذاكرة البشرية بالذاكرة الكونية، التى تحوى تاريخ الكون والأرض والإنسان منذ البدء الأول[٢]، لذلك فإن المعرفة الكونية كامنة فى وعى الإنسان. كما تتصل الذاكرة البشرية بعناصر الإنسان الخمس، وبما أنها ذبذبية القوام فهى مسئولة عن الاحتفاظ بالإنسان واعيًا. كذلك تحتوى **الفسيولوجيا البشرية** (التى هى تنظيم عمل أعضاء جسم الإنسان) على كل القدرة التنظيمية غير المحدودة للطبيعة. كما أن **جوهر الكتب الهندوسية المقدسة** موجود داخل تركيبة دماغ الإنسان.

وتحسَبُ أنَّكَ جُرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ[٣]

الإنسان، إذن، **كون صغير**، **خلية من خلايا الكون الكبير بكل ما فيه**، ويملك كل صفاته. إنه جزء من كل، وتربط «**المحبة**» أجزاء الإنسان بعضها ببعض، مثلما تربطه بالوجود بأسره. لكن **هذا الكون الصغير يعانى؛ لأنه لا يدرك وحدته مع الوجود، ولا يعى حقيقة مصدره، ولا يعى المعرفة الكامنة فى داخله**. وبما أن الإنسان فى سفر دائم داخل نظام كونى يتفاعل معه، فإنه **يتمتع بكل إيجابياته** طالما كان فى تناغم مع النظام، أما إذا أفسد الإنسان النظام نتيجة لفكر أو قول أو فعل، مهما كان بسيطًا، **فعليه أن يدفع الثمن**.

(١) ترى الحكمة الهندوسية أن الوجود كان فى البدء **ذبذبات** تكثفت، وتشكلت، وتجسمت، وتلك الذبذبات الأصلية هى مصدر الكون بكل ما فيه. وأصغر هذه التَشَكُّلات هى الذرة، المؤلَفة من نواة مركزية وفراغ وشذرات تحت ذرية، تنتظمها حقول من الطاقة، وتتحول جزئيًا إلى طاقة لدى تفككها، وكل ذلك يتحرك ويتراقص فى الفراغ (ويتفق هذا التصور مع ما توصلت إليه الفيزياء الحديثة!).

ويتكرر نموذج الذرة (بنواتها المركزية وشذراتها المحيطة بها) فى معظم أشكال الوجود؛ سواء الخلية الحية، أو المجموعة الشمسية، أو بنية المجتمع الذى نواته الحاكم.

(٢) يَعتبر **الشيخ محيى الدين بن عربى** (قطب التصوف الإسلامى الفلسفى) هذه الذاكرة الشاملة المحيطة هى (اللوح المحفوظ).

(٣) بيت شعر للإمام على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الذات المطلقة

جاء فى الكتاب السابع من الأوبانيشاد: «إن **الذات المتحررة** من الشر ومن الخوف ومن الجوع والظمأ، ومن الشيخوخة ومن الموت، والتى تتبنى دائمًا الحق، تلك الذات ينبغى أن يسعى إليها من يرغب فى إدراك الحقيقة وفهمها، ومن يعثر على هذه الذات ويتفهمها يظفر بكل العوالم».

لذلك طرق بشدة أذهان الفلاسفة الهندوس سؤال: ما هى تلك الذات العجيبة الغامضة؟ والسؤال بأسلوب آخر: **ماذا عساى أن أكون فى أعمق وجود لى؟**

لقد قام الحكماء فى غمار محاولتهم الإجابة عن هذين السؤالين بتأمل الجوانب والوظائف المختلفة للإنسان. وتوصلوا إلى أن الذات **لا يمكن أن تكون هى الجسد**؛ لأن الجسد مجرد طعام مهضوم، بينما الذات لها من الخصائص ما يفوق الجسد/ الطعام بكثير، فهى ترى وتسمع وتحس وتتحرك وتعقل. ومن ثم تساءلوا: هل ننظر إلى الذات باعتبارها **التعقل أو الوعى أو الإدراك**؟، فتوصلوا إلى أنه لا بد أن يكون هناك من يمنح الوجود والفاعلية لتلك الملكات.

ومن ثم توصل حكماء الأوبانيشاد إلى أنه لا ينبغى البحث عن حقيقة الذات فى أى من الصور الدنيا الملموسة للشخص. بل **ينبغى أن يكون المُوَجِّه النهائى للنشاط الإنسانى متميزًا ومفترقًا عنه**. لكن ما هو ذلك المُوَجِّه؟

إن المُوَجِّه والفاعل المطلق هو «**الذات المطلقة**»؛ إنها حيث لا تعمل العين، ولا يعمل الكلام ولا الذهن، وبالتالى لا يمكن أن تكون موضوعًا للمعرفة قط. **إنها وجود مجهول، إنها عماء**. ويمكن أن نسميها (**الوعى الذاتى الكلى**) أو (**الواقع الداخلى المطلق**) ويسميها حكماء الهند (**أتمان Atman**).

لماذا خُلقنا؟ ـ وِحدَة الوجود

قبل التكوين... لم يكن هناك وجود... لم يكن ثمة فرق بين مدرِك ومدرَك... **لم يكن الخلق عملية تصنيع مادة جديدة**... بل كان الخلق امتدادًا خارجيًا لمطلَق غير قابل للانقسام... **النتيجة كانت من صلب السبب**... كانت عملية الخلق حالة خاصة من الوعى حصلت داخل المسبِّب... بذلك نشأت الكثرة عن الواحد... وصاحَب ذلك أن **اعترى الكثرة «شبقٌ» للعودة** إلى الأصل.

إن الغاية من الخلق هى الامتداد والنماء. أراد الخالق لذاته الامتداد، فكان هذا الوجود. فالله (البرهمان) **هو الأساس الأول للخلق، وما الخليقة سوى تعبير أكثف عنه،** كالماء الذى هو التعبير الأكثف عن البخار. **إذًا كل ما يُدرَك هو الله، كل أزواج الأضداد فى الله**؛ النهار والليل، الخير والشر... كلها تعبيرات عن الوعى الواحد الأحد اللاثنائى. إن الله (البرهمان) **هو الكل الذى نبثق منه الكائنات، وبه تبقى بعد أن تنبثق، وفيه تتوارى فى النهاية**(١).

ولما كان المطلق لا يمكن إلا أن يكون واحدًا، توصل حكماء الأوبانيشاد إلى أن **الواقع الخارجى المطلق (براهمان) هو الواقع الداخلى المطلق (أتمان)**. ومن ثم **ليس هناك سوى واقع مطلق واحد** يمكن إدراكه، سواء بالنظر إلى خارج ذات المرء أو بالنظر فى أعماق ذاته. إنهما شئ واحد، وكل الأشياء هى موجودة فى داخل أتمان. وتُعَدْ **وحدة «أتمان» و«براهمان»** أعظم إبداعات حكماء الأوبانيشاد الفلسفية، إنها وحدة الوجود التى يتمسكون بها ويحافظون عليها بحرص شديد.

إن السفر فى الحياة، إذًا، انطلاق من الذات الكبرى، ثم العودة إلى نقطة الانطلاق. ومن بين كل المخلوقات، وَحْدَه الجنس البشرى هو الحائز على ملكة العقل والقدرة على التمييز، وهو **المؤهَل للعودة إلى المصدر عن سابق وعى وتصميم. وطريق العودة ـ طريق الارتقاء نحو الهدف الأسمى ـ هو الخلاص من شوائب الحياة الجسدية.**

فالنفس تحصد عواقب أعمالها سلبًا أو إيجابًا تبعًا لقانون الخلاص.

---

(١) عَبرَّ فيلسوف وحدة الوجود قطب التصوف الإسلامى الفلسفى الشيخ عبد الكريم الجيلى (٧٦٧ ـ ٨٢٦هـ) عن هذا المعنى فى أبيات رائعة فى قصيدته «**النادرات العينية**»:

وَمَا الخَلْقُ فِى التِّمْثَالِ إلَّا كَثَلْجَةٍ ... وَأَنْـتَ بِهَا المـاءُ الّـذِى هُـوَ نَابِعُ
فَـمَا الثَّلجُ فِى تَحقِيقِنا غَـيرَ مَـائِهِ ... وَغَيْرَآنِ فى حُكْمِ دَعَتْهَا الشَّرَائِعُ
وَلَكِنْ بِذَوْبِ الثَّلْجِ يُرْفَعُ حُكْمُهُ ... وَيُوضَعُ حُكْمُ الماءِ وَالأَمْرُ وَاقِعُ
تَجَمَّعَتِ الأَضْدَادُ فِى وَاحِدِ البَهَا ... وَفِيهِ تَلاَشَتْ فَهْوَ عَنْهُنّ سَاطِعُ

فى هذه الأبيات يُشَبِّه الجيلى المخلوقات كلها بـ «الثلج»، الذى هو فى حقيقته «ماء» يشير به الشاعر إلى الإله الخالق ﷻ. وتتضح الحقيقة إذا ذاب الثلج، أى تلاشى الوجود، فلن يظهر إلا الماء (الإله ﷻ)، فهما وجهان لشىء واحد. وفى هذا الواحد تجمعت أزواج الأضداد.

وبالرغم من إقرارى بروعة الصور البلاغية والإبداع الشعرى فى قصيدة النادرات العينية، فإننى أرفض تمامًا مفهوم وحدة الوجود، فالإسلام يؤكد بوضوح على إثنينية الخالق والمخلوق.

اشتد سخط الهنود ضد استبداد البراهمة، حتى جاء القرن السادس قبل الميلاد[1] فإذا بالإحساس يصبح واقعًا، فتهب ثورتان كبيرتان فى وجه الهندوسية، يقود ماهافيرا إحدى هاتين الثورتين (تؤدى إلى نشأة الديانة الجينية)[2] ويقود بوذا ثانيتهما.

فى كتاب «أديان الإنسان» The Religions of Man، يبتدئ هيوستن سميث فصله عن الديانة البوذية بعنوان: «**الرجل الذى استيقظ**»! فى وصف لطبيعة البوذا، هذه الكلمة التى تعنى «**الشخص المستيقظ**» أو «**الشخص المستنير**». يلمح هذا المصطلح إلى أن الغالبية العظمى من البشر لا يزالون نائمين روحيًّا، وأنهم قادرون على الاستيقاظ الروحانى من الغفوة التى هم فيها، والتى يسببها خداع النفس الذى تعارفنا عليه باسم «**الوعى بالذات**».

إن الرجل الذى اشتهر باسم بوذا هو فى الأصل «**سدارتا غوتاما**» (٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق. م.). ولد سيدارتا وعاش فى فترة عامرة بالجدل الدينى والفلسفى حول طبيعة الحياة الإنسانية ومشكلاتها. جاء دخول سيدارتا غوتاما إلى المشهد الدينى فى عصره بعد أن هجر حياة الرخاء والرفاهية كابن لحاكم أرستقراطى، ففى العشرينيات من عمره أدرك أنه فى عيشته الهانئة الرغيدة **ليس محصنًا من المرض والشيخوخة والموت**. ومن ثم فقد قرر أن يحيا كناسك زاهد سعيًّا وراء الشعور بالراحة والنعيم المحضين من التغير والمعاناة، كحالة أبدية لا تنقطع ولا تنتهى.

أمضى غوتاما ست سنوات كناسك متجول يقوم ببعض **الممارسات الدينية** الموجودة فى عصره، كاليوجا والتأمل، لكنها لم تحقق ما يصبو إليه. فمارس بعدها **التقشف الشديد**، فوجده يهدد سلامة الذهن والبصيرة. ومن ثَمَّ سعى **لإيجاد طريقه الروحى الخاص**، فمارس التأمل

(١) يعتبر البعض أن **القرن السادس قبل الميلاد** من أجدر عصور التاريخ بالتأمل، ففى كل مكان كانت عقول الناس تُظهر جرأة جديدة، ويستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الأباطرة والكهان ويسألون أشد الأسئلة تعمقًا، وكأن **الجنس البشرى قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة**. ففى هذا القرن ظهر بالهند ماهافيرا مُعلم الجينية، وظهر **بوذا** مؤسس البوذية، وظهر بالصين **كونفوشيوس** المربى العظيم، وفى إيران ظهر **زرادشت**، وفى بنى إسرائيل بُعث النبى **إشعياء**، وارتفع صوت **فيثاغورس** فى بلاد الإغريق، وفى مدينة إفسس تجلّى هيراقليتس بتأملاته وأبحاثه الفكرية فى طبيعة الأشياء، وهكذا هبت موجة فكرية تجاوبت أصداؤها فى كل أنحاء البسيطة.

ونحن لا نوافق على هذا الرأى، فالحضارة المصرية القديمة بلغت قدرًا كبيرًا من النضج العقلى والفكرى تجاه الأسئلة الوجودية المحورية قبل ذلك بعدة قرون، حتى قيل إن أفلاطون قد عثر على الحكمة حين جاء إلى مصر، حيث تعلم هو وفيثاغورس فى مصر لأكثر من عشرين عامًا.

(٢) الديانة الجينية: مزيج من عقائد الهندوسية والبوذية، يعتنقها قرابة المليون من الهنود الأغنياء، تهتم بالفنون والآداب.

مع التركيز على التنفس البطىء لطرد أى مشتتات ذهنية. وتدريجيًّا وجد **ذهنه يصفو** كأنه فى غيبوبة، مع الحفاظ على وعيه وعلى سكونه الداخلى. ثم انتقل بعدها إلى مرحلة أعلى من الوضوح والسكون، تضاءلت معها سعادته السابقة، وفيها أحس أن العقل آلة قوية مدركة لمعارف الوجود كلها، مع تلاشىِ ما كان يكتنف عوالم الغيب من غموض، وهى حالة أطلق عليها اسم **«الاستنارة»**.

مفهوم «المعاناة» فى الفكر البوذى

يحتل مفهوم **«المعاناة»** فى الفكر البوذى مكانة محورية، ويُعرف بـ **«الدوخا Dukka»**، وهى كلمة تُعَبر عن جميع أشكال معاناة الإنسان. ومع الأخذ فى الاعتبار أن الوجود الفانى يتسم كله بالمعاناة، فإن هدف البوذية النهائى هو **القضاء تمامًا على الدوخا**.

ويرى الفكر البوذى أن الشيخوخة والموت يتبعان الميلاد، كما يتبع الليلُ النهارَ، وبغير الميلاد لن توجد معاناة الشيخوخة والموت. لكن ليس معنى ذلك أن اللاوجود هو السبيل إلى اللامعاناة، ولكن السبيل إلى **«اللامعاناة»** ـ فى البوذية ـ هو **«العدم»!** عدم ماذا؟ **وهل هناك فرق بين «العدم» و«اللاوجود»**؟ من أجل الإجابة عن هذين التساؤلين علينا أن نفهم كيف تنظر البوذية إلى الذات الإنسانية.

وَهْم الذات الإنسانية

عندما نتأمل **خصائصنا** الجسمية والعقلية والنفسية، وما نقوم به من **مهام وعمليات** (حركية ـ حسية ـ عقلية ـ شعورية)، ننتهى إلى أن **هناك «ذاتًا» أو «أنا»** تُنسب إليها هذه الخصائص ويُنظر إليها باعتبارها القائمة بتلك الأنشطة، لذلك فإننا نقول: أنا فعلت كذا، وأنا سأقوم بكذا، هذا ملكى، هذا ابنى. كذلك **تُنسب المعاناة إلى هذه «الأنا»**، فنقول: أنا أتألم، وأنا حزين، وأنا مريض بمرض خطير.

لكن، هل حقًّا يوجد كيان حقيقى يمكن أن نطلق عليه «ذات» أو «أنا»؟

يرى بوذا أن ليس فى الإنسان شيئًا زائدًا على خصائص الإنسان ونشاطاته، يمكن أن يُشار إليه باعتباره الذات أو النفس، ومن ثم فإن الإنسان ليس إلا مجموعة الخصائص والنشاطات التى يقوم بها، وليس هناك شىء آخر.

إن تبنى هذا الفهم يؤدى إلى **تلاشى التعلق بـ «الأنا» المتوهَمة**، وهو ما يُعرف فى البوذية **بمذهب الأناتا Anatta (اللاذات أو اللانفس)**، ولا شك أن ذلك يؤدى تلقائيًّا إلى القضاء جذريًّا على المعاناة بالرغم من استمرار النشاطات. وفى غياب الذات لن تكون هناك نفس تُولد ولا نفس تمرض وتشيخ وتموت، سيكون هناك فقط ميلاد، ومرض، وشيخوخة، وموت، **دون الربط بين هذه النشاطات وبين ذات إنسانية تجرى عليها هذه الأحداث!** وبالتالى لن تكون هناك معاناة، فالتعلق بالنشاطات (هذا ملكى ـ أنا أتألم ـ أنا سأموت ـ زوجتى وأولادى) هو الذى يجلب المعاناة.

الاستنارة والطريق إلى اللاذات

وصل بوذا بمجاهداته إلى «الاستنارة». فى هذه الحالة وصل إلى ما صار يُعرف بـ **(المعرفة الثلاثية)**: لقد أدرك أن **التناسخ حقيقة**، وأن **مفهوم الجزاء (الكارما) حقيقة**، كما توصل إلى مفهوم **(الحقائق النبيلة الأربع)** التى صارت لاحقًا حجر الزاوية فى تعاليم بوذا، والتى تركز التخلص من «المعاناة».

فى خطابه الأول الذى ألقاه بوذا على رفاقه عقب تلقى الاستنارة، قال لهم: إن المولد ألم، الهِرَم ألم، المرض ألم، الموت ألم، الاجتماع بغير المألوف ألم، الافتراق عن المألوف ألم، عدم ظُفر الرجل بما يهوى ألم. ثم بَيَّنَ بوذا أن **أصل الألم هما الشهوة والهوى**، فإذا وُجدا وُجد التحديد والتخصيص (الشعور بـ «الأنا»)، ويؤدى هذا الانخداع إلى الحزن والألم والمعاناة. لذلك **فالطريق إلى إعدام الألم هو إعدام الشهوة والهوى إعدامًا تامًا**. فى هذا الخطاب، وضع بوذا ما يسميه البوذيون **«الحقائق الأربعة»**: الألم موجود ـ الألم له سبب ـ سبب الألم قابل للزوال ـ لإبطال الألم ينبغى اتباع **الطريق ذى الثمان شُعَب**، وهى:

الاعتقاد الصحيح ـ العزم الصحيح ـ القول الصحيح ـ العمل الصحيح

العيش الصحيح ـ الجهد الصحيح ـ الفكر الصحيح ـ التأمل الصحيح.

ويُعتبر **الإيمان بـ «الحقائق الأربع النبيلة»**، واتباع **«الطريق ذى الشعب الثمانية»** طريق النجاة عند البوذية. فبهذا الإيمان وهذا الطريق تمكن بوذا من تخليص ذاته من المعاناة، ومن التناسخ، وتمكن من الوصول إلى النيرفانا (اللذة القصوى) وهو حى، وصار بذلك «مستنيرًا»، وهو المعنى الحرفى لكلمة بوذا.

النيرفـانـــا

إن أسمى ما يتطلع إليه الهنود (باختلاف دياناتهم) هو تحقيق السعادة القصوى. ويكون ذلك فى الهندوسية عن طريق التخلص من تكرار المولد (التخلص من التناسخ) وهو ما يُعرف بـ «الانطلاق». أما فى البوذية فتعرف تلك السعادة بـ «النيرفانا»، ويتم الوصول إليها عن طريق **«القضاء على الجهل»** الذى **«يوهمنا بوجود الأنا»**، وهذا هو **مفهوم الأناتا (اللاذات ـ اللانفس)**. عند ذلك تتلاشى الرغبات المادية وتفنى الأغراض الشخصية الباطلة، التى تجعل الحياة دنيئة وذليلة ومروعة، وبتعبير بوذا: **كل من شاء أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها**. بذلك تتطهر النفس ويصل الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحى. وبهذا الأسلوب **يصل الإنسان إلى النيرفانا وهو حى**.

وكما فى الهندوسية، يمكن فى البوذية أن **يصل الإنسان إلى النيرفانا بعد الموت**، إذا تخلص من تكرار المولد (دورات التناسخ)، وذلك بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر.

وقد **رفض بوذا أن يصف النيرفانا**، فهى لا توصف وإنما تُذاق. وبعد أن كان ـ فى أول الأمر ـ يرى أنها تعنى الاندماج فى الله والفناء فيه، فقد تغيرت أفكاره وتوقف عن الربط بينها وبين الإله، بعد أن **تخلى عن القول بأن هناك إلهًا**، واعتبر أن السؤال عن الغيب لا يُجدى نفعًا. لذلك قال لأحد تلاميذه: «**ما قلت لك جئنى أعلمك عن الذات وعن الكون، أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس، بل فكروا هكذا: هذا ألم ـ هذا مصدر الألم ـ هذا إعدام الألم**». ومع ذلك كان بوذا يطلب من مريديه أن يَدَعُوا ما بعد الحياة إلى اليد التى تولتها من البداية.

وأخيرًا نقول، إن اتجاهات البوذية الخُلُقية واللاعقائدية سببت **سرعة انتشار البوذية فى الهند** لسهولة هذه الاتجاهات وعدم تعارضها مع آلهة الهندوس، لذلك فإن كثيرًا من الهنود يتبعون البوذية فى أخلاقها ويظلون على ولائهم لآلهة الهندوس، وبالعكس بدأ البوذيون يعترفون بالآلهة الهندوكية ويتقربون إليها، وبمرور الوقت صار لبوذا تمثالًا مقدسًا ذاب بين الآلهة الكثيرة كما ذاب أتباع البوذية بين الهندوس.

ومن أكثر الأمور التى استرعت انتباهى وأدهشتنى، أن بوذا الذى طالما أعلن أنه ليس هناك إلهًا، وأنه ليس نبيًا، وأن قضية الإلوهية فوق مستوى العقل البشرى، **قد صَيَّرَه أتباعه إلهًا يعبدونه!** واعتقد أن ذلك يرجع إلى غلبة فطرة الإنسان الباحثة عن إله، فلم يجد البوذيون أنسب منه إلهًا[1]!!

* * *

(١) نجد فى البوذية المعاصرة مذهبين: مذهب ماهايانا الشمالى، الذى يقدس بوذا كابن للإله، ومذهب هنايانا الجنوبى، الذى ينكر الألوهية ويعتبر بوذا مُعَلِّمًا عظيمًا.

الإنسان المصرى القديم
والذات الإنسانية

يختلف الشعب المصرى القديم عن غيره من الشعوب فى العناية التى كان يوجهها إلى حياة الإنسان بعد الموت. ففى الوقت الذى كان اليهود والإغريق يتحرّجون من الحديث عن موتاهم، كان المصريون لا يدّخرون وسعًا فى المحافظة عليهم والعناية بهم والاهتمام بسعادتهم، كما كانوا يحرصون على ألا تفنى ذكراهم.

وبالرغم من أن قبور المصريين ـ فى المراحل الحضارية الأولى ـ لم تكن أكثر من حفر بسيطة، فقد كانوا يودعون فيها ما يحتاج إليه موتاهم من طعام، وما يُدخِل على قلوبهم البهجة والسرور. ثم أخذت هذه العناية تزداد بازدهار الحضارة المصرية بشكل لا مثيل له، فلن تجد فى جميع حضارات العالم مقابر تماثل الأهرامات العظيمة، أو **المقابر المزينة بالرسوم** والمحفورة فى الصخر فى طيبة، كما لم تودَع فى مقابر الموتى فى أىّ مكان آخر ودائع وافرة قَيِّمة مثل ما أُودِع فى مقابر المصريين.

ولم يكن الشعب المصرى ليبذل مثل هذه الجهود طوال خمسة آلاف سنة لولا **إيمان المصرى القديم بثنائية الذات الإنسانية**، والتى انعكست على تصوره عن العالم الآخر وعن حياة الموتى، وهى تصوّرات يمكن تَرَسُّمها فى الأدب الجنائزى القديم الذى تَخَلَّف لنا بكثرة لا تكاد تحصى، ومعظمه عبارة عن أوراد تُتلى عند إعداد الجثة ودفنها، وعند إطعام الميت وتقديم العطايا إليه، وعندما يراد حمايته من كل سوء[1].

ثنائية الوجود وثنائية الذات الإنسانية

كان المصرى القديم يتبنى النظرة الثنائية للوجود؛ **إله خالق وكون مخلوق**، ويمكن رصد **مرحلة وسطى** بين هذين العنصرين، تتجلى فى الملوك الفراعنة، أبناء الإله الأعظم، الذين يجمعون بين الألوهية والبشرية.

(١) يمكن تقسيم هذه الأوراد إلى ثلاث مجموعات كبيرة، تبعًا لعهد كل منها وأسلوب كتابتها، وهى «**متون الأهرام**» التى ظهرت فى مقابر ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، و«**متون التوابيت**»، وكانت تُكتب فى الدولة الوسطى على الجدران الداخلية لكثير من التوابيت، و«**كتاب الموتى**»، وهو أوراد كانت تُكتب على قرطاس من البردى وتوضع إلى جانب الميت منذ الدولة الحديثة.

وقد انعكست هذه الثنائية على نظرة الإنسان لذاته، فرآها تتكون أيضًا من عنصرين، **جسد مادي وروح لا مادية** حاول تجسيدها فى هيئات محسوسة. وإذا كانت معظم الحضارات الإنسانية القديمة قد اهتمت بالروح واعتبرته جوهر الإنسان الأوحد، ولم تول الجسد أى اهتمام[1]، فإن المصرى القديم **اهتم بالجسد بشكل لا مثيل له، فحافظ عليه بعد الموت،** بالتجفيف ثم بالتحنيط. ويجسد تصورَ المصرى القديم **لطبيعة الروح وعلاقتها بالجسد،** الآليةُ المعقدة للانتقال من الحياة إلى الموت، ثم طبيعة الحياة الأخرى فى القبر وبعد البعث. فقد كان المصرى القديم يؤمن أن للإنسان روح واحد له تسعة مظاهر[2].

كان المصرى القديم يأتى إلى الحياة عندما يستقبل جسده الـ «**كا Ka**» عند مولده بأمر من الإله رع، ومن ثم فـ«الكا» هى شخصية الإنسان المسئولة عن وجوده الانفعالى وأيضًا عن حركته وتنقله، والمعتقد أنها تشبه صاحبها تمامًا.وما دامت الكا مع الإنسان فهو حى يُرزَق، وإذا مات هجرته، لكنها تظل معنية بالجسد الذى سكنته أمدًا طويلًا، فتكون إلى جانب الميت من وقت إلى آخر، وتبادر إلى مساعدته إذا دعاها[3]. لذلك كان القبر يُنعت بأنه «دار الكا». وبوصفها **قرينًا ماديًّا للمتوفى،** كانت الأطعمة تُقدم إلى «كا» الميت[4].

وإلى جانب الكا، اعتقد المصريون فى هيئة أخرى للروح، وكانوا يسمونها «**با Ba**»، وهى **المقابل الروحى الخالد للإنسان،** وتعتبر أقدم وصف للروح فى الحضارات القديمة. وقد تصورها المصرى القديم فى مختلف الأشكال، فهى إذ تترك الجسد عند الموت وعند النوم، فقد تخيلوها كأنها طائر برأس إنسان. وربما تمثلوها بين الطيور التى تستقر على الأشجار التى غرسها الميت بنفسه من قبل[5]. وتمثل الـ «با» **حلقة الوصل بين أرض الأحياء والحياة الأخرى،** ففى

١) تقوم الكثير من الحضارات ـ **كالهندوس** ـ بحرق أجساد موتاهم وذر رمادها فى الأنهار والبحار. أما **المجوس** فكانوا لا يحرقون أجساد موتاهم حتى لا تلوث النار المقدسة، وكانوا يتركونها فوق الجبال لتأكلها الطيور الجارحة، وتجف العظام وتتفتت ثم تحملها مياه الأمطار إلى البحر.

٢) هذا الرأى أكثر وجاهة ـ كما سنرى ـ من قول البعض بإيمان المصرى القديم بأن للإنسان تسعة أرواح!

٣) جاء فى كتابة متأخرة: «إنك تعيش سعيدًا أبدًا وبجانبك الكا التى لك، إنها لن تهجرك أبدا». وقد تطورت كثيرًا الفكرة الغامضة عن الكا، فكانت تُعتبر تارة كأنها كائن إلهى، وتارة كأنها الملاك الحارس، الذى يهتم بالإنسان، ويعنى بأمره، وتارة كانت الكا هى التى تلد الابن. وفى أحيان أخرى كانت «الكاوات الحية» تعبيرًا رشيقًا يوصَف به الناس؛ وتارة أخرى كانت الكاوات تعبر عن قوى الحياة، أى عن الأطعمة، أو كانت سائر النعم التى يتصرّف فيها إله الشمس. وفضلًا عن ذلك فقد كان لفظ الكا يُحشر بكثرة فى مختلف التراكيب والجمل.

٤) كانت أكثر النقوش الجنائزية شيوعًا تطلب لـ «كا» المتوفى «ألفًا من الخبز، وألفًا من البيرة، وثيران وطيور».

٥) وتخيلها آخرون **كزهرة اللوتس** التى تتفتح أكمامها وهى تطفو فوق سطح البحيرة أثناء الليل، وفكر فريق آخر فى **الثعبان** الذى يندفع من حجره فى غموض كأنه «ابن الأرض»، أو فى **التمساح** الذى يزحف من الماء إلى الأرض كأنه ينتمى حقًّا إلى عالم الأرض.

الليل تمكث مع المومياء فى مقبرتها المظلمة تحت الأرض، وفى النهار تغادرها كى تقضى يومها فى أشعة الشمس.

أما المظهر الثالث من الروح فتمثله «آخ Akh»، **الروح المباركة المجيدة** التى نجت من الموت، وكانت عنصرًا مضيئًا يمنح البركة والمجد للمتوفى، وصُوِّرت الـ «آخ» بوصفها الشخص نفسه، **وكان يُعتقد أنها تختلط بالآلهة حين ترقى إلى المجد.**

وبالإضافة لهذه المظاهر الثلاثة الرئيسية للروح، هناك الـ «**خو Khu**» وهو الروح المسئول عن الحياة والوعى، ويسكن الدم. وهناك الـ «**آب Ab**» ويسكن فى القلب، وهو محل الحكمة والمعرفة والفهم، وعندما يكون «آب» واعيًا يكون الإنسان خَيِّرًا، وإذا غاب آب عن وعيه يصبح الإنسان شريرًا، أى أنه **يقابل الضمير** فى مفهومنا المعاصر.

وهناك أيضًا الـ «**خيبوت Khaibut**»، إنها **كظل الإنسان** يمكن أن توجد خارجه. ويستخدمه من يمارسون السحر الأسود ليوجهوا إلى الإنسان سيطرتهم وأذاهم، ويجسدونها فى العرائس التى تُغرَز فيها الإبر لإنزال الشر بالإنسان. وما زلنا نجد فى المجتمعات القبلية ـ التى لا تعرف التصوير الفوتوغرافى ـ من يرفضون تصويرهم ويعتقدون أن ذلك يؤدى إلى الموت، ففيه تقييد وحبس للخيبوت.

أما الـ «**خات Khat**» فمسئولة عن النشاطات العضوية للجسد، كالتنفس وضربات القلب. وهناك الـ «**سيخام Sekham**» المسئولة عن القوى الحيوية للإنسان وعن تجسده.

وأخيرًا الـ «**رِن Ren**»، وهو الاسم الذى يُطلق على الإنسان عند الميلاد، وهو مقدس وله قدرات عالية. وعادة لا يعلن الوالدان هذا الاسم حتى يصل صغيرهما سن البلوغ، فانتشار الاسم يؤثر فى مصير الفرد فى الحياة الأخرى. وإذا عرف شخص الاسم الحقيقى للإله ونطقه بطريقة صحيحة كان له السيطرة على الإله.

ولا تتعجب قارئى الكريم من **تعدد مظاهر الروح عند المصرى القديم**، فهذا أمر طبيعى فى هذه القضية. فقد اختلف المفسرون فى العلاقة بين الروح والنفس كما جاءا فى **القرآن الكريم**، كما جاء فيه لفظى الروح والنفس بمعان متعددة. كما **يعتقد المسيحيون** فى تعدد مظاهر الإله الواحد، فقالوا بالأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. والحال نفسه فى **الهندوسية** كما رأينا منذ قليل.

ولكى **يعيش المصرى القديم مرة آخرى بعد الموت**، كان عليه **استيفاء عدة متطلبات**. فلا

بد أولًا من حفظ جسده؛ لأنه الموطن والملاذ للروح لذلك عمد المصريون لممارسة التحنيط كوسيلة للاحتفاظ بالجسد المادى. علاوة على ذلك، يجب أن يحتفظ الجسد بمعالمه حتى تتمكن الـ «با» من التعرف عليه والعودة إليه كل ليلة، لذلك كان يتم التأكيد على هوية الجسد بوسائل عديدة، مثل وضع نموذج بالجص لملامح المومياء، وحفظه فى تابوت شبيه بالإنسان، وتزويده برأس إضافية أو قدمين مصنوعين من الورق المقوى، ولمزيد من الحرص، كان يتم وضع تماثيل فى المقبرة على هيئة المتوفى.

ولتزويد «كا» المتوفى بالطعام والشراب ولوازمه التى كان يستعملها أثناء حياته، فقد أصبحت المقابر **مستودعات**، مجهزة بكل شىء يحتاجه المتوفى فى الحياة الآخرة. وكان المصريون يعتقدون أن **الصور** بإمكانها أن تحل محل الشىء الفعلى، لذلك كانت حوائط المقابر تُزيَّن بمَشاهد لحاملى القرابين وإعداد الطعام، وأيضًا بمشاهد للحياة العائلية والنشاطات التى كان المتوفى يستمتع بها، أو يأمل أن يستمتع بها فى الحياة الآخرة. كذلك كان كثير من المقابر يُزود **بتماثيل** العمال ونماذج لورش كاملة ستقوم بإمداد المتوفَى بما يحتاجه كى يحيا الخلود فى راحة وترف، دون الحاجة للتضحية بالناس ليصاحبوا سيدهم فى الحياة الأخرى، كما هو الحال فى بعض الحضارات الأخرى.

الأخلاق الفاضلة، الطريق إلى الخلود

تتوقف عودة الحياة إلى الميت على **أن يكون إنسانًا فاضلًا وقت حياته**. فقد كان المصريون يعتقدون أن روح المُتوفَى تَمْثُل أمام **محكمة الآلهة** فى «**قاعة الحقيقتين**». وكان **قلب المُتوفى**، الذى يُعتقد أنه مقر الروح والعقل، يوزن فى ميزان مقابل **الريشة** التى ترمز إلى «**ماعت**» أو الحقيقة، ثم يتلو المتوفَى بعدئذ التعاويذ من «**كتاب الموتى**»، ضمن طقس دينى للبرهنة على براءته من الآثام، على النحو التالى:

أنا أعطيت خبزًا للجائع، وبيرة للعطشان، وملابس للعريان، وقاربًا لمن لا قارب له... أنا لم أحرم اليتيم من ممتلكاته؛ أنا لم أقتل؛ ولم آمر بالقتل. لقد قَرَّبت القرابين إلى الآلهة، وقدمت قرابين التوسل إلى الأرواح... أنا طاهر اليدين واللسان... لقد فعلت الصواب من أجل مالك الحقيقة... أنا طاهر من أمامى، ومن خلفى.

والمتأمل لقائمة الذنوب فى المصادر المختلفة، يجدها تشمل اثنين وأربعين **إثمًا** بعدد الآلهة قضاة المحكمة، الذين يُمثِّلون مقاطعات مصر الاثنين والأربعين.

ولو كان الاعتراف صادقًا، يتوازن قلب المتوفى مع ريشة ماعت، ويُسمَح للميت (أو للميتة) بالمرور إلى الحياة الأخرى. ومن ذلك الوقت، يُقْرَن اسم الشخص المتوفى بأوزيريس، إله الحياة الآخرة، لينال مجد آخ الأعلى، ويصبح أحد الموتى المقَدَّسين الذين سيقضون حياة خالدة هانئة.

عالم الموتى، بين طبقية ومساواة

لكن أين يوجد عالم الموتى هذا؟ لقد كان المصرى يرى **الشمس** كل مساء تغيب فى الغرب لتبدو من جديد فى الشرق عند الصباح، فلا بد أنها قد جابت فى الليل عالمًا سفليًّا. وعلى نحو ما تصنع الشمس، ذهب الظن إلى أن الموتى يهبطون فى الغرب ويعيشون فى عالم مظلم، يتألق فيه النور عندما تمر من فوقهم الشمس فى رحلتها بالليل. لذلك سُمِّىَ عالم الموتى باسم «الغرب»، وسُمِّى الموتى «**بأهل الغرب**»، وقد نُصِّب أحد آلهة الموتى حاكمًا على الغرب.

ولا بد أن هناك **مَقَرًا مُمَيَّزًا للأرواح الممتازة**، خاصة للملوك أنصاف الآلهة. لقد كان هذا **المَقَر فى السماء**، حيث تصور المصريون عالمًا ثانيًا للموتى، أطلقوا عليه اسم «**دوات**». أليس هؤلاء الممتازون هم هذه النجوم اللامتناهية التى لا اسم لها؟ لا شك أن هذه النجوم ليست إلا موتى أو أرواح سعيدة وجدت طريقها إلى السماء؛ حيث ظلت فى سناء دائم إلى جانب الإله العظيم، سيد السماء الإله رع، إله الشمس، ومع غيره من الآلهة النجوم المشهورة، كالشعرى اليمانية والجبار ونجمة الصباح.

أليس من الطبيعى ألا يُلقى **الفِرعون ابن رع** على الأرض، بل ينبغى أن يبقى فى السماء، وأن تُرسَل الرسل إلى أهلها ليخبروهم أنه قد صار لهم ملك جديد.

ودون منزلة الملوك، هناك من يحيون فى «**مقر الأبرار**»، الذى تَصوره المصرى كمجموعة من الجزر تحيط بها المياه، وربما أوحى بهذا التصور شكل المجرة باهت اللون، التى تحيط شعابَها مساحاتٌ قاتمة. **وتمد إلهات السماء أثدائها** إلى فم المتوفى المتميز ترضعانه لبنًا طاهرًا ولا تفطمانه أبدًا. أما **المتوفى الأدنى منزلة**، والذى لا يستطيع التخلى عن عادات عالم الأرض، فيتلقى نصيبه من الطعام من **شونة الإله العظيم**، كما سيرتدى من الثياب ما لا يفنى.

وفى نصوص أخرى، نجد **قدرًا أكبر من المساواة**. ففى عقيدة الإله المتوفى أوزيريس ـ الذى غدا ملكًا للموتى أجمعين ومثالًا يحتذونه ـ نجد أن الرجل الذى يُفْصَم عنوة عن الحياة ويخلف

وراءه زوجته وأولاده ويُدفن فى الأرض، **حَرِيًّا بأن يلقى ما لاقاه الإله**[١]. إنه سيُبعَث فى هيئة **أوزوريس ثان** إلى حياة جديدة سعيدة، لا على شكل شبح خيالى، وإنما فى بعث مجسد حقيقى، وسيشب ابنه **كحورس ثان**، وسينتصر على العدو الذى أتلف حياة أبيه كما انتصر حورس على عمه ست الشرير، وسيحمى بيته ويصون شرف اسمه.

أما الموتى الذين **يخفقون فى الامتحان** فى مملكة أوزوريس، فإنهم يظلون فى مقابرهم يضنيهم الجوع والعطش، ولا يشاهدون الشمس بنهار أو بليل. كما أن القضاة (الذين تدل أسماؤهم على عقوبات مروعة) يحملون سيوفًا لمعاقبة المذنب، والحيوان المخيف الواقف أمام أوزوريس سيلتهم الميت ويمزقه. وفيما عدا ذلك لا نعرف شيئًا كثيرًا عن مآل هذا البائس، إذ لم يكن ذلك موضوعًا يميل خيال الشعب إلى استقصائه.

وكان من أَخْوَف ما يخشاه الميت أن **يفسد جسده، فينقطع تواصله مع الآلهه**، فلا يكون له فم يتحدث به معهم، أو أن يُسلب منه قلبه، وأن تُقْطَع رأسه، أو أن تعضه الثعابين، أو أن يضل طريقه فيقع على مذبح الإله قربانًا تعيسًا، أو أن يعوزه الطعام والشراب. وقد وجد المصرى القديم فى **تعازيم السحر وفى الأوراد** النجاة من كل ذلك.

إن ما عالجناه من ثنائية الذات الإنسانية ومآلها بعد الموت عند المصرى القديم، إنما يتعلق بالغيب الذى رواء الحس، ولا يجوز أن نأخذ ما جاء فيها بدقة تامة، والأرجح عندى أن لها **أصولًا دينية سماوية**[٢]، وعندما خبت تلك الأصول، احتفظ الوجدان المصرى بالأفكار الجوهرية منها، وعَبَّر عنها الخيال الأصيل فى صور حية، يجد فيها الإنسان من الغموض والإبهام سحرًا خاصًا يجسد بصدق الكثير مما نؤمن به نحن معتنقو الديانات السماوية.

القارئ الكريم

استعرضنا فى هذا الفصل أربعة أنماط من الفكر البشرى، وتأملنا نظرتها للذات الإنسانية. كانت بدايتنا مع «**الفلسفة الغربية**» (الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الحديثة)، ولا شك أنها أكثر الأنماط تجردًا كعمل عقلى بعيد عن الروافد الدينية. وقد لاحظنا أن معظم فلاسفة هذه المدرسة **أدركوا فى الإنسان ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم**، وإن كانوا قد انقسموا إلى فريقين رئيسيين؛ الفريق الأول، يرى **أن الروح موجود مادى** يتكون من نفس ذرات المادة فى أدق

(١) جاء فى المتون «فكما أن أوزوريس حى حقًّا، فسيحيا هو كذلك، وكما أن أوزوريس لم يُمحَق فهو أيضًا لن يُمَحق».
(٢) قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

صورها (كالهواء والنار)، وهؤلاء هم الفلاسفة الذريون فى مرحلة ما قبل سقراط. و يرى الفريق الثانى أن **الروح/ العقل جوهر لا مادى،** ويختلف بذلك عن الوجود كله. وأشهر هؤلاء هم الفيثاغورثيون وأرسطو ثم الديكارتيون فى الفلسفة الحديثة.

ثم انتقلنا إلى «**الفكر الشرقى القديم**»، فقابلتنا «**الهندوسية**»، **كمزيج متباين** من الفكر الدينى والعمل العقلى والنظرات الفلكلورية، وفيها وجدنا **ثنائية الروح/ العقل ـ الجسد** ظاهرة تمامًا فى حياة الإنسان الحالية. وبعد أن تنتهى دورات التناسخ وتتحرر الروح وتفنى الجسدية، ترتد الثنائية إلى واحدية، ليست للكائن الإنسانى وحسب، لكنها **وحدة وجود مطلقة** ليس فيها فرق بين الموجد والموجود ولا بين السبب والنتيجة.

ثم وقفنا مع «**البوذية**» ـ كمحاولة للتحرر من سطوة رجال الدين الهندوس ـ فوجدناها تحاول **التحرر من الدين ككل**. فبوذا ـ انطلاقًا من تجاربه الذاتية ـ **أنكر الوجود الإلهى**، كما **أنكر وجود الذات الإنسانية!** بعد أن اعتبر أن كل ما يقع للإنسان هو مجرد خصائص ونشاطات لا ترجع إلى ذات فاعلة. وبالرغم من ذلك نجد البوذيين اليوم **يقدسون بوذا** ويضعون تماثيله ضمن تماثيل آلهة الهندوسية! ولا أرى ذلك إلا استجابة لِفطرة عارمة داخل الإنسان تدفعه للبحث عن الإله الخالق.

وأخيرًا كانت وقفتنا مع «**الفكر المصرى القديم**»، ولا شك عندى فى **أصوله الدينية السماوية**. وأرى أن **دور العقل قد اقتصر على صياغة التفاصيل**، التى إذا جُردت يتبقى تصور عقائدى واضح لا يختلف كثيرًا عن معتقداتنا الدينية. فالمصرى القديم **يؤمن بثنائية الإله الخالق والإنسان المخلوق**، كما **يؤمن بثنائية الروح ـ الجسد**، سواء فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة. وقد انعكست هذه النظرة على حياة المصرى القديم، سواء فى سلوكه، أو عاداته وتقاليده، أو فى هندسته ومعماره.

عسى أن أكون ـ قارئى الكريم ـ قد وُفِّقت فى هذا الفصل لأن أنقل إليك بعضًا من جهود العقل الإنسانى فى النظر إلى الذات الإنسانية، إلى «أنا». وإذا كان «**لكل جواد كبوة**» فلعلك تشاركنى الرأى بأن العقل الإنسانى قد أصاب أحيانًا وكَبَا أحيانًا أخرى فى سعيه لفهم الإنسان. ولعل العقبة الكؤود التى أعاقته عن الوصول إلى كمال الحقيقة هى القاعدة البديهية بأن **إدراك الشيء على حقيقته يحتاج إلى مُدرِك أعلى**، لذلك فإن **النظرة فى المرآة لا تعكس إلا الصورة الظاهرة**، ولكن **ألا يكفى العقل الإنسانى ـ ويكفينا ـ شرف المحاولة؟**

الفصل السابع

كيف بَنَيْتُ الحضارة

- **كائن متميز متفرد**
  - العقل والجسد والآخرين
  - مؤسسة الأسرة
  - مع الأرقام
- **الملحمة...**
- **أسلافى الصيادون وجامعو الثمار**
  - حياة الرفاهية والسكينة
  - التكيف الفسيولوجى
  - حياتهم الاجتماعية
  - لماذا لم نعد نراهم
- **إنتاج الغذاء**
  - الإعداد لإنتاج الغذاء
  - آثار إنتاج الغذاء
  - الفصام ومشكلاته
- **الفلاحون الدائمون**
  - سمات مجتمع الفلاحين
- **الثورة المدنية**
  - مقدمات الثورة ومسارها
  - نشأة وتطور الكتابة
  - آثار الثورة المدنية
  - هل من إيجابيات للثورة المدنية؟!
  - محصلة التمدن محزنة
- **التحديث**
  - معايير التحديث
  - خدعة تحديثية تكنولوجية.
  - آثار التحديث
- **مع الحضارتين، المصرية القديمة والعربية الإسلامية.**
  - حضارة أجدادى المصريين القدماء
    - فجر الضمير
    - مصر جنة الخلد
    - فجر الحضارة فى مصر
  - الحضارة العربية الإسلامية ـ هويتى
- **القارئ الكريم**

بين أصدقائى أُسرةٌ متميزةٌ متفردةٌ، جَمَعَت بين الثراء المادى وتَقَدُّم الزوج والزوجة فى ميدان الفكر والعلم، وفى الأسرة ابنان تمتعا بما قدمه لهما والداهما من مميزات وتيسيرات. لم يأخَذ أحد الابنين حياته مأخذ الجد، بل أضاعها فى اللهو والبحث عن المتعة، ولم يبذل جهدًا من أجل بناء مستقبله، فأصبح مثالًا للشباب الفاسد الفاشل المتخلف. أما الابن الآخر فقد أحسن استغلال ما أتاحته له أسرته من إمكانيات، فبذل الجهد والعرق، وبنى لنفسه حياة راقية هو جدير بها. لكنه ـ مثل الكثير من رجال الأعمال الناجحين ـ انشغل حتى أذنيه فى بناء إمبراطوريته الاقتصادية الكبيرة، وفى سبيل تحقيق ذلك لم يبالِ الشاب بالقيم الإنسانية والدينية التى تربى عليها، كما شُغل عن والديه وكان عاقًا لهما، بل وسبب لهما، متاعب ومشاكل كثيرة.

تشير هذه القصة الرمزية إلى البشرية وقصتها مع الحضارة. فقد أُتيحت للإنسان كل الموارد المادية، كما زُوِّد بالملكات والقدرات الفطرية التى تمكنه من بناء الحضارة. تكاسلت جماعات من الجنس البشرى عن استغلال طاقاتها ومواردها فكان مآلها الفشل والتخلف، بل أصاب بعضها الفَناءُ (الابن الأول). بينما أحسنت جماعات أخرى استغلال تلك الطاقات والموارد (كالابن الثانى)، فبنت حضارات شامخة، لكن آخرها وأقواها ضلت الطريق، وجرفها شلال المادة، وألقى بها بعيدًا عن الهدف.

ولعلك قارئى الكريم أدركت أن الأم ـ فى قصتنا ـ ترمز إلى الفطرة السوية والمنظومة الأخلاقية اللتين أفسدهما الإنسان المعاصر، بينما يرمز الأب إلى موارد الطبيعة والبيئة التى أتلفها الإنسان وكاد أن يستنزفها ويدمرها، أثناء بحثه الحثيث عن الثراء المادى واللذة اللامتناهية.

وإليك قصة أسلافى وصراعهم من أجل بناء الحضارة:

كائن مُتَمَيِّز مُتفرِّد

إن المتابع لأسلافنا الأوائل وهم يفرون خائفين وسط حشائش الساڤانا فى أفريقيا هربًا من حيوان مفترس، ما كان يتصور أنهم فى يوم من الأيام **سيسودون كوكب الأرض**، بل وينجحون فى الخروج منه إلى **الكواكب المحيطة**!!

كيف استطاع هذا الكائن الضعيف الدفاع عن نفسه بشكل فَعَّال، وليس له ناب ولا مخلب، ولا جلد مدرع، وليس سريع الحركة كالحيوانات المفترسة؟ إن كل هذه المميزات تُعتَبر ضئيلة إذا ما قورنت **بتكنولوجيا الحماية التى توصل إليها العقل البشرى**، حتى إن عصا مصنوعة من غصن سميك متين فى يد إنسان كانت أفضل كثيرًا من ناب قاطع أو مخلب حاد.

لقد أصبح الجنس البشرى الذى قضى طفولته فارًا من مفترسات الساڤانا الأفريقية هو **أكثر الكائنات انتشارًا وأكثرها قدرة على العيش فى جميع البيئات على شدة تباينها**. فبنِي الإنسان يسكنون فى بيئات يتراوح مداها بين مئات الأقدام تحت سطح البحر وقرى جبلية على ارتفاع يتجاوز الـ ١٦,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، كما يسكنون غابات المطر الاستوائية التى لا تصل إليها أشعة الشمس والصحراء القاحلة التى تشوى رمالها الشمسُ الحارقة، وأيضًا القطب الشمالى الذى تُجَمِّد برودته ماءَ الشرب[1]. بل لقد طور البشر أساليب تمكنهم من **حمل بيئتهم معهم** إلى أعماق البحر وإلى الفضاء الخارجى.

العقل والجسد والآخرون

إن ما مَكَّنَ الإنسان من البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات هو مزيج مُحْكَم التوازن من **عناصر ثلاثة: العقل ـ والبنية الجسدية ـ والسلوك الاجتماعى الفطرى**. وقد تحدثنا فى الفصل الأول عن الملكات التى **تميز العقل الإنسانى**، وتجعل الجنس البشرى متفردًا، وإن كنا ما زلنا نجهل الطريقة التى يحول بها الدماغ طاقة كهربائية لا تزيد على ١٠ واط مع بعض الكيماويات إلى ذكريات وتجارب سابقة وأفكار جديدة وعمليات فكرية خلاقة، وإلى شعور وعواطف وأحلام، وباختصار إلى وعى كامل بأنفسنا وبيئتنا. ولا شك أن أعظم إبداع حضارى للعقل البشرى كان **اللغة الإنسانية**، التى أعانت الإنسان على التفكير والاحتفاظ بالمعلومات

(١) يشارك الإنسان فى هذا الانتشار البيئى الواسع كائنات قليلة جدًّا، منها الكلب والقوارض والقمل.

والتواصل مع الآخرين وتوارث المعرفة عبر الأجيال، مما مَكَّنَ كل جيل أن يبدأ من حيث انتهى السابقون.

كذلك تناولنا فى الفصل الخامس **تعديلات البنية الجسدية للإنسان**، والتى تركزت حول **القدمانية** (السير منتصب القامة) وتعديل **بنية ووظيفة اليد**، مما جعلها مؤهَلة للقيام بوظائف ثلاث؛ فهى عضو حس اللمس الرئيسى، حتى إنها تستطيع أن تمارس وظيفتها هذه فى الظلام ومن خلف السواتر. وهى عضو للإشارة، إذ تستطيع توجيه الانتباه إلى الأشياء وإصدار التعليمات ونقل الأفكار والتواصل مع الآخرين فى لغة غير منطوقة. وفى نفس الوقت، احتفظت الذراعين بدور هام فى الحركة، فالإنسان الماشى على قدمين ما زال فى حاجة لأن يؤرجح ذراعيه فى الهواء أثناء سيره (خاصة الرجال) ليحافظ على توازنه، عِوَضًا عن المشى على أربع.

وقد أعانت هاتان اليدان الماهرتان **العقلَ** على التفوق فى ميدان التكنولوجيا، فأصبح الإنسان وحده هو الذى يصنع الأدوات بقدر كبير من الإتقان والتعقيد والابتكار، مما حدا الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت للاعتقاد بأن«**اليد هى مخ الإنسان الخارجى**». إن الإنسان يقوم بهذه الإنجازات بالرغم من أنه لا يمتلك برامج عقلية فطرية لإنتاج تلك الأدوات واستعمالها. ولكن ذلك لا ينفى أنه **يتمتع بملكة فطرية** (لا توجد فى أى كائن آخر) **على الإبداع أعانته على الابتكار**.

ويبقى العنصر الثالث الذى أعان أسلافنا على البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات، وهو **السلوك الاجتماعى الفطرى**. ويتجلى هذا السلوك فى ثلاثة مستويات؛ أولها هو **علاقة الرجل والمرأة**، والتى لا تقف عند إشباع كل منهما للآخر جنسيًّا، ولكن يمتد إلى توزيع المهام، سواء فى تدبير الغذاء (يقوم الرجل بالصيد والمرأة بجمع الثمار) أو الواجبات تجاه الأسرة (تقوم المرأة بإنجاب الأطفال وإرضاعهم ورعايتهم، ويقوم الرجل بالدفاع عن الأسرة وبما تحتاجه من أعمال شاقة كبناء البيوت). والمستوى الثانى هو **العلاقة بين الوالدين والأبناء**؛ فإذا كانت صغار القردة تنفصل عن الأسرة مبكرًا، حتى إن أمهات القردة لا تُشرك صغارها بعد الفطام فى الغذاء، فإن فترة الحضانة والرعاية الأسرية تمتد إلى أكثر من عشرين عامًا عند البشر. ويظهر المستوى الثالث من السلوك الاجتماعى فى **معيشة عدة عائلات إنسانية معًا**، إذ يحقق لهم ذلك الحصول على غذاء أكثر، والمحافظة على حياتهم بشكل أفضل، مما أتاح لهم أن يُنتجوا نسلًا أكثر عددًا.

وقد أدرك الإنسان **حتمية العيش فى جماعات**، حتى إننا نجد من يحيون فى صحراء كالاهارى الشاسعة قليلة السكان يعيشـون متكدسين فى مخيمات تُعتبر من أكثر مناطق العالم ازدحامًا!

مؤسسة الأسرة

لا شك أن مؤسسة الأسرة كانت **أكبر وأرسخ ابتكارات الإنسان** منذ بداية بنائه لحضارته وحتى الآن، حتى يمكننا القول إنه لولا استقرار الأسرة عبر التاريخ لأصاب الإنسان الانقراض كما حدث لكائنات أخرى.

وإذا كان قطع الحبل السُرى عند الولادة يفصل الوليد عن أمه، فإن الصلة تعود فى إطار جديد، حميمة كما كانت، ولكن **بحبل سُرى رمزى هو الأسرة**، التى تكفل للطفل الحماية والتغذية وإمداده بالآراء والأشياء التى ستؤهله لأن يصبح عضوًا كاملًا فى المجتمع. ويظل هذا الحبل السُرى باقيًا ما بقى الإنسان حيًّا، بالرغم من استقلاله المادى عن أسرته، إذ تظل تمده بالإشباع النفسى. لذلك صرنا نتحدث (عن جدارة) عن **شجرة العائلة**، التى يحافظ كل فرع فيها على علاقته بالأصل.

والأسرة اختراع يتفرد به بنو الإنسان، إذ يحقق لكل منهم عددًا من **المتطلبات الأساسية** التى لا غنى عنها؛ وهى إشباع الغريزة الجنسية، وإشباع غريزة الأمومة والأبوة، وتوفير البيئة المناسبة لرعاية الأطفال لفترة طويلة، والحصول على الغذاء وباقى المتطلبات المادية، وقبل كل ذلك إشباع الحاجة النفسية للمشاركة والصحبة. ويتم ذلك كله من خلال **تحديد الحقوق والواجبات المتبادلة بين طرفى الزواج**. وما كان ذلك ممكنًا فى غياب صفة إنسانية فريدة، وهى **سيطرة العقل الواعى** على شهوة الإنسان الجنسية وميوله الأنانية ونزعته العدوانية.

وفى كل المجتمعات، تُعتَبر **مراسم وطقوس الزواج** بمثابة إعلان لقبول الشخصين (بشكل أبدى) الالتزام بقيم مجتمعهم والعمل على تأصيل ثقافته وتوارثها من جيل إلى جيل، وفى المقابل يعلن المجتمع رضاءه عن هذه العلاقة، ويعتبر أن الأطفال الذين ينجمون عنها شرعيون يتمتعون بجميع حقوق أفراد المحتمع.

وفى عام ١٩٣٣، شَكَّل الرئيس الأمريكى لجنة خاصة لتحديد **ما الذى تفعله الأسرة للفرد وللمجتمع ككل**. جاء فى تقرير اللجنة أن نشاطات الأسرة تشمل المناحى التالية: الإنجاب

واستمرار النوع ـ الاقتصاد ـ التربية والتعليم ـ الحماية ـ تلقين المفاهيم الدينية ـ إضفاء المركز الاجتماعى ـ الترفيه ـ توفير الصحبة. واليوم، وبعد أكثر من ثلاثة أرباع قرن، لم تعد الأسرة تَوْلى بعض هذه النشاطات الاهتمام بعد أن تكيفت مع المجتمع المتغير. فعلى سبيل المثال، لم تعد الأسرة وحدة منتجة مستهلكة، بل أصبحت مستهلكة فقط بعد أن أُوكل أمرُ الإنتاج إلى المصانع، كذلك قل دور الأسرة فى المشاركة والصحبة مع شيوع وسائل الترفيه الحديثة.

وقد قدم الأنثروبولوجيون العديد من التفسيرات لنشأة الأسرة، نرى وجاهة فى تفسيرين منها؛ الأول: أن الأسرة بدأت برباط بين الأم وأولادها، ويستشهد مناصرو هذا الرأى بالمجتمعات الأُمَمية، التى تنسب الأبناء إلى أمهاتهم وتعترف بالقرابة والإرث من جهة الأم فقط، وفيها يسكن العروسان عند أم العروس. والتفسير الثانى يرفض التفسير الأول، انطلاقًا من أن المجتمعات الأُمَمية لم تُعمَّر طويلًا، ويطرحون بدلًا منه أن الأسرة نشأت نتيجة **للانجذاب الجنسى والنفسى بين كل من الذكر والأنثى** فى بداية تاريخ الإنسان، ويتخذون من قصة آدم وحواء دليلًا على ذلك.

مما مضى، نرى أن الأسرة ـ كطرح إلهى/ إنسانى حيوى حاسم ـ لا يمكن أن يقوم بدونها مجتمع، ولا يمكن أن تختفى دون أن يختفى أيضًا أسلوب الحياة الإنسانية كما نعرفه، لذلك فشلت كل المحاولات التى جرت لإلغاء مؤسسة الأسرة[١].

مع الأرقام

وفى نظرة سريعة لتاريخ أسلافى منذ أن خلق الله تعالى الإنسان وحتى الآن، نجد أنه قد عاش على سطح الأرض حوالى ١٠٠ بليون نسمة (١٠٠,٠٠٠ مليون). **وقبل اثنى عشر**

(١) إذا أردنا تصور وضعًا **بديلًا لمؤسسة الأسرة**، قابلنا عددًا من الأطروحات التى قُدِمت بحيث تلغى هذه المؤسسة وتحافظ على المجتمع موجودًا. وإليك أحد هذه الأطروحات التى تتمتع بقدر من الفكاهة وخفة الظل، والتى يعرضها بيتر فارب فى كتابه (بنو الإنسان):

تصور مجتمعًا أراد أن يلغى مؤسسة الأسرة بعد أن سيطر عليه مجموعة من التقدميين! فأوكل إلى زعيمة عظيمة هذه المهمة، فأصدرت مرسومًا يفرض إخصاب الإناث اللاتى يردن أطفالًا صناعيًّا بحيوانات منوية تؤخذ من ذكور حسنى الصفات الوراثية، وأن يُربى الأطفال فى حضانات ثم مدارس داخلية تلقنهم قيم المجتمع. وفى هذا المجتمع تكون العلاقات الجنسية مشاعًا بين الجميع وتكون بقصد المتعة فقط، وإذا حدث حمل نتيجة ذلك أُعتبر الجنين غير شرعى وأُجهض. أما المشاركة الاقتصادية فلا حاجة لها، فكل فرد يدبر نفقات معيشته لنفسه فقط، فلا أُسرة هناك. وأخيرًا ـ وليس بآخر ـ تقوم أجهزة حكومية بالإشراف على الملكية الفردية والإنتاج والتوزيع وكل شىء!!!

ألف عام (تمثل حوالى ٥٠٠ جيل إنسانى فقط) بلغ عدد سكان الأرض حوالى عشرة ملايين نسمة جميعهم يعيشون حياة الصيد وجمع الثمار، وفى هذا التوقيت تقريبًا بدأ الإنسان فى بضعة أماكن فى زرع النبات وتدجين الحيوان واستعمال مصادر للطاقة غير عضلاته.

وعند **ميلاد المسيح**، كان نصف البشر يفلحون الأرض، ونصفهم صيادين وجامعى ثمار. وبعد ذلك **بقرابة ١٥٠٠ عام**، كان حوالى ١٪ من سكان الأرض فقط يمارسون الصيد والجمع، بينما انشغل الآخرون بالزراعة والصناعة والتجارة والحرف والمهن وكل ما تحتاجه الحضارة الحديثة من أعمال. **واليوم** (٢٠١٣م) تضاءلت أعداد الصيادين وجامعى الثمار حتى بلغت ٣-٤ أفراد من كل ١٠٠ ألف نسمة من مجموع ٦,٨ مليار نسمة يعمرون الأرض حاليًّا.

* * *

الملحمة...

قدمنا لمحة سريعة لتميز الجنس البشرى الذى مكنه من بناء الحضارة. أما كيف استغل أسلافُنا ملكاتَهم لتحقيق هذه المهمة، فرحلة **شديدة القسوة، خطها أسلافنا بالعرق والدموع تارة، وبالدماء تارة**. رحلة كانت تدفعهم فيها ملكاتهم ومثابرتهم خطوات لأعلى، ثم تهوى بهم أطماع بعضهم، ليعاودوا التقدم مرة أخرى، وهكذا.

إن تفاصيل رحلة أسلافنا لبناء الحضارة، ملحمة تفوق فى معاناتها كل ما خُط فى ألف ليلة وليلة والإلياذة والأوديسا[١]. ولشغفى بتلك الملحمة، ولإدراكى بأن حديث الذات الإنسانية عن نفسها لا يكتمل دون عرضها، لجأت إلى خبير بها، أحاوره لأستزيد مما سأعرضه عليك.

وقع اختيارى للمحاورة على **عالِم الأنثروبولوجيا الأمريكى الكبير بيتر فارب Peter Farb**[٢]، مؤلف عشرات الكتب فى الأنثروبولوجيا ومختلف مجالات العلم، وعضو عدة جمعيات لعلم الأجناس وعلم الآثار، وزميل الاتحاد الأمريكى لتقدم العلوم وزميل جمعية المؤرخين الأمريكيين، ومن أهم كتبه وأشهرها **كتابه «بنو الإنسان» Humam kind**[٣].

(١) الإلياذة والأوديسا: تُعتبران أشهر ملحمتين فى التاريخ، وتدوران حول حروب طروادة، وتنسبان إلى الشاعر اليونانى العظيم هوميروس، من القرن الثامن قبل الميلاد.

(٢) ولد عام ١٩٢٩ وتوفى بمرض سرطان الدم (لوكيميا) عام ١٩٨٠.

(٣) الكتاب ترجمة الأستاذ زهير الكَرْمى، نشرته سلسلة عالم المعرفة الكويتية - عدد ٦٧ - سنة ١٩٨٣. ومعلومات الحوار التالى ملخصة بتصرف عن هذا الكتاب.

أسلافى الصيادون وجامعو الثمار



(شكل ـ ١)
بيتر فارب Peter Farb
عالم الأنثروبولوجيا

أردت أن أناقش ملحمة بناء الحضارة من بدايتها، منذ أن كان أسلافنا يحيون فى تجمعات صغيرة على الصيد وجمع الثمار. قلت لبيتر فارب (شكل ـ ١)؛ يعتقد البعض أن أسلافنا من الصيادين وجامعى الثمار **كانوا يحيون عيشة الكفاف أو دونه**، وأنهم كان يصبحون من نومهم كل يوم لا يدرون ما إذا كانوا سيأكلون أم لا، ومن ثَمَّ فإنهم كانوا يتأرجحون على حافة هاوية الفناء، بل يصفهم الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز بقوله: «لم يكن عندهم فنون ولا كتابة ولا مجتمع، والأسوأ من ذلك أنهم كانوا فى خوف دائم من ميتة مفاجأة، والرجل منهم كان يعيش عمره القصير وحيدًا فقيرًا قذرًا متوحشًا»[١]، فما رأيك ؟

حياة الرفاهية والسَّكينة

ابتسم فارب وقال لى: إن الحقيقة غير ذلك؛ فقد كان أسلافنا يحيون «**حياة مجتمع الرفاهية الحقيقية**»، حتى إن الأب بيارد سَجَّل (فى كتاب العلاقات اليسوعية، عام ١٦١٦) دهشته من السهولة التى يحصل بها الهنود الحمر من قبائل الميكماك، فى نيوبرونزويك بكندا، على كميات وافرة من الغذاء. انظر إلى قوله عنهم: «لم يكن قصر سليمان أبدًا منظمًا ومزودًا بالغذاء مثلهم، ولم يكونوا أبدًا فى عجلة من أمرهم، بخلاف حالنا نحن الذين لا نستطيع عمل شيئًا إطلاقًا بدون عجلة وقلق».

وقد أظهرت الدراسات الميدانية الكثير عن أسلوب حياة أسلافنا هؤلاء[٢]. ولا شك أن أول ما يلفت النظر هو **تقسيم المهام بين الرجل والمرأة**، فكانت المرأة مسئولة عن جمع الفواكه والثمار الصلبة والجذور وغيرها، وكان الرجل يعزز هذا الغذاء بلحم الصيد الغنى بالبروتين.

(١) توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ـ الفيلسوف الإنجليزى، من دعاة الحكم الملكى المطلق. شاركه فى رأيه عن الصيادين وجامعى الثمار كثيرون، منهم الفيلسوف الرومانى لوكريتيوس والكاتب الأمريكى مارك توين، وعدد من مخرجى أفلام هوليود!

(٢) أهم هذه الدراسات، تلك التى أُجريت على الأقزام فى أفريقيا وصيادى تانزانيا وصحراء كالاهارى وسكان أستراليا الأصليين. ذلك بالإضافة بالطبع إلى دراسات علماء الأجناس والآثار على ما تبقى من آثار هذه العصور القديمة.

وهكذا كان أسلافنا **يستمتعون بغذاء متنوع إلى أقصى الحدود**، فقد كانوا يعرفون بدقة متى تنضج ثمار أنواع النباتات المختلفة، ويستدلون من رؤية قطعة من ورقة نبات جافة على وجود درنة صالحة للأكل تحت سطح التربة، كما يعلمون بدقة متى يَرِد كلُ نوع من أنواع حيوانات الصيد الماءَ للشرب.

لقد حدث تقسيم العمل تلقائيًّا منذ فجر التاريخ بناء على **عوامل بيولوجية فطرية**، فقد كان طبيعيًّا أن يقوم الرجال بالصيد، فهم الأقوى عضليًّا والأسرع ركضًا والأكثر خشونة ورغبة فى المخاطرة. كما أنه لم يكن من الحكمة على الإطلاق تعريض حياة الإناث للخطر، فهن القادرات على إنجاب الأطفال وإرضاعهم.

وقد **كان لتقسيم العمل عدة فوائد**، أولها تنويع الغذاء وتوازنه بين حيوانى ونباتى، وثانيها ما حققه ذلك من زيادة كفاءة كل جنس فيما تخصص فيه من عمل، وثالثها، ما يحققه ذلك من التعاون والتكافل، فصار كل من الذكر والأنثى محتاجًا للآخر، ويعمل على الالتقاء به مساءً لأكل الغذاء المشترك فى مكان اتفقا على الالتقاء فيه.

وقد كان اعتماد أسلافنا هؤلاء على الطعام النباتى أكثر من اعتمادهم على الطعام الحيوانى. فالنبات يُكَوِّن ما بين ٥٠٪ - ٨٠٪ من طعامهم حسب الموسم[١]. وكان الرجل يُعتبر محظوظًا جدًّا إذا اصطاد ستة حيوانات كبيرة فى السنة، وكان كثيرون منهم يفشلون فى صيد حيوان كبير واحد طوال حياتهم، وعند وجود عجز كان يتم الاستعاضة بالحيوانات الصغيرة كالأرانب، وعند اللزوم يسدون احتياجهم للبروتين الحيوانى بصيد السحالى والأفاعى. ولما كان هذا الإنسان لا يملك وسيلة لحفظ اللحوم فقد كان يشارك باقى الأُسر فى صيده، وهذه هى أفضل وسيلة لحفظ الطعام، إذ إن الأُسر الأخرى كانت تشركه فى صيدها القادم.

لقد **كان هذا النمط الغذائى مثالى**، يوفر للإنسان جميع احتياجاته، من البروتينات (الحيوانية والنباتية) والكربوهيدرات والدهون والفيتامينات والأملاح. كذلك كان انتقالهم وهجرتهم يستهلكان الكثير من السعرات الحرارية، فكان من النادر أن نجد بينهم من يُصاب بأمراض قلة الحركة؛ كالسمنة وتصلب الشرايين وأمراض القلب والأمراض النفسية، وهى المشاكل الصحية التى ظهرت بعد اختراع الزراعة ثم سادت فى المجتمعات الصناعية.

---

(١) يعتمد سكان صحراء كالاهارى اليوم كغذاء رئيسى على جوز المونجونجو، وهو يوازى فى قيمته الغذائية أفخر ما يُقدم على موائدنا الحديثة، كشرائح اللحم وفول الصويا. كما يعتمدون على جوز المارولا؛ وهو أغنى من جوز المونجونجو فى البروتينات (٣١٪) والأملاح. ثم تأتى ثمار نبات الصنوبر فى المرتبة الثالثة.

التكيف الفسيولوجى

قلت لبيتر فارب، إن ما تقول يعنى أن الجسد الإنسانى متكيف بشكل أكبر مع نمط حياة الصيادين وجامعى الثمار، وأن حياة الدعة فى المجتمعات الحديثة لا تتوافق مع تركيبه. وأنا أضيف ـ من دراستى لعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ـ أن الجسم الإنسانى قد زُوِّدَ بردود أفعال Reflexes تتناسب مع حالات الطوارئ التى كانت تواجه الصيادين وجامعى الثمار، كزيادة سعة الرئتين للهواء وسرعة خفقان القلب عند مواجهة الأزمات. ولكن هذه الميزة تتحول فى أجواء المدن العصرية إلى مَضَرَّة، نتيجة دخول الهواء الملوث إلى الرئتين. كذلك فإن ما يُفرَز فى الجسم من هورمون الأدرينالين الذى يزيد من كمية الدهون فى الدم لتكون وقودًا للعضلات فى حالة الطوارئ لا يتم حرقه فى الإنسان الحديث، بل يؤدى إلى السمنة، ويتحول بعضه إلى كوليستيرول قد يؤدى إلى إصابته بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب. كذلك فإن زيادة التوتر الذى يعين الصياد على أداء مهمته يمثل مشكلة كبيرة للإنسان العصرى، عليه أن يبحث لها عن علاج لدى الأطباء النفسيين.

حياتهم الاجتماعية

رفع فارب حاجبيه وهز رأسه مُؤَمِنا على ما أقول، فقلت له: لنقطع هذا الاستطراد الطبى ونعود إلى نمط حياة أسلافنا وقيمهم الاجتماعية. استطرد فارب قائلًا؛ فى الأرجح كان أسلافنا يعملون ما بين ١٢ - ٢٠ ساعة فى الأسبوع، وهو قدر تحسدهم عليه الحركات العمالية المعاصرة التى تفاخر بأن عمالها يعملون لمدة ٤٠ ساعة أسبوعيًّا فقط! وقد وفر لهم هذا وقتًا كافيًا كانوا ينفقونه فى التزاور والحوار والرسم وصناعة الملابس والحُلِى والموسيقى والرقص.

ولا يعرف هؤلاء الأسلاف مفهوم اختزان الطعام لأوقات الحاجة فى المستقبل! ولماذا يختزنون والأرض معطاءةً بسخاء، حتى إن مفاهيم الحرص والادخار لم تكن معروفة لديهم؛ لذلك نجد المعاصرين منهم يضحكون ويسخرون من النصائح التى يوجهها لهم بعض المبشرين بأن يمسكوا أياديهم قليلًا وأن يكونوا أقل بذخًا وإسرافًا. كذلك كان مفهوم الملكية الفردية الخاصة عندهم ضعيف، ومن ثَمَّ لا يسبغون مركزًا اجتماعيًّا راقيًّا على من يمتلك ثروة (لو امتلكها)[1].

(١) تروى كتب الأنثروبولوجيا قصة تعود لعام ١٩٧١، إذ أُكتشفت فى الفلبين جماعة من الصيادين وجامعى الثمار يسكنون الكهوف، وحاول الفلبينيون اكتساب ودهم، فوضعوا عددًا من السكاكين اللامعة على باب الكهف، وأخذوا يَحِثُون الرجال على أخذها، فأخذ كل رجل سكينًا وتبقت سكين واحدة على الأرض، رفضوا جميعًا أن يأخذوها، فهم لايتصورون أن يأخذ أحدهم سكينتين بينما لكل رجل آخر سكين واحدة!

ولعل أسلافنا هؤلاء كانوا من **أكثر الناس كلامًا وجدلًا**. وإذا زادت حدة الجدل وتوترت الأعصاب ـ حتى لتخال أنهم سيقتتلون ـ سرعان ما يهدأ الموقف، ويبدأ المتخاصمون فى الضحك وتُنسى الخلافات. أما إذا تجاوز الاختلاف حده، تَدَخَّل الآخرون لإصلاح ذات البين، وإذا فشلوا فى ذلك ـ وحتى لا يضطر المتخاصمان للاقتتال ـ يحزم أحدهما متاعه و«**يهاجر**» **ناقلًا ولاءه إلى جماعة أخرى**. ومن الواضح أنهم **يكرهون العنف** الذى يمكن أن يدمر جماعة قليلة العدد. لذلك لا يوجد فى ثقافتهم أية قصص تمتدح القتال، بل إن كلمة «حرب» غير موجودة ضمن مفرداتهم فى أغلب الجماعات، كما أنهم لا يعرفون ولا يمارسون أية ألعاب رياضية تنافسية.

ومن السمات المثيرة فى حياة الصيادين وجامعى الثمار أن **الكوارث الطبيعية** كالجفاف والفيضانات التى يمكن أن تسبب الهلاك لملايين الفلاحين، لا تؤثر فى حياتهم إلا قليلًا! ذلك أن بوسعهم إذا حلت بهم مثل هذه الكوارث أن يحزموا أمتعتهم القليلة وينتقلوا إلى مناطق أخرى.

لذلك فإن هؤلاء **كان يحكمهم «قانون تناقص المردود»**، ومعناه أن نقص الموارد الطبيعية ـ نتيجة للاستهلاك ـ يتطلب فى البداية جهدًا أكبر للحصول على الطعام، ثم يصير هذا الجهد غير مُجدى، فيضطرون إلى الهجرة إلى مكان آخر، حيث تتكرر ـ بعد فترة ـ نفس المشكلة. لذلك كان عليهم دائمًا أن يستخدموا متاعًا خفيف الوزن، لا يزيد على ١٢ كجم للشخص الواحد. كما أن مساكنهم الجديدة سهلة البناء، لا يحتاج الرجل لبنائها لأكثر من يوم واحد.

لماذا لم نعد نراهم؟

سألت بيتر فارب؛ إذا كان نمط حياة أسلافنا الصيادين وجامعى الثمار أسلوب حياة متكامل، وَفَّر للإنسان احتياجاته الاجتماعية والجنسية والنفسية والغذائية، فما بالنا نجد أن هذا النمط قد انقرض، أو كاد؟

هز فارب رأسه وقال: هذا سؤال شديد الأهمية، واجه علماء الأنثروبولوجيا، وبذلوا الجهود للإجابة عنه. يكمن سر التضاؤل السريع فى أعداد الصيادين وجامعى الثمار فى أن المزارعين ـ وهم أقوى من أولئك ـ ومن بَعْدِهم سكان المجتمعات الصناعية ـ وهم أقوى كثيرًا من الاثنين ـ **استولوا على الأراضى التى كان يعيش عليها الصيادون وجامعو الثمار**. وخلال عملية الاستيلاء **قُضِىَ على أعداد هائلة منهم**، إما مباشرة نتيجة قصور شديد فى الأسلحة وعدم

حبهم للقتال، وعندما اضطروا إلى ذلك كان الوقت قد فات. وإما بشكل غير مباشر نتيجة **استغلال أراضيهم** بحيث لم يعد هناك حيوانات تُصطاد ولا نباتات برية تُجمع ثمارها. كما ساعد فى ذلك أيضًا تَعَرُّض الصيادين وجامعى الثمار **لأمراض جديدة عليهم**، نقلها إليهم المستوطن الأوروبى (كالزهرى والسيلان والدرن) ففتكت بهم دون أن يكون لديهم مناعة ضدها. وساعد فى إفنائهم كذلك **تعرضهم لضغوط نفسية وعضوية** مختلفة لم يعهدوها من قبل.

لذلك نجد اليوم أن بقايا الصيادين وجامعى الثمار قد **أُكرهوا على التحول إلى الحياة الزراعية الفردية أو حياة العمال فى المدن**. والقلة القليلة منهم **انحشرت ـ كما لو كانوا معتقلين** ـ فى مناطق هامشية لا تصلح للزراعة، مثل صحراء كالاهارى فى أفريقيا والصحراء الوسطى الكبرى فى أستراليا، والغابات الاستوائية فى الكونجو وجنوب أمريكا، والمناطق القطبية فى سيبريا وشمال أمريكا.

إنتاج الغذاء

قلت لبيتر فارب؛ ذكرتَ أن نمط الحياة الذى يقوم على «الصيد وجمع الثمار» قد أخلى المسرح ـ مجبرًا ـ لنمط حياة يعتمد على «إنتاج الغذاء». ولا شك أن ذلك قد أحدث تغييرًا كبيرًا فى جميع مجالات الحياة، ولا شك أن إنتاج الغذاء يُعَد **أحد الخطوط الفاصلة العظيمة فى تاريخ الإنسان**، التى تحدد انتقاله من حالة إلى أخرى، فكيف تم هذا الانتقال؟

أجابنى فارب: لقد ظهر إنتاج الغذاء **بشكل مستقل فى مناطق متفرقة من الكرة الأرضية**، بالرغم من اختلاف الظروف الطبيعية بين هذه المناطق اختلافًا بَيِّنًا، والتى انعكست على نوع النباتات التى قام الإنسان بإكثارها فى كل منطقة[1].

وفى معظم أنحاء العالم لم يتطور إنتاج الغذاء إلى أكثر من **مستوى الكفاف** إلا مع بداية الثورة الصناعية. وحتى فى العالم الصناعى المعاصر، ما زال أكثر من نصف بنى الإنسان ينتجون غذائهم الضرورى باتباع أساليب زراعية بدائية بسيطة لا تسد احتياجاتهم.

(١) فى أريحا بفلسطين، حيث الطقس الدافئ الجاف بدأ الإنسان بزراعة القمح ثم الشعير، وفى شمال الصين البارد بدأ بزراعة الذرة البيضاء، وفى تايلاند الاستوائية ابتدأ بزراعة الأرز، وزُرعت الذرة الصفراء فى هضبة المكسيك الباردة الجافة، كما بُدئ بزراعة البطاطا فى جبال بيرو العالية. أما فى أمريكا الشمالية وسهول المكسيك فقد تركزت الزراعة حول الثلاثى الغذائى عالى القيمة: الذرة والفاصوليا والكوسة.

وقد اعتمد إنتاج الغذاء على **عملية التدجين**، التى هى **عملية تبادل منفعة** بين بنى الإنسان (المُدَجِّنين) وعدد من النباتات والحيوانات المفضلة (المُدَجَّنين). وفى هذه العلاقة، **يحصل الإنسان على كميات أكبر من الطعام (نباتات وحيوانات) وعلى بعض المواد الخام (كالقطن والصوف)**، عن طريق استحداث صفات جديدة مفيدة. فمثلًا لم يكن للأغنام صوف غزير قبل تدجينها، وكان الدجاج البرى لا يبيض إلا فى موسم معين، كما كانت الأبقار والجواميس البرية تدر اللبن الحليب عندما تُرضع صغارها فقط. وفى المقابل، **أفادت النباتات والحيوانات المُدَجَّنة** من عملية التدجين، فزادت أعدادها زيادة كبيرة واتسعت الرقعة الجغرافية التى تعيش فيها[١].

الإعداد لإنتاج الغذاء

وأضاف بيتر فارب؛ وقد سبقت عملية إنتاج الغذاء **مرحلة انتقالية** شهدت تغيرات هامة فى نمط حياة الإنسان، كما فرضت عليه استحداث عدد من التقنيات، التى مهدت إلى انتقال الإنسان ـ بشكل تلقائى ـ إلى مرحلة إنتاج الغذاء[٢].

وقد بدأت هذه التكيفات فى الظهور منذُ قرابة عشرين ألف سنة، ومن أمثلة ذلك ما حدث حين وجد أسلافنا فى بعض الأماكن وفرة فى القمح البرى، فتجمعوا بجوارها فى **مخيمات**

(١) لعل **تدجين الهنود الحمر للذرة** يُعتبر أعظم تغيير فى أى محصول فى العالم. فقد كانت الذرة البرية الأولى نبتة عشبية صغيرة تحمل كوزًا لا يزيد على حجم إصبع. واليوم يُنتج الإنسان حوالى ١٥٠ صنفًا من الذرة تنمو فى مدى واسع من المناطق مختلفة المناخ على طول العالم وعرضه. والذرة المدجنة اليوم عاجزة عن التكاثر (فتموت وتنقرض) بدون مساعدة الإنسان فى نثر بذورها، ذلك أن الكوز صار مُغَلَّفًا بعدة أغلفة (مثلها فى ذلك الموز والنخيل) كما صارت البذور ثابتة فى الكوز بشكل لا يسمح لها بالانتشار الذاتى. وتُعتبر هذه خسارة تحملتها تلك النباتات مقابل ما حصلت عليه من منافع.

وبالنسبة للحيوان، نجد أن الإنسان فى قارات العالم القديم نجح فى تدجين العديد من **الحيوانات الثديية الكبيرة**، كالأبقار والجواميس والجمال والماعز والأغنام والحمير والأحصنة وغيرها. بينما فى مناطق جنوب غرب الولايات المتحدة والمكسيك وأمريكا الوسطى كان الحيوان الوحيد الذى تم تدجينه هو **الديك الرومى**، بينما أوشكت الحيوانات البرية الكبيرة (كثور البافالو والأيائل والغزلان والماعز والأغنام) على الانقراض. وقد نجح الهنود الحمر فى تدجين **الكلب** واستخدموه فى أغراض مختلفة منها الأكل أحيانًا، ونتيجة لعجزهم من تدجين ثدييات كبيرة تأخر ابتكار المحراث لحرث الأراضى البكر لزراعتها.

وقد نجحت حضارات جبال الإنديز فى أمريكا الجنوبية فى تدجين ثلاثة من الحيوانات الثديية، اللاما لحمل الأثقال وأكل لحومها (كالجمال فى الشرق)، ولاما الصوف لصوفه، وخنزير غينيا للحمه، والأخير حيوان قارض سريع التكاثر سهل التدجين (كالأرنب).

(٢) يُعتبر ذلك نوعًا من «**التكيف المُسْبَق**»؛ والذى يعنى تطور طراز سلوكى وتِقَنِى فى وقت ما بحيث يصبح ذا فائدة واضحة فى المستقبل بعد تغير الظروف السائدة.

صغيرة، سرعان ما تطورت إلى قرى يسكنها مئات من الناس. أى أن **الاستقرار قد حدث قبل انتقال الإنسان إلى الزراعة**، ويعنى ذلك أن أسلافنا قد تدجنوا (استقروا) قبل أن يبدأوا فى تدجين النبات والحيوان.

ومن الناحية التقنية، طور الصيادون وجامعو الثمار **عددًا من الأدوات** التى أعانتهم فى حياتهم المستقرة الجديدة؛ مثل المناجل البدائية المصنوعة من حجر الصوان ليحصدوا بها القمح البرى، والهاون الحجرى ومدقته لطحن الثمار الجَوزية، وكذلك الأوعية الفخارية لتخزين الأغذية البرية. كل هذه الأدوات استخدمها الإنسان البدائى فى حصاد وطحن وتخزين الحبوب **عندما اتجه إلى الزراعة**.

والأرجح أن **تدجين النبات والحيوان كانا جزأين من عملية تَكَيُّف واحدة**، وأنهما استمرا يتطوران معًا. بل لقد ساعد تدجين الحيوان على حل مشكلة الغذاء الفائض الناتج عن تدجين النبات، فقد كان بالوسع إطعام هذا الفائض للحيوانات المدجنة، التى أصبحت بذلك مخزنًا حيًّا للحم واللبن والصوف.

ومنذ حوالى سبعة آلاف سنة، عندما صار إنتاج الغذاء منتشرًا فى العديد من بقاع الأرض، **ازدادت القرى الزراعية عددًا واتساعًا**، وقُطعت أشجار الغابات أو أُحرقت، وزُرعت الصحارى بالماء الذى جُلب إليها بقنوات الرى، كما رعت الحيوانات المدجنة الأعشاب فصارت الحيوانات البرية لا تجد ما تأكله فتركت المنطقة. لقد أصبح الفلاحون يعتبرون أن النباتات والحيوانات التى يتغذى عليها الصيادون وجامعو الثمار أعشابًا ضارة وحيوانات تسرق منهم مزروعاتهم، وبالتالى يجب القضاء عليها. وهكذا **تغيرت البيئة** حتى صار **من المستحيل على أسلافنا العودة إلى حياة الصيد وجمع الثمار** حتى لو أرادوا ذلك.

قلت لبيتر فارب، هنا سؤال يطرح نفسه؛ **لماذا لم تنشأ عملية إنتاج الغذاء فى وقت مبكر من تاريخ البشرية؟**. فأجابنى، لقد حَيَّر هذا السؤال الكثيرين، ويرجع تفسير ذلك جزئيًّا إلى ما ذكرناه من أن **عناصر الإعداد لم تكن قد اكتملت بعد**. ولكن الحافز الحقيقى لنشوء عملية إنتاج الغذاء يرجع إلى **ازدياد عدد السكان نتيجة لاستقرار الصيادين وجامعى الثمار** فى مخيمات حول المناطق الغنية بالقمح والذرة البرى، إذ أدى ذلك إلى زيادة معدل التبويض فى الإناث نتيجة لقلة بذل المجهود وقِصَر فترة إرضاع الأمهات للصغار بعد توافر الغذاء(١). فكانت النتيجة أن

(١) ثبت بالفعل أن المرأة فى مجتمع الترحال تلد ٤ - ٥ أطفال فقط فى حياتها، تزيد إلى ٥ - ٦ أطفال فى المجتمعات المستقرة.

زادت أعداد بنى الإنسان فى الشرق الأدنى فى الفترة من ١٠,٠٠٠ سنة إلى ٤٠٠٠ سنة مضت من حوالى ١٠٠ ألف نسمة إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسمة.

آثار إنتاج الغذاء

سألت بيتر فارب؛ وهل اقتصر انتقال الإنسان من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة إنتاج الغذاء على الحصول على كميات أوفر من الطعام، أم صحب ذلك تغيرات فى نمط المعيشة؟ فأجابنى: **لقد حدثت تغيرات جذرية فى أسلوب حياة الإنسان** فى الفترة ما بين ١٠,٠٠٠ سنة و٥,٠٠٠ سنة مضت تفوق عددًا وأهميةً التغيرات التى حدثت فى أسلوب حياته منذ أن خلقه الله إلى ما قبل ١٠,٠٠٠ سنة. فلقد حولت الزراعة الإنسان من نوع محدود العدد إلى نوع تكاد الأرض تضيق بعدده. ويرجع ذلك إلى ازدياد التبويض فى الإناث (كما ذكرنا من قبل)، بالإضافة إلى أن الصغير فى جماعة الصيد وجمع الثمار كان قليل الفائدة للجماعة فى جلب الطعام، بينما الصغار فى المجتمع الزراعى يقومون بمهام تعين الكبار، مما كان حافزًا لكثرة الإنجاب.

ونتيجة **لازدياد أعداد البشر وتزاحمهم فى المستوطنات ثم فى القرى** (وبعد ذلك المدن) **نشأت مخاطر صحية جديدة**. فقد أصبحت الميكروبات والطفيليات تنتقل بسهولة من إنسان لآخر، وأصبحت الحقول بيئة مفضلة للجرذان والبراغيث والبعوض (وكلها تنقل الأمراض)، بل إن الطيور والحيوانات المدجنة شاركت فى نقل الأمراض، وربما كان أكثرها شيوعًا السل الذى انتقل إلى الإنسان من الماشية عن طريق لحمها وحليبها. كما جلب غذاء الفلاحين الغنى بالكربوهيدرات والفقير بالبروتين أمراضًا مزعجة، كالكواشيوركور(١) والسمنة الزائدة وتسوس الأسنان، بالإضافة إلى إصابتهم بأمراض نقص الڤيتامينات كالبرى برى والبلاجرا والكساح.

كذلك صاحب إنتاج الغذاء **تغيرات ضخمة فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية**، بعد أن جلب هذا التكيف معه نظرة جديدة إلى الأشياء المادية. فإذا كان الصيادون وجامعو الثمار يجعلون الغذاء والمواد الخام والأراضى والأدوات مشاعًا بينهم، فقد اختلف الأمر مع نشوء الزراعة. لقد أصر باذر الحب أن يكون هو الذى يحصده، واقتصرت المشاركة والشيوع على أفراد العائلة الواحدة، **وأصبحت الملكية الفردية من أهم ما يعنى الفرد والمجتمع. نتيجة**

(١) Kwashiorkor: مرض يصيب الأطفال نتيجة لنقص البروتينات فى الغذاء.

لذلك، نشأت أنماط من السلوك لم تكن معروفة من قبل، مثل تَمَلُّك الفرد شيئًا لاستعماله الخاص، وحماية الممتلكات والدفاع عنها وتوارثها.

ونظرًا لأن بعض العائلات امتلكت أرضًا أكثر من غيرها، **اختفى مجتمع المساواة** الذى كان سائدًا بين الصيادين وجامعى الثمار، ليحل محله مجتمع فيه تباين كبير فى الثراء والقوة والمركز الاجتماعى. كما **أصبحت الثروة والنفوذ والمركز أشياء متوارثة**، ربما أعطت بعضَ الناس فى المجتمع سلطة سياسية وميزات اجتماعية لا علاقة لها بقدراتهم. ولأول مرة فى تاريخ الإنسان **انقسمت المجتمعات إلى أغنياء وفقراء وسادة ومَسودين.**

وعلى النقيض من تعدد المهارات التى كان كل صياد وجامع ثمار يمتلكها، فرض تكيف إنتاج الغذاء حدوث **تخصص فى المهارات وتخصص فى العمل**. وقد أدى ذلك إلى التعاون (بأجر وبدون أجر) بين أفراد المجتمع، وقلل مما كانت تتمتع به أُسر مجتمع الصيد وجمع الثمار من استقلال، ولا شك أن بدون هذا التخصص ما كان **للإنجازات التكنولوجية** أن تحدث وتتطور. كما ابتكر الإنسان أساليب غيرت **الخصائص الداخلية للمواد الطبيعية**، فقد أمكن تعديل خصائص الطين والمواد الخام المعادن لإنتاج الفخار والصينى والمعادن.

إن نظرة عابرة إلى الإنجازات التكنولوجية المعاصرة تبين **مدى ما يدين به العالم الحديث لمُنشئ إنتاج الغذاء**. فمن هندسة بناء (كالمعابد والأهرامات والقصور وسدود الرى وقنواته وأبنية المزارع ومرابض الخيل والطرق والتحصينات)، وتخطيط القرى (ثم المدن)، إلى صنع المحاريث وغيرها من الآلات والأدوات الزراعية، إلى العديد من النشاطات الصناعية مثل الغزل والنسيج وصنع الفخار والتعدين والعربات ذات العجلات، وابتكار الأوزان والمقاييس والسجلات....

الفصام ومشكلاته

وأضاف فارب؛ وإذا كان الحال **قد آل بعالمنا المعاصر إلى العديد من المشكلات المستعصية**؛ كالانفجار السكانى وتضاؤل المصادر الطبيعية وتلويث البيئة واستغلال مجموعات إنسانية لمجموعات أخرى، والموت جوعًا، والحروب وغيرها، فإن **جذور هذه المشكلات تنبثق من الانتقال من حياة جمع الغذاء إلى إنتاجه**. والعامل الرئيسى الذى يعيقنا عن إيجاد حلول لمشكلات عالم اليوم هو **التناقض الذى يعانى منه العقل الإنسانى. ذلك أن بيولوجيتنا وأمخاخنا وعقولنا قد تطورت خلال التكيف للصيد وجمع الثمار**، بينما **تبلورت أقوى معتقداتنا** الخُلُقية

والفلسفية خلال التكيف لإنتاج الغذاء، هذا التكيف الذى سمح لقدرات الإنسان بالتطور بحرية. أى أن بيولوجيتنا قد تشكلت فى ظروف مغايرة لتبلور معتقداتنا ولتطور إمكانياتنا. أليس هذا نوع من الفصام؟!

الفلاحون الدائمون

سمات مجتمع الفلاحين

قلت لبيتر فارب: إذا كان قطار التطور قد وصل بالإنسان إلى إنتاج غذائه وإلى السُكنى فى القرى، وكان أن حل الفلاحون مكان الصيادين وجامعى الثمار، فإن قطار التطور لم يغادر هذه المحطة بعد، وما زال أكثر من نصف سكان الأرض (خاصة فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية) يعيشون حياة زراعية. ثم سألته؛ **هل يشترك هؤلاء الفلاحون المنتشرون فى كل بقاع الأرض فى نمط حياتى واحد، أم تتنوع أنماط حياتهم** ـ كما تتنوع مزروعاتهم ـ تبعًا للظروف البيئية والاجتماعية؟

أجابنى فارب: **لا شك أن الفلاحين فى طول الكرة الأرضية وعرضها يتشاركون فى خصائص وصفات أساسية معينة**، وفى الوقت نفسه **هناك تنوع ملفت للانتباه فى تفاصيل حياتهم**، نتيجة لاختلاف الظروف البيئية والسمات الحضارية والحوادث التاريخية التى تعرضوا لها، مثل الحروب والثورات والمجاعات والأوبئة، وأيضًا اعتناق دين جديد.

وللأسف، فإن معظم أسلافنا (وإخواننا) الفلاحين **قد تعرضوا لظلم بَيِّن**. فمع نشوء الدول فى العالم القديم، قام الحكام ببسط حمايتهم على القرى الزراعية المجاورة مقابل حصة مجزية من ناتج الأرض والبضائع المصنوعة، بالإضافة للعمل الإجبارى فى المشاريع العامة. غير أن شهية الأقوياء عادة لا تشبع، فسرعان ما صادروا الأراضى، وأنشأوا طبقة الإقطاعيين، **وأُخذ الفلاحون عبيدًا**. وعلى ركام هذا الفقر والمعاناة قامت إمبراطوريات السومريين والبابليين والمصريين القدماء واليونان والرومان وغيرهم.

لقد صار لزامًا على الفلاحين **إطاعة كل أمر يصدره الحكام، وقبول الإجراءات التعسفية التى تؤثر بشدة فى حياتهم**. ففى معظم دول العالم فى القرون الوسطى، كان محظورًا على الفلاحين تغيير أماكن سُكناهم، وكانت هناك قيود على أنواع الأسلحة التى يُسمح بحملها، وأنواع الثياب

التى يلبسونها وحتى الأطعمة التى يتناولونها. ولم يكن يُسمح لهم بطحن حبوبهم التى أنتجوها أو بيع حيواناتهم التى ربوها أو تزويج بناتهم، إلا بعد الحصول على إذن من السيد الإقطاعى.

ونتيجة لشدة الفقر، كان متوسط ما يحصل عليه الفرد من الفلاحين الحقيقيين من **السعرات الحرارية** لا يتجاوز ١٦٠٠ سعر حرارى فى اليوم، أى **نصف احتياجاته اليومية**، مع **نقص شديد فى البروتينات والعناصر الغذائية المختلفة**، فلم يكونوا يأكلون اللحوم إلا لِمامًا. لذلك فالفلاحون ـ بشكل عام ـ **صغار البنية**، وقد شارك فى ذلك شيوع الأمراض الطفيلية المعوية نتيجة قلة العناية الصحية والطبية.

وقد أكسبت هذه الظروف الحياتية الفلاحين **نمطًا سلوكيًّا يكاد يكون متشابهًا عبر العالم**، فتجدهم محافظين وفرديين وغيورين وشكاكين ومتطيرين، وفى الوقت نفسه فهم يهتمون بالصداقة الحقة وبصورة رجولتهم. وإذا كانت عائلة الفلاح تعيش كأنها وحدة مكتفية بذاتها، فهى تحرص على توسيع دائرة علاقاتها عن طريق النسب. كما يعمل العديد من الفلاحين فى مهن إضافية فى غير أوقات البَذر والحصاد، حتى يزيدوا من دخولهم، سواء فى قراهم أو فى أماكن بعيدة. وينجب الفلاحون كثيرًا، بأمل أن يساعدهم أولادهم فى أعمال الفلاحة، خاصة أن تكلفة تنشئة الأطفال ضئيلة للغاية، وأن معدل وفَيَاَتهم مرتفع لقلة ما يلقونه من رعاية صحية.

وينجذب الفلاحون اليوم نحو الحضارة الحديثة، وبالرغم من أن بعض علماء الاجتماع يتنبأون باختفاء نمط حياة الفِلاحة كليًّا فى العصر التكنولوجى، إلا أن ذلك لا يبدو وشيكًا. فما زال ـ مثلًا ـ يتم الحصول على تسعة أعشار المحصول الزراعى فى دول الاتحاد السوفييتى السابق بالأساليب اليدوية البدائية. كذلك **سيظل ميزان الإنتاج والاستهلاك مختلًا لفترة طويلة**. فبالرغم من التناقص الحقيقى فى موارد الطبيعة، فإن ٨٠٪ من إنتاج البشرية يستهلكه ٣٠٪ من البشر هم سكان المجتمعات الصناعية، وليس من المتوقع اعتدال هذا الميزان فى القريب؛ إذ أن **الدول النامية لا تستطيع تقليد ما أنجزته الدول المتقدمة من تحويل الفِلاحة البدائية البسيطة إلى عمليات تكنولوجية ذات كفاءة عالية**، إذ حققت الدول المتقدمة ذلك عن طريق السياسة الاستعمارية التى سمحت بتراكم رؤوس أموال كبيرة وتوفير مواد خام صناعية، وإيجاد أسواق شاسعة لتصريف المنتجات، وهذا ما لا تستطيعه الدول النامية.

الثورة المدنية

مقدمات الثورة ومسارها

قلت لبيتر فارب: نأتى الآن إلى المحطة التالية فى رحلة الإنسان الحضارية. فبعد أن انتقل الإنسان من الحياة الحرة الطليقة التى مَيَّزت نمط معيشة الصيادين وجامعى الثمار، إلى الحياة المستقرة المتحفظة للمزارعين، فإنه قد انتقل إلى الحياة فى المدن، ونَصِفُ هذا النمط من الحياة بـ«**التمدن**». فكيف تمت هذه النقلة الهائلة؟

أجابنى فارب:

كما حدث فى نَشْأَةْ الزراعة، فقد **نَشَأَت الحضارة المدنية بشكل مستقل فى عدة مناطق من العالم**. ويعتقد معظم الأنثربولوجيين أن الزراعة قد نشأت أولًا، ثم نشأت القرى الزراعية، ثم تطورت إلى البَلدة، وأخيرًا المدينة، وذلك يعنى **أن المدن كانت طفيليات تطفلت على الزراعة**. إلا أن بعض المدن القديمة نشأت ونمت **بعيدًا عن المناطق التى تطورت فيها الزراعة** بمئات الأميال، كما حدث فى حضارات ما بين النهرين العظيمة قرب مصب نهرى دجلة والفرات، فقد نشأت ـ مثلًا ـ مدينة (شانيدار) فى العراق قبل حوالى ١١,٠٠٠ سنة على «**صناعة**» زينات معدنية دقيقة.

وقد كانت «**التجارة**» **من أهم العوامل التى أدت إلى نشأة الحياة المدنية**. فقد استقرت مجموعات كثيفة من السكان قرب مصادر **المواد الخام**، وأخذ الناس يدافعون عن حقهم فى تلك المواد، ويقومون **بتصنيعها إلى أدوات** يمكن الاتجار بها فى مقابل منتجات زراعية. وقد كانت **أريحا** (فى فلسطين) بلدة من هذا النوع، قامت منذ حوالى عشرة آلاف سنة، على تجارة الملح والقار والكبريت المستخلَصَة من البحر الميت. بهذا الأسلوب نشأ النظام التجارى فى العالم القديم، وعبر طرق التجارة انتشرت الاختراعات والمهارات والمعتقدات.

وقد تضمنت التجارة فى ثناياها إمكان النهب والسلب، لذلك **زُوِّدَت المدن التجارية الهامة بتحصينات دفاعية**، مثل أسوار أريحا التى بُنيت منذ ١٠,٠٠٠ سنة. وقبل ٦٣٠٠ سنة حدث تغير رئيسى فى الشرق الأدنى، فبدأ بناء ثكنات للجنود بالإضافة للقلاع والتحصينات، مما

يشير إلى نشوء **طبقة متخصصة من الجنود** تبين أن الحرب والرغبة فى السيطرة صارت جزءًا من صميم الحياة المدنية القديمة.

وقد كانت **الكُلفة الاقتصادية للإبقاء على جيش على أهبة الاستعداد (وما زالت) باهظة جدًّا**، فأُلقى **على كاهل الفلاحين** عبء هائل من أجل توفير الغذاء والسلاح وتغذية الجيش بالأبناء. وقد اشتبكت المدن القديمة فيما بينها فى **سلسلة من الحروب** المتتالية، فالمنتصر الذى نهب اقتصاد المهزوم أصبح هدفًا يطمع فيه الآخرون، لذلك ذكر أفلاطون فى كتابه «القوانين» أن كل مدينة فى حالة حرب طبيعية مع كل مدينة أخرى، وبذلك **أصبحت الحروب ومتطلباتها هى المتحكم فى تشكيل بنية المدينة المادية**، كما أدت فى نهاية المطاف إلى اندثار **الحضارات القديمة** الواحدة تلو الأخرى.

ولأول مرة فى التاريخ الإنسانى **تمكنت أقلية صغيرة جدًّا (الطبقة الحاكمة) من السيطرة على الأغلبية التى كانت تعيش داخل أسوار المدينة، وأيضًا على أولئك الذين كانوا يعيشون فى الأقاليم التابعة للمدينة مهما امتدت رقعتها**. كما **صار التاريخ يحتفل بالأقلية الصغيرة المتحكمة** ويسجل أسماء أفرادها، فصارت الفتوحات تُنسب إلى الإسكندر الأكبر وقمبيز، وبناء الأهرامات يُنسب إلى زوسر وخوفو وخفرع ومنقرع. بينما لا يذكر التاريخ أسماء الذين حققوا إنجازات محورية فى تاريخ البشرية، كاكتشاف النار واختراع العجلة واستخدام النحاس والحديد. ويرجع ذلك أيضًا إلى أن الذين كتبوا التاريخ هم أناس عاشوا فى المدن وكتبوا عن الحياة التى عرفوها، حياة الطبقات الحاكمة فى المدن الكبرى، وليس حياة الفلاحين المجهولين الذين يَكِّدون فى الحقول والمحاجر وفى تشييد المعابد والقصور، ويُقْتلون فى الحروب.

نشأة وتطور الكتابة

قلت لبيتر فارب، من الملاحَظ فى عصرنا الحديث ارتباط الإلمام بالقراءة والكتابة بحياة المدينة أكثر من حياة القرية، **فهل كان للثورة المدنية علاقة بظهور الكتابة**؟. فأجابنى:

لقد دفعت الحياة المدنية نشأة الكتابة وتطورها وانتشارها خطوات واسعة للأمام، فقد كانت ضرورية لتسجيل المعاملات المالية وكذلك لإعطاء القوانين والقرارات الإدارية صفة الديمومة والذيوع.

وقد **نشأت الكتابة** (منذ قرابة ٧-٨ آلاف سنة) فى منطقة واسعة تمتد من بلاد ما بين النهرين

شمالًا إلى الشرق الأدنى شرقًا إلى مصر جنوبًا. وكانت الكتابة فى البداية عبارة عن (**رسوم للأشياء**)، كأن يُرسم بيت ويكون ذلك بمثابة كتابة لكلمة (بيت). وبعد فترة تطورت الكتابة إلى (**رسم الأفكار**)، أى الترميز للفكرة والمعانى المجردة باستخدام رسوم تخطيطية. فدائرة الشمس فى نظام رسوم الأشياء تُعبر عن الشمس، أما فى نظام رسم الأفكار فيصبح رسم الدائرة رمزًا للحرارة أو الضوء أو إله الشمس أو النهار. ثم قام المصريون القدماء والصينيون بتطوير كتابتهم بالنظامين السابقين لتشمل **بعض رموز الأصوات**، مما وَسَّع من مجال استخدام هاتين اللغتين.

ومنذ حوالى ٣٥٠٠ سنة طَوَّرَت **الشعوب السامية** (ومنهم العرب والفينيقيين) نظامًا مختلفًا للكتابة، عبارة عن **أبجدية تعتمد على الحروف وأصواتها**، بدلًا من صور الكلمات ورسومها، كما **أُدخلت كتابة حروف العلة** بعد أن كانت مفهومة ضمنًا. وبعد جهد كبير نجح الرومان فى تحوير الأبجدية اليونانية (وريثة الفينيقية) ليكتبوا بها لغتهم اللاتينية. ثم تبنت معظم شعوب أوروبا وكثير من شعوب العالم الأبجدية اللاتينية لكتابة لغاتها.

لقد كان **اختراع الكتابة وتطويرها** نقطة تحول كبرى فى التاريخ الإنسانى، إذ **سمح بالمحافظة على المعارف الإنسانية وتوارثها وتراكمها، كما سمح بتواصل أفضل بين الناس**.

آثار الثورة المدنية

قلت لبيتر فارب؛ لقد استعرضت مقدمات الثورة المدنية ومسارها، وكذلك العلاقة المتبادلة بينها وبين نشأة الكتابة، ولا شك أنه كان لهذه الثورة تأثير عميق فى مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فهلا حدثتنى عن تلك التأثيرات.

قال بيتر فارب، لقد **خلقت المجتمعات المدنية وحدات اجتماعية**، ذات حجم وتعقيد ما كان يمكن لمنتجى الغذاء تصورهما. فقد انقسم المجتمع إلى **حاكم ومحكوم، وقوى وضعيف، وغنى وفقير... كما حدث تغير ملحوظ فى مركز الإناث**، فبعد أن كانت الأنثى جامعة الثمار أو المشاركة فى إنتاج الغذاء على قدم المساواة مع الرجل، أصبح دورها الرئيسى فى الحضارة المدنية هو **إنتاج المزيد من النسل**، لتعويض الجنود الذين يُقتلون والعمال الذين يمرضون نتيجة لظروف المعيشة غير الصحية.

كذلك خلق نشوء المدن **نوعًا جديدًا من العلاقات الشخصية**، ليسمح بتعايش أفراد المجموعات السكانية الكثيفة. ففى مجتمعات الصيد وجمع الثمار، إذا اشتد النزاع هجر الفرد

المجموعة وانضم لمجموعة أخرى، لكن ذلك ليس ممكنًا فى المدن. لذلك وجب على الناس الذين حُشروا فى رقعة ضعيفة أن **يلتزموا بالمزيد من التأدب والتهذيب والتلطف، كما قُنّن السلوك ووُصِّف بقوانين فُرضت من الأعلى**، بعد أن أصبحت الأعراف والتقاليد وحدها غير كافية لتنظيم الحياة. وعادة ما تكون هذه العلاقات ذات غاية نفعية، لذلك ينظر ساكن المدينة إلى الناس لا من زاوية شخصياتهم بل من زاوية الأدوار التى يقومون بها فى المجتمع والحياة.

وإذا كان اهتمام الصيادين وجامعى الثمار، ومن بعدهم منتجى الغذاء، متوجه فى المقام الأول **إلى البيئة**، فقد **أبرزت الحضارة المدنية اهتمام الإنسان بالإنسان**، أى صارت العلاقات علاقات اجتماعية وليست علاقات بيئية طبيعية أو حتى تكنولوجية. وعلى النقيض شاعت فى الحياة المدنية المعاصرة ظاهرة شديدة السلبية تُعرف **بظاهرة (لامبالاة المشاهد)** والتى تعكس قدرًا هائلًا من الأنانية وعدم المبالاة بالآخر فى محنته[1].

وفى الحياة المدنية، **يشغل كل فرد مركزًا محددًا بدقة**، كأن يعمل خادمًا أو صانعًا أو تاجرًا أو جنديًّا أو موظفًا أو عضوًا فى المؤسسة الدينية... ونتيجة لهذا **التخصص** صار كل فرد يتقن عمله بشكل ممتاز، فازداد الإنتاج عدة أضعاف، واتسم بالابتكار والتجديد. وقد أدى ذلك إلى ظهور أحياء فى المدينة تُمارَس فيها صناعات وتجارات معينة؛ كالصاغة والوراقين والحدادين وغيرها.

وأضاف فارب، أما بالنسبة **لبنية المدينة وتنظيمها**، فقد استمر الناس لآلاف السنين يبنون مدنهم بتصميم هندسى متشابه إلى حد كبير، رغم أنهم عاشوا فى ظل أنظمة سياسية مختلفة ومذاهب شتى، **ويشمل هذا التشابه تصميم الأبنية وتخطيط المدن**، وكذلك **النشاطات التى تمارس داخل أسوارها**. وقد **كانت مدن الشرق الأدنى الأقدم أفضل فى كل مناحيها من مدن أوروبا الأحدث منها**. فقد كانت شوارع الأولى أفضل رصفًا، وأنظمة المجارى أكثر كفاءة، وموارد المياه أغزر، والأحياء أحسن تخطيطًا، والبنايات أكبر وأفخم. حتى إننا نجد أن مدينة موهنجو ـ دارو، التى بنيت قبل ٥٥٠٠ سنة على ضفاف نهر الأندوس كانت أفضل فى كل تفاصيلها من مدينة باريس فى عهد لويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥م).

(١) ومثال هذه الظاهرة حادثة وقعت عام ١٩٦٤ بإحدى مدن الولايات المتحدة واشتهرت كثيرًا، وراحت ضحيتها فتاة فى ريعان الشباب، بعد أن هاجمها شخص أمام منزلها، فراحت الفتاة تصرخ وتستغيث. وبالرغم من أن ما لا يقل عن ٣٨ شخصًا من جيرانها قد سمعوا صراخها واستغاثتها، فإنهم وقفوا يطلون من نوافذ منازلهم يراقبون الحادث، ولا يتدخلون لإنقاذها أو حتى لاستدعاء الشرطة. وقد برر هؤلاء سلبيتهم بأسباب متعددة، منها: فقدان شعور التعاطف مع الآخرين، والخوف، واللامبالاة وخشية إضاعة وقت كثير!... ولا شك أن كلها أسباب حقيقية، نضيف إليها أن كل مُشاهد كان يفترض أن شخصًا آخر سيتدخل، وكانت النتيجة عدم تدخل أحد!

وحتى زمن قريب، **ظلت المدينة على ما كانت عليه منذ آلاف السنين**، أى مجموعة قرى صغيرة، بها حدائق صغيرة وحيوانات مدجنة ومشاعل لإضاءة الشوارع وأسواق؛ بالإضافة إلى منازل مهلهلة مكدسة بالفقراء وبجوارها منازل فخمة للأغنياء. وكان الناس فى نفس الحى يعرف بعضهم بعضًا ويرتبطون معًا اقتصاديًّا، ويشربون من نفس بئر الماء، وغالبًا ما كانوا يُدفنون متجاورين فى نفس المقبرة.

وقبل قرنين من الزمان حدث **تغير جذرى فى بنية حياة المدينة تحت ضغط التصنيع**. فنشأت **مُدن المصانع** (مثل مانشستر وبرمنجهام فى بريطانيا) شيئًا مختلفًا تمامًا، إذ زالت عنها سمات المدينة القرية، فتزايدت الهوة بين طبقات المجتمع، بعد أن لم يعد هناك أية صلة بين أصحاب المصانع وعمالها. لذلك **نَشَأَت الضواحى نقية الهواء** التى يسكنها الأثرياء، وبقى الفقراء يعيشون فى بؤس وقذارة بالقرب من الأحياء الصناعية الملوثة، أو يسكنون فى مناطق خَرِبَة متداعية تمثل الأحياء القديمة فى وسط المدينة والتى هجرها منذ زمن مَن أنعم الله عليهم.

أما **الآثار البيولوجية لنشأة الحياة المدنية** (على خطورتها) فهى أقل شيوعًا من التغيرات الاجتماعية. وأهم هذه الآثار **انتشار الأمراض المُعدية واستفحالها** (مثل الكوليرا والجدرى والحصبة وشلل الأطفال وجديرى الماء)، ويرجع ذلك إلى سهولة العدوى فى المدن المزدحمة، بالإضافة إلى تجمع النفايات والفضلات التى توفر ظروفًا مثالية لانتشار العدوى. لذلك كانت الأمراض تحدث على هيئة أوبئة تقتل آلاف البشر[1].

ولما كانت الأمراض والمجاعة سببًا فى ارتفاع معدل الوفيات فى المدن، فقد كان السبيل الوحيد لتعويض ذلك الهجرة من **الريف إلى المدينة**. وقد وَلَّد ذلك **ضغوطًا على النظام الاجتماعى برمته**، سواء لأهل المدينة الأصليين أو للمهاجرين؛ لاختلاف عادات وأنماط سلوك كل منهم. **فكانت النتيجة أن أصبح العالم أكثر تمدينًا، وفى الوقت نفسه فقد إنسان المدينة الكثير من إنسانيته.**

---

(١) لعل أفظع وباء أصاب سكان المدن كان «**الطاعون**». فقد بدأ فى مصر عام ٥٤٠م. ووصل إلى بيزنطة (إستنبول) عام ٥٤٢م، فأدى إلى ١٠,٠٠٠ حالة وفاة فى اليوم الواحد. وكانت النتيجة أن قُتل نصف سكان الإمبراطورية البيزنطية خلال ٢٥عام.

والأشد فتكًا من طاعون بيزنطة كان **الطاعون الذى لُقِّبَ بالموت الأسود**، والذى بدأ عام ١٣٤٦ وانتهى عام ١٣٦١، بعد أن انتشر فى جميع أنحاء أوروبا وامتد إلى أفريقيا والصين. وقد قتل قُرابة عُشر سكان المناطق البريطانية المزدحمة، أما مدينة أفينون الفرنسية فلم ينجو من الموت غير ربع سكانها فقط.

هل من إيجابيات للثورة المدنية؟!

قلت لبيتر فارب؛ إن استعراضك لتوابع الثورة المدنية يبين أنها قد أفرزت عددًا من السمات، منها: التركيز الكثيف لعدد السكان، وإنتاج فائض من الغذاء، ووجود سلطة سياسية مركزية، وعدم المساواة بين الناس اجتماعيًّا، وانتشار الأمراض، مع تقدم الهندسة المعمارية والتجارة وتطور الكتابة. ومع ذلك لمست من عرضك أن **نظام المدينة ملىء بالسلبيات، أما من إيجابيات؟!**

أجابنى فارب: **بالرغم من العديد من سلبيات المدينة، فلا يمكننا إهمال ما حققته حياة المدينة من فوائد**، ومنها أن الإنسان قد تمكن لأول مرة فى تاريخه من **التحكم (جزئيًّا) فى بيئته الطبيعية**، فحُمِيَت المدن من أخطار الفيضانات، وخُزِّنَت المياه لمواجهة ندرتها فيما بعد، وأحالت مصابيح الشوارع الليل نهارًا...

كذلك نسجت الحضارة المدينة **مجتمعًا يحكمه القانون والعدالة**، فعاشت أعداد كبيرة من الناس **معًا فى وئام نسبى**. كما وَجَّهَت المدينة الطاقات الإنسانية العشوائية وجهات محددة، فتكونت **ثقافات مختلفة ومؤسسات اجتماعية مختلفة الأنشطة**.

وقد وَسَّعت المدينة مدى **نشاطات الإنسان**، وتمكنت من **اختزان المعرفة** بشكل متزايد **ونقلها** إلى الأجيال القادمة، من خلال تطوير المكتبات والسجلات والمتاحف. كما حققت شبكات الطرق ووسائل المواصلات للإنسان **انتقالًا سريعًا**، صاحبه انتقال الأفكار والابتكارات.

وأضاف فارب قائلًا: ولا شك أن هذه الإيجابيات والسلبيات للحياة المدنية تتفاوت من حضارة لأخرى، وتستطيع أن ترصد هذه السمات فى مدينتكم القاهرة إحدى أشد مدن العالم ازدحامًا.

محصلة التمدن محزنة

سألت بيتر فارب، إذا وازَنَّا سلبيات التمدن وإيجابياته، فما محصلة تلك الموازنة؟

أجابنى فارب قائلًا: أرى أن طراز حياة المدينة لا يقدم للجنس الإنسانى ميزات تشجعه على الاحتفاظ بها بالمدنية. **ومن ثَمَّ لم يعد من وسيلة للتخلص من مشكلات التمدن إلا التخلص من هذه الفكرة** التي **عفى عليها الزمن**، وهى **فكرة المدينة نفسها!!**

قلت لفارب: مالى أراك تسىء الظن بـ «التمدن» إلى أقصى حد؟

أجابنى: لقد أخطأ الإنسان خطأً كبيرًا حين قصر مفهوم التمدن على الحياة فى المدن، بما يصحب ذلك من سلبيات وإيجابيات. **إن التمدن (فى نظرى) هو أن يصبح الإنسان أكثر انسجامًا مع فطرته.**

وقد عَبَّرَ توماس جيفرسون[1] عن ذلك فى أحد رسائله لصديق عام ١٧٨٧م، قائلًا: «أعتقد أن حضارتنا ستبقى فاضلة لقرون عديدة مادامت زراعية بشكل رئيسى». وفى القرن العشرين نجد فرانك لويد رايت[2] يكتب عن الإنسان المدنى قائلًا: «**إذا كان ما وصل إليه الإنسان هو التمدن، فإنه يكون قد أضاع الهدف الحقيقى للوجود الإنسانى الطبيعى. وهو بذلك لم يقبل بوسائل بديلة لتحقيق وجوده فحسب، بل قَبِل بأهداف وغايات بديلة أيضًا**». أى أنه قد ضل الطريق.

ذكرنى ما قاله بيتر فارب بالأسرة التى أعرفها والتى بدأت بحكايتها هذا الفصل.

التحـــديـث

خلال القرن الأخير، تغيرت الحياة الإنسانية فى كل مناحيها بسرعة أكبر وبشكل أشمل مما حدث خلال العشرة آلاف سنة السابقة، لذلك كان العالَم المألوف للشاب يصبح غريبًا عندما يصير شيخًا عجوزًا! ولعل عدم القدرة على التعامل مع مجتمع ديناميكى سريع التغير هو السبب الرئيسى فى **الفوضى والاغتراب وعدم الرضا السائدين حولنا**.

نقلت هذه الأفكار والهموم لبيتر فارب، وسألته عن حقيقتها وخلفياتها وعلاجها؛ فأجابنى: **لقد كان معيار التقدم عبر التاريخ وحتى قرون قليلة مضت، هو مدى نجاح التكيف فى تلبية احتياجات المجتمع، ثم ظهر فى الفترة الأخيرة معيار جديد يُقرن التقدم بالتغيير السريع بغض النظر عن نتائجه!**

وكثيرًا ما تُوَصف التغيرات الحديثة بنعوت «**الأوروبية**» و«**الغربية**» و«**التصنيعية**»؛ لأنها واكبت الثورة الصناعية فى أوروبا الغربية. والحقيقة أن التغيرات المتسارعة الجديدة تشمل المجتمعات الأوروبية وغير الأوروبية.

---

(١) توماس جيفرسون Thomas Jeffereson (١٧٤٣ - ١٨٢٦م) من مؤسسى الولايات المتحدة الأمريكية، والواضع الأساسى لإعلان الدستور الأمريكى، وثالث الرؤساء الأمريكيين.

(٢) فرانك لويد رايت Frank Lloyd wright (١٨٦٧ - ١٩٥٩م): معمارى أمريكى كبير، صمم العديد من البنايات الهامة، من مدرسة التصميم المتناسق مع الطبيعة.

وقد قامت (وتقوم) **عملية التحديث Modernization على ثالوت مترابط: التوسع المستمر فى المعرفة، وتطبيق هذه المعرفة فى التكنولوجيا، واستعمال كميات متزايدة من الطاقة.** ولعل **التوصل إلى مصادر جديدة للطاقة واستعمالها بطرق مبتكرة** هو ما يميز المجتمع الحديث عن أى مجتمع سابق.

معايير التحديث

أضاف بيتر فارب، يستخدم علماء الاجتماع عددًا من المقاييس للحكم على مدى التحديث، من أهمها **عدد الأشخاص الذين يعرفهم الفرد بشكل مباشر**. فمنذ قرن من الزمان كان عدد من يعرفهم الإنسان لا يتجاوز بضع مئات أو عشرات من أقاربه وجيرانه والتجار والأصدقاء فى المجتمعات القريبة منه. ومنذ نصف قرن، صار الإنسان (عن طريق وسائل الاتصال المختلفة) يعرف وجه رئيس حكومة أجنبية أو لاعب كرة أو مطرب شهير أكثر مما يعرف وجوه بعض جيرانه. واليوم حدثت طفرة ثورية، فصار الفتى يصادق فى كل دولة من دول العالم (عن طريق شبكة المعلومات) عددًا من الأفراد يزيد على كل من كان يعرفهم والده!. كذلك أتاحت وسائل الاتصال الفورى نقلًا آنيًّا للآراء والأخبار.

ومن المقاييس المهمة الأخرى لمدى التحديث، **مقدار ما يستخدمه الشخص من طاقة**. ففى ظل عملية التحديث أُستعملت الطاقة بنسبة تفوق كثيرًا النمو السكانى، حتى ازداد استهلاك الفرد منها بأكثر من خمسة أضعاف فى النصف الثانى من القرن العشرين. وفى عام ١٩٧٥، كان الفرد فى الولايات المتحدة **يستهلك قدرًا من الطاقة يعادل طاقة مائتى عبد يقومون بأعمال شاقة.**

لقد كان الناس فى حياة الصيد وجمع الثمار وكذلك المراحل المبكرة من الزراعة يستعملون **قدراتهم العضلية**، ويعتمدون على التغذى على النبات والحيوان لتوفير الطاقة لعضلاتهم. ثم استغلت الأنظمة الزراعية المتقدمة نسبيًّا **مصادر إضافية**، كطاقة الحيوانات لجر المحاريث، وطاقة الماء لطحن الحبوب، وطاقة الهواء لتشغيل أدوات الرى. أما المجتمع الحديث **فيستخرج الطاقة من مصادر مختلفة تمامًا**؛ كالفحم، ثم النفط والغاز الطبيعى والكهرباء، ثم الطاقة النووية التى زَوَّدَت الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ بقدر من الطاقة يساوى ما أنتجته المصادر الأخرى مجتمعة فى عام ١٩٤٠.

خدعة تحديثية تكنولوجية

سألت بيتر فارب: وهل أَدَّت ميكنة الزراعة وما صاحبها من تطور فى مصادر الطاقة إلى مردود زراعى أعلى؟ فأجابنى: من المقاييس التى تُستخدم للحُكم فى هذه القضية هو **مقارنة ما يُنفق من الطاقة بما ينتج من طاقة الغذاء، خاصة الحبوب**. وقد تبين أن **الزراعة الفلاحية التقليدية** تُنتج حوالى ١٠ سُعرات (كالورى) من الطاقة مقابل كل سُعر يُستهلك فيها من طاقة الفلاح، بينما تُنتج **الزراعة الآلية الحديثة** قُرابة ٦٠٠٠ سُعر من الطاقة مقابل كل سُعر مبذول فيها من جهد الفلاحين.

لكن ما يبدو من كفاءة المزرعة الحديثة ليس إلا وهمًا! ويتضح ذلك إذا أضفنا الطاقة المُستهلكة من مصادر خارجية إلى ما يبذله المزارعون من طاقة. فالفدان الواحد فى مزارع الولايات المتحدة الحديثة يستخدم ١٥ طنًا من الآلات الزراعية تستهلك ٤٤٠ لترًا من البترول، ويحتاج ٢٠٣ رطل من السماد. ويعادل ذلك ثلاثة ملايين سُعر حرارى. وبحسبة بسيطة نجد أن علبة صغيرة من الذرة الصفراء التى تعطى ٢٧٠ سُعرًا تستهلك ٢٧٩٠ سُعرًا، وأن شريحة من لحم البقر تنتج نفس الكمية من السُعرات (٢٧٠ سعرًا) تحتاج إلى ٢٢,٠٠٠ سُعرًا!!

وإذا كان عدد من يعملون بشكل مباشر فى الزراعة قد قل بقدر كبير، فإن هناك أشخاصًا آخرين يعملون فى المصانع التى تنتج الآلات الزراعية والأسمدة الكيماوية، وفى سكك الحديد وسيارات الشحن التى تنقل المنتجات من وإلى المزرعة، وفى مصافى البترول... إلخ، معنى ذلك أن إنجازات الزراعة الحديثة لم تتحقق عن طريق خفض الجهد الإنسانى، بقدر ما تحققت نتيجة **لنقل ذلك الجهد من المزرعة إلى مجالات أخرى من الاقتصاد القومى!**. وإذا كان الفلاح حتى قرن مضى يُعتبر قمة فى الاكتفاء الذاتى، فإنه فى المُزارع الحديث **يعتمد على النظام الاقتصادى العام كأى موظف مكتبى فى أية مدينة كبرى!**

وينبغى ألا ننسى أن الكثير من **الأيدى العاملة التى تم توفيرها من الزراعة** تتجه إلى المدن، لتمارس أعمالًا متدنية لقلة خبراتهم، ويعيش الكثيرون منهم عالة على المعونات الاجتماعية وأحيانًا يلجأون للسرقة. هذا ثمن لا ينبغى أن نغفل عنه لعملية تحديث الزراعة!!

آثار التحديث

سألت بيتر فارب؛ وهل حقق التحديث تغييرات فى مجالات أخرى؟ فأجابنى:

منذ أن طَوَّرَ جيمس واط الآلة البخارية وجعلها صالحة للاستعمال التجارى سنة ١٧٧٥، حدثت ثورة لم يسبق لها مثيل على جميع المستويات. وإذا كانت **الابتكارات التكنولوجية الباهرة** هى أكثر الإنجازات لَفتًا للانتباه، فإن **النتائج البيولوجية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية** للتحديث لا تقل أهمية عن تلك الابتكارات.

فمن حيث **البعد البيولوجى**، كانت أهم النتائج **تضاعف متوسط عمر الإنسان المتوقع** بمقدار ثلاث مرات خلال القرنين الماضيين، كما **زادت أعداد بنى الإنسان** إلى ستة أضعاف.

وكانت أهم **نتيجة سياسية**، اختفاء أسلوب الحكم الوراثى فى معظم الدول، واستبداله **بأنظمة ذات اتجاهات ديمقراطية**. ومع الديمقراطية جاء التوسع فى المسئوليات الحكومية وفى تشكيل الجهاز الوظيفى.

ولعل **التغير الاجتماعى** الرئيسى، هو **تناقص ولاء الفرد لعائلته وبلدته وعشيرته ودينه وحتى لأمته، لحساب ولائه لزملائه فى المهنة وللنظام الوظيفى الذى ينتمى إليه**، حكوميًّا كان أم صناعيًا أم دينيًّا. وكانت النتيجة أن **نشأت ثقافة عالمية** تشمل جميع الأمم الحديثة، وينعكس ذلك فى الشبه الذى تَبَدَّى فى جميع أنحاء العالم فى اللباس والموسيقى والفن واللغة، وحتى فى المفاهيم والأعراف الشائعة.

سألت فارب: وهل انعكس ذلك على شخصية الإنسان؟ فأجابنى: لم يكن ممكنًا حدوث هذه التغيرات دون أن يصاحبها **تغيير أساسى فى الشخصية الإنسانية**. فقد كان لزامًا على الناس أن **يخضعوا لتكييفات نفسية ليتوافقوا مع التعاقب السريع للتغيرات غير المتوقعة وأحيانًا غير العقلانية**. فمثلًا وجد بعض أفراد الجنس البشرى أنفسهم مضطرين إلى التنقل ـ فى إطار عملهم ـ بين أقطار العالم وربما يعيشون خلال حياتهم العملية فى ستة أماكن مختلفة متفرقة فى عدة قارات. ولا شك أن ذلك **يُحَمِّلهم أعباء نفسية واجتماعية هائلة**، إذ يتطلب التعامل ـ كل بضعة سنوات ـ مع رؤساء جدد ومهام جديدة وبيت جديد وصداقات جديدة ومدارس جديدة لأطفالهم، كما يقطع ذلك العديد من أواصر العلاقات العائلية خصوصًا مع الوالدين، وقد أدى ذلك إلى أن يوضع العجائز منهم فى الملاجئ وبيوت كبار السن، وأن يُرسل الأطفال إلى مدارس داخلية.

لقد حدث **تغيير هائل فى العالم بسرعة لم يسبق لها مثيل،** حتى صار كبار السن مذهولين مما يحدث حولهم، كما يجد الشباب صعوبة فى ملاحقة تسارع الأحداث والتغييرات. وفى الوقت نفسه فإن الهدف الذى تسعى هذه التغييرات الحديثة لتحقيقه، وهو ارتفاع مستوى المعيشة، ما زال سرابًا لمئات الملايين من بنى الإنسان.

أَوشك الحوار مع عالم الأنثروبولوجيا المهتم بنشأة الحضارة الإنسانية على الانتهاء. وما كنت لأسمح بذلك قبل أن أحصل منه على خلاصة الرحلة، قلت لبيتر فارب: بعد هذه الرحلة الحضارية الطويلة، **هل تعتقد أن إنسان اليوم أسعد حالًا من أسلافنا الصيادين وجامعى الثمار؟**

ابتسم فارب وأطرق قليلًا وقال: إن ذلك يتوقف على ما تقصده بالسعادة: أهى العمر الأطول؟ أم الاستهلاك الأعلى للطاقة؟ أم المستوى الأعلى من التكنولوجيا؟ أم المعرفة الأعمق؟ أم... أم... ما هو المقياس الذى تحتكم إليه؟

أجبته: **إن المقياس الذى أرجع إليه دائمًا لتقييم أى إنجاز حضارى، هو مدى تَمَشّيه مع إنسانية الإنسان وفطرته، وقدرته على تحقيق الأمان النفسى له**[1].

نظر بيتر فارب إلى الأرض، وهز رأسه وقال: بهذا المقياس، أرى (للأسف) **أن أسلافنا من الصيادين وجامعى الثمار كانوا أسعد حالًا منا...** وافترقنا...

* * *

مع الحضارتين

المصرية القديمة والعربية الإسلامية

باعتبارى مصريًّا حتى النخاع، ومن عشاق مصر الذين يتنفسون حبها... وباعتبارى عربيًّا مسلمًا، يحركنى اليقين العقلى والقلبى بعظمة عروبتى وإسلامى... ما كان يمكن ـ فى حديثى عن الذات الإنسانية ـ أن أُنهى رحلتى مع ملحمة بناء الإنسان لحضارته، دون أن أُشير إلى مساهمة هذين الرافدين العظيمين فى نهر الحضارة المتدفق.

---

(١) مناقشة هذا المفهوم بالتفصيل فى الفصل الثامن، بعنوان «جعلونى مسخًا مشوهًا».

حضارة أجدادى المصريين القدماء...

ليس العطاء الأكبر الذى قدمته الحضارة المصرية القديمة للبشرية هو الأهرامات الشاهقة والمعابد المنيفة والمقابر الخالدة، وما يحتاجه تشييدُها من إتقانٍ لعلوم الهندسة والفلك وغيرها!، **ولكن العطاء الأكبر يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة، هى «الضمير»، إنه مفاهيم الصواب والخطأ، ما ينبغى ومالا ينبغى، إنه مفاهيم الحرية والعدل والمساواة، وإنكار الذات، والاحترام المتبادل الذى يحكم العلاقات الاجتماعية، والسعى إلى التسامى الروحى، و..، و..**

اقرأ هذه المقولات الخالدة:

«ما أعظم فضل الرجل الذى يتخذ العدالة نبراسًا له وينهج نهجها».

(من أقوال الوزير الأكبر «بتاح حتب»، فى القرن السابع والعشرين ق.م)

«إن العدالة خالدة الذكرى، فهى تنزل مع من يُقيمها إلى القبر... ولكن اسمه لا يُمحى من الأرض بل يُذكر على مر السنين بسبب العدل».

(من قصة الفلاح الفصيح الأهناسى، الذى عاش فى القرن الثالث والعشرين ق.م)

«إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور الرجل الظالم» (أى من قربان الرجل الظالم).

(من النصيحة الموجهة للأمير «مريكارع» من والده الفرعون، عاش فى القرن الثالث والعشرين ق.م)

«إن فضيلة الرجل هى أثره، ولكن الرجل السيئ الذكر منسيٍ».

(من شاهد قبر مصرى عاش قرابة القرن الثانى والعشرين ق.م)

«قد يعمل ابنُ الإنسان على تخليد اسمه أبد الآبدين... إن العدالة هى الأبقى... ستعود إلى مكانها والظلم يُنفى من الأرض»

(من أقوال «نفرروهو»، وهو نبى مصرى عاش حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م)

«يا آمون أنت أيها الينبوع العَذْب الذى يروى الظمأ فى الصحراء... إنه لينبوع موصد لمن يتكلم ومفتوح لمن يتذرع بالصمت، فإنه حينما يأتى الصمت، يكون التأمل، وهنالك يجد الينبوع».

(عن حكيم مصرى قديم عاش قرابة ١٠٠٠ ق.م)

إن هذه المقولات أعظم عندى من كل ما تركه أجدادنا المصريين القدماء من أهرامات ومعابد ومقابر و...

فإذا كان للحضارة الإنسانية رافدها المادى ورافدها الأخلاقى، فلا شك أن البعد الأخلاقى هو الأهم. وقد أصاب «إمرسون»[١] حين قال:

«نحن نظن أن شمس حضارتنا قد قاربت غاية ارتفاعها، والحقيقة أننا ما زلنا منها إلى الآن فى أوان آذان الديك ووقت مطلع نجم الصباح، **ففى مجتمعنا الهمجى ما يزال نفوذ الأخلاق فى طفولته**».

لذلك لم أختر موضوعًا لحديثى ما قدمه أجدادى المصريين القدماء للبشرية فى **مجال العلوم التطبيقية (الرافد المادى)** مع سَبْقهم فيه، لكننى اخترت أن أُحدثك (قارئى الكريم) عن سبقهم - بل **تأسيسهم - للرافد الأخلاقى**. وقد اخترت أن يكون ذلك من فيض **كتاب «فجر الضمير The Dawn of Conscience»** لعاشق مصر والمصريات، **عالم الآثار المصرية جيمس برستد J.H.Breasted**، والكتاب من ترجمة **رائد علم الآثار المصرية د. سليم حسن**[٢]:

فجر الضمير

بينما كان الصياد فى عصر ما قبل التاريخ يكافح بين الوحوش الهائلة التى كانت تحيط به، **بدأ يسمع همسًا من عالم جديد كان ينبثق فجره فى باطنه**، وكان هذا الهمس بمثابة بوق يختلف عن همس ألم الجوع أو الخوف الذى يشعر به الإنسان ويدفعه للمحافظة على كيانه. كان ذلك إشارة إلى **بزوغ «فجر الضمير»** الذى صار قوة تمخضت عن **عصر الأخلاق**، ذلك العصر الذى ما زلنا نقف عند أول مرفأ فيه.

فما هو المنبع الذى خرجت منه هذه الأصوات الباطنة، وكيف اكتسبت تلك القوة الآمرة فى حياة الإنسان، وكيف أصبحت قوة راسخة مسيطرة فى المجتمع الإنسانى؟ لا شك أن هذه القفزة كانت تقدمًا عظيمًا وتغييرًا أساسيًّا فى مسيرة الحضارة.

إن المؤرخين يعلموننا أن **التاريخ البشرى ينقسم إلى عصور عظيمة**، مثل عهد الملكية وعهد الإمبراطوريات وعهد الديمقراطيات... إلخ. ويعترف طراز آخر من المؤرخين بأهمية «عصر الآلات وما تبعه من انقلاب صناعى»، حتى إن المتحمسين يُعَبّرون عن رقى الإنسان باصطلاحات تتعلق كلها باستخدام القوة. ومن وجهة أخرى، يُقَسِّم علماء الآثار تاريخ حياة

(١) قس مقاطعة نيو إنجلند.

(٢) قامت بنشر الترجمة الهيئة العامة للكتاب - طبعة منقحة، ٢٠١٢.

الإنسان إلى عدة عصور: العصر الحجرى، وعصر استعمال النحاس، وعصر استعمال البرونز، وعصر استعمال الحديد.... بينما يُعدد علم الأحافير الأطوار المتتالية لحياة الحيوان والنبات.

ومع أن هـذه التقسيمات ملائمة وضرورية، فإنها من غير شـك لا تزال ـ من بعض الوجـوه ـ سطحية. أما التقسيم الأكثر فائدة والأعظم أهمية ويدل فى الوقت نفسه على أطوار التقدم الإنسانى، فينبغى أن يشتمل على عصرين؛ «**عصر الضمير والأخلاق**» (الذى بدأ منذ نحو خمسة آلاف سنة)، و«**عصر العلوم**» الذى بدأه «جاليليو» منذ أكثر من أربعمائة سنة. والواقع أن كتابة التاريخ ـ حتى الآن ـ لم تعط سوى القليل من العناية لهذين التطورين الإنسانيين الأساسيين.

مصر.. جنة الخُلد

لقد صار الإنسان أول صانع للأشياء وللأسلحة بين مخلوقات الكون قبل حلول عصر الجليد منذ قرابة مليون سنة، ظل فيها الإنسان يُحَسِّن هذه الأدوات. ولكن من جهة أخرى، لم يمض على الإنسان إلا قُرابة خمسة آلاف سنة منذ أن بدأ يشعر بقوة الضمير الذى صار قوة اجتماعية فعالة. ومن أجل أن ندرك مقدمات ومراحل هذه الملحمة، دعنا نرتدى مُسُوَح الجيولوجيين الذين يقيسون الزمن بعصوره الجيولوجية لا بالسنين.ستكون بدايتنا مع «**عصر تكوين أودية الأنهار العظمى**»، وسيلفتنا بلا شك تَكَوّن **وادى النيل**، بعد أن كانت دلتا النيل الحالية لا تزال خليجًا للبحر الأبيض المتوسط.

بعد هذا العصر، يأتى **عصر** «**نضوب الماء**». فبعد أن كان كل شمال أفريقيا إقليمًا ذا أمطار غزيرة ونباتات وفيرة، أى ميدان صيد نموذجى، بدأ انحسار المطر فى منتصف العصر الحجرىّ القديم، فَحَلِّ الجفاف العظيم الذى حَوَّل هذا الإقليم الخصب إلى تلك البيداء الشاسعة التى نسميها الآن «**الصحراء العظمى**». أما فى الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا، فقد حافظت العوامل الجيولوجية على ممر خصب منخفض زاخر بالأعشاب النضرة وبالحيوانات، لقد كان ذلك على ضفتى النهر العظيم عند الجزء السفلى من وادى النيل[1]. لقد أخذت «**جنة الخلد**» هذه، **والتى نسميها الآن مصر**، تجذب إليها صيادى العصر الحجرىّ الذين كانوا يسكنون هضبة

(١) الجزء السفلى من النهر هو القريب من المصب، وهو مصر. والجزء العلوى من النهر هو المنبع الواقع فى قلب أفريقيا.

شمال إفريقيا، بعد أن اضطرهم الجفاف إلى اقتفاء حيوانات الصيد فى هذا الاتجاه، ومن ثم بدأوا يتخذون وادى النيل الضيق موطنًا مختارًا لهم. وقد أقام الجفاف حول جنة الصياد هذه **حاجزًا منيعًا من الصحراء لا يمكن اختراقه من ثلاثة جوانب من حدود مصر** ـ الشرق والغرب والجنوب ـ كما كان يحميها **البحر المتوسط** من الشمال.

لقد تحول وادى النيل الأسفل إلى **معمل اجتماعى منعزل لا مثيل له فى سائر بقاع العالم،** فالنيل هو النهر الوحيد على كرتنا الأرضية الذى ينبع من المناطق الحارة وينساب نحو الشمال مخترقًا نحو ٧٠٠ ميل فى المنطقة المعتدلة بين خطى عرض ٢٥، ٤٥ شمالًا والتى قامت فيها كل الحضارات القديمة. كذلك كان وادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ يتمتع بمزية فريدة، إذ لم يكن معرضًا لشدائد عصر الجليد، بل كان منفصلًا عنها ومحتميًا منها بمياه البحر الأبيض المتوسط الملطفة الواسعة الأرجاء.

وفى المقابل كانت حياة صيادى العصر الحجرىّ فى **أوروبا وغرب آسيا** تهددها باستمرار الرياحُ القطبية واندفاعُ الثلوج التى لا تقاوَم، وأيضًا الصراعات بين الجماعات البشرية على الغذاء القليل. لذلك كان التقدم البشرى نحو التطور الاجتماعى فى هذه المناطق لا يلبث أن يَعْثُر وتزل به قدمه فيرجع إلى سيرته الأولى، فيحاول النهوض مرة أخرى، ويعانى العملية نفسها المرة بعد المرة، بهذه العوامل تناوبت القوى المُغِيرَة من طبيعية وإنسانية على وقف التطور الاجتماعى فى هذه المناطق.

فجر الحضارة فى مصر

ولما كانت جنة الخلد (مصر) محمية بالصحارى وبالبحر، عامرة بالماء والخضرة، كان التطور البشرى فيها سهلًا. وقد تكشفت التربة المصرية على حدود الصحراء عن قبور أقدم الجبانات المعروفة فى العالم كله، ووجدنا فيها **خَلَف صيادى العصر الحجرىّ فى وادى النيل** عندما كانوا فى بداية الانتقال إلى عصر المعادن قبل قرابة ٥٠٠٠ سنة ق.م، وكانوا قد استأنسوا أهم الحيوانات المنزلية، وانتقلوا إلى طور حياة الفلاح. بذلك كَوَّنوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض، استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتًا باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان، كما مَكَّنَهم تغلُبُهم على المعادن فيما بعد ثم اختراعهم لأقدم نظام كتابى من امتلاك طريق التقدم الطويل نحو الحضارة.

لقد كانت الأحوال المعيشية للجماعات المحلية التى سكنت البلاد حسنة جدًّا، مما جعلها تتوحد تدريجيًّا، حتى أصبحت **أول مجتمع عظيم مؤلف من عدة ملايين يحكمهم ملك واحد وفى أيديهم كل الأسس الرئيسية اللازمة للحضارة**. ففى القرون التى تقع بين ٥٠٠٠، ٣٥٠٠ ق.م قامت **أول دولة متحضرة كبيرة ذات إنجازات غير مسبوقة**، فى نظام الحكم ونواحى الاقتصاد والاجتماع والدين والعمارة والفن والأدب، **لقد بدأ الإنسان المصرى ذلك كله من لا شىء**. فى ذلك الوقت، كانت أوروبا ومعظم غربى آسيا لا تزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجرىّ.

أما الفترة من القرن الخامس والثلاثين إلى القرن الخامس والعشرين ق.م فكانت **مرحلة «فريدة» فى حياة الإنسان على الأرض**، فقد كان وادى النيل أول مسرح اجتماعى، يمكننا أن نلاحظ فيه **الإنسانَ خارجًا منتصرًا من كفاح طويل مع الطبيعة، وداخلًا** مسرح **العوامل الاجتماعية الجديدة، ليبدأ كفاحه الشاق بينه وبين نفسه**، وهو كفاح لم يكد يتخطى بدايته حتى يومنا هذا. لقد قدم المصريون القدماء بذلك أول برهان على أن الإنسان أمكنه أن يخرج من الوحشية إلى المَثَل الاجتماعى الأعلى، وأن **يُظهر الحياة الإنسانية بمظهر لم ير الكون كله ـ على ما نعلم ـ أرقى منه**[1].

وأخيرًا نقول، لم يكن لسكان وادى النيل فى عصر ما قبل التاريخ أجداد متحضرون يرثون عنهم أية ثقافة، لقد أنشأوا الحضارة من «الصفر». لقد امتلكوا ذلك السحر الذى حول هؤلاء الصيادين السُّذَج ومساكنهم الصغيرة المصنوعة من الطين أو الخوص إلى مجتمع عظيم يسيطر عليه رجال ذوو سلطان وخيال واسع وأصحاب آمال ضخمة، أحرار لم تغل أياديهم التقاليد، فَعَمَّرَت تلك البقاع التى كانت يومًا أحراش ومستنقعات. ولم يكتف هؤلاء المبدعين بنشر

(١) نشأت فى نفس الوقت تقريبًا فى غرب آسيا (وبخاصة فى بابل) حضارة تمتاز بتقدمها المُطَّرِد فى الشئون العملية والتجارية والقضائية ودراسة الأجرام السماوية، غير أن الحضارة البابلية كانت تسودها روح الاقتصاد التجارى والكد فى الحاجيات الأولية، مما حرم التطور الاجتماعى البابلى من الأسس الأولية لمراعاة الغير، والعمل على نفعهم، حتى إن دستور قوانين «حمورابى» يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى والمذنب. أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفًا فى بابل، وكانت نتيجة ذلك أن المبادئ الأخلاقية فى بابل لم تسهم إلا بالنزر اليسير ـ بل لم تسهم بشىء مطلقًا ـ فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى.
كذلك فإن الادعاء بأن الحضارة العبرانية هى صاحبة الفضل على أوروبا فيما تبنته من مفاهيم أخلاقية ادعاء ناقص، فالحضارة العبرانية إنما استمدت إرثها الأخلاقى عن الحضارة المصرية القديمة (بريستد).

هذه الآثار الشاهقة على طول ضفتى النهر، بل أدركوا كذلك المعنى السامى للقيم الاجتماعية والأخلاق البعيدة عن الأنانية، مما لم ينبثق فجره على العالم من قبل.

انتهى كلام «بريستد» الذى لخصته من كتابه «فجر الضمير». **ألا تجد فيه الدرس للمصريين المعاصرين الذين يطمحون لأن يستعيدوا لهذه الأمة مجدها؟** -

من أجل ذلك كله، عندما زار الفيلسوف اليونانى الكبير أفلاطون مصر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، عَبَّرَ عن انبهاره بما شاهده بقوله:

«نحن الإغريق نقف كالأقزام إذا ما قُورِنا بالحضارة المصرية».

وتحدث «جون نن» فى كتابه «الطب المصرى القديم» عن دور العنصر البشرى فى بناء حضارة المصريين بقوله:

«لقد امتلك المصريون أهم أسباب التقدم، وهو نظام الإدارة المُحْكَم وموهبة الاختراع، بجانب مهاراتهم التقنية التطبيقية.. إن الشعب الذى استطاع أن يبنى الأهرامات فى الألفية الثالثة قبل الميلاد، جدير بأن تكون له الريادة فى عالم الطب».

ونختم بتلخيص العالِم الفذ د. جمال حمدان لسر عبقرية الحضارة المصرية، كما جاء فى كتابه «شخصية مصر»:

«إن نكاح الإنسان المصرى وطبيعة مصر (أرضها ونيلها) هو الذى أنجب هذه الحضارة، التى تمثلت فى العديد من الإنجازات (غير المسبوقة):

أولها... الضمير

وثانيها... الدين

وثالثها... الهندسة والفن

ورابعها... الطب والتحنيط

وخامسها... الفتوحات»

ألم يصف الرسول الكريم ﷺ رجال مصر بأنهم «**خير أجناد الأرض**».

الحضارة العربية الإسلامية - هويتى

إن كنتُ مصرى الهوية والجذور، فأنا عربى مسلم الانتماء، وسأتناول - بشكل مختصر - دور الحضارة العربية الإسلامية فى بناء الحضارة الإنسانية ورفعها من هوة التخلف ودفعها للأمام، وذلك من خلال عرض شهادات عدد من مفكرى الغرب الذين بذلوا الجهد والعمر حتى يصلوا إلى الحقيقة.(١)

يقول المستشرق «سبنسر فاميرى»: «.. لا يَسَع فلكى واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًّا، ولا يستطيع أى **عالم طبيعى** أن يُحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًّا، ولا يقدر أى **قاضٍ** أن يبت اليوم فى خلاف دون أن يستدعى مبدأ أملته العرب، ولا يسع أى **طبيب** أن يتأمل أحدَ الأمراض المعروفة منذ القدم إلا أن يهمس بآراء طبيب عربى، ولا يستطيع أى **رحالة** أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يعمد إلى اللغةِ العربية».

ويقول الفيلسوف الفرنسى «جوستاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب»:

«.. لقد عاشت الجامعات الأوروبية - ومنها جامعة باريس - لمدة ستمائة عام على ترجمات كتب العرب واتبعت أساليبهم فى البحث، **لقد كانت الحضارة الإسلامية من أعجب ما عرف التاريخ!**»

وتقول المستشرقة **الألمانية «زيجريد هونكه Sigrid Hunke»** (١٩١٣ - ١٩٩٩م) **فى كتابها «شمس الله تسطع على الغرب»**:«.. إن أوروبا مَدِينَة للعرب وللحضارة العربية، **وإن الدَّيْن الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبيرٌ جدًّا.** وكان يتعين على أوروبا أن تعترف بهذا الفضل منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقيدة أعميا عيوننا وتركا عليها غشاوة، حتى إننا لنقرأ ثمانية وتسعين كتابًا من كل مائة، فلا نجد فيها إشارة إلى فضل العرب وما أسْدَوه إلينا من علم ومعرفة، اللهم إلا تلك الإشارة العابرة إلى أن فضل العرب لا يتخطى دور ساعى البريد الذى نقل إلينا التراث الإغريقى» كما تقول فى الكتاب نفسه: «.. وفى مراكز العلم الأوروبية **لم يكن هناك عالم واحد إلا مد يده إلى الكنوز العربية يغترف منها،** وينهل كما ينهل الظامئ من الماء العذب.. ولم يكن هناك ثمة كتاب واحد من بين الكتب التى ظهرت فى أوروبا فى ذلك الوقت، إلا وقد ارتوت صفحاته بوفرة من نبع الحضارة العربية».

---

(١) هناك العديد من الكتابات المنصفة فى هذا المجال يمكن الرجوع إليها، ومن أشهرها كتاب المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه» المُسمَى «شمس الله تسطع على الغرب». وكتاب «تاريخ ضائع» للمفكر الأمريكى هاميلتون مورجان. وكتاب Muslim Heritage in our world, by salim Al Hassani, 2nd ed.2007

لعل هذه الكلمات الموجزة المنصفة تُغنى عن مئات الصفحات عن دور الحضارة العربية الإسلامية فى بناء الحضارة الإنسانية.

القارئ الكريم...

إنها حقًّا ملحمة... بذل فيها الإنسان جهده ووقته وماله بل ودمه، من أجل أن يثبت أنه **جدير بالخلافة فى الأرض** (سواء دَرَىَ بذلك أم لم يَدْرِ).

إن المُشاهد لأسلافنا الأوائل وهم يفرون مذعورين من الوحوش الكاسرة داخل أعشاب الساڤانا الأفريقية، ما كان ليتخيل أن هؤلاء سيسودون الكوكب فى يوم من الأيام، بل وسيخرجون منه إلى الكواكب المحيطة.

كان العقل ـ وما زال ـ هو أداة الإنسان الأولى، التى مكنته من البقاء، ثم **تحقيق قفزات تكنولوجية ارتقت به سلم الحضارة**. فمن ابتكار الأدوات، إلى اكتشاف النار، إلى اختراع العجلة، إلى الزراعة واستئناس الحيوان، إلى اختراع اللغة ثم الكتابة، إلى اكتشاف المصادر المتعددة للطاقة ابتداء من قوة الهواء والماء إلى الطاقة الذرية، إلى الآلات الميكانيكية، إلى الأجهزة الإلكترونية، إلى وسائل التواصل المتعددة ابتداء من إشارات الأيدى وإشعال النيران والتنقل بالدواب، إلى السيارات والنفاثات والشبكة العنكبوتية. **إنها إنجازات عقلية تفوق قدرتنا على الحصر والسرد وأيضًا على التبؤ بما يحمله المستقبل**.

وإذا كان السياسيون يحدثوننا عن «**سرقة الثورة**»، ويعنون بذلك أن يتم تحويل مسار الثورة حتى يجنى ثمارها مَن لم يضحوا من أجلها ولم يبذلوا جهدًا لإنجاحها، فاسمح لى ـ قارئى الكريم ـ أن أصك اصطلاحًا جديدًا، وهو (**سرقة الحضارة**)، وأعنى بذلك أن يتم تحويل مسار الحضارة حتى تخدم أهدافًا غير التى قامت من أجلها. فإذا كان الإنسان قد قدم ما قدم من تضحيات من أجل أن **يحقق حياة أكثر تلاؤمًا مع طبيعته وفطرته وأكثر قدرة على تحقيق الأمان النفسى له** (وهذا هو المفهوم الحقيقى للتحضر)، فإن جماعات من الانتهازيين الأيديولوجيين والرأسماليين قد سرقوا الحضارة وانحرفوا بها عن الهدف الحقيقى للوجود الإنسانى، وبدلًا من أن يمدوا الإنسان بوسائل بديلة لتحقيق غاياته الحقيقية، فإنهم قد زينوا له أن يَقْبل بأهداف وغايات بديلة أيضًا!

لقـد باعـوا لنا الفنكـوش[1].

(١) إشارة إلى الترويج لسلعة لا يحتاج لها الإنسان، بل سلعة لا وجود لها، بعد إقناعه باحتياجه لها ـ كما جاء فى أحد الأفلام الكوميدية المصرية.

الفصل الثامن

جَعَلُونى مَسْخًا مُشَوّهًا

- **حقيقتى بين الكينونة والتملك**
  - التملك والكينونة فى نشاطاتنا الفكرية
    التعلم • التذكر • الحوار • القراءة • الإيمان • الحب • اللغة
  - الوعد الكاذب
  - الكارثة والنجاة
- **حوارى مع د. عبد الوهاب المسيرى: أنا.. ألعوبة الحضارة المادية**
  - الإنسان والوجود فى عَيْنَى الدكتور المسيرى
  - الحضارة المادية إفراز للفكر المادى
  - تفكيك الإنسان ثم إعادة تركيبه: الترشيد البرانى والترشيد الجوانى
  - صار الإنسان براجماتيًّا
  - تلاشَىَ دور الأسرة
  - فقدان المرجعية
  - حضارة حَفَرَت قبرًا يكفى لدفن العالم
  - الإمبريالية النفسية
  - حضارة مهووسة بالجنس
  - ما بعد الحداثة
  - الوجه الآخر للتقدم
  - نحو حداثة جديدة
- **القارئ الكريم**

تهتم الديانات السماوية والفلسفات الوضعية، وكذلك الأساطير والمفاهيم الفلكلورية بأن **تجيب الإنسان عن أسئلته المعرفية العامة**؛ من أين؟ إلى أين؟ لماذا؟...، ثم ترسم له **منهجًا** في **الحياة** يحقق به السعادة والوصول إلى غايات وجوده.

ثم كَرَّت علينا **الحضارة المادية الحديثة**، بقَضِّها وقضيضها، وأوقعت الإنسان في براثن **حيرة وضياع واغتراب**، لم يُعانِ مثلها في أحلك فترات تاريخه. وقد عبر عن هذه الحالة شاعر المهجر، إيليا أبو ماضي، في أبيات تقطُر بالضياع:

جئتُ، لا أعلمُ من أين... ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرتُ أمامى طريقًا فمشيتُ
وسأبقى سائرًا، شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقى؟
لستُ أدرى

لماذا؟ وكيف وصل الإنسان إلى هذا الحال؟ وكيف النجاة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا الفصل...

حقيقتى ... بين الكينونة والتملك

منذ صباى، وحتى اليوم، تتردد في خاطرى، من حين لآخر، مقولة لسلطان العلماء في الدولة المملوكية بمصر، العز بن عبد السلام، يقول فيها «**نحن معشر العلماء نعيش في سعادة لو ذاقها السلاطين والأمراء لجالدونا عليها بالسيوف**». وأحيانًا، يثور في نفسى تساؤل؛ ما هذه السعادة القصوى المحروم منها من امتلكوا الأموال والرياش والضياع، وفي نفس الوقت قد يُحَصِّلُها مَن عزفوا عن هذا المتاع؟

لقد جُبِلَ العقل البشرى على إدراك الموجودات (مادية ومعنوية) على هيئة ثنائية، تمثل قطبين متقابلين، فنجد الأبيض والأسود، والسالب والموجب، والشمال والجنوب، والقوى والضعيف، وغيرها من الثنائيات. ولا شك أن من أهم تلك الثنائيات التقابل التليد بين الخير والشر، والذى يتخذ عدة أشكال؛ أقدمها التقابل بين الوجود والعدم، وكذلك التقابل بين الملائكة والشياطين، وبين العلم والجهل، وبين الصحة والمرض وغيرها. ويجسد القرآن الكريم ثنائية الخير والشر وارتباطها بمهمة الإنسان فى الوجود، فى قول الحق ﷻ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[الشمس].

مَرَّت هذه الأفكار بخاطرى وأنا أقرأ كتابًا بالغ الأهمية لعالم النفس الألمانى الأمريكى إريك فروم **Erich Fromm** بعنوان [1] To Have or To Be. ويدور الكتاب حول أن النفس البشرية يتجاذبها نمطان من التوجه؛ النمط الأول وهو المهيمن على المجتمع الصناعى الحديث (رأسماليًّا كان أم شيوعيًّا)، وهو «**نمط التملك**» الذى يَنْصَب على الشعور بالذات من خلال التملك المادى والقوة، ويقوم على الجشع والحسد والعدوان. أما النمط الثانى فيتجه نحو «**الكينونة**» وإثبات الذات من داخلنا، ويقوم على الحب وعلى سمو القيم الإنسانية فوق القيم المادية. إن الفرق الجوهرى بين الكينونة والتملك هو الفرق بين التوجه نحو الإنسان والتوجه نحو الأشياء.

وإذا كان التملك أمر بديهى لحياة الإنسان فى هذه الدنيا، فإن ما يرفضه إريك فروم هو أن يصبح مقدار ما نملكه هو مقياس قيمة الإنسان، فنتحدث عن شخص يساوى مليون جنيه، ونعتبر أن من لا يملك قرشًا لا يساوى قرشًا، وأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه. لذلك ينبغى النظر إلى كلٍّ من التملك والكينونة باعتبارهما طريقتين أساسيتين لممارسة الحياة، وأن القوة النسبية لأى منهما هى التى تحدد الفوارق بين شخصيات الأفراد وسمات المجتمعات.

لذلك قامت الديانات السماوية بالحث على ألا يطغى نمط التملك على كينونة الإنسان، وإلا خسر إنسانيته. فهاك رسول الله ﷺ يخبرنا أن: «من أصبح منكم معافى فى جسده، آمنًا فى

(١) إريك فروم، ولد فى ألمانيا عام ١٩٠٠، وهاجر هربًا من البطش النازى إلى الولايات المتحدة، وعمل كأستاذ لعلم النفس بجامعة نيويورك. وانتقل فى آخر حياته إلى سويسرا، حيث توفى عام ١٩٧٩. وله عدة مؤلفات مهمة منها هذا الكتاب الذى ترجمه سعد زهران وراجعه وقدم له لطفى فطيم، ونشرته سلسلة عالم المعرفة الكويتية فى أغسطس ١٩٨٩م، تحت عنوان «الإنسان بين الجوهر والمظهر». وقد نقلنا عن هذا الكتاب أفكار إريك فروم الواردة فى هذا الفصل.

سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[1]. ويعلن **المسيح** عليه السلام: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله، وفقد نفسه أو خسرها[2].

ويَنحَى **أساتذة البشرية الكبار** نفس المنحى؛ فهاك **بوذا** يُعَلِّم مريديه أن من أجل الوصول إلى أقصى درجات النضج الإنسانى، يجب ألا تشتهى ملكية شىء. وبالرغم من اختلافنا مع الكثير مما تطرح الماركسية، فقد أصاب **ماركس** حين قال: إن الترف لا يقل رذيلة عن الفقر، وأن الهدف من الحياة هو المزيد من تحقيق كينونتنا وليس الاستزادة من ملكيتنا.

ولا شك أن **الإنسان السَّوى** يمارس قدرًا من **نمط الحياة التملكى**، تكون فيه علاقته بالعالم علاقة ملكية وحيازة، بما فى ذلك ذاته نفسها، فتجده فى حديثه يؤكد تلك الملكية؛ فتجدنى أتحدث عن جسدى، صحتى، علمى، اسمى، ممتلكاتى، معارفى، مكانتى الاجتماعية، طبيبى، مدربى، شيخى... وليس فى كل ذلك بأس. أما ما ننكره فهو أن يسيطر النمط التملكى على حياة الإنسان ويصبح مرجعيته، وليس هناك أشهر (ولا أسوأ) من قول فرعون مصر ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]، لقد أوردَتْ كلِمَتَىّ «لى» و«تحتى» فرعونَ المهالك.

وهناك **علاقة بديهية قوية ومباشرة بين التملك والاستهلاك**، فقد صار الاستهلاك أهم مظاهر التملك فى مجتمعات الوفرة الصناعية المعاصرة. وتدفع عملية الاستهلاك الإنسان إلى مزيد من الاستهلاك، إذ سرعان ما يفقد كل استهلاك سابق تأثيره الإشباعى. وهكذا تتلخص النزعة التملكية المعاصرة فى الصيغة الآتية: «**أنا موجود بقدر ما أملك وما أستهلك**».

وإذا كان **النمط التملكى فى الحياة يُذْهِب بجوهر الإنسان وهو كينونته**، فإن له سلبية كبيرة أخرى؛ **فإذا كنت أنا هو ما أملك، ثم فقدت ما أملك، فماذا يتبقى لى من نفسى**؟ لن يبقى سوى شاهد (كشواهد القبور) مهزوم متضاءل مثير للشفقة، شاهد على أسلوب حياة خاطئ. ويجعلنى ذلك **أحيا فى خوف وقلق دائمين**؛ من اللصوص والثورات والتقلبات الاقتصادية، ومن الأمراض، ومن اتخاذ القرار، ومن المجهول. وهكذا **أتحول إلى شخص مشغول بالدفاع عن نفسه**، موسوس، وحيد، تتملكنى الحاجة لامتلاك المزيد من الأشياء،التى أنشد فيها مزيدًا من الحماية. ويمتد الخوف ليصل إلى القلق من فقدان الحياة نفسها بالموت، ذلك الخوف الذى لا مهرب منه طالما نعيش وفق نمط التملك.

(١) سنن الترمذى.

(٢) إنجيل لوقا ٩ :٢٥.

أما أسلوب الكينونة، فهو نقيض التملك، ويعنى الارتباط بالعالم بروابط حقيقية أصيلة، كما يعنى الاهتمام بالجوهر الصادق للشخص كنقيض للمظهر الخادع[1].

ويمكن تشبيه نمط الكينونة بسطح أزرق اللون، إذا ما سقط عليه الضوء امتص كل ألوان الطيف وعَكَسَ اللون الأزرق. أى أننا نصف السطح بالزرقة ليس لأنه يمتلك اللون الأزرق بل لأنه يعكسه. أى أن **الشيء يُعرف بما يُعطِي وليس بما يملك.**

وفى أسلوب الكينونة لا يتعاظم الإحساس بالقلق وانعدام الأمان الناشئين من خطر فقدان الممتلكات. **فإن كنت أنا من أكون ولست ما أملك، فلن يسلبنى فقدان شيء أمنى أو ينال من إحساسى بتكاملى وتماسك شخصيتى**، ذلك أن مركزى موجود داخل نفسى، وأن قدرتى على الوجود جزء لا يتجزأ من ذاتى. وبينما يتناقص التملك بالاستخدام، فالكينونة تتعاظم بالممارسة. وإذا اكتملت نظرتى إلى حقيقة الحياة (**المنظور الدينى**) تلاشى الخوف من الموت الذى لن يكون إلا طريق إلى حياة خالدة.

التملك والكينونة فى نشاطاتنا الفكرية

يعيش إنسان العصر الحديث فى مجتمع مُكَرَّس للامتلاك وتحقيق الربح، حتى اعتقد **أغلب الناس أن التملك هو الأسلوب الوحيد الممكن للحياة**، لذلك يندر أن نلاحظ شواهد لنمط الكينونة فى حياتنا اليومية، بالرغم من أن نمطى التملك والكينونة يتنافسان فى جوانب عديدة من حياتنا الفكرية قد تظن أنها بعيدة عن هذه الثنائية، فلنتأمل هذه الأمثلة:

التعلم: فى نمط التملك، ينصت الطلاب للمحاضرة ويسجلون كلماتها فى مذكراتهم حتى يحفظوها ويصبحوا قادرين على استرجاعها ليجتازوا الامتحان بنجاح. أى **يصبح كل طالب مالكًا لمجموعة من العبارات والصِيَغ (ولا أقول المفاهيم) التى تَوَصَّل إليها شخص آخر، دون أن ينتج أو يبتكر شيئًا جديدًا.**

أما فى نمط الكينونة، فعادة ما يكون الطلاب قد أعملوا فكرهم فى الموضوعات التى ستعالجها المحاضرات قبل أن يحضروها، إذ عادة ما تشغل تلك الموضوعات بالهم

---

(١) كان الإنجاز الرئيسى لفرويد فى علم النفس هو الكشف عن التعارض بين القناع Persona الذى تظهر به شخصية كل منا، وبين الحقيقة المختفية وراءه، وهذا التعارض من سمات متقابلة المظهر والجوهر.

وتثير اهتمامهم، ولا ينظرون إليها باعتبارها كلامًا أجوف. لذلك فهم يستقبلون المحاضرة ويتجاوبون معها بطريقة نشيطة ومثمرة، وتكون المحصلة أن **يصبح كل طالب بعد المحاضرة على غير ما كان قبلها.**

التذكر: يعتمد التذكر على ربط المعلومات بأسلوب يعين على استرجاعها. وفى نمط التملك، يتم ذلك من خلال **روابط ميكانيكية**؛ كالربط بين بنية أو جَرْس الكلمة والكلمة التالية لها، أو عن طريق صلة منطقية خالصة، كالتضاد أو التقارب. ومثال هذا التذكر حفظ الصغار لآيات القرآن الكريم.

أما التذكر فى نمط الكينونة، فيعتمد على ربط ما نريد تذكره ببعض المفاهيم والملابسات الكثيرة المحيطة به، وبالتالى **يصبح التذكر إحياءً للكلمات والأفكار**. ومثال هذا التذكر ما كنت أقوم به عند دراسة الأمراض فى أحد فروع الطب. فكنت أضع لجميع الأمراض نظامًا عامًّا أحفظها (وبالتالى أتذكرها) تبعًا له، فأحدد لكل مرض أسبابه ـ أعراضه ـ علاماته ـ فحوصاته ـ مضاعفاته ـ علاجه... وقد أربط كل مرض بشىء خاص به، كأن أستحضر عند دراسة مرض الشلل الرَّعَاش هيئة الشحاذ الذى يرابط أمام باب المسجد المجاور لبيتى.

الحوار: عندما يتحاور الشخص الذى يحيا بأسلوب التملك، فإنه لا يهتم إلا بإيجاد المزيد من الحجج للدفاع عن رأيه الذى يعتبره جزءًا من ذاته أو من ممتلكاته، ومن ثم **يعتبر أن التخلى عنه يعنى افتقاره أو انتقاص من ذاته.**

وفى المقابل، يصف رئيس مجلس إدارة إحدى شركات البترول العالمية الحوار كما يدور (بأسلوب الكينونة) أثناء اجتماعات مجلس الإدارة، قائلًا: فى البداية، يطرح كل منا رأيه وكأنه يضعه على المنضدة المقابلة ويتخلص من نسبته إليه، **ثم تدور المناقشات دون أى ذاتية أو حساسية**، وبذلك يتم تعديل وترقية تلك الأفكار، وفى النهاية يتبنى كل منا الرأى الذى اقتنع به.

القراءة: يهتم القارئ بأسلوب التملك **بالإلمام بأحداث الفترة التاريخية التى يقرأ عنها، أو بأحداث الرواية** التى يتسلى بها، وربما **يتعجل القفز إلى معرفة حل عقدة الرواية**؛ هل يظل البطل على قيد الحياة؟ هل تقع البطلة فى غرامه أم تقاوم؟ عندها يشعر القارئ أنه قد امتلك الرواية بالرغم من أنها لم تضف إليه شيئًا حقيقيًّا، حتى وإن كانت من تأليف مفكر كبير كنجيب محفوظ أو توفيق الحكيم.

أما القراءة بمفهوم الكينونة، فهى **حوار بين القارئ والكاتب**، يسعى فيه القارئ لفهم الشخصيات التاريخية أو شخصيات الرواية، لينفُذ إلى الدوافع الحقيقية وراء سلوك تلك الشخصيات بصفة خاصة، وإلى أعماق النفس البشرية بصفة عامة.

كما يُنَقِّب القارئ عن الجديد الذى جاء به المؤلف، ويميزه عن المقولات المُعادة التى لا مناص من تكرارها. بل ربما يصل القارئ إلى أن كتابًا كَثُرَ إطراؤه ليس إلا عملًا قليل القيمة، وربما لا قيمة له على الإطلاق. بذلك **تضيف تلك القراءة مفاهيم حقيقية إلى معرفة الإنسان.**

الإيمان: يختلف الإيمان (الدينى ـ السياسى ـ الشخصى) اختلافًا تامًّا فى كل من نمطى التملك والكينونة. فالإيمان فى إطار التملك، يعنى **أن يمتلك الشخص إجابات عن التساؤلات المطروحة دون أن يكون لديه دليل عقلانى عليها**، وعادة ما تكون تلك الإجابات صياغات توصل إليها آخرون يخضع لهم أو يثق بهم. وبذلك يعتقد الشخص أنه يملك المعرفة النهائية الراسخة، ويصبح واحدًا من المالكين السعداء لليقين، وهذا **أمر يريح الإنسان من أحد أشق مهامنا العقلية؛ مهمة التفكير واتخاذ القرار**. وهذا اليقين مقابل لا بأس به لإنسان لا يملك الجرأة أو القدرة على التمحيص العقلى، ولديه الاستعداد للتنازل عن استقلاليته.

أما الإيمان فى إطار الكينونة، فيُعتبر **تَوَجُه داخلى للشخص، يرفض الخضوع لسلطة تُملِى عليه مفاهيم إيمانية جاهزة**، بل يتوصل الإنسان إلى اليقين من خلال تجربته الذاتية وما تقدمه من أدلة. **وتعتمد الدعوة إلى الإيمان فى القرآن الكريم** على حث الإنسان على التأمل فى الآفاق وفى الأنفس، وعلى إعمال العقل فى الأدلة المنطقية حتى يتوصل من خلالها إلى اليقين الحقيقى.

الحب: الحب لفظ تجريدى ليس له وجود مادى، يصف فعل المحبة، التى تعنى (فى حقيقتها) **نشاطًا إيجابيًّا مثمرًا**، تكون فيه العلاقة بالمحبوب علاقة معرفة ورعاية وتجاوب وفرحة ومسرة ومتعة.

أما إذا زحف أسلوب التملك على الحب تحول إلى **سيطرة واحتواء وسجن**، وصار عملية خنق وإهلاك بدلًا من أن يكون عطاءً للحياة، ويجسد هذا المعنى السلبى للحب اصطلاح نستخدمه كثيرًا لوصف هذه التجربة، وهو «**الوقوع فى الحب**».

وإذا كان المحب فى فترة الخطوبة يطلب ود محبوبه، ويجتهد كل من الطرفين ليُظهر أفضل ما عنده محاولًا أن يكسب مشاعر من يحب، فكثيرًا ما تتغير الأمور تمامًا **مع الزواج، بعد أن يصبح كل منهما مالكًا للآخر**. عندها يبحث كل طرف عما أصاب الآخر بعد أن يشعر أنه قد خُدع، والحق أنهما لا يدركان أنهما قد أصبحا شخصين مختلفين. وفى الأحوال المعتادة يتحول الزواج إلى نوع من الملكية المشتركة، شركة تودِع فيها كل ذات نفسها للاستثمار فى ذات مشتركة، هى مؤسسة الأسرة.

اللغة: تختلف اللغات فى أسلوب بنائها للجمل، فنجد للجُمل التى تصف القيام بفعل ما فى اللغة العربية هيئة واحدة، فنقول مثلًا: أنا ضربته. بينما نجد فى الإنجليزية هيئتين، إحداهما هيئة بسيطة مثل I Killed Him، والأخرى تُعرف بالماضى التام مثل I Have Killed Him. وفى الهيئة الأخيرة، نلاحظ **إضافة فعل التملك Have إلى الفعل الذى مارسه الشخص**، ويحدث ذلك أيضًا فى اللغة الفرنسية[1]. **وكذلك يتم استخدام فعل التملك لوصف العديد من أشكال النشاط الإنسانى؛ مثل** I Have an Idea، **وليس لذلك نظير فى اللغة العربية**.

وقد لاحظ إريك فروم **تَوَسُّع اللغة الإنجليزية خلال القرنين الآخرين فى استخدام الأسماء والأفعال مشفوعة بفعل التملك**، عِوَضًا عن الاستخدام المباشر. ويضرب على ذلك مثالًا بالمريض الذى يذهب إلى طبيبه النفسى قائلًا له: يا دكتور، أنا «عندى» مشكلة، «عندى» أرق، بالرغم من أن «لدى» زواج سعيد. وقبل قرنين كان المعتاد أن يقول المريض أنا أُعانى من أرق بالرغم من أن زواجى سعيد. كذلك لاحظ حجة اللغة نعوم تشومسكى **تزايدًا ملحوظًا فى استخدام الأسماء** (التى هى رموز للأشياء) على حساب التناقص فى استخدام الأفعال (التى تعكس النشاط البشرى).

إن هذا الأسلوب من الكلام فى العصر الحديث يعكس درجة عالية من الاغتراب، فقد تحولت مشاعر الإنسان إلى شىء يملكه، بل أصبحت المشكلة تتملكه، أى أصبح الشىء الذى من صنعه يتملكه.

نلاحظ مما سبق **أن كلا الاتجاهين (التملك والكينونة) غريزة فى النفس الإنسانية**. ويدعم اتجاه التملك دافع بيولوجى قوى يتمثل فى **الرغبة فى البقاء**، أما اتجاه الكينونة فتدعمه **حاجة الإنسان النفسية للتغلب على العزلة بالتعامل اللائق مع الآخرين**. وعلى الإنسان أن يختار أى

(١) Verbe Avoir

هذين الاتجاهين يرعاه وينميه، هذا ـ طبعًا ـ دون إغفال أن قرارنا يؤثر فيه البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع.

فالمجتمع المعاصر يفترض أن نمط التملك هو النمط الفطرى الأوحد فى النفس البشرية، وأنه يستحيل تغييره عمليًّا. ويرى هذا المنظور أن الناس بطبعهم كسالى وسلبيون ولا يرغبون فى العمل إلا إذا كانوا **مدفوعين** بحافز الربح المادى أو تحت ضغط الجوع أو الخوف من العقاب. وإذا كان الحافز البيولوجى للبقاء يُبْرز الجانب التملكى فينا، فإن هذا لا يمنع أن داخلنا رغبة عميقة ومتأصلة لأن نؤكد كينونتنا، وأن نُعَبِّر عن ملكاتنا العقلية والروحية، وأن نكون نشيطين، وأن نهرب من سجن أنانيتنا، وأن ننتمى إلى المجموع.

وقد عَبَّر هِب D.O.Hebb [1] عن لُب المشكلة حين قال: **إن المشكلة السلوكية الأساسية هى الكشف عن أسباب السلبية والخمول، وليس البحث عن أسباب النشاط، إذ إنه فطرى فينا.**

الوعد الكاذب

ابتداء من النصف الثانى للقرن العشرين حدثت بين الكثيرين من فلاسفة العالم الغربى **صحوة فكرية**، تستنكر أن المجتمع الصناعى الغربى حين دفع الناس إلى تبنى النمط التملكى فى الحياة قد جعل شهوة تملك المال والشهرة والسلطة هى المحرك الأساسى للإنسان، مما أدى إلى أن **مُسخت حاجيات الإنسان وتشوهت فطرته**، حتى أصبح الإنسان العصرى **عاجزًا عن تصور مجتمع لا يدور حول الملكية الجشعة.**

ومن هؤلاء الفلاسفة العظام **إريك فروم**، الذى اهتم بدراسة هذه الظاهرة من خلال مقارنة نمطى التملك والكينونة فى كتابه To Have Or to Be [2]، واعتبرها **مقارنة بين مظهر الإنسان وجوهره.** ويرى فروم أن الحضارة المادية المعاصرة قد أهملت بشكل كامل **حاجات الإنسان النفسية الأساسية، وهى الحاجة إلى الانتماء، والحاجة إلى الهوية، والحاجة إلى الارتباط بالجذور، والحاجة إلى التسامى، والحاجة إلى منظومة توجيهية يحيا الإنسان فى إطارها.** ولا شك أن هذه الحاجات الخمس متطلبات إنسانية موضوعية، لا توجد لدى الحيوان، ولم يخلقها المجتمع، وإنما هى جزء من طبيعة الإنسان وفطرته.

---

(١) دونالد هب D.o.Hebb (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥)، عالم النفس الكندى، الذى وُصف بأنه أبو علم النفس العصبى، لاهتمامه بكيفية قيام الخلايا العصبية بالمهام النفسية.

(٢) عَرَّفْنا بإريك فروم وعرضنا طرحه لنمطى التملك والكينونة كما جاء فى كتابه هذا، فى الجزء السابق من الفصل.

وبالرغم من فطرية هذه الحاجات، فإن المجتمعات المعاصرة فرضت على الإنسان مفاهيم تنافى طبيعته وتحبطه وتقيده، وتجعله غريبًا عن حقيقته الإنسانية، **وتنكر عليه تحقيق الشروط النفسية الأساسية لوجوده**. ومثال هذا الخلل الشنيع ما صار يُعرف بـ«**الحلم الأمريكى**»، وهو محاولة المجتمع الأمريكى صهر المهاجرين الجدد فى بوتقة واحدة، متجاوزين جذورهم وانتماءاتهم، وفرض هوية جديدة عليهم، ودفعهم للحياة فى إطار الواقع دون أى إطار توجيهى سوى مصلحة هذا الواقع. إنه **حلم يتعارض على طول الخط مع حاجيات الإنسان النفسية الخمس**. بذلك أصبح الإنسان فى هذا النظام المادى (الرأسمالى والشيوعى) *آلة وعبدًا مأجورًا مجردًا من الهوية ويحيا فى اغتراب ويأس*. ويصف إريك فروم المجتمع الذى يسعى لمثل ذلك الحلم ويخفق فى إشباع حاجات الإنسان الأساسية **بأنه مجتمع مريض لا يُنتج إلا مسوخًا مشوهة**.

وبعد هذا التشخيص، يضع فروم يده على **الأسباب وراء هذا المرض المجتمعى**، فيقول: لقد ظهرت الحضارة الإنسانية منذ بدأ الجنس البشرى سيطرته الفعالة على الطبيعة، وقد ظلت هذه السيطرة محدودة حتى جاء العصر الصناعى، الذى تم فيه إحلال الطاقة الميكانيكية ثم النووية محل طاقة الإنسان والحيوان، وكذلك إحلال الحاسبات الإلكترونية محل المخ البشرى فى العديد من النشاطات، عند ذلك شعر الإنسان بأنه قادر على كل شىء، كما أشعره التقدم العلمى بأنه عالم بكل شىء. **لقد اعتقد البشر أنهم صاروا أشبه بالآلهة، أى كائنات عليا تستخدم العالم الطبيعى كأحجار بناء لعالم جديد من خلق الإنسان!**

وقد مكن التقدم التكنولوجى الهائل الإنسان من الإنتاج والاستهلاك غير المحدودين، وقد شكل ذلك مع الحرية المطلقة ـ خصوصًا فى تحصيل اللذة ـ ثالوثًا مَثَّل **نواة دين جديد اسمه «التقدم»**. فساد الاعتقاد بأن تحقيق الثروة والرفاهية سيحقق **المتعة القصوى والسعادة غير المحدودة للجميع**. ويرى فروم أن العصر الصناعى عجز عن تحقيق هذا الحلم، ومن ثم عجز عن الوفاء بوعده العظيم للبشرية.

ويضع إريك فروم يده على «**مظاهر**» **عجز العصر الصناعى عن الوفاء بوعده**، فيؤكد أن **إشباع كل ما يعن للناس من رغبات دون قيود لم يُوَصِّل للحياة الطيبة**، ولم يكن سبيلًا إلى المتعة والسعادة. كذلك فإن حلم البشر بأن يكونوا سادة أحرارًا قد انتهى بعد أن أصبحنا جميعًا تروسًا فى الآلة البيروقراطية، وبعد أن أصبحت الصناعة والحكومات (عن طريق آلتها الإعلامية) هى التى تشكل مشاعرنا وأفكارنا وأذواقنا، تتلاعب بها كما تريد. وقد ظل التقدم الصناعى مقتصرًا على الأمم الغنية، بل إن الهوة بينها وبين الأمم الفقيرة تزداد

يومًا بعد يوم. وأخيرًا وليس بآخر، فإن التقدم التكنولوجى قد خلق مخاطر إيكولوجية (أى تهدد البيئة الطبيعية) ومخاطر نووية، وكلاهما يمكن أن يكون سببًا فى إنهاء كل أشكال الحضارة، وربما كل أشكال الحياة على ظهر الكوكب. وقد لخص ألبرت شفايتزر Albert Schweitzer [1] الموقف فى كلمته التى ألقاها عام ١٩٥٢ أثناء تسلمه جائزة نوبل للسلام، حين «**تحدى العالم أن يجرؤ على مواجهة الموقف**»، ويقصد بذلك أننا قد صرنا عبيدًا لتلك الحضارة الهدامة.

وكعالم للنفس، يُرجع إريك فروم **إخفاق الوعد العظيم إلى «مقدمتين نفسيتين» أساسيتين** تروج لهما الحضارة المعاصرة؛ الأولى، ادعاء أن الهدف من الحياة هو السعادة، التى تعنى تحقيق أقصى متعة، عن طريق إشباع أى رغبة أو حاجة ذاتية تعن للمرء (وهو ما يعرف بمذهب اللذة الراديكالى[2])، والمقدمة الثانية هى الاعتقاد بأن الاكتفاء بتحقيق المصلحة الشخصية ـ حتى من خلال الأنانية والجشع ـ يمكن أن يفضى إلى الانسجام والسلام.

وإذا نظرنا إلى المقدمة الأولى؛ **مذهب اللذة الراديكالى**، وجدنا غالبية فلاسفة الغرب ـ ابتداء من القرن السابع عشر ـ يتبنون مفاهيم تؤكد **أن حياة الإنسان من أجل نفسه فقط تعنى تعظيمًا لذاته وليس إنقاصًا لها**. فهذا هوبز Hobbes يعتبر أن السعادة هى التقدم المطرد من شهوة لشهوة. ويصل لاميترى La Mettrie إلى حد تشجيع الحصول على وهم السعادة عن طريق تعاطى المخدرات. ثم هناك دى ساد De Sade الذى يعتبر إشباع الرغبة فى ممارسة العنف والقسوة أمرًا مشروعًا يمكن أن يحقق النشوة للإنسان[3].

وبانقضاء القرن الثامن عشر ظهرت **نظريات مناهضة تمامًا لمذهب اللذة** على أيدى فلاسفة كبار أمثال كانت وماركس وشفايتزر. لكن، ها هو العصر الحالى، منذ الحرب العالمية الأولى، يشهد **عودة إلى أفكار وممارسات مذهب اللذة الراديكالى**، وأصبحت فلسفة المجتمعات الغربية تدور حول الجمع بين التفانى فى العمل إلى الدرجة التى قد تدفع الناس إلى الجنون وبين التفرغ لتحصيل المتعة بعد ساعات العمل وأثناء العطلات.

وإذا نظرنا إلى المقدمة الثانية، وهى **قبول تحقيق المصلحة الشخصية عن طريق الأنانية والجشع**، وجدنا أن السلوك الاقتصادى فى العصور الوسطى (خاصة فى المجتمعات

---

(١) ألبرت شفايتزر (١٨٧٥ - ١٩٦٥)، الطبيب والفيلسوف الدينى الألمانى، حصل على جائزة نوبل لفلسفته الإنسانية ولتأسيسه لمستشفى ضخم بالجابون لرعاية الأفارقة المعدمين، وهو موسيقى بارع فى عزف الأورج.

(٢) الراديكالى Radical بمعنى جذرى أو أساسى.

(٣) سنُعَرِّف بالشخصيات التى وردت أسماءها بعد قليل.

الشرقية) كان محكومًا بمبادئ أخلاقية، حتى إننا نقرأ فى كتب التراث كيف كان التاجر يرفض البيع لزبون ويرسله لجاره التاجر الذى لم يسترزق اليوم بعد. ثم شهدت رأسمالية القرن الثامن عشر تغييرًا جذريًا أدى إلى **أن أصبح السلوك الاقتصادى منفصلًا عن النظام الأخلاقى وعن القيم الإنسانية**، حتى لقد أصبحت الآلة الاقتصادية كيانًا قائمًا بذاته، مستقلًا عن احتياجات الإنسان وإرادات البشر. وبدلًا من أن يكون النظام الاقتصادى (وغيره من الأنشطة) خاضع للإجابة عن السؤال: **ما الذى يجب عمله لخير الإنسان؟** أصبح السؤال هو: **ما الذى يجب عمله لخير النظام وتنميته؟**

لذلك أصبحت المجتمعات المعاصرة تنظر إلى المجتمعات التى لا تخضع لمبدأ اللذة الراديكالى ولا تعرف الأنانية والجشع فى تحقيق المصلحة الشخصية باعتبارها **مجتمعات بدائية**، رجالها ونساؤها كالأطفال! لقد أصبح المجتمع الصناعى **يحتقر الطبيعة ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة**، ويحتقر الشعوب التى لا تتفوق فى تصنيع الآلات.

الكارثة والنجاة

يؤكد شوماخر E.F.Schumacher [1] ـ وهو من كبار المفكرين الاقتصاديين البريطانيين، ومن دعاة المذهب الإنسانى ـ أن نظامنا الاجتماعى الراهن يجعل منا كائنات مريضة، ويرى أننا مندفعون نحو كارثة اقتصادية وبيئية ما لم نغير نظامنا الاجتماعى تغييرًا جذريًا. ويضيف شوماخر: **إن الحاجة لتغيير إنسانى عميق لا تنبع من كونها مطلبًا أخلاقيًّا ودينيًّا وحسب، كما أنها ليست مجرد مطلب نفسى رافض للطبيعة المُمْرِضة لنظامنا الاجتماعى، ولكنها قبل كل ذلك شرط لبقاء الجنس البشرى.** لم يعد الاحتياج لحياة خَيِّرة مجرد استجابة للمتطلبات الأخلاقية والدينية، بل **لقد أصبح بقاء الجنس البشرى ـ لأول مرة فى التاريخ ـ يتوقف على إحداث تغيير جذرىٍ فى وجدان الإنسان وقلبه وضميره.**

ويرى إريك فروم أن السبيل لتفادى هذه الكارثة يكمن فى إنشاء **مجتمع «المدينة الفاضلة»** الذى يرتبط فيها الإنسان بأخيه الإنسان برباط المحبة، وتتواصل فيه جذور الأخوة والتكاتف، ويتيح للإنسان التعامل مع الطبيعة بالخَلْق لا بالتدمير، ويكتسب فيه كل فرد شعورًا بذاته باعتبارها ذات قيمة وفاعلية. **مجتمع يوجهه نظام يراعى الجانب الروحى للإنسان، فلا يحتاج إلى تحريف الواقع وعبادة الأصنام.**

(١) شوماخر: ١٩١١ - ١٩٧٧م.

إن ما عرضته حتى الآن عن معاناة ذاتى الإنسانية فى ظل المجتمعات المعاصرة ليس بجديد، بل إنه معروف ومنشور على الملأ. غير أن الحقيقة التى يصعب تصديقها هى أن **المسئولين الموكّلين بشئوننا العامة لا يفعلون شيئًا ذا بال لإنقاذ البشرية**، كما أننا (الذين أوكلنا لهم شئوننا) لا نفعل شيئًا أيضًا! ولكن كيف فقدت أقوى غرائزنا ـ وهى غريزة البقاء ـ القدرة على تحريكنا للمحافظة على وجودنا؟!

يُرجع إريك فروم ذلك إلى أن القادة والزعماء يتظاهرون بأنهم يعملون شيئًا فعالًا لإنقاذ البشرية (مؤتمرات ـ قرارات ـ مفاوضات لنزع السلاح...). إن كلًّا من القادة والمَقُودين يُخَدِّرون ضمائرهم بالتظاهر بمعرفة الطريق السليم والسير فيه (**أسمع ضجيجًا ولا أرى طحنًا**). كذلك أصبحت الأولوية لدى هؤلاء المسئولين (كما شكلها نمط التملك) هى **النجاح والمجد الشخصى**، وليست المسئولية الاجتماعية، ومن ثم تدور قراراتهم حول هذا الهدف.

كذلك من أسباب قتل غريزة البقاء فينا، أن التغيرات المطلوبة لإنقاذ الموقف أصبحت من العمق والجذرية بحيث تجعل الناس **يفضلون وقوع الكارثة فى وقت لاحق على قبول تقديم التضحيات المطلوبة منهم الآن**. تمامًا كالطالب الذى يتكاسل عن بذل الجهد لمذاكرة الدروس، بالرغم من علمه أن ذلك سيؤدى إلى رسوبه فى الاختبار بعد أسابيع قليلة.

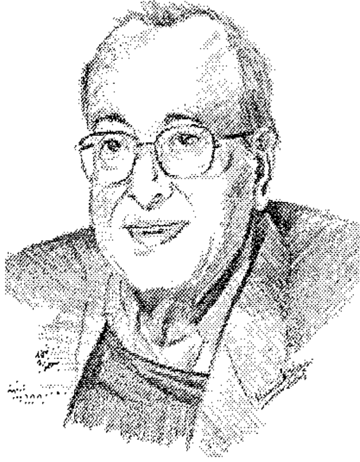
ولا شك أن أحد أهم العوامل الرئيسية للتراخى فى درأ الكارثة هو اعتقاد معظمنا أنه ليس أمامنا من بدائل سوى رأسمالية الشركات الكبرى، أو الاشتراكية الديمقراطية، أو الاشتراكية السوفييتية، أو الفاشية التكنوقراطية ذات الوجه المبتسم، أو.... **إن أقل القليل من الجهد لم يُبذل لدراسة إمكانية قيام نماذج اجتماعية جديدة تمامًا والتجريب عليها لإنقاذ البشرية.**

***

حوارى مع د. عبد الوهاب المسيرى
أنا... أُلْعُوبة الحضارة المادية

قد يرى البعض أننى قمت ـ فى الجزء السابق من الفصل ـ بانتقاء آراءٍ لعلماء ومفكرين **يتحاملون على الحضارة المادية المعاصرة** (بالرغم من أنهم من أبناء جلدتها!)، وقد يرون أن الأمر ليس بهذا السوء، ويدفعون بأن هذه الحضارة قد قدمت للإنسانية مستوى غير مسبوق من التقدم والرفاهية وطول العمر، وأنها فى الوقت نفسه لم ترغم أبنائها لأن يحيوا بعيدًا عن

القيم الإنسانية والدينية التى يختارونها، ومن ثم لا ينبغى أن نصفها بأنها «حضارة مُمْرِضة» «شوهت أبناءها وجعلتهم مسوخًا بشرية».



(شكل ـ ١)
الدكتور عبد الوهاب المسيرى
عالِم الاجتماع، والفيلسوف الإسلامى، وأستاذ الأدب الإنجليزى

كعادتى فى فصول هذا الكتاب، أردت أن أستوضح الأمر وأن أطرحه للنقاش، عن طريق الحوار المباشر مع مفكر ممن خبروا الموضوع وتخصصوا فيه. لم يتطلب الأمر منى عناءً كبيرًا فى البحث، فقد اعتدت أن أرجع فى كل ما يخص الحضارة المادية إلى **أستاذى وصديقى الدكتور عبد الوهاب المسيرى**[1] (شكل -١)، فبالإضافة إلى أنه كان أستاذًا للأدب الانجليزى وعالمًا للاجتماع وأحد أعلم أهل الأرض باليهودية والصهيونية، فقد خَبَرَ الحضارة المادية (بشقيها الرأسمالى والشيوعى). فقد كان فى شبابه ـ لفترة ـ عضوًا فى الحركة الشيوعية فى مصر، كما عاش سنوات طويلة فى الولايات المتحدة ودَرَس ودَرَّس فى جامعاتها، فاستطاع بعينه الناقدة أن يحلل تلك الحضارة وأن يضع يده على إيجابياتها وسلبياتها، وناقش هذه وتلك فى العديد من كتبه. ولإعجابى الشديد ـ وتأثرى ـ بفكر الدكتور المسيرى، كتبت عنه كتابًا بعنوان «**رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية**»، نشرته وزارة الثقافة فى مصر (طبعتين) عام ٢٠٠٨.

الإنسان والوجود فى عَيْنَى د. المسيرى

بدأت حوارى مع أستاذى د. عبد الوهاب المسيرى، وقلت له: قبل أن نتناقش حول الحضارة المادية الحديثة، هلا بينت لى نظرتك إلى الإنسان وإلى الوجود. أجاب طلبى قائلًا:

(١) **الدكتور عبد الوهاب المسيرى**: ولد بدمنهور بمصر عام ١٩٣٨ (توفى بالقاهرة عام ٢٠٠٨). تخرج من كلية الآداب ـ قسم اللغة الإنجليزية ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٥، ثم حصل على الماجستير من جامعة كولومبيا عام ١٩٦٤ والدكتوراه من جامعة رتجرز عام ١٩٦٩، حيث عمل بالتدريس عدة سنوات، كما عمل مستشارًا ثقافيًّا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك قبل عودته عام ١٩٧٩ للعمل كأستاذ للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس وجامعات السعودية والكويت.
أشهر مؤلفاته «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج معرفى جديد» صدرت فى ثمانية مجلدات عام ١٩٩٩، وهى من أعمق المراجع العالمية فى مجالها. وله العديد من الكتب حول سلبيات الحضارة المادية، مثل «نهاية التاريخ» و«إشكالية التحيز» و«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» و«الحداثة وما بعد الحداثة». بالإضافة إلى عدة كتب فى النقد الأدبى وأدب الأطفال وديوان من الشعر.

أرى أن «**الإنسان**» هو أكرم المخلوقات فى الكون، مختلف بشكل جوهرى عن بقية الكائنات، حتى وإن شاركها بعض صفاتها، فهو ـ مثلها ـ يعيش فى الطبيعة لكنه منفصل عنها.

وصفات «**الطبيعة**»، فى الفكر المادى، هى ذاتها صفات «**المادة**»، لذلك كلما وردت كلمة «طبيعة» يجب أن نضع محلها كلمة «مادة»، ولهذا نكتبها «الطبيعة/ المادة».

وأرى أن «**الوجود**» يتسم بثنائية أساسية، أسميها «**الثنائية الفضفاضة**»:فهى ثنائية **الخالق** (خَلَقَ العالم)، و**المخلوق** (الإنسان والطبيعة والتاريخ).

وهى **فضفاضة**: إذ إن الإله مفارق للعالم (فالعالم ليس جزءًا من الإله ولا متحد به)، إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه.

وينتج عن هذه الثنائية الأساسية (الخالق والمخلوق) **عدة ثنائيات**، من أهمها ثنائية **الإنسان والطبيعة** التى ترى انفصال الإنسان عن الطبيعة واستحالة تفسير سماته فى إطارها، لأن **الإله خلقه وكرَّمه واستخلفه فى الأرض**. لذلك فالإنسان ليس مركز الكون، وإنما وُضع فى مركزه، وليس مالكًا للطبيعة، بل خليفة فيها من قِبَل خالقها (خليفة من الله وليس خليفة عن الله).

والثنائية غير الإثنينية، ففى **الثنائية** ثمة عنصران يتفاعلان ويتدافعان وربما يتكاملان. أما فى **الإثنينية** فهناك عنصران متضادان متعادلان (مثل إله الخير والنور وإله الشر والظلام فى بعض العبادات الوثنية) ولذا يدخلان فى صراع دائم.

والثنائية تقف على طرف النقيض من «الواحدية المادية» التى يؤمن بها الفكر المادى والتى تذهب إلى أن الوجود بأسره (الإنسان والطبيعة) جوهر مادى واحد.

وبدلًا من مفهوم (**الإنسان الطبيعى**) الذى يتحدث عنه الماديون، والذى تنطبق عليه نفس القوانين التى تنطبق على الطبيعة / المادة، أطرح مفهوم **الإنسان الإنسان (أو الإنسان الربانى)**، كائن لا يعلمه فى كُلّيَّته إلا الله، إذ إن هناك جزءًا منه قادر على التسامى وتجاوز عالم المادة. وهو كائن يعيش داخل (**جسده**) المادى، ويتحرك حسب القوانين والدوافع الفيزيائية والبيولوجية والغريزية، ولكن (**روحه**) تتجاوز عالم المادة إلى عالم المُثل العليا والغيب، كائن أقدامه مغروسة فى الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، كثيرًا ما يسقط ولكنه قادر دائمًا على النهوض ثم التجاوز والتسامى.

ووجود الله ﷻ هو الضمان الوحيد لوجود هذا الإنسان بجزأيه المادى وغير المادى، فالله هو الجوهر الذى يتطلع إليه الإنسان حتى ينطلق من طينته. ومن ثَم، بغياب الله يتحول الإنسان إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين المادة، التى يمكن حصرها ودراستها والتحكم فيها، كما يتحول إلى كم مادى يمكن تفسيره فى إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميتة التى يمكن معرفتها والتنبؤ بنتائجها (إذا تعرضتَ لموقف كذا، سيكون سلوكك كذا).

وأضاف د. المسيرى؛ لذلك أنظر إلى «**المكوّن الدينى للإنسان**» ليس باعتباره مجرد قشرة، وإنما هو من جذور الكيان والهوية، وأرى **أن الدين ذو فعالية فى الواقع المادى الذى نحياه** وليس جزءًا مغلقًا من عالم الغيب. وهكذا تتسع الهُوَّة التى تفصل «الإنسان الربانى» عن التصور المادى البسيط، ويتأكد دور عالم الروح فى تفسير ظاهرة الإنسان، أى **أن الدين فى تصورى جزء من الكيان الإنسانى وليس منفصلًا عنه.**

الحضارة المادية إفراز للفكر المادى

أحسست بالنشوة عندما طرح عَلَىَّ د. المسيرى نظرته للإنسان وخالقه، وللدين الذى يمثل العلاقة بينهما. عند ذلك قلت له: آن الأوان لتقدم لى الحضارة الحديثة من وجهة نظرك، فقال:

الحضارة الحديثة - فى تصورى - هى **حضارة عقلانية مادية** (لا عقلانية وحسب). **فإنجازاتها الضخمة** (التكنولوجيا - العلم - السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط).

أما **إخفاقات الحضارة المادية الحديثة** فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها، ومن أهم تلك الإخفاقات: الأزمة البيئية - الحروب العالمية - فقدان الاتجاه (أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب) - ظهور العبثية (أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن الصدفة العمياء تتحكم فيه) - تحول الوسائل إلى غايات...، وهذه الإخفاقات - مثل الإنجازات - **من نتاج الرؤية المادية** للحضارة الحديثة.

وتمثل الحضارة الحديثة «**بناءً ماديًا**» **ذى مستويين**:

مستوى فلسفى (الأفكار المادية، التى هى نتاج العقل المادى).

ومستوى **تطبيقى عملى**، وهو المتمثل فى مظاهر الحضارة الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها.

والعقل المادى (الذى أنشأ هذه الحضارة) عقل محايد، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بمنشأ الإنسان ومآله، والغرض من وجوده فى الكون)، أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. ويتعامل العقل المادى مع ما يصله من معلومات ومعطيات ولا يمكنه أن يتجاوزها. ولذا فهو يفرز ما يمكن تسميته «**منطق الأمر الواقع**» أو «**أخلاق الصيرورة**» أى أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شىء ـ بما فى ذلك تلك القيم ـ فى حالة تغير وتحول دائمين، ولذا يفرض على الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى يصير إليه.

والعقل المادى **لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو بخصوصيات كل إنسان فرد**، فهو **يركز على الجوانب العامة**، ويمكن تشبيهه بأشعة إكس، التى يمكنها أن تعطينا صورة للهيكل العظمى للإنسان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجه الإنسانى فى أحزانه وأفراحه. وفى نفس الوقت قد **يهتم هذا العقل بالتفاصيل بشكل مبالغ فيه!** لذلك يمكن تشبيهه بالميكروسكوب الذى يُظهِر أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهذه الخلية.

ولما كان **التاريخ** بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادى أن يتعامل معه بكفاءة، خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان ذى الجانبين (المادى والروحانى). لذلك فالعقل المادى **يقدس الأمر الواقع على حساب الحق التاريخى** (أدركت من خلال معرفتى بالدكتور المسيرى أنه يشير بذلك إلى الصراع العربى الإسرائيلى).

ثم أضاف د. المسيرى، نخلص من هذا إلى أن مهمة العقل المادى هى اختزال كل شىء ـ بما فى ذلك الإنسان ـ فى جانبه المادى فقط، بهدف الاستفادة منه. لذلك فهو **يقوم بهدم الإنسان وتفكيكه إلى عناصر مادية أولية**. لذلك يرى الفكر المادى أن العقل يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء. وهذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان ترده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته فى الكون.

ولعل «هوبز»[1] هو أول مفكر ساير المفاهيم المظلمة للعقلانية المادية، حين أعلن أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وأن التعامل الاجتماعى بين البشر لا يتم بسبب فطرة خَيِّرَة فيهم،

(١) Thomas Hobbes: (١٥٨٨ – ١٦٧٩)، من كبار الفلاسفة السياسيين البريطانيين.

وإنما من فرط خوفهم، بدافع غريزة حب البقاء. وقد اتفق معه «**ماكيافللى**»(١) حين أعلن أن الوسائل كلها مبرَرَة من أجل تحقيق السلطان السياسى.

أما «**إسبينوزا**»(٢) و«**نيوتن**»(٣) فقد قدما عالمًا أليًّا تمامًا، لا تُستثنى الذات الإنسانية من قوانينه المادية. وأكد هذا المعنى الفلكى «**لابلاس**»(٤) حين قال لنابليون: إن تصوره لبنية الكون لا يحتاج لافتراض وجود إله.

وأَكَّدَ «**جون لوك**»(٥) أن العقل صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وأن ليس هناك دور لفطرة خَيِّرَة توجهه. وبيَّن **الماركيز** «**دى صاد**»(٦) و«**فرويد**»(٧) أن الإنسان يحوى الذئب داخله (دوافع) وخارجه (سلوك)، وأن ذاته المتحضرة ما هى إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تعوى داخل الإنسان ومِن حوله. ويرى «**داروين**»(٨) ضرورة الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأقوى. وقد أعلن «**نيتشه**»(٩) أن ما تفرضه الذات الإنسانية من مُثُل وهمية هى إحدى الحيل التى يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا حقوق الأقوياء.

ويرى «**ماركس**»(١٠) أن الذات الإنسانية المستقلة وهْم ما بعده وهم، فوراء المُثل والقيم يوجد الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج. ويصل هذا الاتجاه إلى قمته فى **فكر ما بعد الحداثة**(١١)، **الذى يُعتبر دريدا**(١٢) **أشهر فلاسفته**، فلا وجود فيه لذات إنسانية تميز الإنسان بما تحمله من قيم ومُثل عما حوله من الماديات، كما لا توجد فيه غاية عُليا للوجود الإنسانى.

(١) Niccolo Machiavelli: (١٤٦٩ - ١٥٢٧)، فيلسوف إيطالى، اشتهر عنه قوله بأن الغاية تبرر الوسيلة.
(٢) Baruch Spinoza: (١٦٣٢ - ١٦٧٧)، الفيلسوف الألمانى اليهودى، من الدعاة لمفهوم وحدة الوجود.
(٣) Isaac Newton: (١٦٤٢ - ١٧٢٧) عالم الفيزياء البريطانى الأشهر، صاحب قوانين الحركة والجاذبية.
(٤) Marquis de leplace: (١٧٤٩ - ١٨٢٧) عالم فلك ورياضيات فرنسى.
(٥) John locke: (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فيلسوف السياسة الإنجليزى.
(٦) Marquis de sade: (١٧٤٠ - ١٨١٤) النبيل والفيلسوف والكاتب الفرنسى.
(٧) Sigmund Freud: (١٨٥٦ - ١٩٣٩) طبيب الأمراض العصبية النمساوى، مؤسس علم التحليل النفسى.
(٨) Charles Darwin: (١٨٠٩ - ١٨٨٢)، عالم البيولوجيا البريطانى الأشهر، صاحب نظرية التطور.
(٩) Friedrich Nietzsche: (١٨٤٤ - ١٩٠٠)، فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر، الذى بَشَّرَ بالإنسان الأعلى (السوبر مان).
(١٠) Karl Marx: (١٨١٨ - ١٨٨٣)، الفيلسوف الاجتماعى الألمانى الشهير، أشهر آثاره كتاب «رأس المال».
(١١) يشرح لنا د. المسيرى معنى «فكر ما بعد الحداثة» فى جزء قادم من حواره.
(١٢) دريدا: Jacques Derrida (١٩٣٠ - ٢٠٠٤م): الفيلسوف الفرنسى اليهودى، وُلد فى الجزائر. اشتهر بمذهبه فى الفلسفة التحليلية الذى يُعرف باسم الفلسفة التفكيكية Deconstruction، التى لا تعترف إلا بالأصول المادية للأشياء والظواهر، وتتنكر لكل ما هو غيبى. له أكثر من أربعين كتابًا.

أصابنى هذا الطرح الرائع شديد الإيجاز للنظرة اللاإنسانية للفكر المادى بالدوار، ثم استجمعت نفسى وقلت للدكتور المسيرى، هذا بالنسبة **للمستوى الفلسفى** فى البناء المادى للحضارة المعاصرة، فكيف انعكست هذه النظرة على بنية المجتمعات المادية، أى على **المستوى التطبيقى العملى**؟ فأجابنى:

يمكن اعتبار أن القرن التاسع عشر قد شهد **انتقالًا تدريجيًّا من الرؤية الآلية للإنسان إلى الرؤية العضوية**. فإذا كان «**نيوتن**» قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات الماهر (الرؤية الآلية)، فإن عالَم «**داروين**»العضوى يختفى منه «الإله» تمامًا؛ فأصول الإنسان تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف. ثم يؤكد «**فرويد**» أن غابة القِرَدة تقع داخل الإنسان على شكل «لا وعى» مظلم وغرائز متفجرة. وقد أجرى العالم الروسى «**بافلوف**»[1] تجاربه على الكلاب ثم طبق نتائجها على الإنسان، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما. وأخيرًا يأتى «**فوكوياما**»[2] (فليسوف ما بعد الحداثة) ليزيد الطينة بِله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التى خُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواجّ! أى أننا **أصبحنا لا شىء**.

تفكيك الإنسان ثم إعادة تركيبه

الترشيد البرانى والترشيد الجوانى:

واستطرد د. المسيرى قائلًا: وهكذا تم **تفكيك الإنسان تمامًا** (رده إلى ماديته)، ثم أُعيد **تركيبه** كمنتج ومستهلك خالى من المنظور الإنسانى، وكان ذلك بإسباغ الرؤية الآلية عليه تارة ثم الرؤية العضوية تارة أخرى، وأخيرًا تحقق منظور ما بعد الحداثة فى أن الإنسان لن يعبد شيئًا، وأنه سينزع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

إن العمود الفقرى لقوة الولايات المتحدة (قمة المجتمعات المادية) يكمن فى أنها قد نجحت فى ضبط سلوك مواطنيها وتوجيههم نحو هدف نهائى واحد: **الاستمتاع والإنتاج والاستهلاك**، وتم ذلك من خلال آليتين تكفلان الانضباط الكامل:

الترشيد البرانى (الخارجى): وهو توجيه سلوك الإنسان نحو الاستمتاع والإنتاج والاستهلاك، وذلك من خلال **النظم والقوانين**.

(١) Ivan Pavlov: (١٨٤٩ - ١٩٣٦) عالم الفسيولوجيا الروسى الأشهر، مُنح جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب العام ١٩٠٤.

(٢) فوكوياما Y.F.Fukuyama: أستاذ العلوم السياسية والاقتصاد السياسى، أمريكى الجنسية، ولد عام ١٩٥٢ - أشهر كتبه كتاب «نهاية التاريخ» الذى صدر عام ١٩٩٢.

الترشيد الجوانى (الداخلى): وهو جَعْل الاستمتاع والاستهلاك **غاية وحُلم**، يسعى الإنسان إلى تحقيقه.

فى الترشيد البرانى، يجتهد العقل المادى فى **إتقان توظيف الوسائل للوصول إلى الغايات المادية** دون النظر إلى صحة وعواقب هذه الغايات. ألم يفعل ذلك المجتمعان النازى والصهيونى؟! مجتمعان يستخدمان العلم والتكنولوجيا بكفاءة غير عادية فى البطش والقتل للوصول إلى ما لا حق لهم فيه.

ولعل الولايات المتحدة هى البلد الذى تم فيه ترشيد جميع جوانب الحياة. فالإعلام ينجح تمامًا فى **عزل الإنسان الأمريكى عن الأحداث العالمية**، لا أنسى يوم السادس من يونية سنة ١٩٦٧ حين نشرت الصحيفة المحلية خبر اندلاع الحرب فى ثلاثة سطور فى الصفحة الثالثة. وفى أثناء انتخابات الرئاسة (عام ٢٠٠٠) لم أسمع تصريحًا واحدًا عن السياسة الخارجية؛ لأن القضية الأساسية التى شغلت الرأى العام الأمريكى آنذاك هى شخصية المُرَشَّح آل جور، وهل قبَّل زوجته فى شفتيها أمام مؤتمر الحزب الديمقراطى بحرارة زائدة أم حرارة معقولة، وحين كانوا يتطرقون للسياسة كانوا يتحدثون فقط عن تكاليف الرعاية الطبية والضرائب. وينتج عن هذا كله **تبسيط الوجدان السياسى للإنسان الأمريكى وإلغاء قدراته النقدية**، بحيث يمكن للسلطة الحاكمة أن **تملى عليه ما تريد من أفكار يعتنقها بتلقائية وحرية كاملتين**! (الترشيد الخارجى آلية تُيَسِّر الترشيد الداخلى).

ومن أهم **وسائل الترشيد البرانى** عدم تقديم أية ضمانات للعاملين أن يستمروا فى وظائفهم، **فيعيشون فى قلق دائم**، الأمر الذى يزيد من إنتاجيتهم (فالإنسان السعيد المتزن مع نفسه تقل إنتاجيته بعض الشىء، إذ يتبنى أهدافًا إنسانية فى الحياة). وحينما تقرر الشركة تحسين صورتها الإعلامية يقوم أحد المحاسبين بتحديد الميزانية المطلوبة (تبرع لمتحف ـ لمرضى السرطان ـ لمكتبة) ولكن عليه أيضًا أن يحسب الأرباح التى تحققها الشركة من جَرّاء ذلك ومن الإعفاءات الضريبية... إلخ.

ويُعتبر **التليفون المحمول** (رمز الوجاهة وأداة الثرثرة فى بلدنا)، أحد أهم آليات الترشيد، إذ يُمَكِّن المؤسسات الأمريكية من أن تصل إلى كل العاملين فى أى زمان ومكان، مما يعنى مزيدًا من تآكل رقعة الحياة الخاصة لحساب الإنجاز المادى.

وإذا نظرنا إلى **صناعة تصميم الأزياء** تجد أنها تقوم بضبط سلوك المرأة (ترشيده)، إذ تضع لها الخطوط الأساسية التى تتحرك داخلها (الفستان الطويل الأخضر هو الموضة هذا العام، أما

العام الذى يليه فإنه إما يكون كذا أو كذا، «ودوخينى يا لمونة»!) وبذلك يمكن التنبؤ بسلوك المرأة واستيعاب أحلامها داخل خطوط الإنتاج.

وفى **الترشيد الجوانى**، يصبح **الاستمتاع والاستهلاك** هما حلم الإنسان الذى يوجِّه ـ من داخله ـ كل جوانب حياته. وبالإضافة إلى هذا الحلم، فإن للترشيد الجوانى جانبًا آخر؛ فالولايات المتحدة تضم شعوبًا ذات أصول عِرْقية ودينية مختلفة، لأفرادها ولاءات متعددة وأحلامٌ مختلفة: فردية وعائلية وقومية ودينية. كل هذا يجعل عملية ضبط مثل هذه المجتمعات مهمة صعبة، ويتطلب هذا **صهرهم فى بوتقة واحدة** عن طريق جمعهم حول أحلام محددة. وتلعب هوليود دورًا أساسيًّا فى عملية الترشيد هذه، فهى تعيد تشكيل صورة الإنسان وأحلامه.

إن «العولمة» هى الترشيد المادى على مستوى العالم، بحيث يصبح سوقًا ضخمة، ويصبح البشر فى كل الدول كائنات ذات بُعد مادى فقط (إنتاج واستهلاك).

ويمكن القول إن المفهوم الكامن وراء معظم الأيديولوجيات العلمانية الشاملة (النازية ـ الماركسية ـ الليبرالية ـ الصهيونية) هو ما يُسمَى بـ «**التطور أُحادى الخط**» **Unilinear**، أى الإيمان بأن **التقدم المادى للمجتمعات هو التطور الوحيد ذو البال**. وتتصاعد عمليات الترشيد المادى إلى أن يتحقق حلم **اليوتوبيا التكنولوجية**، حين تتم برمجة كل شىء، والتحكم فى كل شىء، وضمن ذلك الإنسان، ظاهره وباطنه.

والنتيجة، أن عملية إعادة تشكيل الإنسان وتصاعد معدلات الترشيد فى المجتمع أدت إلى **اختفاء التميز الفردى واختفاء القيم الثقافية والروحية والعقل النقدى**، حتى أصبح الإنسان كائنًا ذا بعد واحد يرتبط وجوده بالمتع والاستهلاك والسلع (**فهو إنسان مستمتع متسلع متشيئ**)، عقله ينشغل بالوصف والرصد وإدراك الآليات، **عاجز تمامًا عن إدراك الأغراض النهائية للوجود**. وفى النهاية تمت الهيمنة الكاملة على الإنسان حتى وُصِفَت الحضارة الحديثة بأنها «**القفص الحديدى**».

وحينما سُئل «فاكيلاف هافل» (رئيس جمهورية التشيك السابق) عن الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلًا: «هذا الوضع له علاقة بأننا نعيش فى **أول حضارة ملحدة فى التاريخ البشرى**. فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى بالقيم الميتافيزيقية العليا، والتى تمثل شيئًا أعلى مرتبة من ماديتهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار. هذه القيم الأساسية كانت تمثل دعامة للناس،

وأُفقًا لهم، ولكنها فُقدت الآن. وتكمن المفارقة فى أنه حينما **أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، فى هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بعده الإنسانى**».

ويضيف د. المسيرى... بعد أن تَأَكَّدت هذه النظرة عن الحضارة المادية داخلى، **أصبحتُ أكثر قدرة على تفسير العديد من المواقف التى كانت تمر بى أثناء وجودى بالولايات المتحدة.** ثم سألنى؛ هل تريد أن أعطيك بعض الأمثلة؟ أجبته: بالطبع.

قال، كنت مرة أجلس مع ابنى، وهو بَعدُ طفل، نشاهد التليفزيون، وسمعنا من المذيع أن الغرب **قد راكم من الأسلحة النووية ما يكفى لتدمير العالم أكثر من مائة مرة،** ففوجئت بابنى يضحك ملء شدقيه ويخبرنى بشىء بديهى فاتنى، وهو أنه بعد تدمير العالم مرة واحدة، لن يمكن تدميره مرة ثانية، ساعتها ضحكت أنا الآخر، وتدعمت شكوكى بخصوص العقلانية العجيبة للعالم الغربى «المتقدم».

وفى حفلات الكوكتيل، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يثبتوا لرؤسائهم أن حياتهم العائلية مستقرة، وأنها لن تعيق مسيرة العمل والإنتاج، أى **أن الحياة الخاصة تُوَظَّف فى خدمة الحياة العامة،** ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرصن على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهنَّ على أن كل شىء تمام التمام!.

وقد حدث العكس تمامًا حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩، إذ دعوت أنا وزوجتى بعض عضوات هيئة التدريس فى كلية البنات وأزواجهن لطعام العشاء فى منزلنا، ففوجئت بأنهن جميعًا تقريبًا حضرن مستقلات. وحينها تأملت الواقعة أدركت أن حياتهن الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها، وأنه لا يجوز بأى حال جرها جرًّا للحياة العامة.

صار الإنسان براجماتيًّا

واسترسل د. المسيرى قائلًا: كنت أقابل الكثيرين من الأمريكيين الذين يغيرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم حسب ما يمليه الإعلام والكتالوجات، فأدركت أن ما يسود فى الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية. **والإنسان البراجماتى لا يكترث بالثوابت ولا يهتم بالقيم مثل الكرامة والشهامة، فهو إنسان مرن إلى أقصى حد، وعملى بشكل متطرف، يَقْبل أى شىء طالما أنه يحقق النجاح،** ولذا ينتهى به الأمر إلى أن ذاته الجوانية تضمر، ويأخذ فى التكيف مع

ما حوله، **ويستجيب بشكل مباشر لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية،** فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات.

لقد أصابت الإنسان الغربى «**عقدة عدم الثقة بالنفس**» فأخذ يستمد نظرته لنفسه من **الإعلام** الذى كان آخذًا فى التوحش والتغول. وإذا تأملنا ظاهرة «**موضة الملابس**» واجهنا **تناقضًا غريبًا،** فالشخص الذى يقرر أن يرتدى رداء حسب «آخر موضة» هو إنسان متمركز حول ذاته يود إظهارها وتحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد تخلى عن فرديته تمامًا لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن «**الموضة كده السنة دى**»!

ويمكن وصف المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها نوع من «**غياب الحرية فى إطار ديمقراطى سلس معقول!**» smooth reasonable democratic unfreedom كما يقول المفكر «هربرت ماركوز». أى أنها **مجتمعات شمولية نجحت فى أن تجعل الجماهير** تتبنى الرؤية السائدة فى المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسى، بحيث يقتنع الإنسان أن الهدف من الحياة هو الاستمتاع وزيادة الإنتاج والاستهلاك.

وأعتقد أن هيمنة العقل المادى فى الغرب هى المسئولة عن الكُرْه العميق الذى يشعر به الكثيرون تجاه العرب، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس. **فاللاجئون الفلسطينيون يعيشون** فى وضع مادى مزرٍ ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التى يمكن أن تُدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكرون بيوتهم فى حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها، وهم مستمرون فى مقاومة العدو عبر ما يزيد على مائة عام، ويصرون على أن مدينة القدس هى عاصمة دولتهم. كل هذا، من منظور العقلانية المادية، يبدو أمرًا متخلفًا لا عقلانيًّا يثير الغيظ والحنق، **إذ كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بتراثهم ومقدساتهم رغم كل الإغراءات المادية؟ إنهم غير واقعين، ما الذى حدث لعقولهم؟!**

تلاشَىَ دور الأسرة

قلت للدكتور المسيرى، ألم يكن للأسرة دور فى حماية الإنسان من هذا المسخ والتشويه؟

أجابنى: لقد كانت معظم المجتمعات الإنسانية فى الماضى تحاول «**إدخال الطمأنينة**» على قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة. ولعل **الأسرة هى أهم المؤسسات**

التى طورها الإنسان لتقوم بتلك المهمة. أما المجتمعات الحديثة (خصوصًا المجتمع الأمريكى) فقد جعلت الإنتاجية والحركية هدفها. ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركى! فالقلق، يولد نزعة إمبريالية فى الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه من أجل أن يحقق شيئًا من الاتزان والطمأنينة.

إن المجتمع الأمريكى هو مجتمع القلق، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله فى سوق العمالة فى مرحلة مبكرة للغاية، مما يتعارض مع حقوق الإنسان. وفى سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل التآكل الكامل للأسرة الفرد يعيش منعزلًا ولا يشعر بأى اطمئنان، بل يُترك وحيدًا أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، حتى يلتهمه الإعلام الكُفء التهامًا. لقد أصبح الفرد لا يجد أى جهة مرجعية، تكون موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفى معنى على وجوده وتساعده على اتخاذ القرار. لقد «فقد الإنسان المرفأ فى عالم بلا قلب» كما يقول عالم الاجتماع الأمريكى «كريستوفر لاش» فى وصفِه لتآكل نظام الأسرة.

قمت بعقد مقارنة، فوجدت أن عالم الإنسان المصرى أكثر امتلاءً وأكثر صلابة من الإنسان الأمريكى، فهو قادر على الحب وعلى الكُره، وعلى التعاون وعلى التآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته. وهو لا يصدق كل ما يُقال له بسرعة، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع فى إذاعة مصر. أما الإنسان الأمريكى، فهو مؤمن تمامًا بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيده تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

فقدان المرجعية

سألت د. المسيرى، أليس لكل إنسان فى كل حضارة مرجعيته التى ينطلق منها وتعينه على تحديد الصواب والخطأ، فما هى مرجعية إنسان الحضارة المادية الحديثة التى يمكن أن توجهه بعد أن فقد مرجعية الأسرة؟

ابتسم د. المسيرى وقال: من أهم سلبيات الحضارة المادية الحديثة «النسبية المعرفية والأخلاقية»، التى كان المتوقع أن «تحرر الإنسان» وتفسح له المجال لتأكيد فرديته. لقد أدت هذه النسبية إلى العكس، فنزعت القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة)، وجعلت كل الأمور

متساوية، فصار الظلم مثل العدل، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. وأصبح من العسير للغاية، بل من المستحيل، على الإنسان الفرد أن يتخذ أية قرارات بشأن أى شىء، وأصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسيًّا. **لقد قوضت النسبية الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار**، وإن كانت فى الوقت ذاته قادرة على **إقناعه بأى شىء، وكل شىء**.

وبدلًا من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية تفعل ما تريد، **جعلته شخصية رجعية متكيفة مع الأعم والأغلب** الذى تحدده صفوة من **الشخصيات النيتشوية**[1] القوية المسيطرة من الاقتصاديين والسياسيين والمثقفين؛ لذلك فإن تآكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة فى المجتمعات **تركت الإنسان بلا معيارية (أى بلا مقاييس يُحتكم إليها)**.

مـواقــف

ويمكن تشبيه **ما حدث للإنسان الغربى الحديث فى عالم النسبية** بما حدث لى حينما **ذهبت لسوبر ماركت** حجمه فى حجم مدينة دمنهور، لشراء مستلزمات المنزل. لقد كانت قائمة المشتريات تحوى نوعًا معينًا من الحبوب Cereal، ففوجئت بأن منه عدة أنواع: مَحْلى بعسل النحل أو مضاف له فيتامين أو...، وهذه مقسمة بدورها إلى صنف عادى، وصنف متميز محبب للأطفال، وهذا الأخير ينقسم إلى عدة أشكال: حروف أبجدية أو على شكل ديناصورات ... أمام هذه الاختيارات الكثيرة، وقعت فى حيرة شديدة، ووجدت نفسى مضطرًا إما للاستماع لصوت يصدر من داخلى (هو عادةً صوت آخر إعلان سمعته) أو أختار أى شىء بشكل عشوائى أو أهاتف زوجتى لتصدر لى الأوامر وتعفينى من مسئولية الاختيار.

وقد بيَّن الطب النفسى أن **كثرة الاختيارات المتاحة قد تؤدى إلى مشكلات نفسية**. فحينما يواجَه الإنسان بمثل هذا الموقف، عليه أن يحدد بدقة ما يريد وأن يختار بين سلع الفرق بينها طفيف، وهذا يتطلب جهدًا نفسيًّا كبيرًا، يشكل ضغطًا حقيقيًّا على الإنسان لا قِبَل لكثير من البشر به.

ومن المواقف الكوميدية التى تبين مدى فقدان المرجعية **تقويض النسبيةُ للإنسان الغربى قصتى مع «ميس إيزو» Eizo**. كنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال القهر فى العالم، فقالت الآنسة إيزو إنها تشعر بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تصبح بابا Pope (أى رئيسًا) للكنيسة

(١) نسبة إلى الفيلسوف الألمانى نيتشه، الذى كان يحلم بالإنسان القوى القاهر (السوبر مان).

الكاثوليكية فى الفاتيكان لأنها أنثى، فقلت (مازحًا بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأننى لا يمكن أن أعُيَّن بابا للكنيسة الكاثوليكية لأننى مسلم. وبدلًا من أن يضحك الحاضرون التزموا الصمت، وإذا بالآنسة إيزو تُعبِّر عن تعاطفها معى! ولم أدر ماذا أفعل! ولحسن حظى، تَرَكَت الآنسة إيزو المكان، فتشجع بعض الحاضرين وتساءلوا: «ألم تتجاوز الآنسة إيزو حدها قليلًا؟» أى أنهم حتى أمام موقف فى غاية الوضوح والتطرف، لا يتحمل أى إبهام، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبِّروا عن رأيهم.

وكنت مرة أجلس أمام **التليفزيون البريطانى**، وشاهدت برنامجًا حواريًّا. كان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما، مع إضافة بسيطة للغاية وهو **عشيق الرجل**! (نعم عشيقه لا عشيقته) الذى يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل، بموافقة الزوجة والأطفال. وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، فمن ناحية توجد الموافقة (وهى الشرط الأساسى والوحيد لأى علاقة جنسية فى العالم الغربى)، ومن ناحية أخرى، يوجد الشذوذ الذى يَسِم هذا الوضع! ولكن **لا توجد أرضية (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) يؤمن بها الجميع ويمكن الاحتكام إليها**. وكلما كان أحد الحاضرين يحتج على شىء، كان الزوج يَرُد بكل ثقة، بأن زوجته وأولاده موافقون وسعداء، وأن أى تدخل فى شئونهم سيكون إهدارًا لحريتهم وحقهم فى الاختيار، وعلى المعترض أن يتحلى بسعة الأفق broad-mindedness (وغنى عن القول أن سعة الأفق هذه تفتح الباب على مصراعيه لتَقَبُّل كل شىء أو أى شىء، فليس هناك من يحب أن يوصف بأنه غليظ الطبع ضيق الأفق!). ظل النقاش دائرًا دون مَخرج، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين أن الأطفال ليسوا فى سن يسمح لهم بالاختيار. وتنفس الجمهور الصُعَدَاء، إذ وجدوا أرضية فلسفية تعطيهم الحق فى الهجوم على الشذوذ دون الانتقاص من حرية الاختيار، فشنوا هجومهم بشجاعة بالغة، ولزم الرجل وعشيقه الصمت.

ويبدو أن القانون الأمريكى نفسه، بتقبله المفاهيم النسبية، **يجعل إصدار الأحكام أمرًا فى غاية الصعوبة**. أخبرتنى إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حِجْر صديقها، بينما كان يقود سيارته، فأوقفهما ضابط الشرطة، الذى تَبَرَّم من منظرهما، ولكن القانون لا يخول له أن يُجَرِّم مثل هذا الفعل، فسَجَّل مخالفة مرورية، على اعتبار أن زميلتى كانت تحجب الرؤية عن السائق!.

يا ويل الفطرة

ظهر عَلَىَّ الضيق الشديد، وسألت د. المسيرى: وهل تستقيم الحياة مع غياب الاحتكام إلى المفاهيم الإنسانية الفطرية؟ أجابنى: لقد أدى الغلو فى النسبية إلى أن **أصبح الكثير من المفاهيم**

الإنسانية الفطرية والأساسية، مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس، محل تساؤل، بسبب اختفاء المعايير وفقدان المقدرة على الحكم.

ويجسد ذلك المعنى، مقالًا نشرته مجلة تايم بعنوان «**صحيح الجسم، وثرى، وغير سعيد**»، وَرَدَ فيه أن أكثر الأوروبيين ثراءً وتقدمًا هم الألمان، وهم كذلك أكثرهم بؤسًا وتشاؤمًا، وأن أكثرهم فقرًا الأيرلنديين والبرتغاليين، وهم أكثرهم رضًا. ويضيف المقال: أن **مقاييس التقدم الإنسانى التى اعتمدتها هيئة الأمم المتحدة غير كافية**؛ فقد اعتبرت الدخل والتعليم ومتوسط العمر المقاييس الأساسية: إنه حسب هذا المعيار، فإن أُمة غنية من المصابين بالأمراض النفسية، حصل كل أفرادها على شهادة الدكتوراه ومتوسط أعمارهم ٩٠ عامًا ستحصل على الدرجات النهائية؛ لأن المرض النفسى ليس جزءًا من المعايير. وانتهت المقالة بأن وصفت الإنسان الغربى بأنه «**خفاش يطير، ولكن بتوتر، ولا يعرف إلى أين**».

وإذا تأملنا **نمط حياة الإنسان فى هذه المجتمعات «الثرية البائسة»**، وجدنا: بيت يبعد عن محل عمله ـ علاقات أسرية مُفَتتة ـ علاقة واهية بمحيطه الإنسانى ـ إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالًا لأى نشاط إنسانى ـ ساعات عمل قاسية ـ نسبة طلاق عالية ـ برامج تليفزيونية باهتة، كل هذا يؤدى إلى الإحساس القاسى بالوحدة. وللاستدلال على بنية البؤس العميقة التى تخبئها السعادة السطحية، تأمل عدد الساعات التى يقضيها المواطن الأمريكى مع المعالج النفسى، الذى أصبح جزءًا عاديًّا من الحياة اليومية فى الولايات المتحدة (٣٥٪ من شباب إحدى أكثر الدول تقدمًا بالمنظور المادى مصابون بأمراض نفسية). وكذلك لاحظ الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسى وانتشار المخدرات. كل هذا من أجل أن يستعيد الإنسان الأمريكى بعض التوازن الذى فقده، فلا يمكن تخيل سعادة دون توازن. هذا فى مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسى والوحيد ويُفترض أنه نجح فى تحقيق أهدافه.

ومما يجعل هذا البلاء غائبًا عن كثيرين ممن يعانونه، أن كلمات نحتاجها لوصف واقع هذه المجتمعات **(مثل «ضياع» و«اغتراب» «والطبيعة البشرية»)** غير متداولة وتقع خارج قاموس أنصار النسبية المطلقة، فهى كلمات وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات!.

ثم أضاف د. المسيرى؛ وقد صاحَبَ انتشار النسبية المطلقة ما يُسمَّى **بالخطاب «السياسى الصحيح»** Politically correct، وهو خطاب متعجرف، يطالِب المرء **بألا يقول شيئًا قد يسيء**

لأحد أعضاء الأقليات. وكل البشر ـ حسب تصور هذا الخطاب ـ أعضاء أقليات: البدينون ـ طوال القامة ـ السود ـ اليهود ـ المُعَوَّقون... كما **يُعَدِد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة والمواقف الواجب تبنيها**، ومن ضمنها: الاهتمام بالبيئة ـ الاهتمام بكل الأقليات ـ قبول الشذوذ الجنسى بحُسبانه شكلًا طبيعيًّا من أشكال التعبير عن الهوية. وبعض هذه الأفكار خيِّر ولا شك، ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية مغالية فى النسبية.

وقد انتشر هذا الخطاب السياسى الصحيح فى الجامعات الأمريكية، وأصبح شيئًا مخيفًا يهدد الجميع. فعلى سبيل المثال، قامت أستاذة علم اجتماع فى جامعة كاليفورنيا بتدريب طالباتها على الاستمناء (حتى يمكنهن الاستغناء تمامًا عن الرجال)، فاحتج أحد أولياء الأمور، فاتُّهِمَ بأنه ضيق الأُفق غير قادر على تقبل الجديد. فاضطر إلى اللجوء إلى الفضاء، شاكيًا من أنه يُضَيِّع ماله بحسبانه من دافعى الضرائب، إذ لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس. فالقانون الأمريكى قد فشل تمامًا فى تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب.

وهناك الجانب الكوميدى للخطاب السياسى الصحيح؛ فمثلًا يجب ألا يقول الإنسان المتحضر «رجل المرور» بل عليه أن يقول «الشخص المرورى» حتى لا تتضمن عبارته تمييزًا للذكور على حساب الإناث!

لقد أصبح هذا الخطاب السياسى (الموصوف بالصحيح) سيفًا على رقاب الجميع، تتم الدعوة إليه بطريقة متعصبة إرهابية.

غياب المرجعية يَعْدِى الفن

سألت د. المسيرى، وهل تنعكس هذه النسبية المطلقة على حياة الإنسان العامة والخاصة وفقط، أم أنها **تمتد إلى باقى نشاطات المجتمع**؟ أجابنى؛ لقد أَثَّرت النسبية فى كثير من مجالات الحياة، خصوصًا الفنون. فبدأت فى الستينيات من القرن العشرين «**عملية تحرير الفن**» من القيود والحدود الأخلاقية والجمالية، حتى أصبحت تحررًا من أى قيود أو معايير، كما تزايدت معدلات الإباحية والعنف، حتى أصبحت **تحررًا من الفن نفسه!**.

ففى منتصف الستينيات، كان **الفنان «آندى وورهول»** يُوَقِّع على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تُباع بآلاف الدولارات. وكان له فيلم يسمَّى «النوم»، يستمر عرضه لمدة ثلاث ساعات، عبارة عن شخص نائم يتحرك كل ربع ساعة أو

عشر دقائق. كما رأيت مسرحية بعنوان «**أخت فيديل كاسترو**»، وكانت مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية مع عرض الأعضاء التناسلية، ولا تنقل المسرحية أية رسالة، فهدفها الأساسى هو أن تصدم الجمهور، ولسبب لا أعرفه، كان الذكور يلعبون دور الإناث، وكانت الإناث تلعبن دور الذكور، ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبية والحرية. وما حيرنى كثيرًا هو أن جمهور المتفرجين عبَّر عن إعجابه الشديد بهذه المسرحية، تمامًا مثلما عَبَّر عن إعجابه بفيلم «النوم».

ظل هذا التيار يتطور إلى أن عبَّر عن نفسه فى أواخر القرن العشرين فى **أعمال ثلاثة فنانين دفعوا بالنسبية إلى أقصى مداها، إذ أصبحت تعنى التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها**. أول هؤلاء هو «آندريه سيرانو» وتعود شهرته إلى لوحة بعنوان «**فلتتبول على المسيح Piss Christ**»، حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب فى البول. وثانيهم هو «روبرت مابلثورب»، وهو مصور فوتوغرافى تخصص فى **تصوير نفسه فى أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف**. وثالثهم وأشهرهم هو «جويل بيتر ويتكين» وهو مصور فوتوغرافى **يستخدم أجساد الموتى فى أعماله الفنية**. ومن موضوعات ويتكين الأثيرة تصوير الموتى بعد أن يرتدوا بعض الملابس، وصورة رجل يضع مسمارًا فى قضيبه (فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يتواصل بها مع الآخرين كما يخبرنا الفنان)، وتُباع النسخة من صوره بـ ٣٥ ألف دولار. وحياة ويتكين لا تقل وحشية (أو نسبية)، فهو يعيش مع زوجته وعشيقتها وينامون فى نفس الفراش، كما يعترف أنه يمارس الجنس أحيانًا مع موضوعاته، أى جثث الموتى!.

محاولة للإنقاذ

سألت د. المسيرى: **وكيف تأقلم المواطن فى هذه المجتمعات مع غياب المقاييس الحاكمة؟** أجابنى: لقد تم ذلك التأقلم عن طريق حيلة نفسية، وهى أن **يتبنى الإنسان أكثر من نموذج**. فعلى سبيل المثال يتغنى المجتمع الأمريكى بأغانٍ تدور فى معظمها حول الحب الرومانسى، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية. وعادةً ما **يتنازع الآباء اتجاهان متناقضان فى تنشئة أطفالهم**: هل يحافظون على براءة أطفالهم وبالتالى رومانسيتهم، أم يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء فى عالم السوق والتعاقد؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءًا كبيرًا من مقدرتهم على الصراع، وإن فعلوا العكس، أفقدوهم جزءًا كبيرًا من إنسانيتهم.

ويقوم الكثير من الأمريكيين (وكثير من البشر) **بتبنى نموذجين**: **أحدهما للحياة الخاصة**

والآخر للحياة العامة. ولذا قد تجد أستاذًا للفلسفة يدعو للإباحية فى فلسفته، ولكنه فى حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التى ليس لها أى أساس فى رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحدًا من هؤلاء، فقال: أنا أؤمن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأننى منحل أخلاقيًّا؟ فأجبته من غيظى قائلًا: «إذن ستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم».

حضارة حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم

سألت د. المسيرى؛ وهل ما يصاحب الحضارة المادية من الظوهر السلبية السياسية، مثل **الإمبريالية والنازية والصهيونية والعنصرية**، هو جزء لصيق ببنية الحضارة الغربية الحديثة، أم أن ظروفًا معينة جمعت بينها؟. أجابنى د. المسيرى قائلًا: أبدأ إجابتى بكلمات **للمفكر الكبير روجيه جارودى**، حيث يقول: «إن نمو الغرب كان وليد **نهب ثروات العالم الثالث ونقلها إلى أوروبا وأمريكا الشمالية**، ومن ثم فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفًا، وقد حدث ذلك من خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءً من القرن السادس عشر ـ نخاسية العبيد السود التى أصبحت ضرورية لتوفير اليد العاملة ـ السيطرة الاستعمارية على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين المواد الخام والاستثمارات ذات الريع الأعظم فى الصناعة وفى التجارة، وذلك عن طريق فرض السعر الأدنى لليد العاملة والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضًا بالقوة...». وأخيرًا ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد **بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها**». وقد أوجز جارودى إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية فى صورة مجازية رائعة عندما وصفها بأنها «**حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**».

بالإضافة إلى كل هذا لا بد أن نشير إلى عمليات **نهب آثار إفريقيا وآسيا**، وأخيرًا متاحف العراق، ألا تلاحظ كيف تغص متاحف البلاد الغربية وميادينها بآثار تلك الحضارات.

لذلك أؤكد أن «**التقدم الغربى**» **هو ثمرة نهب العالم الثالث**، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره. ومن ثم لا ينبغى أن نتحدث عن «**التراكم الرأسمالى**» كقوة وقفت وراء الحضارة الغربية وإنما عن «**التراكم الإمبريالى**».

ودائمًا أسأل الغربيين ـ خاصة الصهاينة ـ الذين يؤكدون أن تخلف الشرق هو أحد مبررات الاستعمار وليس نتيجة له: **هل لو تقدم الشرق سيفرح الغرب والصهاينة**، أم أن تقدم الشرق

سيصيبهم بالهم والغم؟ ألا يعنى تقدم الشرق انكماش رقعة السوق بالنسبة للغرب، وعمالة غير رخيصة، ومواد خام مرتفعة الثمن، ودولة صهيونية محاصَرَة لا تؤدى أى خدمة للغرب؟

الإمبريالية النفسية

سألت د. المسيرى: بعد أن زَوَّدَت المنظومة الإمبريالية مجتمعاتها بإنتاج مهول (كمًّا وكيفًا)، كيف استطاعت هذه المجتمعات تصريف الفائض من هذا الإنتاج؟ وهل للترويج لعملية الإنتاج / الاستهلاك تأثير على بنية الإنسان النفسية؟

أجابنى د. المسيرى: إن الرأسمالية قررت مؤخرًا **توسيع رقعة السوق لمنتاجاتها**، لا عن طريق الانتشار الأفقى فى الخارج بتكلفته العسكرية الباهظة (**الغزو الخارجى = الإمبريالية العسكرية**) وإنما عن طريق الانتشار الرأسى داخل النفس البشرية ذاتها (**الغزو الداخلى = الإمبريالية النفسية**). ويتم ذلك بأن تُلْقِي فى روع الفرد أن ما تعرضه فى السوق من السلع لا يحقق «منفعته» وحسب، بل و«سعادته» (أى لذته) أيضًا، فيتوحد الفرد بالسلعة تمامًا ويصبح إنسانًا ذا بُعد واحد، غارقًا لأذنيه فى السلعة والمادة، وفى حالة **غيبوبة إنسانية كاملة**.

وتتعامل الإمبريالية النفسية مع الإنسان على أنه **حيوان اقتصادى جسمانى، لا يبحث إلا عن منفعته (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)**، فلا يهدف فى حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة، وأن يرى أن خلاصه يكمن فى ذلك. وإذا كانت «الحاجة أم الاختراع» فى الماضى، ففى إطار الإمبريالية النفسية يصبح «**الاختراع هو أبو الحاجة**»، لذلك لا بد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج الآخذة فى الاتساع إلى ما لا نهاية.

وقد نجحت هذه الإمبريالية فى **تجنيد كل الطاقات فى مختلف وسائل الإعلام**، وخاصة **قطاع الأفلام**، الذى يُرَوِّج لصورة الإنسان الذى يعيش فى اللحظة الآنية، يساعده **قطاع الأزياء** الذى يُغيِّر «أذواق» الذكور والإناث والأطفال كل عام مرتين. ولعل أهم القطاعات الأخرى، **قطاع الإعلانات التجارية** التى لا يكف التليفزيون عن بثها.

وكلما نظرت من حولك فى الولايات المتحدة، وجدت **كلمة سيل sale «أوكازيون»** تطاردك أينما ذهبت، فى المحلات والشوارع والجرائد والمكتبات ومنزلك، تحاول أن تقنعك بأن أمامك فرصة ذهبية لأن «تخرب بيت» صاحب المحل المسكين، المضطر إلى تصفية بضاعته.

تـأمَّـل

ويضيف د. المسيرى: حدث لى شخصيًّا موقف مع شركات الطيران أحب أن أرويه لك. كنت أرتاح كثيرًا للسفر بالدرجة السياحية، إلى أن رأيت إعلانًا لإحدى شركات الطيران يتحدث عن مدى اتساع كراسى الدرجة الأولى، ويُظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنةً براكب الدرجة السياحية، الذى يتقلب من الألم فى كرسيه، ويلكزه جاره عن غير قصد. منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية بالنسبة لى مسألة مؤلمة. هذا هو حالى أنا المدرك لما حولى، الواعى به تمام الوعى، فما بالك بالمواطن الأمريكى التلقائى الطيب؟.

ويرسم صديقى عالِم الاجتماع كافين رايلى صورة واقعية ومثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية النفسية على الإنسان فى كتابه «الغرب والعالم»، تستحق أن أرويها لقرائك، يقول د. رايلى:

«أرادت شركة الدخان الأمريكية عام ١٩٢٩ زيادة مبيعاتها عن طريق حث النساء على الجهر بالتدخين، فقامت بناءً على مشورة محلل نفسانى بالإعداد لموكب فى عيد الفصح تسير فيه المدخنات فى أحد شوارع نيويورك، وأرسلت سكرتيرة بالشركة تلغرافات لثلاثين من الفتيات من عِلْية القوم فى المدينة، هذا نصها:

(من أجل المساواة بين الجنسين، قررتُ مع غيرى من الشابات أن نوقد مشعلًا آخر للحرية، بتدخين السجائر فى أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح).

وقد أثار الحدث ضجة قومية فى أرجاء البلاد واستجابت النساء ودخَّنَّ جهارًا، وأدركت الشركة أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام.

ولما كان المطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر، وهو «لكى سترايك Lucky Strike» ذات الغلاف الأخضر، كان لا بد من إشعال «الثورة الخضراء»! فقام مشجع مجهول بإرسال مبلغ ٢٥٠٠٠ دولار لأهم منظم للحفلات الراقصة ليرتب حفلًا أخضر، وأقام أحد منتجى الحرير مأدبة لمحررى الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل الطعام أخضر، وقام أحد علماء النفس فحدثهم عن اللون الأخضر. ثم حاضرهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر عن «اللون الأخضر» فى «أعمال مشاهير الفنانين».

وبشرت الصحف «بخريف أخضر» و«شتاء أخضر» ليكون اللون الأخضر هو سيد الألوان، فى الملابس وفى الإكسسوارات، وحتى ديكورات المنازل والأثاث، وتم إغراء رئيس حفلة الموضة الخضراء بالسفر إلى فرنسا ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية.

ولما اشتدت الحملة، ركب سائر المنتجين الموجة، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردى، وأدخل آخر الجوارب الخضراء. وأخيرًا انضم المنافسون إلى الحملة، فعرضت سجاير «كامل» Camel فتاة ترتدى زيًّا أخضر مقلمًا بالأحمر ـ وهى نفس ألوان علبة سجائر لكى سترايك. وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكى سترايك هى قمة الموضة.

إن قدرة العلاقات العامة والإعلان على التلاعب بالآراء والتأثير فى قرار الإنسان مع التظاهر بتوسيع فرصة الاختيار أمامه، هى قدرة هائلة (أى خداع وأى سرقة)»

ثم أضاف د. المسيرى؛ إن الإعلانات ـ كما نعلم كلنا ـ كذب فى كذب، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها.

وضرب د. المسيرى مثلًا آخر لقدرة الإعلانات على الخداع: ماذا أفعل لو كنت فقيرًا، وقد مَلَكَت عَلَىّ السيارة التى فى الإعلان عقلى وقلبى؟ لا داعى للقلق، فصديقك ذو الابتسامة العريضة فى بنك نيويورك للقروض سيساعدك، وكل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح العربة والسعادة. وإن دققت النظر فى هذه الورقة اكتشفت أن **عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعِرضك وعربتك فى مقابل هذا**، كما أن سعر الفائدة ليس ٤٪ كما تقول اللافتة العريضة؛ لأنه بالحساب المركب تصل الفائدة إلى أضعاف أضعاف ذلك. فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك **طوفان السلع الأخرى**؛ معجون أسنان، صابون للأطباق، أنواع جذابة من المكرونة، والعطور والمياه الغازية، والملابس الداخلية والأحذية، والشيكولاته والمنشطات الحيوية والمهدئات، وأدوات التجميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية....

بلاش عُقد

ويُلَخِّص د. المسيرى نظرته للإمبريالية النفسية قائلًا: إن الحضارة المعاصرة **هى حضارة السهل، بدلًا من المُرَكَّب والجميل**. وتحت شعار «**فلتكن بسيطًا**» **أو** «**لتكن طبيعيًّا**» (يقابلها فى حضارتنا الآن «**بلاش عُقد**») يتم إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهامبورجر والبنطلون الجينز) والترويج لها عالميًّا. وقد **أُطلق على هذا النمط الإنتاجى/ الاستهلاكى البسيط الذى أفرزته الإمبريالية النفسية اصطلاح** «ضد الحضارة» **anti-culture**، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات، بما فى ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية التى أنتجته[1] وهذه السلع النمطية تحول الإنسان الفرد إلى **كائن نمطى بلا أبعاد، يفقد خصوصيته وتراثه، ويمكن توجيهه بسهولة كما يمكن التنبؤ بسلوكه واحتياجاته؛ ولذا فهى حضارة معادية للحضارة وللإنسان**.

(١) تعرف الحضارة الأمريكية تقاليد حضارية محلية ثرية، مختلفة تبعًا لاختلاف الهجرات: حضارة الكريول فى لويزيانا ـ حضارة الساحل الشرقى ـ حضارة الوسط الغربى الأمريكى... إلخ.

كل هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا، ولكنه بالطبع لا يفعل؛ لأنه إنسان ناجح يتعامل مع الواقع (كما أخبره الإعلان)، فالإمبريالية النفسية قبل أن تغزو الإنسان من الخارج فإنها تغزوه وتقمع إنسانيته من الداخل.

ويتمثل **الغزو الداخلى والتحلل من العقد** فى مظاهر عديدة، أهمها الجنس. لذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية - سواء فى الولايات المتحدة أو فى مصر - **توظف الجنس بلا حياء فى بيع السلع**. انظر إلى هذا الإعلان: تسير السيارة ثم تخرج منها فتاة رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد فى شرائها: السيارة/ الفتاة، وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالفين كلاين (فى ختام القرن العشرين) من أهم الرموز الجنسية فى المجتمع الأمريكى. ولو وجد أصحاب هذه الإعلانات أن بعض **أسفار الإنجيل** قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا فى التخلى عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلًا من ذلك.

وقد نجم عن هذا انتشار الإباحية، وهى **إباحية علمية تستخدم الجنس فى توجيه الإنسان**. انظر مثلًا إلى كريم الشعر هذا، إن سحره لا يقاوم، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات فى شباكك. وأنتِ يا سيدتى إذا شربت هذا الدواء، فإنك ستتمتعين بجاذبية جنسية كاسحة. وأنت أيها العجوز الكركوب لم لا ترتدى باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنطلونك أو تطوله، اختر ما تشاء من السلع وكله فى سبيل الحيوية والبعث من جديد، ولكنه **بعث جنسى** لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أوحتى إبليس، **فهو بعث جنسى يدور فى فراغ لا نهائى هدفه الاستهلاك**.

حضارة مهووسة بالجنس

قلت للدكتور المسيرى: حدثتنى عن الباعث الجنسى المقطوع الصلة بكل شىء إلا الاستهلاك، أود أن أعقد **مقارنة بين النظرة للجنس فى الغرب وفى بلادنا**. لقد كانت إحدى **الصور التقليدية الشائعة فى عقولنا** أن الجنس طاقة مادية، إن فُرِّغت يصبح الفرد عاديًّا وطبيعيًّا وسويًّا، أما إن كُبتت فإنها تصبح قوة مدمرة.لذا كان من المفهوم أن **ينشغل الشرقيون بالجنس**، فهم مكبوتون قُمعت رغباتهم الجنسية فى طفولتهم ومراهقتهم، مما أدَّى إلى تشوههم النفسى الكامل، وتحولوا إلى مراهقين أزليين. كما تعلمنا أيضًا أن الأمور مختلفة تمامًا فى الغرب، **فهم يتصرفون بشكل طبيعى ويُصَرِّفون** الطاقة الجنسية **بلا قمع ولا كبت. فهل معنى ذلك أن**

موقف تلك المجتمعات من الجنس ينسجم بشكل أكبر مع طبيعة الإنسان من موقف مجتمعاتنا المحافظة؟

أجابنى د. المسيرى: حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن هذا التصور البسيط الذى ذكرتَه والذى آمنتُ به أنا أيضًا **لا يُفَسِّر الأمور، إذ لاحظت إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المَرَضى) بالجنس،** إلى درجة انتشار حوادث الاغتصاب رغم أن مجال الإشباع الجنسى متاح أمامهم بشكل ديمقراطى مذهل (وهو ما أسميته فيما بعد «**ديمقراطية اللذة**»)، الأمر الذى كان يحيرنى كثيرًا فى بادئ الأمر.

وتساءَلت؛ كيف يمكن أن ننظر إلى هذا **الهَوَس الجنسى** بحُسبانه تعبيرًا طبيعيًّا عن رغبة جنسية طبيعية؟ بل إن بعض الناس هناك يُمارس رغباته الجنسية كإنسان مدمن، لا للخمر وإنما للجنس sexaholic (على وزن alcoholic)، **فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية**، ومن المعروف أن بعض مدمنى الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، شأنهم فى هذا شأن مدمن الخمر الذى يمقت ما يتعاطاه ولا يملك منه فكاكًا.

ولتفسيرهذا التناقض بدأت أتأمل وأتساءل: **لعل الارتواء الجنسى عند الإنسان مرتبط بعناصر مادية وأيضًا غير مادية** (بخلاف الحيوان)، ولعل هذه العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما هى من صميم الإشباع الجنسى عند الإنسان. ولعل الجوع الذى أشاهده فى الولايات المتحدة، والذى ليس له أى تفسير مباشر، يعود إلى «رؤيتهم» المادية، فهم ينظرون للجنس كما لو كان شيئًا طبيعيًّا ماديًّا: مسألة غدد وعضلات وحسب، لا تختلف عن أى عملية بيولوجية أخرى مثل تناول الطعام.

ولعل تطبيعهم للجنس يفسر **رغبتهم العارمة فى ممارسته فى العلن**، بلا أى إحساس بالحرج أو الخصوصية أو الفردية، وأن يصبح الجنس جزءًا من الحياة العامة. وقد يُفسِّر هذا **إصرار الشواذ جنسيًّا على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينها**. وقد تُفسِّر هذه العلنية المرض الغريب الذى يُسَمَّى «**الخوف من الحميمية fear of intimacy**»، فحينما يعتاد البعض ممارسة الجنس فى إطار علنى غير رومانسى (كأن يضاجع رفيقته على عجل فى فندق بجوار محل عمله فى أثناء الساعة المخصصة للغذاء أو فى المقعد الخلفى للسيارة، أو فى حديقة) تصبح هذه الظروف الضاغطة شرطًا لأدائه الجنسى، ويفاجأ هذا الشخص بأنه غير قادر على الأداء داخل

المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة؛ لأنه لا يستجيب جنسيًّا إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفى رقعة الحياة العامة!.

إن **الصورة** «**المثالية**» التى تُعَبِّرُ عن نظرة الغرب للجنس هى **صورة چيمس بوند** حين يذهب ليقبض على إحدى الجميلات، فيكتشف أنه وصل قبل موعده فيقرر أن يضاجعها لقضاء وقت الفراغ، وفى أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان، فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على يديها ويرحل بها. إن الأفلام ووسائل الإعلام الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان كائنًا جسمانيًّا، يعيش فى جسده (المادى) وحسب، تمامًا مثلما يصوره دعاة السوق الحرة إنسانًا اقتصاديًّا تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب.

نزع الإنسانية عن الجنس

إن كثيرًا من الأمريكيين لم يدركوا **أن الجنس مسألة إنسانية مركبة، مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية**. وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسى، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنسانى بلا إشباع. ولعل بعضهم أدرك إنسانية الجنس على المستوى الفردى، ولكن **مؤسسات الإعلام التى تبحث عن الربح تُشيع صورة الجنس السهل المباشر**، الذى لا تسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أى توابع: أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير فى الرؤية.

لا شك أن هناك علاقة عكسية بين: إنسانية الإنسان، وبين رغبته الجنسية. **فكلما ضَمُر شعوره بإنسانيته زاد سُعاره الجنسى**، كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، إذ **إن عالم الجنس هو البديل المادى والمباشر للمدينة الفاضلة**. إنه ميتافيزيقا من لا ميتافيزيقا له، أو ميتافيزيقا من لا يود أن يتحمل أى أعباء إنسانية أو أخلاقية.

وقد وجدت أيضًا أن عدم إحساس الإنسان الأمريكى بالطمأنينة يجعله يحاول دائمًا أن يصل إلى بعض اليقين، ويحاول أن يأتنس بالغير كى يتغلب على اغترابه، كما يحاول أن يحقق ذاته. ولكنه فى الوقت نفسه يخاف من الارتباط الدائم بالآخر، ففيه نوع من الثبات وهذا هو أخشى ما يخشاه، لذلك وجد ضالته فى الجنس العابر، **فمن خلاله يمكنه أن يصل إلى اليقين والائتناس المؤقتين** (فالعلاقة الجنسية علاقة أكيدة يمكنه أن يدركها بحواسه الخمس فتُدخل شيئًا من الطمأنينة على قلبه) **ولكنه لا يضطره فى الوقت نفسه للارتباط بالآخر**.

الهوس الجنسى ومؤسسة الأسرة

سألت الدكتور المسيرى؛ هل لهذه النظرة إلى الجنس تأثير على مؤسسة الأسرة؟ فأجابنى: إن المجتمعات المادية **تفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعى والإنسانى المركب**، ليصبح ترجمة عملية لمبدأ السعادة واللذة. بذلك ينعزل الإنسان عن تراثه وماضيه، بل وعن وجوده الإنسانى المركب، فيعيش فى الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التى لا علاقة لها بالخير أو بالشر. وبالنسبة لمثل هذا الإنسان المتمركز حول لذته **تصبح الأسرة أمرًا غير مهم بل تصبح عبئًا**. فكلما فتحت التليفزيون الأمريكى تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئًا ما. وهذا يُصَعِّد من توقعات الرجل الأمريكى بالنسبة للجنس، فيطلب إلى زوجته أن تكون إحدى ملكات الإغراء، ويحاول هو جاهدًا أن يصبح أحد ملوك الإغراء، مما يسبب الإحباط وعدم الاطمئنان لكليهما. وتسهم شركات التجميل فى تصعيد هذا الجانب، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية مما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل.

هذا إلى جانب **أن الباحث عن اللذة هو إنسان مكتف بذاته، لا يطيق أى حدود أو قيود أو مسئولية**، فهو يود تحقيق رغباته فى التو (الآن وهنا)، خاصةً وأن هذا الفرد يعيش فى مجتمع نفعى مادى، لا يعرف القيم التى تساعده على تجاوز ذاته الضيقة. وفى تصورى أنه لا يمكن الحد من إشباع الرغبات إلا من خلال الإيمان بمَثَل أعلى أو بحلم يتجاوز حدود الفرد وحيزه (كالوعد بالجنة أو الدفاع عن الوطن).

إن مثل هذا الفرد المكتفى بذاته لا يمكنه أن يقبل الانخراط فى مؤسسة الأسرة، فهى مؤسسة تُلقى على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى، ولذا **تضمُر مؤسسة الأسرة تمامًا**. ولهذا يزداد العزوف عن الزواج والنسل مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق، وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر.

الهوس الجنسى والشذوذ

عدت أسأل د. المسيرى: وهل لهذه النظرة للجنس تأثير على شيوع الشذوذ فى الولايات المتحدة؟ فأجابنى: **لعل البحث عن اللذة الجنسية الخالصة هو الذى يفسر انتشار الشذوذ الجنسى فى المجتمعات الرأسمالية الغربية**. فتبعًا لإحصاء عام ١٩٧٢ يوجد فى الولايات المتحدة ما يزيد

على أربعة ملايين من الشواذ[١]، وتوجد كنائس يديرها وعاظ شاذون جنسيًّا مثل كنيسة لوس أنجلوس، كما أُنشىء معبد يهودى ومدرسة تلمودية لتخريج الشواذ.

وأعتقد أن **الشذوذ هو النتيجة المنطقية لمبدأ اللذة النفعى**، فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشىء علاقة مع شخص آخر من جنسه ليتغلب على اغترابه بشكل مؤقت دون أن يدخل فى علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول فى علاقة حقيقية مع الآخرين (كالزواج).

وحينما كنت فى نيويورك لاحظت أن الشاذات من النساء أصبح لهن وجود وظهور ملحوظ، وهذا «التطور» أو «التقدم» يعود **لحركة تحرير المرأة** (التى أسميها **حركة التمركز حول الأنثى**) التى ينادى بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسيًّا والتى استغنت كلية عن الرجال هى أكثر النساء تحررًا، وهى المرأة التى حققت المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحققت بذلك **الاكتفاء الذاتى!**.

ويبدو أنه مع الإغراق فى المادية أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية، ولذا فهو يحتاج إلى مؤثرات عنيفة وأحيانًا شاذة حتى يمكنه الاستجابة. وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف فى الحياة وفى الأفلام، كما يفسر أيضًا ارتباط الجنس بالعنف.

الثورة الجنسية

ونتيجة لهذه الإباحية الجنسية والشذوذ الجنسى ظهرت فى الستينيات فى الولايات المتحدة تغييرات جذرية أُطلق عليها **«الثورة الجنسية»**.

وتُعَد **مسرحية هير Hair أى «شَعْر» الغنائية**، التى شاهدتها فى نيويورك فى منتصف الستينيات، علامة أساسية فى تاريخ الثورة الجنسية، فهى تحتفى بانتصار إله الجنس وهيمنته الكاملة على الإنسان، **إذ يصبح الجنس هو المحرك الأساسى للإنسان** فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار.

وقد حاولت **«حركة الهيبى»**[٢] أن تجعل الثورة على المجتمع وعلى إنسانيته ثورة جنسية،

(١) تبعًا لإحصائية William Institute، وصل عدد الشواذ فى الولايات المتحدة فى أبريل ٢٠١١ حوالى ١١,٧ مليون شخص.

(٢) ظهرت حركة الهيبى Hippie movement كحركة شبابية متمردة على الحضارة المعاصرة فى الولايات المتحدة فى ستينيات القرن العشرين. وتدعو للحياة فى جماعات بأسلوب بدائى يحافظ على الطبيعة، ويهتمون بالفنون خاصة الموسيقى، ويتعاطون المخدرات.

وذلك بأن تجعل التحرر الحقيقى تحررًا جنسيًّا كاملًا. ولكن المفارقة الكبرى هى أن تَحَقُّق هذه الرؤية يعنى أن الإنسان يصبح مسلوب الإرادة تسيطر عليه غرائزه.

ويُعتبر **مايكل جاكسون (الذى لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى)**، ممثل النسبية الكاملة وعدم الانتماء لأى شىء، إنه التجسيد الحق للتفكيكية (رد الإنسان لماديته).

وبهذا نفهم الحديث المتكرر والممل عن **الجندر Gender، أى النوع، وليس الجنس Sex**، بحُسبان أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست مهمة، وأن دور كل منهما (ذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية، وإنما هى مسألة **اختيار شخصى**، فأنت تستطيع أن تتصرف فى المجتمع كذكر أو كأنثى تبعًا لاختيارك، بغض النظر عن جنسك. وهذه مفارقة تستحق التسجيل: **فى الحضارة التى يصل فيها الاهتمام بالجنس والتركيز على الأعضاء التناسلية حد الهوس، ثمة محاولة إلى تحييده تمامًا و «إلغائه»**.

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعى وتحييده وتطبيعه يتضح فى ظهور «**أشكال بديلة من الأسرة**» (حاول مؤتمر السكان فى القاهرة إسباغ الشرعية عليها)، مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما تبنى الأطفال بل «إنجابهما» عن طريق عمليات التلقيح الصناعى. ولعل هذه التطورات تدفع بعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى **التريث قليلًا فى دعوتهم إلى الحرية**، بل عليهم أن ينظروا إلى العواقب اللاحقة التى بدأت تظهر فى مجتمعاتنا بالفعل (انظر إلى التليفزيون المصرى وإعلاناته الراقصة التى لا تنتهى، وتوظيف الجنس فى بيع كل شىء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاءً بالمبيدات الحشرية. وانظر إلى الفيديو كليبات ومحطاتها المليون التى تعمل ٤٨ ساعة كل يوم حتى يترسخ فى أذهان الجميع أن الجسد هو المرجعية النهائية، وأنه هو الذى يسبغ معنى على حياتنا!).

ويرى البعض أن «**قضية الإباحية**» قضية فكرية وبالتالى لا ينبغى إخضاعها لأى رقابة، فهى **إبداع فنى**. ويمكن قبول هذا المنطق لو أثبت لنا كاتب الأدب الإباحى وكذلك مخرجه السينمائى أنه يمارس فى حياته الخاصة فعليًّا ما يدعو إليه نظريًّا، لنتأكد من إيمانه بما يقول، ولنعرف أن الهدف ليس الربح المادى.

ويمكن تلخيص الثورة الجنسية، بأن **الرغبات الجنسية قد انفلتت من عقالها، وبدلًا من أن تحرر الإنسان، حَيَّدته ثم استعبدته**. فانتشرت الإباحية وتم «تطبيعها» بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكى من قبل. فكأن الهدف من الإباحية لم يكن إرضاء الشهوات، وإنما اختزال الإنسان

إلى جسد، فالتعرية تبدأ بالجسد وتنتهى بتعرية الإنسان من تركيبيته وإنسانيته. لكل هذا **يُنظر للجنس بطريقة محايدة للغاية**؛ وكأنه **نشاط بيولوجى منفصل عن القيمة**، لذلك يتم الآن الإشارة إلى البغاء بحُسبانه نشاطًا اقتصاديًّا محايدًا، **مجرد عمل عضلى لا يختلف عن غيره من الأعمال**. ولذا **تُسَمَّى البَغِى فى بعض الأوساط «عاملة جنس» sex worker**.

كنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن «**الزنا**» فى **الغرب**، وكأن الغرب لا يزال يدور داخل إطار **الحلال والحرام**. فكنت أقول لهم: عندنا فى مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. المشكلة فى الغرب أن الشيطان لا يحضر؛ لأن المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أى إحساس بالذنب، إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة: أين؟ متى؟ إلخ. وكنت أخبرهم أننى أرحب بحضور الشيطان، فهو على الأقل يذكرنا بالله، تمامًا كما يذكرنا الشر بالخير، والحرام بالحلال.

ما بعد الحداثة

لم أملك نفسى من الضحك بصوت مرتفع على تعليق د. المسيرى الأخير على الثورة الجنسية، وقررت أن انتقل بالحوار إلى جزئية أخرى. قلت للدكتور المسيرى: أقرأ كثيرًا أن ما أصاب الإنسان الغربى والمجتمعات الغربية من تدهور إنسانى قد دخل بالإنسان إلى **عالم ما بعد الحداثة، أو النظام العالمى الجديد**، فما معنى ذلك؟ أجابنى د. المسيرى:

لقد استمر مفهوم النسبية فى الاتساع حتى قَوَّضَ كل شىء، وقَوَّضَ الإحساس بأى قيم أو مركز، بل قَوَّضَ الإحساس بالوجود الحقيقى للعالم، لقد اكتسحت النسبية كل شىء فى طريقها، **ولم يعد هناك أى أساس لأى شىء، وصار كل شىء نسبى**.

وقد وُصِفَت **«ما بعد الحداثة»** بأنها تحطم كل اليقينيات والمُسَلَّمَات حتى سُمِّيت **«ضد الأساس»** antifoundationalism؛ لأنها **تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتَكم إليه، عالم سائل لا قُوام له**. ومن ثم يمكن القول بأن **«ما بعد الحداثة» هى أيديولوجية «النظام العالمى الجديد»**، باعتبار **أن ما بعد الحداثة تُنكر أى معيارية وأى قيم مطلقة يمكن تحكيمها**. وهى **ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى (عصر نهاية التاريخ) أو أن تُعطى للإنسان أى قيمة أو مركزية (عصر ما بعد الإنسان)، وتُسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيات)**[1].

(١) سبق فيلسوفنا الكبير د. المسيرى بهذا الطرح عن «ما بعد الحداثة» الفيلسوف الأمريكى فوكوياما بسنوات.

ولتوضيح هذه الفكرة ذكرت فى إحدى محاضراتى عن «ما بعد الحداثة» هذه **النكتة المصرية الصميمة**: «أراد أحد القضاة أن يوقظ ضمير الحشاش الذى وقف أمامه فى المحكمة عدة مرات، وسأله: لماذا بالله عليك تدخن الحشيش دائمًا؟ فقال المتهم: حتى أنسى يا حضرة القاضى. فسأله: تنسى ماذا؟ فأجاب: والله مانا فاكر».

إن روح ما بعد الحداثة **تُعبر عن روح عصر رأسمالية الشركات عابرة القارات ومتعددة الجنسيات**، حيث قام رأس المال بإلغاء كل الخصوصيات (لا مانع من أن تتعاون دولتان اقتصاديًّا رغم أن بينهما اختلافات سياسية وعقائدية عميقة). **كما حلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصلية للأشياء** (لا مانع أن يُباع حذاء بألفى جنيه لأنه ماركة عالمية مشهورة بينما ثمنه الحقيقى لا يساوى عُشر هذا المبلغ). وهذه هى العولمة، التى يسميها البعض **العولمة الرأسمالية أو العولمة المتوحشة**.

نحن نذهب إلى أن العالم يحكمه الآن **إيقاع ثلاثى**: المصنع (حيث يُنتج الإنسان) ـ والسوق (حيث يشترى ويبيع) ـ وأماكن الترفيه (حيث يُفرغ ما فيه من طاقة وعُقد وقيم)، إنه إيقاع يستوعب كلًّا من الإنسان الاقتصادى والإنسان الجسمانى، ويُشبع جميع رغباتها البسيطة الطبيعية أحادية البُعد التى لا علاقة لها بأى تركيب إنسانى.

ويمكن القول بأن «**النظام العالمى الجديد**» هو «**عولمة**» **الإمبريالية النفسية** (تعميمها لتشمل العالم أجمع)، وكذلك تعميم مفهوم الإنسان الاقتصادى/ الجسمانى الذى لا يكترث بالوطن أو بالكرامة، ولا يهمه سوى البيع والشراء والمنفعة واللذة.

وهذا **السُعار الاستهلاكى** ليس مسألة انحطاط خُلُقى شخصى وسلوك فردى واختيار حر، وإنما هو وضع اجتماعى شامل يهيمن على الإنسان من الخارج (ترشيد برانى) ويتبناه المرء دون أن يشعر (ترشيد جوانى). وإذا نجح المرء فى مقاومة هذا الغزو فإن أفراد أسرته قد لا يكونون فى مثل صموده. ولن يستطيع المرء أن يفلت من الضغوط الاجتماعية إلا **برد فعل عنيف**، كأن يتحول إلى هيبى زاهد فى الدنيا، والهيبى يجسد رفض المواطن العادى لهذا النظام العالمى الجديد، رغم أنه واقع فى شراك الاستهلاكية، التى تبناها منذ نعومة أظافره من خلال البرامج التليفزيونية والدُمى المختلفة (تُعدُّ العروس باربى وأصدقاؤها من أهم آليات إشاعة الأيديولوجية الاستهلاكية).

الوجه الآخر للتقدم

قلت للدكتور المسيرى: قرأت لعالم النفس الألمانى/ الأمريكى إريك فروم أن الحضارة المادية المعاصرة بعد أن دخلت مرحلة ما بعد الحداثة، تدفعنا إلى كارثة محققة، بل إننا قد صرنا بالفعل فى تخوم تلك الكارثة، فهل هذا صحيح، **وكيف يستقيم أن يؤدى التقدم إلى كارثة؟**

أجابنى د. المسيرى: كنت فى بدايات شبابى أتحدث مع أحد العالِمين بشئون الزراعة، فأخبرنى إنه لو تم إدخال **ميكنة الزراعة** فى مصر لحدثت كارثة، إذ إن البطالة ستتفشى بين الملايين. كان كلامه مفاجأة كاملة لى؛ لأن الصحف والمجلات كانت لا تكف فى ذلك الوقت عن الحديث عن الميكنة بحُسبانها الحل لكل المشكلات.

وحدث أن سألت **روبرت أُوبنهايمر Robert Oppenheimer**، مخترع القنبلة الذرية: ماذا كان شعورك بعد نجاح مشروعك، ووقوع أول هجومين ذريين على اليابان؟ أجاب باقتضاب شديد: «**لقد تقيأت**»، أى أنه أدرك مدى وحشية ما توصل إليه، حتى إنه قضى بقية حياته يحارب ضد استخدام القنبلة الذرية. وقد ذكَّرتنى إجابته بها كتبه الفليسوف الفرنسى فرانسوا رابليه، عندما قال: «**إذا لم يقترن العلم بالضمير أدى إلى خراب النفس**»، كما ذكَّرتنى بخطيب جامع الحبشِى فى دمنهور حين كان فى نهاية خطبة الجمعة **يستعيذ بالله من عِلْم لا ينفع**. وقد دَعَّمت إجابة أبنهايمر من إحساسى بالاختلاف بين الإنسانى والمادى، وبقصور العلم الطبيعى عن الإحاطة بالمفاهيم الإنسانية والجمالية، وبخطورة انفصال التجريب العلمى عن الأهداف والأغراض الإنسانية، **وبضرورة النظر إلى الإنسان باعتباره الغاية النهائية وليس وسيلة من الوسائل.**

ومن مقدمات الكارثة، أن أصبح **عدم التحكم فى منجزات العلم** سمة أساسية فى عصرنا، وكلما زادت ميكنة العالم وزاد تقدمه العلمى، قَلَّت إمكانية التحكم فيه! وكلما اكتشف الإنسان أو سيطر على شىء ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التى لا يعرفها ولا يمكنه السيطرة عليها، أى أنه **كلما ازداد معرفة ازداد جهلًا**. حتى شاع القول **بأن العلم يزداد بمتوالية عددية، فيزداد الجهل بمتوالية هندسية!**[1]

---

(١) فى المتوالية العددية يضاف مقدار ثابت إلى الرقم السابق، مثل: ٥ - ٧ - ٩ - ١١.
وفى المتوالية الهندسية يُضاعَف الرقم بمقدار ثابت، مثل ٥ × ٢ = ١٠ × ٢ = ٢٠ × ٢ = ٤٠.
لذلك فالزيادة فى المتوالية الهندسية تكون أضعاف المتوالية العددية.

ومن أمثلة ذلك الموقف، **تجربتنا مع الذَرَّة**، التى حطمناها لنؤسس الفردوس الأرضى، وانتهى بنا الأمر إلى أننا صرنا نمسك بكرة اللهب، أى الأسلحة النووية التى يمكنها تدمير العالم عشرات المرات، وتطلق عادمًا نوويًّا لا نعرف كيف نتخلص منه. وقد سُحِبَت من أحد أصدقائى العلماء فى الولايات المتحدة ميزانية البحث بحجة توفير الاعتمادات، بعد أن اكتشف أن **أفران الميكروويف** تسبب أضرارًا جسيمة للإنسان. وينطبق نفس القول على **شاشات الكمبيوتر والتليفونات المحمولة** التى لا نعرف حتى الآن أثرها على عينى الإنسان وأذنيه ودماغه.

انظر كذلك إلى **الأغذية التى تحتوى على مكونات مُهندَسة أو مُعدَلة وراثيًّا** تُضعِف جهاز المناعة، ويطلقون عليها «**أغذية فرانكشتاين**»، وقد طُرِد أحد العلماء الإنجليز من مركز الأبحاث الذى يعمل به لأنه أَكَّدَ هذه المقولة.

إن كثيرًا من العلماء الذين حققوا اكتشافات فى حقل الهندسة الوراثية يقفون الآن ضد إجراء التجارب فى هذا المجال خوفًا من عواقبها الوخيمة، وذلك بعد انفصال النزعة التجريبية عن النزعة العقلية والأخلاقية والإنسانية، لقد **أصبح التجريب غاية فى حد ذاته، بغض النظر عن نتائجه التى قد تودى بالإنسان!.**

إن الأخطاء فى التجارب العلمية فى الماضى كانت تتم داخل دورة الطبيعة ولا تتحدى قوانينها، ولهذا كانت دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل، حتى إن التلوث الإشعاعى ـ الذى يستمر لآلاف السنين ـ يظل داخل دورة الطبيعة التى تُصلحه. **أما تجارب الهندسة الوراثية فتختلف عن التهجين القديم فى أنها تتجاهل تمامًا حدود البيولوجيا**، إذ يمكن إضافة جينات من الفيروسات أو البكتريا أو الحيوانات إلى الشفرة الجينية لأنواع الحيوانات والنباتات التقليدية، فتأتى بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها؛ فهى **مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية**. وقد ظهرت أخيرًا مشكلة «**التلوث الجينى genetic pollution**»، وهو انتقال الجينات التى تم إدخالها على أحد النباتات (بقصد جعلها أكثر إنتاجية وأكثر مقاومة للمناخ) إلى نباتات أخرى (أعشاب ضارة على سبيل المثال)، مما يجعلها أشد فتكًا ويجعل القضاء عليها صعبًا أو مستحيلًا.

مطلوب عمل «دراسة جدوى» للتقدم

قلت للدكتور المسيرى؛ لا شك أن الإنسان قد حقق تقدمًا هائلًا فى ظل الحضارة المادية الحديثة، وفى نفس الوقت خسر الكثير فى العديد من الجوانب، ألم يأن الأوان لفتح الملفات، ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه الباهظة؟ ... فقال:

إن جوهر الحضارة الغربية هو الإيمان بمفهوم «التقدم» السريع والدائم وبأى ثمن، حتى **أصبح التقدم العلمى هدفًا فى حد ذاته**. ولكن يبدو أن مشكلة البيئة فى المجتمعات الصناعية قد تفاقمت، فبدأ المفكرون، بل المواطنون العاديون، يتحدثون عن «تكاليف» التقدم.

إن النموذج الغربى فى التنمية والاستهلاك مبنى على **غزو الطبيعة والسطو عليها** (تبين الإحصائيات التقليدية أن ٢٠٪ من سكان العالم من أهل الغرب يستهلكون ٨٠٪ من مصادرها الطبيعية). والآن، ماذا بعد أن «تقدمت» الصين والهند وأصبح هناك بليون سيارة جديدة تسير فى الطرقات، يلوث عادمها جو الكرة الأرضية وتحرق الأكسجين، خاصةً بعدما «تقدمت» البرازيل هى الأخرى، وبدأت فى اجتثاث الغابات الاستوائية المطيرة التى تنتج ثلث الأكسجين فى العالم، لتؤسس المصانع والطرقات وتحقق «التقدم المنشود» على الطريقة الغربية، فهذا حقها القومى.

وإذا كانت **فكرة التُقدم الغربية تستند إلى لا محدودية الموارد الطبيعية**، فإن الممارسة أثبتت عكس ذلك، فهناك معادن آخذة فى الاختفاء، وهناك **أنواع من الحيوانات والنباتات تنقرض سنويًّا**، وهناك **مشكلة النفايات** الآخذة فى التزايد بشكل مخيف، حتى إننا سنحتاج ـ لو استمر التقدم على معدله ـ فى غضون عدة أعوام إلى ستة كواكب فى حجم الكرة الأرضية كمصدر للمواد الخام وكوكبين آخرين للتخلص من نفايات الاستهلاك الوحشى المرتبط بالتقدم. وبطبيعة الحال، هناك **النفايات النووية**، التى لم نعرف طريقة جيدة للتخلص منها بعد. إن **التقدم الذى كان من المفروض أن يحقق سعادة الإنسان الأرضية أصبح يهدد وجوده على هذا الكوكب**. ومن المفارقات الساخرة أن الثورة العلمية التى نجحت فى تطوير السلاح بشكل غير مسبوق فى تاريخ البشرية، فشلت حتى الآن فى حربها ضد الأنفلونزا.

ولننظر إلى جانب آخر، هل **جهاز الإنسان العصبى** قادر على استيعاب كل هذه الأحاسيس والأفكار والمعلومات وأخبار المجازر والكوارث التى تُرسَل إليه يوميًّا من بيئته المحلية والعالمية؟. وهل من قبيل المصادفة أن الجلطة الدماغية على مستوى العالم العربى والعالم أجمع آخذة فى التزايد فى السنوات الأخيرة؟.

وأتساءل، هل مجرد «إنتاج» سلعة ما يُعتبر «تقدم»، أم أن **مقاييس التقدم والتخلف تقع خارج نطاق الأشياء والكم**. وإذا كان الحديث عن **تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية)** أصبح أمرًا شائعًا فى الغرب، فإن الحديث عن **تلوث الإنسان (الطبيعة البشرية)** أصبح هو الآخر أمرًا مطروحًا بشدة. إن المجتمعات الاستهلاكية تظن أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان

مُسقطة احتياجاته الروحية من الحُسبان، إذ تتجاهل ازدواجية الإنسان ومن ثم تسبب البؤس للبشر. ولذا أطالب الآن بفتح ملفات «ثمن التقدم» ومقارنة عائد التقدم بتكاليفه، وأن ننظر للتقدم المادى فى إطار ما يُحدِث من «تخلف إنسانى».

كل هذا جعلنى أتحفظ على مصطلحات يقبلها البعض بشكل مطلق، مثل «التقدم التكنولوجى» و«التجريب العلمى». وهذا لا يعنى أننى أرفض المعرفة العلمية رفضًا كاملًا (كما يفعل غلاة السلفيين) ولا أننى أقبلها قبولًا كاملًا بحُسبانها المعرفة الوحيدة الممكنة (كما يفعل غلاة العلمانيين)، كل ما فى الأمر أن قبولى لها أصبح مشروطًا وغير مطلق.

كيف تعاملوا مع الفطرة

سألت د. المسيرى: إذا كانت الحضارة المادية عوراء، لا تنظر إلا إلى الجانب المادى فى الإنسان، وفى نفس الوقت فإن للإنسان ميلًا غريزيًّا لعالم الغيب، وهذا الميل هو ما يجعل للإنسان ميلًا فطريًّا للتدين، فكيف يتعامل الإنسان المادى مع هذا الميل؟ أجابنى د.المسيرى:

ثمة ظواهر غريبة انتشرت فى الولايات المتحدة، منها زيادة قارئى الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم فى البيت الأبيض). كما ظهرت العبادات القديمة الجديدة، مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالقدرات الخارقة للهرم، وعبادة جايا (أى كوكب الأرض)، والإيمان بالأطباق الطائرة. ويرجع ذلك إلى أنه رغم تزايد معدلات النسبية وتفشى أخلاقيات السوق فإن الإنسان يظل بحاجة لإشباع الجانب الإنسانى فيه، لذلك لجأ إلى الإيمان بما أُسَمِّيه «ميتافيزيقا دون أعباء»، فهذا يعطيه الشعور الميتافيزيقى الذى يبحث عنه، ولكنه فى الوقت ذاته لا يُحَمِّله أى أعباء أخلاقية كما تفعل الديانات، مثل الكسب الحلال وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك وغض البصر.

قلت للدكتور المسيرى، يدعى الغربيون أن الإنسان كلما تحضر (بالمفهوم المعاصر) كان ضميره أكثر يقظة، حتى أقنعونا أن الحضارة الغربية حضارة الانضباط عن طريق الإحساس (الجوانى والفردى) «بالذنب» guilt، أما حضارتنا فهى حضارة الإحساس (البرانى والجماعى) «بالخجل أو العار» shame. يريدون أن يشعروننا أن الإنسان الغربى ينضبط من داخله، ولذا فهو أكثر تَحَضُّرًا، أما الذى يتم ردعه اجتماعيًّا من الخارج بشكل دائم، فهو إنسان غير متحضر، فما رأيك فى ذلك؟.

ابتسم د. المسيرى وأجابنى: لقد تبخرت أسطورة إحساس الإنسان الغربى بالذنب بغتة

عام ١٩٧٧، حين انقطع التيار الكهربائى عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم، بل اشتركت بعض السيدات البيض من الطبقات الثرية فى كرنفال السرقة. أَخَبْرت أصدقائى الأمريكان ساعتها أننى شاهدت الليلة السابقة تَبَخُّر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية فى حياتنا جمعيًا، وعلينا ألا نتحدث عن «الضبط الفردى الجوانى» وإنما عن «**الضبط العلمى ـ وربما البوليسى ـ الكهربائى**».

نحو حداثة جديدة

سألت د. المسيرى؛ إذا كانت الحداثة قد أدت إلى ما بعد الحداثة، ذلك المنظور الذى أدى إلى نزع إنسانية الإنسان وجَعَلَه مسخًا مشوهًا، **فهل معنى ذلك أن من الأفضل رفض التقدم؟**

أجابنى د. المسيرى: إن ما أقول لا يعنى رفض تطور المجتمعات، ولكن المطلوب هو حداثة جديدة؛

حداثة «تتبنى العلم والتكنولوجيا ولا تضرب بالقيم الإنسانية عرض الحائط».

«تنمى وجودنا المادى ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود».

«تحيى العقل ولا تميت القلب».

«تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث».

وهى مسألة ولا شك صعبة، ولكنها ليست مستحيلة.

من أجل التقدم نحو هذه الحداثة البديلة ينبغى:

١- فصل الحداثة البديلة عن مفهوم الاستهلاك والتقدم المادى، وربطها بمفهوم الطبيعة الإنسانية والإنسانية المشتركة، بحيث يمكننا أن نحدد **هدفًا للحداثة غير الإنتاج والاستهلاك.**

٢- توسيع مفهوم التقدم، بحيث يضم **المعنوى والروحى** بالإضافة إلى المادى والملموس.

٣- أن نعيد تحديد معدلات الاستهلاك فى **إطار احتياجات البشر المادية والمعنوية**، فلا تكون زيادة الاستهلاك هدفًا فى حد ذاتها.

وبهذه الطريقة قد يمكننا أن نحقق مشروع الحداثة البديل، **وأن نحقق التقدم دون أن نفقد إنسانيتنا واتزاننا**، ودون أن ندمر الكوكب.

كان شعورى تجاه حوارى الشيق مع د. عبد الوهاب المسيرى مزيجًا من الشجن العميق وخفة الانتشاء. وقلت له وأنا أُوَدعه: إن كتابى هذا يدور حول الذات الإنسانية، وسيكون بعنوان «أنا: تتحدث عن نفسها»، فَهَلّا لخصت لى فى كلمات ما استقر عليه وجدانك ـ حتى الآن ـ حول **تعريف الذات الإنسانية**. فقال: ختام كلماتى (التى أتمنى أن تنقلها عنى حيًّا ومَيْتًا) التى أُعَرِّف بها الإنسان هى أن:

«الإنسان كائن حر، يصنع التاريخ،

جزء من الطبيعة ومستقل عنها، ولا يمكن أن يُردَّ إليها

كائن له منتجاته الحضارية التى تمنحه خصوصيته القومية والإنسانية

إنه الإنسان الربانى (عكس الإنسان الطبيعى/ المادى)»

القارئ الكريم

يرى إريك فروم (عالم النفس الكبير) أن السبيل إلى تفادى الكارثة التى تدفعنا إليها الحضارة المادية المعاصرة هى إنشاء **مجتمع المدينة الفاضلة**، مجتمع يوجهه نظام يراعى الجانب الروحى للإنسان، فلا يحتاج إلى تحريف الواقع وعبادة الأصنام. وكذلك يرى أستاذى الدكتور عبد الوهاب المسيرى أن النجاة تكمن فى **بعث الإنسان الربانى**، الكائن الذى يعيش داخل جسده المادى بينما تتجاوز روحه عالم المادة إلى عالم المُثل العليا والغيب، كائن أقدامه مغروسة فى الوحل وعيونه شاخصة للنجوم، كثيرًا ما يسقط ولكنه قادر دائمًا على النهوض ثم التجاوز والتسامى.

وباعتبارى مفكرًا إسلاميًّا، يحمل على كتفية هموم البشرية، **أرى فى منهج الإسلام السبيل لبعث الإنسان الربانى، بثنائيته (الجسد والروح)، والسبيل أيضًا لتحقيق مجتمع «المدينة الفاضلة» على أرض الواقع**، تلك المدينة التى لا تشكلها مثاليات نظرية، بل تمثل **مجتمعًا صالحًا للتطبيق فى كل زمان ومكان.**

ومن أجل طرح هذه القضية، يبدأ القرآن الكريم بتأكيد أن **نمط التملك** منبوذ عند الله ﷻ، بل ويتوعد بالويل من يرى حقيقة الوجود فى التملك ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة]. وفى الوقت نفسه، يحث القرآن الكريم على تبنى نمط الكينونة فى الحياة، فيؤكد أن نمط الحياة القائم على احترام إنسانية الإنسان وسماته البشرية هو النمط الوحيد الجدير بتقدير رب الكون ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء]. وبالرغم من وضوح وتكرار التحذير من نمط التملك والترغيب فى نمط الكينونة إلا أن ذلك لا يمنع الإنسان من المكابرة والمجادلة ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِى هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَىۡءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف].

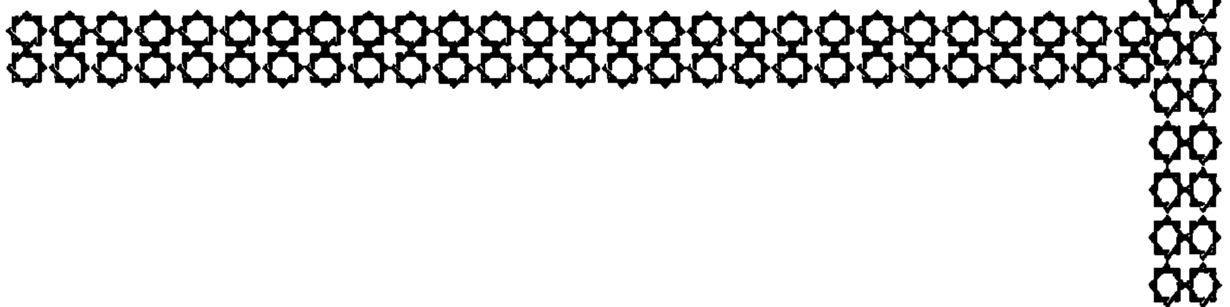
ويصل الإنسان إلى تحقيق ذلك عن طريق الالتزام بالحياة الفاضلة ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر]. ويُحَمِّل القرآن الكريم الإنسان مسئولية استخدام عقله وحواسه وبصيرته من أجل الحفاظ على كينونيته الإنسانية ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد].

وصدق الله العظيم

الباب الثالث

أنـا...

فى القرآن الكريم



الفصل التاسع

الذات الإنسانية فى القرآن الكريم

١ - الجسد
- الجسد مُكَوِّن أساسى للذات الإنسانية
- الروح ليست مصدر حياة الجسد

٢- العقل
- منزلة العقل
- العقل فى القرآن الكريم
-الملكات العقلية
- موقف القرآن الكريم من العقل
- العقل بين القرآن واللغة

٣-القلب
- وظائف القلب العاطفية والمنطقية
- هل القلب مجرد مضخة للدم؟
- أقسام القلوب

٤ - الروح
- وما أُوتيتم من العلم إلا قليلًا

٥ - النفس
- النفس والروح، ثنائية أم واحدية؟
- النفس محل التكليف والاختيار.
- علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية.
- صور من معاصى النفس.
- أثر الطاعات على النفس.
- سنة الله مع النفس البشرية.
- عوالم ومراتب النفس.
- القارئ الكريم

تحدثت فى الفصول السابقة عن ذاتى، «الذات الإنسانية»، **من منظور العلوم المختلفة**، فتعرفنا عليها من خلال الرؤى المتخصصة لكل من علوم المخ والأعصاب، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والبيولوجيا، والتطور البيولوجى، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والتاريخ، واللغة، وغيرها من العلوم.

ويمكن تشبيه استقلال نظرة كل من هذه العلوم إلى الذات الإنسانية بالقصة الرمزية المشهورة عن **مجموعة العميان، الذين طُلب منهم أن يتحسسوا فيلًا ثم يصفوه**، فاختلفت أوصافهم تبعًا للعضو الذى وضع كل منهم يده عليه. فمن تحسس نابَىّ الفيل وصفه بأنه صلب أملس، ومن تحسس خرطومه اعتقد أن الفيل كائن طويل يتلوى كالثعبان، ومن تحسس جسده اعتقد أنه كالحائط الخشن المتعرج، ومن وضع يده على ساقه شبهه بالشجرة، أما من تحسس ذيله فقد أشفق على هذا الكائن الهزيل!!.

ألا توافقنى أننا من أجل الوصول إلى صورة متكاملة للفيل (أقصد للذات الإنسانية) نحتاج إلى نظرة فاحصة محيطة من بصير، **نظرة تحيط بالنفس من كل زواياها**، وتتجاوز النظرة التفكيكية التجزيئية. لا شك أن خير من يقدم لنا هذه النظرة هو خالق الإنسان الذى لا تتوقف صلته بالذات الإنسانية عند إنشائها، بل يتابعها فى حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها. لذلك، لا يكتمل حديث «**أنا**» عن نفسها إلا بطرح **وصف الله ﷻ للذات الإنسانية فى القرآن الكريم**.

من المفاهيم السائدة عند الحديث عن الإنسان بالمنظور الدينى أن الذات الإنسانية جوهر غيبى هو **الروح**، وأن **الجسد** ما هو إلا دابة الروح أو عباءة تتسربل بها أثناء حياتها الدنيا. ولكن نظرة متأملة لنصوص القرآن الكريم وللعقيدة الإسلامية ترينا **أن تلك الذات وجود مُرَكَّب من خمسة عناصر (الجسد ـ العقل ـ القلب ـ النفس ـ الروح) نتناولها الآن ببعض التفصيل**[1]:

(١) لا شك أن ما ورد فى القرآن الكريم حول هذه المكونات الخمسة شديد الغزارة، وقد أعمل فيه علماء العقيدة والفلاسفة المسلمين عقولَهم فخرجوا بمفاهيم وآراء تملأ بتفاصيلها واختلافاتها مئات المجلدات. وقد اخترت أن يكون عرضى لمفهوم الذات الإنسانية بمكوناتها الخمس محددًا معتمدًا على المفاهيم التى نستقيها بشكل مباشر من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، دون الدخول فى التفاصيل ودقائق الاختلافات.

١ - الجسد . . .

الجسد مكون أساسى للذات الإنسانية

هناك نقطة خلاف جوهرية ينبغى أن نتأملها، إنها منزلة الجسد بالنسبة للإنسان، فى منظور الإسلام. هل الجسد شىء مُدَنَّس مُنتَقَص، لا يحقق الإنسان الترقى الروحى إلا بإذلاله أو تجاوزه، أم هو دابة الروح، أم هو أكثر من ذلك؟ هذه ثلاث مراتب للجسد ينبغى أن نختار من بينها.

لا شك أن كثيرًا من المتدينين يعتقدون فى الفهم الأول أو الثانى، إن تلك النظرة تتطلب التصحيح والتعديل، إذ إن صريح القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة تعلو بالجسد فوق هاتين المنزلتين، وتعتبره مكونًا أساسيًّا للذات الإنسانية. ونستشهد على ذلك ببعض النقاط:

١ - كانت رحلة المعراج لرسول الله ﷺ بالجسد والروح (فى الرأى الأرجح). وأرى أن المقصود بذلك ليس إظهار قدرة الله ﷻ ولا تعظيمه لمنزلة رسوله الكريم فقط، لكن فى ذلك إشارة إلى أن حقيقة الإنسان هى الجسد والروح معًا، وأن الجسد يمكن أن يرقى إلى مراقى الروح، وأن ينفذ إلى عوالمها غير المادية.

٢- لا ينبغى أن ندفع النقطة السابقة بأن هذه خصوصية لرسول الله ﷺ؛ إذ إن كل إنسان منا يحقق العروج الروحى عن طريق سجود الجسد فى الصلاة التى هى معراج المؤمن ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

٣- عندما أراد الله ﷻ أخذ ميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من بنى آدم، فقد خاطب الأرواح / الأنفس من خلال الأجساد، بعد أن أخرج البشرية جميعًا من ظهر آدم فى أجساد دقيقة كالذَر وأَخَذَ عليها الميثاق، ويمكن تفسير آية الميثاق على أن فطرة التوحيد قد وُضِعَت فى جينات نُطف (الحيوانات المنوية والبويضات) كل إنسان فى زمانه. إن كلا التفسيرين يعنيان أن المخاطَب بالميثاق ليس الروح / النفس فقط، ولكن أيضًا الجسد.

٤- تأمل قول الله ﷻ فى سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

إن الإنسان يأتى إلى الدنيا لا يعلم شيئًا، ثم يبدأ فى **اكتساب العلوم والمعارف من خلال حواس الجسد، فنتعلم أمورًا عن عالم الغيب** ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧] **كما نتعلم أمورًا عن عالم الشهادة** ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩].

ليس ذلك فقط، بل إن الله ﷻ **يحفز الإنسان ليتذكر الميثاق الذى أخذه على الإنسان** ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ ﴾ [الأعراف:١٧٢] **من خلال مراكز الذاكرة فى المخ. كما يزداد إيمان الإنسان بالله** ﷻ **من خلال الحواس** ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

٥- **فى العبادات كلها** (الصلاة والصوم والزكاة والحج) يقوم كل من الجسد والروح/ النفس بدوره. وتصح العبادة من الناحية الشرعية إذا أديناها بالجسد وإن قَصَّرت الروح/ النفس، أما العكس فغير صحيح!

٦- لا شك أن **المنفعة تبادلية بين الروح/ النفس والجسد. فالنفس ترقى بمجاهدات يشارك فيها الجسد**، كقيام الليل والصيام. كذلك **يحقق السمو النفسى فوائد جمة للجسد**، من خلال رفع مستوى المناعة، وخفض معدل النوبات القلبية والمخية، وتأخير الشيخوخة.

٧- بعد موت الإنسان ومفارقة الروح/ النفس للجسد، **ينبغى معاملة الجسد معاملة تكريم وإعداد للحياة الأخرى.** فيتم تغسيله ليكون على طهارة، ويُلَف فى كفن أبيض نظيف، ويُصلَّى عليه، ويُدعى للمتوفَّى بالرحمة فى حضور الجسد، ثم يُسَجَّى مواجهًا للقبلة.

٨- عند البعث، **يُحشر الإنسان بروحه ونفسه وجسده، ليتم محاسبته على معاصى النفس ومعاصى الجوارح. ويجازَى الإنسان ككائن متكامل، بالنعيم أو بالعذاب.**

٩ -تأمل حديث رسول الله ﷺ الصحيح المتفق عليه (رواه النعمان بن بشير): (... ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا

وهى القلب). ومن دلالات الحديث أن الصلاح والفساد مصدرها مضغة فى الجسد، ويشملان الإنسان كله، وقد أشار إليه الرسول ﷺ بـ(الجسد كله). **هل يصح بعد ذلك أن نقول أن الجسد لا اعتبار له ولا قيمة!**

تؤكد هذه النقاط التسع، وغيرها كثير، الصلة الوثيقة بين الجسد والروح/ النفس، حتى يمكننا القول: **إن كل ما يعتمل فى الروح/ النفس يطفح على الجسد،**

﴿... إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

سبحان ربى ﷻ !

وينبغى أن نلاحظ أن القرآن الكريم يتحدث فى مواضع مختلفة عن الجسد وعن الروح وعن النفس، بشكل منفصل:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[ص:٧١].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس:٧].

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾[الإسراء: ٨٥].

إلا أن الله ﷻ عندما يتحدث عنا أو يوجه إلينا الخطاب، يكون ذلك باعتبارنا **كُلًّا متكاملًا** (الإنسان)، منذ يوم «ألستُ بربكم»، وحتى نلقى الله ونحيا خالدين فى الحياة الأخرى.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤].

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[الانشقاق: ٦].

إن الفصل بين مكونات الإنسان، واعتبار أن بعضها جوهرى (الروح) وبعضها ثانوى (الجسد) وبعضها واسطة بين الاثنين (النفس)، هو مصدر الالتباس. لذلك ينبغى أن نعيد صياغة نظرتنا للإنسان باعتباره كُلًّا متكاملًا.

لا شك أن **الإسلام يَتَفَرَّد بهذه النظرة المتكاملة. فاليهودية والمسيحية**، التى بين أيدينا، تنظر إلى الجسد ورغباته باحتقار، وترى أن الخلاص فى الحياة الأخرى لن يكتمل للروح إلا بعد أن يُبَدَّل الجسد المرتكب للمعاصى بجسد خالٍ من الرغبات المادية. كذلك ترى الهندوسية

وديانات الشرق الأقصى أن حقيقة الإنسان هى الروح فقط، لذلك ترى السعادة الكبرى فى تحرر الروح من الجسدية المدنسة، والتحاقها بالروح الكلى، كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط. وفى المقابل، يتنكر الفكر المادى لأى أصول غيبية للإنسان، ولا يرى فيه إلا المادة وقوانينها. ما أحوجنا إلى النظرة المتوازنة المتكاملة.

الروح ليست مصدر حياة الجسد

وترتبط بالجسد ظاهرة الحياة، وهى غنية عن التعريف، فكل منا كائن حى، كذلك يمكننا أن ندرك الحياة بشكل أعمق عند تأمل ظاهرة الموت، فبضدها تتميز الأشياء.

ومن المفاهيم الخاطئة واسعة الانتشار عن الروح والحياة أن الأولى مسئولة عن الثانية، وأن الموت يقع عند مفارقة الروح للجسد. وهذا الفهم موجود لدى المتخصصين فى الطب وفى الدين على السواء، ومنتشر بلا شك بين العوام.

والصواب، أن الحياة ظاهرة بيولوجية توجد فى جميع الكائنات الحية، النباتية والحيوانية، كما توجد فى جنين الإنسان قبل نفخ الروح (الذى يحدث تبعًا للآراء الفقهية بعد الشهر الرابع من الحمل)، بل توجد أيضًا فى الحيوان المنوى والبويضة. أما الروح، الذى هو نفخة نسبها الله ﷻ إلى نفسه، فقد أُختص بها الإنسان، فميزته بقدراته العقلية وملكاته الروحية، واستحق بها الخلافة من الله ﷻ فى الأرض[1].

٢ - العقـــل . . .

منزلة العقل

العقل هو المُكَوِّن الثانى للذات الإنسانية، ومن أفضل ما قيل عن مهام وشرف منزلة العقل، كلامٌ لابن قيم الجوزية، يقول فيه:

«والعقل به عُرِف الله سبحانه وتعالى وأسماؤه وصفات كماله ونعوت جلاله. وبه آمن المؤمنون بكتبه، ورسله، ولقائه، وملائكته. وبه عُرِفَت آيات ربوبيته، وأدلة وحدانيته،

(١) للاستدلال على ذلك، وأيضًا للعلاقة بين الحياة والروح وبين الموت والتوفى، انظر الفصل العاشر بعنوان «أنا... والموت».

ومعجزات رسله. وبه امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وبه حُث الإنسان على الفضائل، ونُهى عن الرذائل، فاستَجْلَب ما يزين، ونَفَى ما يشين»[1].

وحول منزلة العقل فى الإسلام؛ يقول الأستاذ عباس محمود العقاد[2]: «فالدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانًا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وَلِىّ، أو صاحب قداسة مطاعة. ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرًّا طليقًا من سلطان الهياكل والمحاريب، ومن سلطان كهانها المتحكمين فيها بأمر الإله المعبود كما يدين أصحاب العبادات الأخرى».. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ...﴿١١٥﴾﴾ [البقرة]».

مما سبق يتضح أن العقل هو أصل الدين، فهو الأداة التى يُحَصَّل بها العلم الذى يسلك بالعبد طريقًا إلى الجنة، ويرفعه فيها درجات ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة]. وبالعقل يُفهَم المقصود من الأمر، ويُحَصَّل الدليل على صحة الأعمال، وبه تتم الموازنة والترجيح بين طريق النجاة وطريق الهلاك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل].

العقل فى القرآن الكريم...

مما يلفت الانتباه، أن لفظ « العقل» فى صيغته الاسمية، لم يرد فى القرآن الكريم مطلقًا، لكن وردت مشتقاته فى صِيَغِه الفعلية، مثل عقلوا ويعقلون وتعقلون ونعقل ويعقل، قرابة خمسين مرة. أما الألفاظ التى تدل على النشاط العقلى بصفة عامة، مثل التفكير والتدبر والعلم والنظر والإدراك والتفكر والتبصر، فقد وردت مئات المرات[3].

وربما يرجع عزوف القرآن الكريم عن استخدام الصيغة الاسمية للعقل واللجوء إلى الصيغ الفعلية إلى اهتمامه بالأفعال ونتائجها أكثر من اهتمامه بالتفاصيل النظرية. كذلك فإن استخدام الصيغة الاسمية يتطلب وضع تعريف للعقل، بينما كثيرًا ما تفشل التعريفات فى تصوير الشىء

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ٧ - ٨.

(٢) التفكير فريضة إسلامية - مجموعة أعمال العقاد - المجلد الخامس: ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) هذا المبحث، تلخيص (مع إضافات) عن كتاب «الصوفية والعقل» تأليف الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة - دار الجيل.

المُعَرَّف تصويرًا دقيقًا، لا سيما إذا اتصل هذا الشىء بحقائق روحية أو نفسية. حتى قالوا «**يكمن الشيطان فى التعريفات، كما يكمن فى التفاصيل**». كما يتطلب استخدام الصيغة الاسمية المُعَرَّفة **تحديد الموضع والعضو** الذى يقوم بتلك المهمة شديدة التعقيد والتى لم يتوصل العلم إلى كلمة نهائية فيها حتى الآن.

الملكات العقلية

يحدد القرآن الكريم **الملكات التى وهبها الله ﷻ للعقل**، لتعينه على القيام بمهامه، ويمكن من تأمل الآيات الكريمة وَضْع أيدينا على سبع مَلَكَات، الثلاث الأولى منها فطرية تنشأ مع الطفل الوليد، والأربعة الأخرى مكتسبة:

١ - **مَلَكَة التمييز بين الحسن والقبيح**، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد]، وللتنشئة التى تقوم بها الأسرة والمدرسة والمجتمع، دور فى تدعيم معايير الحُسن والقُبح تبعًا لمرجعية تلك الجهات. وهذه المعايير خمسة: الحلال والحرام ـ العرف ـ التجارب السابقة ـ المصلحة الشخصية ـ الهوى.

٢- **مَلَكَة معرفة عواقب الأمور**، ويسميها البعض **العقل التجريبى**، وهى أساس كل تقدم حضارى يحققه الإنسان، كما أنها لازمة وضرورية للنجاة يوم القيامة. لذلك يركز القرآن الكريم على تدبر أحوال الأمم السابقة، وما حاق بهم من سخط الله عندما انحرفوا عن السبيل القويم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١﴾ [غافر].

٣ - **مَلَكَة الإدراك والتحكم**: وبها يُلم الإنسان بكل ما يحتاج للإدراك، كالفرق بين المتقابلات (كالبُعد والقرب) ومعانى الأشياء، وتكوين الجمل. كما أنها المسئولة عن **التحكم**، الذى هو أساس نظام العقل البشرى، فهو الذى يستقبل المدخلات العصبية، وبناء عليها يصدر الإشارات للجوارح لتنفيذ ما استقر عليه رأى العقل.

وتسمى الملكات الثلاث الفطرية الأساسية السابقة **بالعقل الوهبى أو العقل المطبوع**، وهى مطلوبة لأمانة الخلافة فى الأرض. وبفقد أحد تلك الملكات لا يصير الإنسان عاقلًا، ويسقط عنه التكليف الشرعى.

أما الملكات الأربع التالية، فتعرف **بالعقل الكسبى**، فهى قابلة للتدريب والتنمية والارتقاء، بشرط توافر ملكات العقل الوهبى:

٤ - **مَلَكَة التأمل والتفكر**: ترقى هذه الملكة بالتفكير فى الآفاق والأنفس إلى مصاف العبادات ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]، فمن أعمل فكره فى آلاء الله ﷻ وصل إلى تنزيهه، لذلك ورد فى آيات كثيرة قانون إلهى مُحكم ﴿ ... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]. كما أوضحت الآيات القرآنية أن التفكر هو المراد من **ضرب الأمثال** فى القرآن الكريم ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

٥ - **مَلَكَة التدبر**: والتدبر أسمى من التفكر؛ فالتفكر هو التأمل فى الأشياء، فهو **كالمقدمات**، أما التدبر فهو استمرار التفكر فى الأمر حتى ينتهى إلى ما تصير إليه عاقبته، إذًا فهو **كالنتائج**، ويقول العرب: دُبُر كل شىء عقبه ومؤخره ـ وعَرفَ الأمر تدبرًا، أى عرفه بآخره ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

٦ - **مَلَكَة الحُكم والحكمة**: **والحكم** بداية تنتهى إلى حصول صاحبها على **الحكمة**، التى يَعرِف بها صاحبها أفضل الأوجه فى أمر ما، لذلك يقال رجل حكيم. كما أن من أوجه الحكمة «العدل» وهو وضع الشىء فى مكانه وفى موضعه، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة]. لذلك فملكة الحكم ليست للجميع، لكنها عطاء يُحصِّله من أعمل ملكات عقله تفكرًا ثم تدبرًا، حتى توصله إلى ملكة «الحكمة» الرفيعة.

٧ - **مَلَكَة الرُشد**: وهى الذروة من ملكات العقل. فالرشد فهو **الهداية**، ونقيضه الغى **والضلال**. والطريق الأرشد هو الأقصر الذى يسرع بك إلى هدفك ومرادك. والرشيد من أسماء الله ﷻ، فهو الذى أرشد الخلق وهداهم ودلهم على ما يصلحهم. وفى ذلك

يقول الرشيد ﷻ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة]، ومن هاتين الآيتين نرى أن **الرشد أرقى من الحكمة**، فقد يصل إلى الحكمة من ليس على دين الإسلام، أما الرشد فهو الوصول إلى أن «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

وهذه الملكات الأربع الكسبية تسمو فوق العقل الوهبى، ولا يرقى إليها ـ أو إلى إحداها ـ كثير من الناس، وبقدر ما تستنير هذه الملكات تصبح سمة غالبة على العقل، فيقال لصاحبه رجل حكيم أو رجل رشيد.

موقف القرآن الكريم من العقل

ولكى نستخلص موقف القرآن الكريم من العقل، نعرض **ثلاثة نماذج من الآيات تدعونا إلى استخدام العقل وإلى التأمل**، نحسب أنها كافية لعرض تصورنا عن هذه القضية[1]:

أ ـ فى تأمل الظواهر الكونية، يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد].

---

(١) إن المتأمل لموقف الدارسين من قضية «**العقل فى أحاديث الرسول ﷺ**» يجد اتجاهين بارزين. الاتجاه الأول يرى أصحابه أن الأحاديث التى نُسبت إلى الرسول ﷺ فى العقل كلها موضوعة، ومن هؤلاء الإمام ابن الجوزى وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهم. والاتجاه الثانى يرى صحة بعض ما ورد فى أحاديث العقل، ووضعوا فى ذلك المؤلفات، ومن هؤلاء ابن أبى الدنيا، وداود بن المحبر وميسرة والسجزى.
وللخروج من هذا الموقف، رأينا الاكتفاء فى موضوع (نظرة الإسلام إلى العقل) بآيات القرآن الكريم ففيها من البيان والتفصيل ما يُنزل العقل منزلته.

ب ـ فى تأمل الأنفس البشرية، يقول تعالى:

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

جـ ـ وفى تأمل الظواهر الاجتماعية، يقول تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم].

يمكن من تأمل الآيات الكريمة السابقة ـ وغيرها ـ أن نستخلص عدة مفاهيم حول موقف القرآن الكريم من العقل، أهمها:

أولًا: **الثقة التى يوليها القرآن الكريم للحواس**، بحيث تكون معطياتها هى منطلق التفكر والتدبر للاستدلال على الصانع المنعم. ويدل هذا على وثاقة الارتباط بين الحواس والعقل.

ثانيًا: **الوضوح والبساطة** فيما تأمر به الآيات من عمليات التفكير والتدبر والتعقل، كأنها أمور لا تحتاج إلى تفكير عميق أو بحث غامض أو تحليل معقد (كمنهج الفلسفة والمنطق وعلم الكلام)، وإنما هى تُدرَك إدراكًا مباشرًا أشبه ما يكون **بالبديهيات العقلية**.

ثالثًا: **يمثل العقل ميزة فريدة وضعها الله ﷻ فى الإنسان**؛ به يَعرف ثم يعمل، ومن هنا كانت مسئولياته.

رابعًا: أن العقل الذى يتحدث عنه القرآن الكريم ليس عقلًا مجردًا، أو جوهرًا قائمًا بذاته (كما يعتقد الفلاسفة)، وإنما هو **ظاهرة أو طاقة أو مَلَكة تمثل قدرة إلهية فى الإنسان، ليستعملها فى حدودٍ رسمها له ونبهه إليها**. لذلك فالعقل الإنسانى **عقل واع بطاعة الله** ﷻ، يلتزم طواعية بما يأمر به.

خامسًا: **إن العقل البشرى لا يصلح أن يكون حَكَمًا فى كل شىء**، ويتوجه هذا الحَجْر إلى ثلاثة أمور:

١ ـ أمور لا يدركها العقل الإنسانى، كالذات الإلهية، فليس مما يعرفه العقل شىء يماثلها، حتى يمكن أن يقيسها عليه.

٢ ـ أمور لا تدخل فى حدود الطبيعة البشرية المحدودة، كحقيقة الروح.

٣ ـ أمور لا تلزم للنهوض بوظيفة الإنسان فى الوجود؛ كالغيب المحجوب عن العلم البشرى، ومثاله موعد يوم القيامة.

ويبين الحق سبحانه **كيف ينبغى تَلَقِّى مثل هذه الأمور**، التى هى فوق مدركات البشر:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وفيما عدا هذه الأمور، **فالعقل البشرى مدعو للتدبر والتفكر والاعتبار، والتطبيق فى عالم الضمير وعالم الواقع فى إطار منهج الإسلام**. وما من دين ـ أو منهج وضعى ـ **احتفل بإيقاظ الإدراك البشرى، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وصيانته فى الوقت ذاته من التبدد**، كما فعل الإسلام.

سادسًا: ينبغى أن يتحرك العقل من أجل **ثلاث غايات متداخلة متلازمة**؛ غاية إيمانية، وغاية معرفية، وغاية سلوكية حياتية. **ومجال حركته ثلاثة جوانب متداخلة**: الظواهر الكونية، والأنفس، والظواهر الاجتماعية.

إن **المنهج الذى يرسمه القرآن للعقل للنظر والتدبر**، هو الانتقال من الجزئيات إلى الكليات، أو تحليل الكليات إلى جزئياتها ثم الانتقال إلى التركيب (الخروج بمفاهيم جديدة)، أو أى طريقة أخرى يكتشفها العقل لنفسه دونما قيد عليه أو حَجْر. معنى ذلك أن القرآن الكريم **يحفز العقل البشرى إلى النظر فى الآفاق والأنفس والمجتمعات بأى منهج علمى**، مهما تعددت المناهج ومهما تَسَمَّت العلوم بأسماء متشابهة أو متباينة.

سابعًا: يقرر القرآن الكريم **أن من يعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم**.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال].

كما يقرر القرآن أن جزاء **معطل العقل هو السعير.**

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

ثامنًا: لم يكتف القرآن الكريم بِحَثِّ العقل على العمل وترك التقليد والجمود، لكنه أثار أمامه **عددًا من المسائل والقضايا الحيوية،** وعالجها كنماذج لما ينبغى أن يكون عليه أداء العقل. **وأهم هذه القضايا الاستدلال على خالق الكون دون وقوع فى المحظور؛ الذى هو البحث فى كنه الله وفيما اختص به نفسه.** ومن هذه القضايا أيضًا الخلافات الجوهرية مع أرباب الملل والنِحَل الأخرى، كدعوى ألوهية عيسى عليه السلام.

تاسعًا: ربما كانت أقرب الإشارات **لموضع عملية التعقل** هى قول الحق ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]، فالآية تشير إلى **أن للقلب (الذى فى الصدر) دورًا فى عملية التعقل.** وتتفق الآية مع معارفنا العلمية، إذ إن الشواهد العلمية الحديثة تتجمع منذ قرابة ثلاثة عقود على أن لهذا القلب دورًا فى المنظومة المعرفية والشعورية والإيمانية للإنسان[1].

وبعد هذا العرض لموقف القرآن الكريم من العقل، أتساءل: **أمن سوء الفهم أم من سوء القصد أن يُرمَى القرآن الكريم بأنه مُعَوِّق للفكر مقيد لحريته،** أو القول بأن الدعوة للنظر العقلى عند فلاسفة العرب كانت محاولة لتكميل القرآن فى الجانب الذى قَصَّرَ فيه؟! لا شك أن تلك دعاوى باطلة.

العقل بين القرآن واللغة

لجأ اللغويون إلى القرآن الكريم ليجمعوا من آياته المعانى المقصودة بالعقل، وكذلك المرادفات اللغوية التى تشير إليه وتتفرع منه:

يُطلق «**التعقل**» فى القرآن الكريم واللغة ويراد به معان كثيرة، منها: **التثبت فى الأمر، والإمساك والاستمساك، والامتناع.** يقال: عَقَلْتُ الناقة، إذا منعتها من السير. ومن هذه المعانى

(١) راجع الجديد حول هذا الموضوع فى كتاب «رحلة عقل»، للمؤلف ـ الفصل السادس. الناشر مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة السادسة ٢٠١٣.

الشد، يقال عَقَلَ الرجل، إذا كف نفسه وشدها عن المعاصى. وكل ما ذُكر من معان أخرى يندرج تحت ما سبق ولا يزيد عليه، ومن هذه المعانى:

الحِجْر: ورد مرة واحدة، وقيل للعقل حِجْر لكون الإنسان فى مَنَعَة به مما تدعو إليه نفسه ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر].

النُّهيْة: وردت مرتين بصيغة الجمع (النُّهى)، وهو العقل الناهى عن القبائح ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه].

الأحلام: يقال فيها ما قيل فى الحِجر والنُهى ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الطور].

اللب: ورد بصيغة الجمع (أولو الألباب)، وهو العقل الخالص من الشوائب. واللب نوع راق من العقل البشرى، يمتاز بالرفعة والخصوصية ﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الطلاق].

الفؤاد والقلب: قد يراد بـ «الفؤاد» و «القلب» العقل والإدراك والتفهم والاعتبار، وقد يراد بكل منهما معنى خاص به. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] - ﴿... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]. وقد ورد **القلب** فى القرآن الكريم أكثر من مائة وثلاثين مرة، وورد كل من **الفؤاد واللب** ست عشرة مرة.

وبالنظر فى الآيات الوارد فيها ما سبق من الاصطلاحات، يمكن أن نقول، إن العقل يطلق فى اللغة العربية ويراد به جانبان؛ **جانب سلوكى أخلاقى**، وهو الجانب العملى، وهذا الجانب يطلق عليه «الحِجْر» و «النُّهية» و «الحلم». **وجانب إدراكى نظرى**، وهو ما يراد بـ«اللب» و«القلب» و«الفؤاد».

ونفهم من سياق الآيات أيضًا أن **القلب واللب والفؤاد مستويات إدراكية تختلف بعضها عن بعض. فالفؤاد** هو غشاء **القلب، واللب** سويداؤه وحبته. ويمكن الإشارة إلى ما اُختص به القلب وهو الفقه، وما اُختص به اللب وهو التذكر، وما انفرد به الفؤاد وهو الرؤية.

من الجولة اللغوية السابقة، يتضح أن القرآن الكريم يتبنى مفهومًا يعتبر **أن الإنسان قد زُوِّد بجهاز إدراكى معرفى بالغ التعقيد، يقوم بوظيفتين رئيسيتين هما؛ الإدراك والمعرفة والعلم، والإيمان وما يتصل به من عاطفة ووجدان وإرادة**، وأن جوهر هذا الجهاز هو العمليات العقلية.

ونختم جولتنا مع العقل البشرى بشىء مما ذُكر حول قول الحق ﷻ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]: **مَن الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؟**

هل الجسم؟: لا، فلا قِبَل له بهذا.

هل الروح؟ لا، فتوجهاتها واهتماماتها علوية.

إذًا، لا يكون إلا العقل.

٣ - القلـــب . . .

ينظر الإسلام إلى القلب فى الإنسان **كالمِلِك بين الرعية، وكالسيد بين أتباعه**، وبهذا وردت أحاديث رسول الله ﷺ التى منها: «.. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»[1].

وفى **اللغة**، القلب: عكس القالب، فهو بمنزلة اللب من القشرة. والقلب: هو تحويل الشىء عن وجهه. وقَلَّب الأمور بمعنى بحثها ونظر فى عواقبها. وتَقَلَّب فى الأمور وفى البلاد أى تصرف فيها كيف شاء. ويقول العرب: جئت هذا الأمر قلبًا أى محضًا لا يشوبه شىء.

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله ﷻ يقلبها»[2].

وقد يُعَبَّر بالقلب عن العقل، فالعرب تقول: ما قلبك معك؟ وما لك قلب؟، وأين ذهب قلبك؟ وهم يقصدون عقلك.

والقلوب فى القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: **الروح أو النفس**، فى قوله تعالى ﴿... وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ...﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]، فعبر عن النفس الحية بالقلب.

الثانى: **العقل**، فى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

---

(١) من حديث النعمان بن بشير - متفق عليه.
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده.

الثالث: **حقيقة القلب الذى فى الصدر**، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج].

ويبين الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين ـ باب العلم ـ **أن القلب قلبان**، الأول هو ذلك العضو العضلى الصنوبرى الشكل القابع فى تجويف الصدر، وهو المسئول عن ضخ الدم، والثانى هو القلب الذى تُنسب إليه الوظائف المعرفية والشعورية والإيمانية. ثم يبين أن بين هذين القلبين علاقة وتَعَلُّق.

وفى القرآن الكريم، لم يأت ذكر للقلب كعضو محورى فى الدورة الدموية ومسئول عن ضخ الدم، بينما جاء ذكره ١٣١ مرة مشيرًا إلى **وظائف عاطفية** Emotional أو **عقلية منطقية** Rational [١].

وظائف القلب العاطفية والمنطقية

إذا نظرنا إلى **الوظائف العاطفية** التى تُنسب للقلب، كما وردت فى آيات القرآن الكريم، وجدناها **تتأرجح بين الخير والشر**. فمن أمثلة الأوصاف الخيرة، **وصف القلب بأنه** «قلب سليم»[٢]، و«قلب منيب»[٣]، و«قلب وَجِل»[٤]، و«قلب مُخْبِت»[٥]، و«قلب خاشع»[٦] و«قلب لين»[٧]. كما تصف الآيات القرآنية القلب بأنه **موضعًا لـ**«التقوى»[٨] و«الإيمان»[٩]

---

(١) عن كتاب «وظائف القلب بين القرآن والطب» تأليف أ.د. فؤاد يحيى أحمد ـ أستاذ التشريح بكلية الطب ـ جامعة عين شمس.

(٢) ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء].

(٣) ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾ [ق].

(٤) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال].

(٥) ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج].

(٦) ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ... (١٦) ﴾ [الحديد].

(٧) ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ... (٢٣) ﴾ [الزمر].

(٨) ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾ [الحج].

(٩) ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾ [الحجرات].

و«السَكينة»[١] و«الرأفة والرحمة»[٢]، و«الاطمئنان»[٣] و«الهداية»[٤] و«الخير»[٥]. كما يصف القرآن الكريم القلب بأنه قابل لـ «التأليف مع القلوب الأخرى»[٦] ولـ «التطهير»[٧] ولـ«الإصغـاء = الاستماع والاستجابة للحق»[٨] وقـابـل لـ«الامتحان»[٩].

ومن صفات **الشر** التى يمكن أن تصيب القلب، كما جـاءت فى القرآن الكريم؛ **إمكانيـة اتصافه** بـ«الغلظة»[١٠] و«الغفلة»[١١] و«الغيظ»[١٢] و«القسوة»[١٣] و«الغل»[١٤] و«الارتياب»[١٥] و«النفاق»[١٦] و«إنكـار الحق»[١٧] و«اللهو»[١٨] و«التعصب»[١٩]

---

(١) ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ... ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح].

(٢) ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد].

(٣) ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد].

(٤) ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن].

(٥) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنفال].

(٦) ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران].

(٧) ﴿ ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

(٨) ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ... ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم].

(٩) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات].

(١٠) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

(١١) ﴿ ... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف].

(١٢) ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة].

(١٣) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة].

(١٤) ﴿ ... وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

(١٥) ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة].

(١٦) ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة].

(١٧) ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النحل].

(١٨) ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء].

(١٩) ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح].

و«التشتت»[1]. وفى مجال الشر أيضًا يصف القرآن الكريم بعض القلوب بأنها قابلة لـ«المرض»[2] و«الزيغ عن الحق»[3] و«تقبل الضلال والتمسك به»[4] و«اكتساب الإثم»[5] و«الارتعاب من الحق»[6] و«الاشمئزاز من الحق»[7] و«اكتساب المعاصى»[8] و«تعمد الخطأ»[9] و«الانشغال عن الحق»[10] و«الغرق = غمرة»[11] و«الحَجْب = الرين والختم والأكِنة»[12] و«التكبر والتجبر»[13].

وتنقسم الوظائف العقلية المنطقية التى ينسب القرآن الكريم إلى القلب القيام بها، إلى ما هو «خير» وما هو «شر». ومن أمثلة ما هو خير؛ «تَقَبُّل الوحى»[14] و «التفقه»[15] و «عقل

---

(١) ﴿... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

(٢) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

(٣) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

(٤) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء]، ﴿...رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس].

(٥) ﴿...وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة].

(٦) ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ... ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران].

(٧) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ... ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

(٨) ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة].

(٩) ﴿...وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب].

(١٠) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون].

(١١) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون].

(١٢) ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ... ﴿٥﴾﴾ [فصلت].

(١٣) ﴿...كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر].

(١٤) ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة].

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

الأمور»[1] «والتدبر»[2] و«التذكر»[3] و«محل النية: الحسنة والسيئة»[4]. ومن أمثلة **الوظائف العقلية السيئة**؛ «العمى عن الحق»[5] و«التمرد على الحق»[6] و«الاجتماع على الباطل»[7] و«تبييت الباطل»[8].

سبحان الله، أيقوم القلب بكل هذه المهام، فى المجالات العاطفية والعقلية المنطقية، الخيِّر منها والشرير؟ **أكاد أجده مسئول عن سلوك الإنسان كله**، ذلك السلوك الذى يدخله الجنة أو يورده المهالك. والغريب ـ بعد ذلك ـ معظم المهتمين بدراسة الذات الإنسانية، سواء من الأقدمين أو المعاصرين، يسقطونه من تصنيفاتهم، ولا يعدونه عنصرًا من عناصر الذات الإنسانية!

أقسام القلوب

تبعًا للصفات التى ذكرها القرآن الكريم، والتى طرحنا فيما سبق أمثلة منها، **يمكن تقسيم القلوب إلى أربعة أنواع:**

١ - قلوب المؤمنين:

جاء وصف قلوب المؤمنين فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة بصفات عديدة، مدخلها **الطُّهر، فشهادة التوحيد** تطهر القلوب من رجس الوثنية ومن دَنَس الشرك، فإذا أقرت القلوب بالإيمان بـ«لا إله إلا الله، محمد رسول الله» كان فى ذلك حياتها ونورها، فإذا قام العبد **بالطاعات صُب فى قلبه أنوارها، فازداد لينًا، وخشوعًا، وإخباتًا، ووجلًا لله رب العالمين.**

---

(١) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

(٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

(٣) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق].

(٤) ﴿ ... وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الأحزاب].

(٥) ﴿ ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

(٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال].

(٧) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة].

(٨) ﴿ ... وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران].

٢ - قلوب الكفار والمنافقين:

وهذه القلوب تتدرج فى الضلال، حتى تصبح قلوبًا «**أقسى من الصخر**»، وذلك لمرضها وبُعدها عن الإيمان، وسيرها فى طريق الضلال. ومن هذه المراحل أن تصبح القلوب «**فى غمرة**»[١]، كأنها غرقت فى بحار اللهو، والغفلة، والحيرة، والضلال. فإذا امتلأت هذه القلوب بالظلام طفح ذلك على خارجها، وتبدأ آثار ذلك بـ«**الرين**»، فإذا ازداد، «**طبع**» الله عليها، فصارت «**فى غلاف مختوم**». ثم جاء وصف «**الأكنة**» وهى الحجب الكثيفة الحائلة بين القلب وبين الهدى، وهذه الصفات تدل على أن مرض هذه القلوب **صار خطيرًا لا شفاء له**، فالظلام عم القلب داخله وخارجه، مما يُسلمه إلى الوصف التالى:

٣ - القلب الميت:

وكما أن الأجسام تمرض وتموت، فكذلك القلوب، **تمرض بالجهل وتموت بالكفر والنفاق**، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم]. **والقلوب الميتة تعمى عن رؤية الحق**: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] **هذا من ناحية الاعتقاد، أما من ناحية التعامل مع الدنيا**، فالقلب الميت واقف عند شهواته تملكته الدنيا فأصبح أسيرًا لها، استذله الهوى فصار عبدًا له، واحتنكه الشيطان فصار له تابعًا وخادمًا، واتخذه وليًّا ونصيرًا، **فهو عابد لشيطانه فى الحقيقة**.

وعن القلوب الميتة **يقول صاحب الحِكَم**[٢]: **موت القلب سببه ثلاثة أشياء**: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح فى معاصى الله. **وعلامة موته ثلاثة أشياء**: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فُعِل من الزلات، وصحبة الغافلين الأموات. **وسبب حياة القلب ثلاثة أشياء**: الزهد فى الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.

٤ - القلب المريض:

قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ... ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة].

(١) الغمرة هى الماء الكثير المُغرِق.
(٢) ابن عطاء الله السكندرى، صاحب الحكم العطائية.

ويصف حذيفة بن اليمان ﷺ القلب المريض بأنه: «**قلب تمده مادتان، مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لِما غلب عليه منها**». ويشرح ابن القيم ﷺ هذا الوصف قائلًا: «ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به والإخلاص فى تحصيلها، كما أن فيه من الحسد، والكِبر، والعُجْب، وحب العلو، والفساد فى الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه. لذلك فهو ممتَحَن بين داعيين، **داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة**، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا، فهذا القلب إما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى»[1].

هل القلب مجرد مضخة للدم؟

ما ذكرناه من وظائف معرفية وشعورية وإيمانية للقلب (منها ما هو خير ومنها ما هو شر) إنما هو نماذج من كثيرٍ ورد فى القرآن الكريم. وهى فى نفس الوقت تمثل كمًّا كبيرًا من **الوظائف العليا التى اعتدنا أن ننسبها إلى المخ فقط**، فهل كلمة العلم حاسمة فى أن القلب لا يشارك فى هذه المهام، **أم أن هناك جديدًا فى هذا المجال**؟

نجيب عن هذا السؤال المهم، بأنه خلال الربع الأخير من القرن العشرين حدث **انفجار معرفى فى علوم القلب، فقد توالت الاكتشافات التى أظهرت أن القلب ليس مجرد مضخة للدم وفقط، بل إنه يشارك فى نشاطات الإنسان المعرفية والشعورية**. ويتم ذلك من خلال التأثير على قيام المخ بتلك المهام، أى أن علاقة القلب بالمخ ليست علاقة العبد بالسَيِّد، بل **إن السيادة بينهما تبادلية**، هذا بالإضافة إلى دور يمارسه القلب **بصورة مباشرة مستقلة عن المخ**. ويمارس القلب مهامه تلك من خلال **أربع آليات**: كهرومغناطيسية، وعصبية، وكيميائية (هورمونات)، وميكانيكية[2].

وبالرغم من صدور العديد من الدراسات حول هذا الموضوع من عدد من المراكز والشخصيات العلمية المحترمة، فإن ما تجمع حتى الآن هو **شواهد** تفتح الباب أمام تقبل فكرة وجود دور للقلب فى المهام المعرفية والشعورية والإيمانية. **ولا شك أن المجال ما زال مفتوحًا للمزيد من الأبحاث قبل وضع منظومة علمية متكاملة حول هذا الموضوع**.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية.

(٢) لتفاصيل هذا الأمر وأدلته العلمية، راجع كتاب «رحلة عقل» الطبعة السادسة ـ للمؤلف، الفصل السادس ـ مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٣.

الــروح[1] ...

الروح أشرف **عناصر الذات الإنسانية وأزكاها**، وهى **خصوصية الإنسان** التى يتميز بها على جميع الكائنات. وقد **فتح نفخ الروح للإنسان المجالات العلوية**، فأصبح قادرًا على التعامل مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفن، **لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيدًا عالميًّا كونيًّا أبديًّا**. وفى ذلك يخاطب الحق ﷻ ملائكته قائلًا: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الحجر]، وبهذه الخصوصية استحق الإنسان الخلافة من الله ﷻ فى الأرض. وقد أدرَكَت خصوصية الروح جميع الديانات والحضارات اللامادية حتى اعتقد الكثيرون أنها هى (وحدها) جوهر الإنسان.

وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا

إن قول الحق ﷻ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] لا يعنى النهى عن التفكر والبحث فى الروح وماهيتها، لكن الآية تشير إلى أننا لن نصل إلا إلى القليل عنها، وقد فهم الكثير من العلماء هذا المعنى، فأفردوا كتبًا للحديث عن الروح، وربما كان من أشهرها كتاب «الروح» لابن قيم الجوزية. وسنعرض الآن ما فى أيدينا من هذا القليل:

أولًا: لا شك أن أى **تعريف للروح** سيكون قاصرًا وعاجزًا عن نقل تصور كامل عنها للإنسان، لذلك نكتفى بالقول إن **الروح مَلَكَة لا مادية، تتعلق بجسم الإنسان بأسلوب يختلف من حين لآخر، وهى باقية خالدة بعد موت الجسد.**

والدليل على **بقاء الروح بعد الموت**، قول الحق ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[الأنعام].

أى أننا مردودون إلى الله ﷻ بعد موت الجسد.

---

(١) أُطلق لفظ الروح فى المقام الأول على النفخة الإلهية فى آدم ثم فى الجنين، ثم أُطلق بعد ذلك بأربعة معان أخرى؛ فهو جبريل عليه السلام، وهو الوحى أو القرآن، وهو آية من آيات الله فى خلقه، وهو رحمة الله ﷻ.
وأشير هنا إلى ما ذكرته فى نهاية حديثى عن الجسد، من أن الروح **ليست هى مصدر الحياة**، ولكن الحياة ظاهرة بيولوجية تشترك فيها جميع الكائنات الحية.

ويرى الإمام الغزالى؛ أن معرفة **حقيقة الروح ممكنة** للخاصة من الأولياء والراسخين فى العلم، ويُحَرم على من له إلمام بشىء من ذلك التصريح به لغير أهله.

ثانيًا: استشهد **الفلاسفة المسلمون القائلون بوحدة الوجود** على مفاهيمهم (الخاطئة) بقول الحق ﷻ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ... ﴿٧٢﴾﴾ [ص]، ويعتبرون أن إضافة الروح إلى الله ﷻ «روحى» تعنى أنها جزء من ذات الله (حاشا لله). ولدفع هذا الرأى نقول: إن الإضافة نوعان؛ **إضافة صفات لا تقوم بنفسها**، كأن أقول علمى وكلامى وسمعى ويدى، وهذا المعنى ننكره فى هذا الموضع، والإضافة الأخرى **إضافة أعيان منفصلة**، كأن أقول بيتى ورسولى، وهذه هى الإضافة المقصودة فى «روحى»، والغرض منها التخصيص والتشريف والتكريم. ومن هذا نستنتج أن الروح ليست قديمة أزلية، فلا قديم أزلى إلا الله، لكنها **مخلوقة حادثة**، فـ﴿... ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد].

ثالثًا: عن **أوان نفخ الروح فى الإنسان**، يقول الحق ﷻ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، معنى ذلك أن نفخ الروح يتم بعد مرحلة معينة من نشأة جسد الجنين. ومن هذه الآيات نفهم أن الإنسان يكون **مشابهًا للثدييات فى أطوار مبكرة من نشأته**، إلا أنه فى مرحلة معينة، يختلف عنها ويصبح كائنًا متميزًا (خلقًا آخر)، نتيجة لنفخة الروح التى تتم بعد انقضاء أربعة أشهر من حياتنا الجنينية، كما جاء عن رسول الله ﷺ[1].

لذلك يرى الكثيرون من الفقهاء أن الجنين قبل تمام الأربعة أشهر الأولى فى الرحم لا يكون بشرًا، وإذا سقط ومات لا يُصلى عليه ولا يُطلق عليه اسم. أما بعد نفخ الروح فيكون بشرًا، وإذا أُجهض ومات يُطلق عليه اسم ويُصلى عليه قبل دفنه، لأنه سيُبعث يوم القيامة.

رابعًا: تختلف الآراء حول **تعلق الروح بالجسم** إلى مجموعتين، الأولى ترى أن الروح «**متحيزة**» فى الجسم، تجرى من الخلايا مجرى الدم. وترى المجموعة الأخرى أن الروح «**غير متحيزة**»، لكنها تتواصل مع الجسم كما تتواصل الشمس بأشعتها مع الأرض.

---

(١) فى صحيح البخارى ومسلم، حديث رواه زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكًا، يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...».

وسواء كانت الروح متحيزة أو غير متحيزة، فإن لها تعلق بالجسم يختلف من حين لآخر، **على ست هيئات فى فترات متتالية:**

١ - يبدأ **تعلق الروح بالجنين** منذ نهاية الشهر الرابع من الحمل، كما ذكرنا.

٢ - **تعلق الروح بالجسد بعد الولادة**، وهو تعلق أتم وأكمل من تعلقها بالجنين، وتتواصل الروح مع الوجود عن طريق الجسم، وعن طريقه تتعلم طوال حياته الدنيوية.

٣ - **تعلق الروح بالجسد أثناء النوم**: عند النوم تفارق الروح الجسد (بشكل ما)، وتُرد إليه (بشكل ما) عند الاستيقاظ. ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ...﴿٤٢﴾﴾ [الزمر](١).

٤ - **تعلق الروح بالجسد بعد الوفاة**: تظل الروح متعلقة بالجسد بدرجة ما وبشكل لا يعلمه إلا الله ﷻ.(٢)

٥ - **تعلق الروح بالجسد عند البعث**: عندما يبعث الله تعالى الأجساد التى فى القبور، تنطلق كُلُّ روح إلى جسدها وتتعلق به. والإنسان فى آخرته يجادل عن نفسه، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت روحه ونفسه وعقله على اتصال وثيق بجسده وقت البعث والحساب، انظر إلى قول الله ﷻ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

٦ - والصواب أن **الروح ترافق صاحبها فى الجنة**، إن كان من أهل الجنة، **ولا ترافقه فى النار إذا كان من أهل النار.**

خامسًا: إذا كنا نتلاقى مع مَن نُحب ـ ومع مَن نكره ـ فى هذه الدنيا، بالأجساد والأرواح، **فهل تتلاقى الأرواح إذا فارقت الأجساد؟**

---

(١) للمزيد عن علاقة الروح بالجسد أثناء النوم، انظر الفصل التالى بعنوان «أنا... والموت».

(٢) يُستدل على ذلك بحديث صحيح مسلم فى قتلى بدر من المشركين حين كلمهم رسول الله ﷺ قبل دفنهم فى القليب وقال لهم: «هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًا، فإني قد وجدت ما وعدنى الله حقًا» فقال له عمر: كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها، فقال ﷺ «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا عَلَيَّ شيئًا». كما ورد عن رسول الله ﷺ «أن الميت يسمع وقع أقدام مشيعيه»، عن حديث رواه الإمام مسلم.

١ - **تلاقى أرواح الموتى**: ذكر الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه «الروح»، أن أرواح الموتى **تتلاقى وتتزاور وتتذاكر**. وقيل للنبى ﷺ: ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا. فإنك إذا مِتَّ، رُفِعْتَ فوقنا فلا نراك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

٢ - **تلاقى أرواح الأموات وأرواح الأحياء**: أخبر الله تعالى عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وأنهم يستبشرون بما ينقله لهم من لم يلحقوا بهم (نقلًا عن رسول الله ﷺ) من أنه لا خوف عليهم ولا حَزَن. وذلك يعنى أن **أرواح الأموات تتلاقى مع أرواح الأحياء**، وغالبًا ما يكون ذلك عند نوم الأحياء ومفارقة أرواحهم لأجسادهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران].

كذلك تُعتبر **الرؤى الصادقة** من أدلة التقاء أرواح الأحياء والأموات فى المنام، فيسأل الحىُّ الميتَ، فيخبره بما لا يعلم. والرؤى الصادقة أقسام، منها إلهام يلقيه الله تعالى فى قلب العبد فى المنام، ومنها التقاء روح النائم بأرواح الموتى أو الأحياء من أهله ومن غيرهم. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث الصحيحة التى تتعلق بالرؤى والأحلام.

سادسًا: إذا كان النفى أحد وسائل المعرفة، نشير إلى بعض **المفاهيم الخاطئة عن الروح**، والتى ذكرها أبو النصر السراج الطوسى[1] فى كتابه «اللُمع»، عسى أن تقربنا من إدراك الحقيقة:

«**وقد غلط أقوام وتاهوا فى الحديث عن الروح**؛

فقوم قالوا: الروح نور من نور الله، فتوهموا أنه نور ذاته فهلكوا.

وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة، وروح القدس من ذات الله تعالى.

وقوم قالوا: أرواح العامة مخلوقة، وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة.

(١) اللُمع لأبى النصر السراج الطوسى (٥٥٤ ـ ٥٥٥ هـ)، أعد الكتاب الإمام الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله. وفى مقدمة الكتاب، يصف الدكتور عبد الحليم محمود السراج الطوسى بأنه: أعظم مؤلف صوفى فى تاريخ التصوف.

وقوم قالوا: الأرواح قديمة، إنها لا تموت ولا تعذب ولا تبلى.

وقوم قالوا: الأرواح تتناسخ من جسم إلى جسم.

وقوم قالوا: الروح خَلق من النور.

وقوم قالوا: الروح روحانية خُلقت فى الملكوت، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت.

وقال آخرون: الروح روحان: روح لاهوتيه، وروح ناسوتيه».

ثم يضيف الطوسى، «والذى عليه أهل الحق ـ والله أعلم ـ **أن الأرواح مخلوقة، وهى أمر من أمر الله، ليس بينها وبينه تعالى سبب ولا نِسبة، غير أنها من ملكه وطوعه وقبضته، غير متناسخة، ولا تخرج من جسم فتدخل غيره، وتذوق الموت كما يذوق البدن، وتنعم بتنعيم البدن، وتُعذب بعذابه، وتُحشر فى الجسد الذى تخرج منه**».

النفس . . .

النفس عنصر من عناصر الذات الإنسانية الخمسة، ولا يخلو فيلسوف من كلام عنها، لأنها **أقرب الأشياء إلينا، ومع ذلك فهى شديدة الغموض**. وقد اختلف الفلاسفة هل النفس من قوى العقل، أم أن العقل من قواها. واختلفوا؛ هل النفس هى الروح أم أنها جوهر قائم بذاته، واختلفوا.... واختلفوا... واختلفوا...

والنفس فى القرآن الكريم **وجود غير مادى**. وإذا كانت **أسرارها من الغيبيات**، فإن القرآن الكريم يخبرنا الكثير عن دورها وكيفية التعامل معها فى ٢٩٥ موضعًا، فكان لها نصيب من الذِكر أكبر من الروح بكثير. وبالرغم من ذلك، **تتباين آراء علماء الدين** ـ مثل الفلاسفة ـ حول النفس تباينًا كبيرًا؛ لذلك سنركز هنا على الخطوط العريضة حولها، وعلى من يبغى المزيد الرجوع إلى الكتب المتخصصة.

النفس والروح؛ ثنائية أم واحدية؟

يشير القرآن الكريم (والأحاديث النبوية الصحيحة) إلى النفس بمعنيين؛ **الإنسان ذاته**، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة]، والمعنى الثانى ـ وهو المقصود فى هذا المبحث ـ أن النفس أحد

المكونات الخمس للذات الإنسانية. وفى هذا المعنى انقسم العلماء إلى قسمين رئيسيين؛ يرى أحدهما أن النفس هى الروح بعد أن نُفِخَت فى الجسد، فاكتسبت صفات أخرى ودورًا آخر. ومن أوائل من تبنوا هذا الطرح الفقيه المالكى والعالِم اللغوى «أبو قاسم السُهيلى»(١). فهو يرى أن الروح عندما لابست البدن صارت نفسًا، أى صارت جوهرًا آخر، وصارت قابلة للمدح والذم، بخلاف الروح التى هى خير مطلق. ويُشَبِّه الإمام السهيلى تحول الروح إلى نفس بالماء، إذا سُقِيَ به نبات العنب صار عصيرًا للعنب، يتفق مع الماء فى أوجه، ويخالفه فى أوجه. لذلك **فالروح تسمى نفسًا (مجازًا) باعتبار ما ستؤول إليه، والنفس تُسمى روحًا (مجازًا) باعتبار ما نشأت عنه.**

أما الرأى الثانى، فيرى أن **النفس جوهر مختلف عن الروح**، وأنها قد نُفخت فى الجسد عندما نُفخت الروح، كما أنها تفارقه مع مفارقة الروح. وتبعًا لهذا المفهوم تتحرك النفس بين قطبى الإنسان؛ سماء الروح وأرض البدن، أى أن **الروح والبدن مجالان تتحرك بينهما النفس** (والعقل أيضًا).

وتحتمل آيات القرآن الكريم الرأيين السابقين، **رأى السهيلى ونظرية المجالين**، ولكنها أكثر انسجامًا مع الرأى الأول، **فالقرآن الكريم ما أن يذكر الروح ونفخها فى البدن لا يعد يذكرها مرة أخرى، بل حديثه دائمًا عن النفس**. كذلك ليس هناك آية واحدة تذكر أن الروح تُقبَض، بل **القبض يقع دائمًا للنفس**، وما جاء فى بعض الأحاديث عن قبض الروح يخالفه القرآن الكريم.

وسواء كانت الروح والنفس ذواتا أصلين مختلفين من البداية، أو كان أصل النفس هو الروح بعد أن نفخت فى الجسم، فقد صار بينهما اختلافًا بَيِّنًا. **فالروح خير مطلق بينما قد تكون النفس أمارة بالسوء، وقد تسعد بلذات الدنيا بينما تسعد الروح وتتألق بالحرمان منها. وإذا كانت النفس هى مستودع مشاعر الإنسان ورغباته ودرجة إيمانه، فالروح هى سر حقيقة الإنسان ووعيه وخلوده**. وأخيرًا، إذا كانت **النفس تُحاسَب وتُجازَىَ يوم القيامة**، فالروح لا تحاسب ولا تجازى، فهى خير محض.

وإذا أردنا أن نحدد الدور الأساسى للنفس تجاه منظومة الذات الإنسانية، لخصنا ذلك فى جملة قصيرة، وهى أن:

---

(١) طرح هذا الفهم فى كتابه «نتائج الفكر»، قبل ابن القيم بثلاثمائة سنة، ونقله عنه ابن كثير، ويتبنى هذا الرأى الإمام الشيخ الشعراوى.

النفس محل التكليف والاختيار

قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿ ...لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ... ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]، **فالنفس هى محل التكليف الذى لا يكون إلا على قدر ما آتاها الله من الوسع ومن العطاء**. ولما كانت النفس هى المُكَلَّفَة صارت **المسئولة عن تصرفات الإنسان من أقوال وأفعال**، وعلى قدر ما كسبت واكتسبت يكون الثواب والعقاب، كما تشير إلى ذلك الآيات المباركات: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ... ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر]، ﴿ ... وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[آل عمران].

إن الإنسان إذا عرف نفسه، وأدرك قدرها، فقد حاز الخير كله، وإذا غفل عن حقيقتها، فقد ظلمها، وأوردها موارد التهلكة، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات]، ﴿ ... فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ... ﴿١٠٨﴾ ﴾[يونس].

ثم إن من اهتدى إلى صفات نفسه من العبودية، وسلك بها لمعرفة كمالات الربوبية، وَجَّه الله ﷻ نعمه إليه. فإذا علم الإنسان أنه متصف بالفقر وشدة الحاجة، أدرك أن الله تبارك وتعالى غنى عن العالمين. ومن علم أنه متصف بالضعف وقلة الحيلة، أدرك أن الله هو القوى وأن جميع خلقه مفتقر إليه. ومن كانت صفته الذل أيقن أن العزة لله وحده ولرسوله وللمؤمنين. ومن كانت صفته الخوف علم أن الأمن عند الله، وأن الطمأنينة والسكينة فى تمام العبودية لله. ومن أدرك أن الفناء سيلحقه، أيقن أن الباقى هو الله وحده. وبذلك صار: **«من عَرِفَ نفسه عَرِفَ ربه»، فمن اهتدى فإنما يهتدى لصفات نفسه ومعرفة ربه، ومن ضل فإنما يضل عن نفسه وعلى نفسه، فيهوى بها فى الجحيم.**

علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية

إذا أردنا أن نضع تصورًا إسلاميًّا **لعلاقة النفس بباقى عناصر الذات الإنسانية،** وجدنا أن الدنيا قد مُلئت بالمتاع الذى تعددت صوره، وتوجهت إليه النفس. فالعين تشاهد وتراقب صور الجمال المرئى، والأذن تستقبل صور الجمال السمعى، وكذلك الذوق، واللمس، وحاسة الشم، **وتصب جميع هذه المشاهدات فى النفس فتنفعل بها وتتأثر، فيُنتِج ذلك «عزمًا» تبعًا لهوى**

النفس ورغباتها، وتمرره «كخاطر» إلى القلب. والقلب إما قلب سليم فى حضور مع الله وعلى ذكر وطهارة، أو قلب مُغَلَّف بآثار الذنوب وظلمات المعاصى. ويصل ما تجمع فى القلب من خواطر النفس إلى العقل، فإما يجد القلب عند العقل ما يعقل به النفس ويردها عن هواها، أو يجد تشجيعًا وتأييدًا لخاطر النفس، وتذليلًا للصعاب التى تعترض طريق المعصية، ومن هنا ينتقل العزم إلى مرحلة «إرادة» ثم «تنفيذ» الفعل، فتأتى الأوامر والتعليمات من العقل مطابِقة لما استقر عليه القلب.

وملخص ذلك أن الإنسان يعلو على جسده بنفسه ثم قلبه، ويعلو عليهما بعقله، ويعلو على عقله بروحه، وتظل هذه العناصر المكونة للذات الإنسانية الواحدة فى تدافع لا ينفصم أبدًا.

صور من معاصى النفس

ويبين القرآن الكريم، أن النفس تقترف العديد من المعاصى، ينجح العقل فى كبح بعضها، ولا ينجح مع البعض الآخر. وعقيدتنا أن الحسنة عطاء من الله، بينما النفس مصدر السيئات، وهى التى تكتسبها؛ قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ...(٧٩)﴾ [النساء]، وبالتالى يعود الوزر عليها؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ...(١١١)﴾ [النساء].

فالنفس هى محل الكبر والعتو؛ قال تعالى: ﴿... لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان]. والنفس محل الهوى والرغبات والشهوات؛ قال تعالى: ﴿... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ...(٢٣)﴾ [النجم]. لذلك فهى التى تسول لصاحبها المعاصى؛ قال تعالى: ﴿... وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦)﴾ [طه]. كذلك فهى أداة المراودة؛ قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ... (٢٣)﴾ [يوسف].

ومن أشد الآثام ظلم المرء لنفسه، والشرك أكبر الظلم؛ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ...(٣٥)﴾ [الكهف]. وتعدِى حدود الله من أكبر صور ظلم المرء لنفسه، قال تعالى: ﴿... وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ...(١)﴾ [الطلاق].

وكذلك نجد النفس شحيحة بخيلة؛ قال تعالى: ﴿... وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ...(٣٨)﴾ [محمد]، وقد جعل الله تبارك وتعالى النجاة فى توقى الشح؛ قال تعالى: ﴿...وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر].

أثر الطاعات على النفس

تعود كل أعمال الخير التي يتزكى بها المرء على نفسه؛ قال تعالى: ﴿...وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر]. كذلك فإن شكر الإنسان لنعم الله ﷻ يعود أثره على النفس، قال تعالى: ﴿...وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل].

وثواب الجهاد وأثره لا يعود على الأمة الإسلامية ككل ولا على عزة الأوطان فقط، وإنما يعود أيضًا على النفس، فللنصر ورفعة الإسلام حلاوة، ولهزيمة الباطل وذل أتباعه فرحة، كما أن للمجاهدين المكانة العليا والمنزلة السامية فى الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت].

وكأن المسلم قد اشترى جنة الله تعالى ببيعه نفسه وماله لله تعالى؛ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ...﴿١١١﴾﴾ [التوبة]، فالشكر، والجهاد فى سبيله، وتزكية النفس عن أدرانها، والإيثار، تجعل الإنسان يشرى[1] نفسه ابتغاء مرضات الله، ولذلك كان ثواب تلك الطاعات الجنة.

سُنة الله مع النفس البشرية

لم يترك الله تبارك وتعالى الإنسان منفردًا ضعيفًا مع نفسه تأمره بالسوء فيستجيب لها، بل لقد وضع فيه فطرة البحث عن الحق وأخذ عليه العهد بالإقرار بالربوبية، ثم عززه وأنار له الطريق، وأرسل له الأنبياء والمرسلين، يلقون الضوء على جوانب الحياة، حتى يأخذ الإنسان بأسباب نجاته، ولا يتوه فى شعب الضلال، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ...﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام].

كما بَيَّن الله تبارك وتعالى للإنسان ما يرتضيه لعودة المذنبين إلى عفوه وكرمه بعد إعراضهم عنه، فجعل التوبة والاستغفار من آكد الطاعات المقربة إليه والتى تفتح أبواب المغفرة والرحمة على عباده؛ فيقول عَزَّ مِن قائل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء]، كما لم يُقَنِّط الله ﷻ من أسرف على نفسه، ولم يرده عن بابه، ولم يطرده من جنانه، بل جعل له سبيلًا إلى مغفرته ورضوانه؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ

(١) يشرى بمعنى يبيع، أى عكس يشترى.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

عوالم ومراتب النفس

كتب **الإمام ابن قيم الجوزية** عن النفس، وقال: إن للنفس أربع دور، كل دار منها أعظم من التى قبلها:

الدار الأولى: الجنين فى بطن أمه.

الدار الثانية: الدار الدنيا، التى تكتسب فيها النفس الخير والشر، والسعادة والشقاء.

الدار الثالثة: دار البرزخ، وهى أوسع من دار الدنيا وأعظم.

الدار الرابعة: الدار التى لا دار بعدها، دار القرار والأجر، وهى الجنة أو النار.

والله تعالى ينقل النفس من هذه الدور، دارًا بعد دار، ولها فى كل دار حُكْم وشأن، غير شأن الدار الأخرى.

فالنفس فى **دار الحياة الدنيا**، تكتسب سبع صفات، تدخل فى صفة وتخرج من أخرى، تتدرج من مرتبة إلى مرتبة، أو قل سبعة أحوال، تخرج من حال وتدخل فى حال أخرى.. وهذه **الأحوال السبع**: الأمَّارة، واللوَّمة، والمُلهَمة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، والكاملة. أما فى **البرزخ** فليس للنفس هذه الأحوال والصفات. وأما **يوم القيامة** فتكون نفسًا مطمئنة أو راضية مرضية، وهى نفوس أصحاب الجنة، أو تكون نفسًا مجادِلة، تجادل عن نفسها، وهذه نفس أهل المعاصى.

وقد فَصَّل القرآن الكريم ثلاثًا من هذه المراتب، وهى:

١ - **النفس الأمارة بالسوء**: قال تعالى عنها: ﴿... إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ... ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]، وهى أرذل أنواع النفس، فهى تدفع صاحبها إلى الإضرار بالغير، والإفساد فى الأرض. وصاحب النفس الأمارة بالسوء إنسان صار **الشيطان له قرينًا**، يلهيها ويزين لها الخطأ، ويُكَرِّه لها الصواب، ويفرش لها طريق طاعة الله بالشوك، ويفرش لها طريق المعاصى بالورد، فصارت تطيعه ولا تعصى له أمرًا.

٢ - **النفس اللوامة**: قال تعالى عنها: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة]، وهى نفس أشرف من الأولى؛ لأنها تندم وتلوم صاحبها على ما صدر منه من المعاصى.

٣ - **النفس المطمئنة**: قال تعالى عنها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨﴾ [الفجر]، وهذه أشرف النفوس الثلاثة وأعلاها؛ لأنها صارت نفسًا مستقرة ثابتة على الحق، لا يخالجها شك؛ فقد استنارت بنور الإيمان، وتحلت بمكارم الأخلاق، وتخلت عن الأخلاق الذميمة. واطمئنان النفس يستمر ويزداد نورًا وأمنًا بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد]، ويصحب اطمئنان القلوب اطمئنان النفوس والعقول.

وذكر الإمام أبو حامد الغزالى، **أن للنفس الأمارة بالسوء أربعة ميول مختلفة**، تؤدى بالإنسان إلى اختلاف تصرفاته، واختلاف ردود أفعاله. وهذه الميول هى:

١ - نفس ذات ميول **عدوانية**، يميل صاحبها إلى العدوان على غيره.

٢ - نفس ذات ميول **بهيمية**، يميل صاحبها إلى إشباع غرائز بدنه الحسية البهيمية.

٣ - نفس ذات ميول **تَسَلُّطية**، يميل صاحبها إلى الكبرياء والغطرسة، وإلى حب الرياسة والتسلط على غيره.

٤ - نفس ذات ميول **شيطانية**، يميل صاحبها إلى كراهية غيره من الناس وبغضهم، دون سبب معقول يدعو إلى ذلك.. بل ويتمنى الإضرار بالغير.

وأصحاب تلك النفوس يثورون ويغضبون إذا لم يتحقق لهم مرادهم، ويهدأون ويستريحون إذا تحقق لهم ذلك.

ويرى **الإمام أبو حامد الغزالى** أن النفس البشرية **تتنقل بين الدرجات والأحوال**. فقد تسمو النفس الأمارة بالسوء، فتصير نفسًا مطمئنة حينًا، وقد تصير نفسًا لوامة حينًا، وقد تظل كما هى أمارة بالسوء، فالنفس البشرية لا تثبت على حال إلا إذا أراد الله تعالى لها الثبات.

القارئ الكريم

لعلك توافقنى (بعد تلك الرحلة) **أن فهم الذات الإنسانية لا يمكن أن يتم من خلال النظرات الجزئية للفرق المختلفة المهتمة بالإنسان**، فللماديين رؤية (تركز على الجسد) وللفلاسفة

رؤية (تركز على العقل) ولعلماء النفس رؤية، وللمهتمين بالدراسات الروحية رؤية. ولا شك أن **الطرح الحقيقى والشامل للذات الإنسانية هو طرح الله** ﷻ الذى لا تتوقف صلته بالذات عند إنشائها، بل يتابعها فى حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها.

ويَعتبر **حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى** أن حقيقة الذات الإنسانية هى فقط المُكَوِّن الغيبى، وأن الجسد دابتها وليس عنصرًا أساسيًّا فيها. كما يرى أن النفس والروح والعقل والقلب شىء واحد فى الحقيقة، يختلف بالاعتبار. فإذا نظرنا إلى حياة البدن فهى **الروح**، وإذا نظرنا إلى الشهوة فهى **النفس**، وإذا نظرنا باعتبار آلة الفكر فهى العقل، وإذا نظرنا إلى موضع المعرفة فهى **القلب**.

ولعلك ـ قارئى الكريم ـ قد استنتجت من قراءتك لهذا الفصل، نقاط اختلافنا (على قلة شأننا) مع طرح شيخنا وأستاذنا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى، وغيره من العلماء ممن يتبنون نفس الرأى.

فالإنسان ـ كما طرحنا ـ كائن حى عاقل مدرك، خالد أبدى، لا يفنيه الزمن. **وهو كائن ثنائى**، أنشأه الله ﷻ من **مُكَوِّن غير مادى** (الروح ـ النفس ـ العقل ـ القلب) **ومُكَوِّن مادى** (الجسد) دائم التجدد فى الدنيا، ثم يتجدد فى بداية الحياة الآخرة.

بذلك فالذات الإنسانية مكونة من خمسة عناصر أساسية، يختلف كل منها عن الآخر. فالنفس فيها النوازع النفسية، سواء كانت خيرًا أم شرًّا، وقد تكون نفسًا مطمئنة، أو نفسًا لوامة، أو نفسًا أمارة بالسوء.. وهى التى تفعل الخير وتفعل الشر، وهى التى تُحَاسَب. **والقلب**، قريب من النفس فى تباين نزعاته وأحواله؛ وإن كان للنفس أشواق ليست للقلب، كذلك نُسبت للقلب فى القرآن الكريم صفات تُعجز عن الحصر ولا تتصف بها النفس.

أما **العقـل**، فهو الذى يوجه النفس، ويجعلها تختار بين البدائل، وتتعرف على الخير والشر، والحلال والحرام. فالعقل هو مناط التكليف فى الإنسان، ولولاه ما كان الإنسان مكلفًا بل صار مثل الدواب. أما **الروح** فهى الخير المطلق لا تخضع للمحاسبة والجزاء، وهى سر الخلود.

ويمكن تلخيص نظرتنا للعلاقة بين هذه العناصر الخمس للذات الإنسانية، فى أن **جوهر الذات الإنسانية هو النفس، وأن الروح والعقل والقلب هى قوى النفس اللامادية، وأن الجسد هو قواها المادية.**

ونختتم طرحنا هنا برأى طريف لبعض الحكماء؛ فهم يرون أن **للإنسان خمسة أعمار**؛ الأول «**عُمر الميلاد**» كما يحدده تاريخ ميلاد الإنسان. والثانى «**عُمر الجسم**» تبعًا للحالة الصحية لمختلف أعضائه، فرُب شخص عمر ميلاده ستون عامًا أما حالته الصحية فتعادل حالة رجل فى الأربعينيات. والعمر الثالث هو «**عُمر العقل**» ويحدده ما اكتسبه الإنسان من خبرة ومعرفة وحكمة فى حياته. ثم «**عمر القلب**»، ويتوقف على إقبال الشخص على الحياة وما يعتمل فى قلبه من مشاعر، حتى قالوا الشباب شباب القلب.

وأخيرًا يأتى «**عُمر الروح**» الذى لا يتقدم بتقدم الأعمار السابقة، فالروح خالدة لا يؤثر فيها مرور السنين، بل تزداد تألقًا بمرور الوقت وتَقَدُّم العناصر الثلاثة السابقة فى العمر، إذ بتقدم عمر الميلاد تضعف هذه العناصر التى تمثل حُجُبًا على الروح.

وبهذا يصبح لكل عنصر من عناصر الذات الإنسانية عمره الخاص به.

* * *

الفصل العاشر

أنـــا .. والمـــوت

- مفهوم الموت فى الحضارات الإنسانية
- الطب والموت
  - مستويات موت المخ
  - حقيقة الحياة بعد موت المخ
  - التوصيف الطبى لمراحل الموت
- الدين والموت
  - الحياة غير الروح
  - حياة الإنسان بالمنظور الدينى
  - موت الإنسان بالمنظور الدينى
  - الفرق بين الوفاة والموت
- أعلنونى مَيْتًا
  - رأى الإسلام بخصوص موت المخ
- تأملاتى مع الموت
  - حقيقة الموت
- أنا بعد الموت
  - الحياة فى البرزخ
  - أنا فى الحياة الأخرى
- طبيعتى فى الجنة
- القارئ الكريم

لا شك أن الموتَ حق[1]، وأنه مصير كل حى ولو كان رسولًا أو مَلَكًا مقرَّبًا، وهو يصرع الجبابرة بنفس السهولة التى يصرع بها الأقزام، ويقهر المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء بسواء. وإذا حضرت ساعة الموت فلا دافع لها، ولا رجعة إلى الحياة من بعدها، ولا يمكن لمخلوق - أيًّا كان - أن يُقَدِّم لحظة الموت أو يؤخرها عما قدره الله لها: ﴿... فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل].

وقد كان الرسول ﷺ يحض دائمًا على ذكر الموت؛ «أكثروا ذكر هازم اللذات»[2]، ذلك لأن المؤمن الذى يرقب الموت تكون أعماله نقية طاهرة؛ لأنه يعلم أنه مُقبل على الله تعالى لا مَحالة، وأن الله يرصد أعماله ويحصيها عليه. ولكن ينبغى أن ندرك أن ذكر الموت والاستعداد له لا يتعارض مع الدعوة إلى عمارة الكون ودفع عجلة الحياة، فعن الرسول ﷺ أنه قال: «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[3].

وينظر العلم المادى إلى الإنسان باعتباره جسدًا تدب فيه الحياة، التى هى ظاهرة بيولوجية صِرْفة. كما يفسر العلم إدراكنا لذواتنا الإنسانية، وجميع ما تقوم به هذه الذوات من مهام، بأنه راجع لنشاط أمخاخنا المادية فقط، ولا يشارك فيها عنصر غيبى (الذى هو الروح عند المتدينين).

أما المنظور الدينى، فيرى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق جسد آدم من عنصر مادى هو مادة الأرض، ثم سَوَّاه؛ أى أمده بالإمكانات الجسدية التى تؤهله لنفخ الروح فيه ليتحمل الأمانة، وأهم هذه المؤهلات هو المخ المتطور الذى يُظهر أهم أثر من آثار نفخ الروح فى الإنسان وهو العقل المفكر الذى يعَمرُ الأرض، ويتعرف على الله سبحانه وتعالى.

---

(١) مراجع هذا الفصل: كتاب «الوفاة الإكلينيكية وعلاقتها بخروج الروح» للأستاذ د.صلاح الدين سند، أستاذ أمراض النساء والتوليد، بكلية الطب، جامعة القاهرة.
كتاب «رحلة فى الملكوت» للأستاذ د.عماد الشربينى (رحمه الله) عميد كلية الحقوق ونائب رئيس جامعة طنطا سابقًا.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى وصححه الألبانى.

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد.

مفهوم الموت فى الحضارات الإنسانية

رغم أن الناس يعرفون الموت والحياة بالمعايشة والمشاهدة، إلا أن تعريف الموت ـ مثل تعريف الحياة ـ يكتنفه كثير من الصعوبات. مع ذلك فقد اتفقت **جميع الحضارات الإنسانية** بما فيها المصرية القديمة والبابلية والآشورية والصينية والهندية واليونانية، وكذلك **الديانات السماوية الثلاث**: اليهودية والمسيحية والإسلام، فى أن الموت يصحبه مفارقة الروح للجسد.

وقبل تطور الحضارات الإنسانية كان **الإنسان البدائى** مقتنعًا بأن لكل كائن حى حياة أخرى دفينة فى جوفه تنفصل عن الجسد عند الموت أو النوم، وقد عزز تلك الفكرة أنه رأى فى منامه بعضًا ممن ماتو. وكان الإنسان البدائى يخشى أن تعود روح الميت وتصب لعنتها عليه، فكان يدفن مع الميت سائر حاجاته وألوان الطعام، أو يُترك للميت الدار التى مات فيها، وينتقل هو إلى دار أخرى. وكان بعضُهم يُخرِج الجثة من خلال فتحة يُحدِثها فى الجدار، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة لكى تنسى الروح موضع مدخل الدار فلا تعاودها أبدًا.

وجاء فى بعض **كتب الهند القديمة**: «لا يُوقَظَنَّ نائمٌ إيقاظًا مفاجئًا؛ حتى لا تضل الروح طريقها إلى جسدها». وذلك يدل على أنهم اعتقدوا فى مغادرة الروح للجسد عند النوم كما تغادره عند الموت.

ويعتقد **الهنادكة**(١) **والبوذيون**(٢) **والشنتو**(٣) أن الروح تظل حبيسة فى الجمجمة عند الموت، وأنها لا تنطلق إلا بعد حرق الجثة وانفجار الجمجمة، ويساعد اللهبُ المتصاعد الروحَ التى تتحرر على الصعود لأعلى. ثم إن الهنادكة والبوذيين يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن الروح الشريرة تُعاد فى جسد حقير مثل الكلب والخنزير، وتظل فى تلك الدورات حتى تتطهر، بينما تتنقل الروح الصالحة فى الأجساد الخيرة. وتصل الروح إلى السعادة الأبدية المطلقة، بالتحاقها بالروح الكلى (الإله) كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط، وهى ما يطلِقون عليها حالة «النيرفانا».

---

(١) الهندوسية، ديانة يعتنقها قرابة مليار إنسان، يعيش معظمهم فى شبه القارة الهندية.
(٢) البوذية، هى وسط بين الدين والفلسفة، وتنتشر فى الصين وبورما وتايلاند، ونيبال والتبت وسيلان.
(٣) الشنتوية، ديانة اليابان، وتقدس قوى الطبيعة والوطن والإمبراطور والأبطال القوميين.

وإذا كانت الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة قد اتفقت على مغادرة الروح للجسد عند الموت، فقد اختلفت اختلافات شتى فى كيفية **خروج الروح وخلوصها من الجسد**، وهل تعود إلى هذا الجسد أم تعود إلى جسد آخر؟

أما الملحدون بشكل عام فيعتقدون أن الموت يؤدى إلى فناء الجسد والنفس، ويؤمن بعض فلاسفتهم بـ«فلسفة التلاشى» التى تعتبر النفس مؤلفة من ذرات شأنها شأن الجسد، وعند الموت وبعد تحرر النفس من الجسد فإن كليهما يفسد، وتنحل وتتبعثر ذراتهما ضمن الدورة الشاملة الكبرى للطبيعة؛ أى أن النفس تتبدد عند الموت.

الطب والموت

نحتاج قبل طرح نظرة الإسلام إلى الموت أن نتعرف عليه من وجهة النظر الطبية، ونمهد لذلك **بوقفة مع علم الفسيولوجيا**، المختص بدراسة وظائف أعضاء جسم الإنسان:

يحتوى جسم الإنسان على عدد من الأجهزة تُعرف **بالأجهزة الحيوية**، التى إذا توقف أحدُها عن العمل مات الإنسان خلال دقائق قليلة. وأهم هذه الأجهزة ثلاثة، وهى:

١ - **الجهاز التنفسى**، الذى يستخلص من الهواء المحيط بنا الأكسجين اللازم لحرق الغذاء، لإمداد أنسجة الجسم وخلاياه بالطاقة الضرورية للحياة.

٢ - **القلب**، الذى يضخُ الدمَ لتوصيل الأكسجين والغذاء اللازمين لحياة جميع أعضاء الجسم.

٣ - **المخ**، الذى يعطى الأوامر لحدوث التنفس وتنظيم خفقان القلب، بالإضافة لوظائفه العضوية والعقلية والنفسية الأخرى.

لذلك:

أ) إذا توقف التنفس، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ والقلب).

ب) إذا توقف القلب، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ وعضلات التنفس).

جـ) إذا توقف المخ، يتوقف التنفس، ويضطرب عمل القلب، ثم يتوقف.

من ذلك نرى أن حياة جسد الإنسان تعتمد على هذه الأجهزة الثلاثة الحيوية (الحياتية) الأساسية التى **تعمل بطريقة تكاملية**. لذلك يؤدى توقف الحياة فى أى منها إلى توقف الحياة

فى الجهازين الآخرين، وبالتالى موت الجسم ككل. ويمكن تشبيه علاقة هذه الأجهزة الثلاثة بحياة الإنسان بكرسى ذى ثلاثة أرجل، إذا كُسرت إحداها سقط الكرسى.

وفى أثناء **عمليات القلب المفتوح**، يُوقَف القلب لمدة ساعتين أو أكثر، ولا يعنى ذلك أن الشخص قد مات؛ فوظيفة القلب تقوم بها مضخة تضخ الدم فى جهاز يقوم بوظيفة الرئة. ثم يُعاد الدم إلى الجسم، وبالرغم من توقف القلب والتنفس فإن هذا الشخص حى بكل تأكيد.

مستويات موت المخ

يُفَرِّق الطب بين موت الأجزاء المختلفة للمخ(1) كالآتى:

١ - موت القشرة المخية، مع بقاء جذع المخ سليمًا(2): Cerebral Death

يؤدى ذلك إلى غيبوبة تامة، ولكن يظل الإنسان يتنفس وقلبه ينبض، ويستطيع أن يفتح ويُغمض عينيه ويحرك عضلات وجهه كرد فعل انعكاسى للمؤثرات المختلفة، كما يستطيع أن يبتلع الطعام. وهذه الحالة **لا يعتبرها الأطباء موتًا للإنسان**؛ لأنه يتنفس بدون أجهزة صناعية، وقلبه ينبض بدون الاعتماد على العقاقير. وقد **أفاقت بعضُ الحالات** من هذه الغيبوبة بعد فترات قصُرَت أو طالت. ويعيش الإنسان إذا أفاق **بعجز مستديم** حسب المراكز المخية التى ماتت؛ مثل الشلل الكلى أو الجزئى، أو عيوب فى النطق أو قصور الذاكرة أو غيرها.

٢ - موت جذع المخ: Brian Stem Death

يؤدى ذلك مباشرة **إلى الموت**، بسبب توقف التنفس والدورة الدموية. وإذا تدخلنا سريعًا واستطعنا المحافظة على خفقان القلب بواسطة عقاقير تحقن وريديًّا طوال الوقت بالإضافة إلى أجهزة التنفس الصناعى التى تضخ الأكسجين إلى الرئتين، يظل هذا الإنسان فى **غيبوبة**، وذلك لانقطاع الإشارات العصبية التى يرسلها جذع المخ إلى قشرة المخ ليشارك بها فى منظومة اليقظة، **ويظل هذا الإنسان معتمدًا على الأجهزة والعقاقير** التى إذا توقفت توقف التنفس والقلب.

---

(1) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, phildelphia USA.

(٢) «القشرة المخية» فى مخ الإنسان هى المسئولة عن نشاطاته الحركية والحسية والعقلية ووعيه. بينما يحتوى «جذع المخ» على المراكز الحيوية المسئولة عن تنظيم العمليات الحياتية الأساسية للإنسان، كالتنفس ووظائف القلب ودرجة حرارة الجسم وغيرها.

٣ - موت المخ الكلى: Whole Brain Death

يؤدى هذا بالطبع إلى **الموت** مباشرة، إلا إذا تدخلنا أيضًا سريعًا بأجهزة التنفس الصناعى والعقاقير التى تحافظ على خفقان القلب، وفى هذه الحالة يظل الإنسان فى غيبوبة تامة وشلل، ويظل معتمدًا كليًّا على الأجهزة والعقاقير التى إذا توقفت توقف التنفس والقلب. وتُسمى هذه الحالة «**موت الدماغ أو المخ**» أو «**الموت الإكلينيكى**» وهناك شبه إجماع بين الأطباء على اعتباره موتًا للكائن الإنسانى.

حقيقة الحياة بعد موت المخ:

تعتمد حياة القلب وبعض أعضاء الجسم بعد موت المخ الكلى (وأيضًا موت جذع المخ) على أجهزة طبية خاصة وعقاقير معينة، ولا تُعتَبر حياة إنسانية، فهى **حياة صناعية بدون روح**[١]. بل إن هذه الحياة لا يمكن مقارنتها **بحياة الجنين داخل الرحم** قبل نفخ الروح فيه، وذلك لأن مخ الجنين يكون حيًّا، كما أن حياة أعضائه تعتمد على مدد وتعليمات تأتيه من جسم الأم الحى، وليس من أدوية وأجهزة صناعية. وأخيرًا فإن حياة الجنين عادة ما تتطور للحياة الإنسانية الكاملة، بينما توقُّف المخ التام عن العمل توقف نهائى لا رجعى، ويعقبه دائمًا فشل باقى الأجهزة الحيوية، ولا يمكن للحياة ولا للروح أن تعود إليه مرة أخرى.

ويطلق الطب الحديث على بعض حالات موت المخ الكلى تعبير «**الحياة النباتية Vegetative Life**»، ولكن الحقيقة أن الحياة الصناعية بعد موت المخ لا ترقى إلى حياة النبات الذاتية، التى تعتمد حياة أعضائه المختلفة بعضها على بعض؛ بينما هذه الحياة لا تقوم بذاتها، ولا يُكَمِّل بعضها بعضًا. وإنما هى خلايا وأعضاء منفردة تنظم عملها عقاقير وأجهزة طبية.

التوصيف الطبى لمراحل الموت

ذكرنا أن الطب يعتبر الموت **فشل الجسم كجهاز تكاملى**، وعلامته **التوقف النهائى للأجهزة الحيوية فى الجسم**، وأهمها الدورة الدموية والتنفس والجهاز العصبى. ويسجل الطب مرحلتين للموت:

---

(١) سنشرح هذا المعنى بعد قليل.

المرحلة الأولى: «الموت الجسدى أو الموت الإكلينيكى» Somatic Death

وهو نفس المفهوم السابق، أى **توقف أجهزة الجسم الحيوية عن العمل**، فلا يعود الإنسان إلى الحياة مرة أخرى. **وعلامات هذه المرحلة**: توقف التنفس، توقف **نبضات القلب**، انفتاح **العينين** واتساع وتوقف حركة **حدقة العين**، ارتخاء **عضلات الوجه** مما يسبب سقوط الفك السفلى، وبعد فترة يحدث تسطُّح **أجزاء الجسم** الملاصقة للسرير أو للأرض، ثم يلى ذلك برودة **الجسم** حتى تصبح درجة حرارته معادلة لدرجة حرارة الوسط المحيط، وتغير لون الجسم إلى **لون أزرق** نتيجة لركود الدم فى الشعيرات الدموية.

المرحلة الثانية: «الموت الخلوى أو الموت الجزيئى» Molecular Death

يعقب الموت الجسدى تحلل الخلايا والأنسجة وأعضاء الجسم كل على حدة. **وتستمر أعضاء الجسم وخلاياها فى الحياة (بدون تواصل بين بعضها البعض) لفترات تختلف من عضو لآخر**، حتى يتم استهلاك المتبقى داخلها من الغذاء والأكسجين. فخلايا المخ تستمر فى الحياة حتى سبع دقائق، وخلايا القلب حتى عشرين دقيقة، وخلايا الكليتين حتى ثلاثين دقيقة، وخلايا الأطراف (اليدين والقدمين) تستمر فى الحياة حتى ست ساعات، بينما تستمر خلايا القرنية والعظام والأوتار والجلد فى الحياة حتى اثنتى عشرة ساعة.

وخلال هذه الفترة، إذا نقلنا أى نسيج أو عضو من هذه الأعضاء قبل موته الخلوى أو الجزيئى إلى جسد إنسان آخر فإنه يستطيع أن يحيا فى الجسد الجديد لسنين عديدة. أى أن **لكل نسيج أو عضو فترة صلاحية يمكن استخدامه فيها**[1]، وإلا تعفَّنت خلاياه وتحللت إلى عناصرها الأولية. وهذا يثبت أنه برغم توقف الحياة فى الجسد ككائن حى متكامل ـ وهو ما يطلق عليه الطب «الموت الجسدى» ـ فإن ذلك لم يأخذ معه الحياة من الخلايا والأنسجة والأعضاء المنفردة، والتى تستطيع أن تكمل حياتها لساعات فى جسد الميت، ثم لسنين طويلة تحت إمرة وفى خدمة جسد وروح جديدين.

---

(١) مثال ذلك، زراعة «قرنية العين»، فبعد تشخيص الموت بساعات عديدة (تصل إلى اثنتى عشرة ساعة) نستطيع أن نأخذ قرنية من جثة الميت، ونقوم بنقلها إلى جسد إنسان آخر يحتاجها، كما يمكن حفظ هذه القرنية كنسيج مستقل لمدة تصل إلى أسبوع أو أكثر فى درجة حرارة منخفضة (أربع درجات مئوية)، بل ونستطيع الاحتفاظ بحيويتها فى مزارع نسيجية لمدد طويلة تصل إلى ثلاثين يومًا. وليست القرنية فحسب، بل أصبحت عمليات نقل القلب والكلى والكبد من العمليات الجراحية الشائعة.

الدين والمــوت

يبين لنا القرآن الكريم أن «**الموت هو المقابل أو النقيض للحياة**»، ويظهر هذا جليًّا فى مقابلة الموت بالحياة فى أكثر من ستين موضعًا فى القرآن الكريم[1]. ومن أمثلة ذلك:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ... ﴿٢﴾﴾ [الملك].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة].

الحياة غير الروح

نمهد لعرض المنظور الدينى للموت بأن نؤكد أن **الحياة غير الروح**، وحول هذا المعنى قال فضيلة **الشيخ محمد متولى الشعراوى** «إن الذين يقولون إن الحياة هى الروح مخطئون، فالنبات به حياة، يمكن أن نسميها «**نامية نباتية**»، فالنبات فيه نمو وفيه حركة وفيه أشياء نعرف منها أن النبات حى، وإذا توقفت الحياة فإن النبات يذبل ويموت. والحيوان به حياة (**نامية حيوانية**)، لكن وظائف هذه الناميات الحيوانية غريزية لا تستخدم العقل فى توجيهها، فمثلًا إذا ضربت القطة فلا إجابة لك عندها إلا الخربشة، أما **الإنسان** فيختار من بين بدائل متعددة باستخدام العقل والفكر».

ويضيف الشيخ الجليل: «**إن سر الإنسانية هو زيارة المَلَك للجنين ونفخ الروح فيه**، وهى حمل الأمانة والتكاليف الشرعية، وذلك بالاختيار بعقله بين البدائل المختلفة».

ومما يؤكد الطبيعة المختلفة للروح عن حياة الجسد هو **مغادرة الروح للجسد أثناء النوم**، وبالرغم من ذلك فالنائم ليس مَيْتًا، بل إن كل أعضاء جسده فى حياة تامة، فهو يتنفس وقلبه ينبض. وقد بين القرآن الكريم والحديث الشريف باللفظ الصريح **أن النوم هو شبيه الموت، وأن اليقظة من النوم هى شبيهة البعث**، وذلك لكى نتعظ ونوقن بالبعث، ولكى نطبق كثيرًا مما يحدث أثناء النوم على الموت. وقد فهم جُل علماء المسلمين من قديم هذا المعنى، واتفقوا على تعريف حالة النوم بأنها حالة «**الموت الأصغر**»، وأن النوم هو «**شقيق الموت**».

---

(١) سواء بالمصدر الصريح، أو المصدر الميمى، أو اسم الفاعل، أو الزمن الماضى أو الحاضر أو المستقبل.

ودليل مفارقة الروحُ الجسدَ أثناء النوم نجده فى الآتى:

١ ـ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر]. وقد اتفق جمهور العلماء على أن الأنفس المذكورة فى الآية تعنى أرواح الناس، وأن التوفى ـ كما سنرى بعد قليل ـ معناه قبض الروح.

٢ ـ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ...﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام].

٣ ـ دعاء النوم عن الرسول ﷺ «باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(١). وكذلك دعاؤه ﷺ إذا أوى إلى فراشه: «باسمك اللهم أموت وأحيا»، وإذ استيقظ قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»(٢).

٤ ـ قصة نوم الرسول ﷺ وأصحابه وهم راجعون من غزوة خيبر حتى طلعت الشمس ففاتتهم صلاة الصبح، فعندما قام قال لأصحابه: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء»(٣).

حياة الإنسان بالمنظور الدينى

مما سبق، نخرج بأن حياة الإنسان ـ بالمنظور الدينى ـ تتكون من مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة خلق جسد الجنين وتسويته ووجود الحياة فى خلاياه، والحياة موجودة فى سائر الكائنات الحية وليست فى الإنسان وحده.

المرحلة الثانية: مرحلة نفخ الروح فى الجنين بعد تسويته، وتستمر حتى وفاته. وهذه المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات.

معنى ذلك أن **الحياة والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنسانى**، وكل منهما يؤثر

(١) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.
(٢) الحديث: أخرجه البخارى، ومسلم.
(٣) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.

فى الآخر ويتأثر به. فاكتمال تسوية جسد الجنين وحياته شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح فى جسده فإن غادرته الروح نهائيًّا توقفت حياة الإنسان.

موت الإنسان بالمنظور الدينى

وبما أن الموت هو نقيض الحياة، فإنه يتكون أيضًا من مرحلتين، هما:

١ـ مغادرة الروح الجسد.

٢ ـ توقف الحياة (الموجودة أصلًا فى الجسد قبل نفخ الروح).

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو: عند الموت، **هل مغادرة الروح للجسد وتوقف الحياة يحدثان معًا، أم أن أحدهما يسبق الآخر؟**

من الأدلة التالية، سنرى أن **مغادرة الروح للجسد تسبق توقف الحياة فى الإنسان ككل، وفى أعضائه وأنسجته وخلاياه.**

الدليل الأول: هو **دليل منطقى**، يعتمد على مبدأ أن «**نقض البناء يكون عكس مراحل إقامته**»، وعند تطبيق هذا المبدأ على مرحلتى خلق الإنسان، نجد أن الجنين منذ كان نطفة هو كائن حى، ثم تُنفخ فيه الروح عند مائة وعشرين يومًا[١]، وإذا كان الموت هو نقيض الحياة، فالأرجح أن تغادر الروح الجسد عند الموت أولًا ثم تتوقف الحياة بعد ذلك.

الدليل الثانى: هو **دليل تجريبى**، يعتمد على إمكانية **نقل بعض أعضاء الإنسان الحيوية** بعد بضع ساعات من موته إلى جسد جديد، حيث تظل حية لسنين طويلة. وهذا يثبت أنه بالرغم من أن الروح قد غادرت الجسد، فإن الأعضاء الحيوية والأنسجة تظل حية لساعات فى جسد الميت مما يسمح بنقلها، أى أن قبض الروح يسبق توقف الحياة.

الدليل الثالث: دليل الرواية، وهو ما يُعرف بـ «**أحاديث شخوص البصر عند الموت**» وفيها يُخبر الرسول الكريم ﷺ أن البصر عند الموت يتبع ـ أو يَشْخَص إلى ـ الروح أو النفس، أى أن الروح تفارق الجسد وهو ما زال حيًّا، وهى ثلاثة أحاديث:

١ ـ دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره (شَخَصَ) فأغمضه. ثم قال: «إن الروح إذا قُبِضَ تبعه البصر»[٢].

---

(١) بالمعنى، من حديث أخرجه البخارى ومسلم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه الألبانى.

٢ ـ قال الرسول ﷺ : «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر، فإن البصر يتبع الروح...»[1].

٣ ـ قال رسول الله ﷺ «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره؟». قالوا: بلى. قال: «فذلك حين يتبع بصرهُ نفسَه»[2]. وفى شرح النووى: قول الرسول ﷺ «شَخَصَ بصُره»: أى: ارتفع ولم يرتد، وقوله ﷺ «يتبع بصره نفسه»: المراد بالنفس هنا الروح، ويؤكد الحديث أن الموت ليس بإفناء، وإنما هو انتقال وتغير حال وإعدام الجسد دون الروح.

الدليل الرابع: وهو دليل من **القرآن الكريم**، فآيات سورة الواقعة تتحدث عن مغادرة الروح الجسد: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة].

وتبين الآيات حقيقتين:

الأولى: إن **الحلقوم هو آخر جزء من الجسد تغادره الروح**، وهذا نفهمه من أسلوب التحدى لأى شخص أن يستطيع إرجاع الروح إلى مستقرها داخل الجسد.

الثانية: إذا وصلت الروح إلى مستوى الحلقوم فهى **قد تركت مستقرها داخل الجسد**، وهذا نفهمه من كلمة «ترجعونها»، فالإرجاع يدل على أنها تركت مكانها الأصلى داخل الجسد. وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة]، ولم يقل مثلًا «ذاهبون»، مما يدل على أن الأرواح ترجع لمكانها الأصلى عند الله ﷻ.

ويقوم **الحديث الشريف** بتفسير هذه الحقيقة؛ فيبين الرسول الكريم ﷺ أن الروح إذا وصلت الحلقوم فلا تُقبل التوبة ولا تُقبل الوصية[3]، وقدرة الإنسان على التوبة والوصية تعنى أنه ما زال حَيًّا.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة، وحسنه الألبانى.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) (أ) جاء فى الحديث الشريف: «إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر» الحديث: أخرجه الترمذى، وابن ماجة وأحمد فى المسند، وحسنه الألبانى. وقوله ﷺ «ما لم يغرغر»: بمعنى لم تبلغ روحه حلقومه، فإذا وصلت الروح للحلقوم فلا توبة.

(ب) وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أى الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تُمهل حتى إذا بَلَغَت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان» أخرجه البخارى. وقد جاء فى شرح هذا الحديث الشريف: أوصيت بدفع الحقوق حيث لا تنفع وصيتك، فقد صار التصرف فى مالِك للورثة.

ونخلص من هذه الأدلة الأربعة، إلى أن **الروح تغادر الجسم قبل توقف الحياة فى جسم الإنسان (ككائن حى)، وفى خلايا وأنسجة وأعضاء الجسم منفردة. كذلك فإن الروح تترك مستقرها فى الجسد قبل توقف الحياة فى المخ وأعضاء التنفس والقلب**، وهذه الأجهزة هى الأجهزة الحيوية التى إذا توقف واحد منها عن العمل مات الإنسان.

الفرق بين الوفاة والموت

من أجل أن نتبين الفرق بين الوفاة والموت بالمنظور الدينى، يجب أن نتأمل آيات القرآن الكريم التى جاءت فيها الكلمتان باشتقاقاتها المختلفة[(١)]، وبتأمل هذه الآيات نتوصل إلى ست حقائق توضح الفرق فى المعنى بين الكلمتين.

الحقيقة الأولى: يُنسب الموت إلى الإنسان[(٢)] وباقى الكائنات الحية[(٣)] وأيضًا الجمادات[(٤)].

الحقيقة الثانية: «الوفاة» لا تُنسب إلا إلى الإنسان[(٥)].

الحقيقة الثالثة: الوفاة أو التوفى ليس هلاك الجسد أو إهلاكه، فالوفاة تحدث أيضًا أثناء النوم[(٦)]:

الحقيقة الرابعة: الوفاة والموت شيئان مختلفان، ولما كانت الوفاة هى قبض الروح، فلا بد أن يكون الموت شيئًا آخر[(٧)]:

---

(١) المصدر والفعل واسم الفاعل.

(٢) ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام].

(٣) ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ... ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة].

(٤) ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

(٥) ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل].

(٦) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام].

(٧) ١ ـ ذُكِرَ الموتُ فى ستين موضعًا فى مقابلة الحياة، أما التوفى (قبض الروح) فيقابله (نفخ الروح).

٢ ـ عند مخاطبتنا لله سبحانه وتعالى طالبين الموت نقول «توفنى» أو «توفنا»، ولم يرد فى القرآن لفظ «أمتنى» أو «أمتنا»، وذلك تأدبًا مع الله، فالإماتة تحمل معنى الهلاك، أما التوفى فهو تحرر من سجن الجسد واللحاق بنعيم الله ﷻ. ﴿ ...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف].

٣ – يخاطب الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ بلفظ التوفى فقط ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس].

٤ – الاستثناء الوحيد فى مخاطبة رسول الله ﷺ بلفظ الموت، فى قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر]. وهذا مقصود، لينقل لنا معنى أن كل شىء هالك إلا وجهه ﷻ.

الحقيقة الخامسة: يتكون الموت من مرحلتين، هما قبض الروح ثم الموت الجسدى[1]:

الحقيقة السادسة: الموت (وليس الوفاة) هو المرحلة الأخيرة للإنسان فى هذه الحياة الدنيا، لذلك فكل آيات القرآن الكريم التى تُذكر فيها أحداث ما بعد الحياة الدنيا تجىء بعد لفظ الموت، وليس لفظ الوفاة[2].

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا من العلماء اتفقوا على إطلاق تعبير «الموت الأصغر» على النوم، والأكثر صوابًا هو تسمية النوم بـ«**الوفاة الصغرى**» أو «**وفاة النوم**»، بينما تكون مغادرة الروح النهائية والمستديمة للجسد عند الموت هى «**وفات الموت**».

يتضح من هذه الحقائق أن **التكريم الأساسى للإنسان وما حُمِّل من تكاليف شرعية يرجع إلى وجود الروح فيه**، لذلك نرى أن الوزر الشرعى الأساسى والرئيسى على جريمة القتل يرجع إلى إزهاق هذه الروح (الوفاة) وليس إنهاء حياة الجسد (الموت)، الأمر المشترك بين جميع الكائنات الحية.

أعلنونى مَيْتًا[3]

إذا كان القرآن الكريم يبين أن الروح تفارق الجسد قبيل الموت، وإذا كان الطب لم يتوصل بعد إلى مفهوم الروح كعنصر غيبى فى الذات الإنسانية، فمعنى ذلك أن **كلًّا من الدين والطب يعتبران موت الجسد هو نهاية الوجود الإنسانى فى هذه الدنيا**. ولما كان الموت يعنى توقف آليات الحياة[4]، **فإن هذا أمر مادى** يستطيع العقل والعلم الحديث البحث فيه وإدراكه.

---

(١) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر].

(٢) ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس].

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المؤمنون].

(٣) من ناحية اللغة، مَيِّت بتشديد وكسر الياء تعنى الإنسان القابل للموت، سواء كان حيًّا أو فارق الحياة، وكلنا ذلك الشخص. أما المَيْت بسكون الياء فهو من مات بالفعل.

(٤) أى توقف قدرة الخلايا على الحفاظ على وجودها، نتيجة لتوقف إمداد الغذاء والوقود والتعليمات اللازمة لعملها، مما يؤدى إلى توقف العمليات الكيميائية داخل الخلايا.

وقد توصل الطب الحديث إلى حقائق هامة بخصوص العلاقة بين موت الإنسان وموت المخ. فقد صار التشخيص المؤكد للموت الكلى للمخ ممكنًا، كما أصبح من الممكن أيضًا الجزم بأن توقف المخ الكلى عن العمل (أو موته) هو توقف نهائى لا رجعى، وليس غيبوبة مؤقتة قد يفيق منها الإنسان. وإذا كان جذع المخ هو المتحكم فى وظائف القلب والتنفس، فإن موت جذع المخ يؤدى مباشرة إلى توقفهما، أى إلى الموت.

لذلك أصبح الطب الآن يعتبر أن موت المخ هو موت للجسد أو هو موت الكائن الإنسانى[1]. وبالتالى إذا أثبت الطب موت المخ الكلى أو موت جذع المخ بلا رجعة، فقد سبقه مغادرة الروح لجسم الإنسان، وبذلك تكتمل ظاهرة الموت من وجهتى النظر، العلمية والدينية.

ويتم تشخيص موت المخ (أى موت الإنسان) إكلينيكيًّا (سريريًّا) من خلال ثلاث علامات إكلينيكية [سريرية] يجب أن تجتمع معًا، وهى[2][3]:

١ - فقد الوعى، وفقد القدرة العضلية على الاستجابة للنداء على الشخص، وعدم التجاوب مع المؤثرات المؤلمة (مثل وخز الإبر) فى الوجه[4].

٢ - فقد القدرة على ردود الأفعال المنعكسة اللاإرادية، والتى يتحكم فيها جذع المخ (Brain Stem Reflexes)، وأهمها عدم ضيق حدقة العين عند تسليط الضوء عليها.

٣ - عدم وجود تنفس تلقائى بعد إيقاف جهاز التنفُّس الصناعى لمدة ثمان إلى عشر دقائق. وأحيانًا، تؤثر بعض العوامل على وظيفة المخ، وتؤدى إلى الإغماء المؤقت، مثل: انخفاض شديد فى درجة حرارة الجسم أو هبوط شديد فى ضغط الدم أو تعاطى أدوية معينة أو حالات السُكْر الشديد أو انخفاض مستوى سُكَّر الدم. وفى مثل هذه الحالات

---

(١) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA.

(٢) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA.

(٣) Brain Death Worldwide: Accepted fact But No Global Consensus on Diagnostic Criteria: Wijdicks E., Neurology, 58:20- 25, 2002.

(٤) الوجه من المناطق التى يتحكم فى عملها الأعصاب الجُمجمية التى توجد مراكزها فى جذع المخ.

يلزم التأكد من موت المخ بواسطة «**اختبارات إضافية متخصصة**»[1].

ولا شك أن القرآن الكريم لم يتنزل ليعلمنا كيف نحكم على موت الإنسان، وترك ذلك لأهل الذِكر وهم الأطباء، وهذا ما قرره مجمع البحوث الإسلامية. ومع ذلك فإن المجمع قد حدد ٤ **علامات - استنبطها من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة - يُشَخِّص وجودها مجتمعة موت الإنسان**، وهذه العلامات تتفق مع رأى الطب، وهى:

١ - توقف التنفس.

٢ - إحداد البصر: معناه شخوصه وثبات العينين[2].

٣ - انفراج الشفتين[3].

٤ - سقوط القدمين فلا ينتصبان[4].

رأى الإسلام بخصوص موت المخ

انعقدت دورتان **للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت**، الأولى عن «الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها» عام ١٩٨٥م، والثانية عن «التعريف الطبى للموت» عام ١٩٩٦م، وقد اعتبرت **كلتاهما الإنسان مَيْتًا إذا توقفت جميع وظائف دماغه نهائيًّا عن العمل بما فى ذلك جذع المخ.**

وهذا أيضًا ما قرَّره **مجمع الفقه الإسلامى التابع لمنظمة مؤتمر العالم الإسلامى** المنعقد فى العاصمة الأردنية عمان عام ١٩٨٦م، **ومجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة** عام ٢٠٠٩م، فقد أفاد المجمعان أنه بعد التداول فى سائر النواحى التى أُثيرت حول أجهزة الإنعاش والاستماع إلى شرح مستفيض من الأطباء المختصين، أنه **يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المُرَكَّبة على الشخص إذا حكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بتعطل جميع وظائف دماغه تعطلًا نهائيًّا لا رجعة فيه، حتى وإن كان بعض الوظائف - كالتنفس والقلب - لا تزال تعمل آليًّا بفعل الأجهزة المركبة والعقاقير، ويُعتبر الشخص مَيْتًا شرعًا بعد توقف التنفس والقلب توقفًا تامًّا بعد رفع هذه الأجهزة**[5].

---

(١) مثل عدم وجود أى ذبذبات فى رسم المخ الكهربائى، واختبارات الجهد الكهربائى المُثَار (Evoked Potentials)، وتقنيات التصوير الإشعاعى المتقدمة، خاصة تلك التى تبين عدم تدفق الدم إلى المخ، ويضيف البعض عدم استجابة جذع المخ لحقن عقار الأتروبين.

(٢) يحدث ذلك بسبب موت مراكز الأعصاب الجُمجمية (Cranial nerves) المسئولة عن حركة العين.

(٣) يحدث ذلك بسبب موت مركز العصب السابع من الأعصاب الجمجمية المسئول عن حركة الشفتين.

(٤) ويحدث ذلك بسبب فقد ردود الفعل المنعكسة اللاإرادية، وعدم الإحساس بمكان القدمين والمسئول عنه المخ.

(٥) أخذت معظم دول العالم الإسلامى - وغير الإسلامى - برأى الطب فى **اعتبار موت الدماغ موتًا للإنسان**، ووُضعت القوانين المنظمة لرفع أجهزة الإنعاش المركبة على هؤلاء الأشخاص، كما وضعت القوانين واللوائح المنظمة لنقل الأعضاء منهم. وفى منطقة الشرق الأوسط لم يتبقَ سوى قليل من الدول التى لم تضع بعد هذه القوانين كمصر والسودان وليبيا والعراق.

ويضيف د. **صلاح الدين سند**، مستكملًا جهده الكبير فى إخراج دراسته العميقة **(الوفاة الإكلينيكية)** قائلًا: إنه إذا كانت هذه المؤتمرات الفقهية قد اعتمدت فى قراراتها على رأى الطب فى اعتبار الشخص مَيْتًا عند موت الدماغ، فإن إثباتنا سَبْق مغادرة الروح لجسد الشخص الميت دماغيًّا يدعم قرارات هذه المؤتمرات الفقهية، ويساعد أهل وأقارب هذا الشخص على أخذ القرار برفع أجهزة الإنعاش عنه.

تأملاتى.. مع الموت

لا شك أن ظاهرة الموت **أدهشت الإنسان وأربكته منذ وَعَى بذاته**، فالإنسان البدائى كان يجد رفيقه الذى يفور جسدهُ بالحركة والحس والنضرة، قد تبدل فى لحظة، وصار جسدًا باردًا لا حياة فيه، رغم تكامل كل أعضائه وأجزائه. ربما ربط هذا الإنسان بين خفوت الحياة ثم انطفائها فى جسد رفيقه وبين خفوت النار المشتعلة، وربما ربط بين ذلك وبين تصاعد الدخان من النار إلى السماء قبيل انطفائها، ومن هذا الربط ربما اعتقد الإنسان البدائى أن داخله عنصرًا خفيًّا يمكن أن يفارق جسده ويتصاعد إلى السماء (كالدخان)، وأن هذه المفارقة هى التى تؤدى إلى الموت. ومن هذه الملاحظات بنى الإنسان أسطورته، التى ربما تمثل **أول تصور عقلى للبشرية عن الروح**.

وحدث الموت **يجتاح جميع الكائنات الحية**، من إنسان وحيوان ونبات، فهو وجه العملة المقابل للحياة. وفى نفس الوقت فإنه يصادف هذه الكائنات **فى أى مرحلة من مراحل حياتها**. فقد يصادفها فى لحظة ميلادها، وقد يعتريها فى مرحلة شبابها، وقد يأتى عليها فى مرحلة الشيخوخة. وإذا كان الموت يرجع فى معظم الأحيان لمرضٍ أصاب الجسم أو حادثٍ أَلَمَّ به، فقد يكون تلقائيًّا دون مقدمات، وهو فى النهاية حدث واقع لا محالة، ولا مجال لتجنبه وتحاشيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء].

والموت يمثل على المستوى النفسى، حدثًا مخيفًا مرعبًا.. ومؤلمًا.. وبغيضًا..

فلا جدال أن **الموت مخيف ومرعب**. فبعد أن كنا بين الأهل والرفاق نتنفس معهم نسيمَ الحياة ونستمتع معهم بلذاتها، نتصور أنفسنا ونحن نُوارَى فى باطن الأرض، حيث يهيل علينا الأحبابُ التراب، ليوَدِعونا إلى الأبد، فنبقى فى فزع وحدة القبر ورعب السكون القاتل بين الأجداث فى حَلْكة الليل.. نعم إنها لحظة تقشعر من هول تخيلها الأبدان.

ولا شك أن الموت **حدث مؤلم**. وإذا كانت بعض هذه الآلام ترجع إلى طبيعة المرض المميت

الذى يصيب الإنسان، فإن علماء الدين والأطباء يخبروننا أن للموت سكرات مختلفة عن آلام المرض، مِصداقًا للآية الكريمة ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق]، بل إن هذه السَكَرَات كان يعانيها أقرب الخلق إلى الله ﷻ، فقد كان المصطفى ﷺ فى لحظات احتضاره يمسح وجهه بالماء ويدعو: «اللهم أَعِنِّى على سكرات الموت»[(١)].

وأخيرًا.. لماذا الموت حدثٌ بغيض؟... لا شك أن الموت بما يحمله من معانى الفناء والعدم، يُعتبر أكثر الأمور كراهية للنفس البشرية، حتى وإن آمن الكثير منهم أنهم منتقلون إلى عالم أفضل. كذلك فإن الاستمتاع بالدنيا والتعلق بها كَبَّرَ عند النفس بغض مفارقتها. وقد أدرك اللعينُ إبليس بُغضَ النفس البشرية للفناء والعدم، فدخل إلى آدم من هذا الباب ليغريه بمعصية ربه والأكل من الشجرة المحرمة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه].

وإذا كان الفناء والعدم أبغض الأمور للإنسان، فلا شك أن نعمة الإيجاد أعظم نعم الله ﷻ علينا. والمدهش أن بعض الملاحدة يُمارى ويَدَّعى أنه غير راض على وجوده فى الدنيا، ويضيف ساخرًا: إن خالقكم لم يأخذ رأيى قبل أن يخرجنى إلى الوجود. وقد أفحمت أحد هؤلاء المُدعين وقلت له إن لم تكن راضيًا عن وجودك فى الدنيا فلم لا تخرج منها؟ فسألنى كيف؟ أجبته: بالانتحار! فتركنى ومضى.

وبالرغم من أن الموت ـ عند معظمنا ـ حدث مخيف مرعب .. ومؤلم .. وبغيض، **فإن هذه المشاعر تقل، وربما تتبدل إلى عكسها، عند نفرٍ أربعة**: شخص اشتاق للقاء ربه واعتبر الدنيا هى الحجاب الأوحد عن هذا اللقاء، وشخص آمن بصدق أن وراء الموت حياة أخرى أفضل وأنه أول منازل هذه الحياة الرغدة الأبدية المُرتَقَبَة، وشخص يرى فى الموت سبيلًا للقاء من ودعه من أَحِبَة تعلق بهم كثيرًا، وأخيرًا شخص يرى فى الموت راحة من مرض عضوى ألم به أو عذابات نفسية صار احتمالها فوق طاقته.

حقيقة الموت...

إذا كنا (على المستوى النفسى) نرفض اعتبار أن الموت مرادف للفناء والعدم، وفى نفس الوقت لا يستطيع العلم المادى أن يقدم لنا رؤية أخرى للموت، فإن خير من يُعَرِفنا حقيقة الموت هو خالق الموت والحياة، فآيات القرآن الكريم تخبرنا أن:

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده.

١ ـ **الموت خلق شـأن الحياة تمامًـا:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سـورة الملك]، ومعنى أن الموت «خلق» يتعارض مع النظر إليه باعتباره عدمًا وفناءً.. فالخلق عكس العدم.

٢ ـ **المـوت مرحلـة من مراحـل الأبديـة:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم]، فالموت سبقه الخلق والرزق، ثم يتبعه بعث ونشور.

٣ ـ **المـوت ينقلنـا إلى عـالم حقيقى، بـل قل إلى عالم الحقيقـة...** فالموت يكشـف عنا حُجُبًا تُغَشِّـى عنا الملكوت العلوى ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق]، عندها يرى الإنسان أن الوعد والوعيد حق، وربما يرى نفسه خلال مسيرته فى الأزل والأبـد: أيـن كـان وإلى أين المصير؛ فيرى أن الحيـاة الدنيا كانـت كطرفة عين، ويبصر مكانه فى الحياة الآخرة الأبدية ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة].

٤ ـ **الموت معبر له قوانينه وعواقبه:** ويمكن التكهن ببعض هذه القوانين من خلال مخالفتها للقوانين التى تحكم الحياة، ويمكن التكهن بالبعض الآخر من خلال استمرارية بعض قوانـين الحيـاة التـى لا تتأثر بالمـوت. **فالمجموعـة الأولى المخالفة لقوانـين الحياة،** أهمها انعدام الإحسـاس المادى وانقطاع عمل الإنسـان، وذلك لتحلل الجسـد، ويترتب على ذلـك السـكون عن الحركة والفعـل، والصمت نتيجة لتوقـف أدوات الحس والتعبير. **أما المجموعة الثانية التى هى امتداد لقوانين الحياة،** فأهمها اسـتمرارية الذات الإنسـانية والحس المعنـوى المرتبطين بالـروح والنفس، ولعل هـذا الحس يزداد بعد فناء الجسـم المادى، وهذا الحس المعنوى يتوجه تجاه النعيم أو العذاب.

وفى ختام تأملاتى عن الموت، ربما كان أكثر ما يثير دهشتى هو موقفنا العملى تجاه الموت! فبالرغم من أن الموت هو الحقيقة الأكبر ـ التى ليست بحاجة إلى استدلال واستشهاد ـ فى حياتنا، **فإننا نسلك فى الدنيا كأننا مخلدون، غير مبالين به!** أو كأن الفرار منه محتمل وربما هو الأرجح.

وفى هذا المعنى يقول المولى ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر] صدق الله العظيم.

أنا... بعد الموت

الحياة فى البرزخ

بعد المرور عبر بوابة الموت، ينتقل الإنسان إلى «البرزخ». والبرزخ بمفهوم اللغة والعلم، **هو وجود يفصل بين تكوينات وحيوات، لكل منها مقوماتها الخاصة، بحيث لا تبغى إحداها على الأخرى** ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن].

ويعنى البرزخ فى المفهوم الدينى **وجودًا للنفس بين حياتين: الدنيا والآخرة**، كمرحلة انتقالية تُصَفِّى فيها النفسُ أعمالها الدنيوية وتتهيأ لملاقاة حياتها الأخرى، التى تبدأ بيوم القيامة أو البعث العظيم.

ويكاد الوجود فى البرزخ **يشبه الوجود فى الأرحام**، الذى يفصل بين حياتنا الدنيا وبين حياة غيبية للإنسان تسبق هذه الحياة. ويمكن تشبيه البرزخ بما نلاحظه فى الكائنات التى تمر بأكثر من حياة فى الوجود الذى نعيشه، فوجود **الحشرة فى الشرنقة** يفصل بين حياتها السابقة كدودة وحياتها التالية كفراشة، وفى تلك الشرنقة تتغير الحشرة وتتبدل لاستقبال حياتها الجديدة.

وإن كان الوجود البرزخى **مرحلة انتقالية تسبق البعث يوم القيامة، فالنفس فيها تتنعم أو تتألم بعواقب أفعالها فى الحياة الدنيا**. والدليل على ما يمكن أن يلقاه المرء من **نعيم** قبل يوم الحساب قول الحق ﷻ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠﴾ [آل عمران]. أما الدليل على **العذاب** الذى يمكن أن يلقاه المعاندون والعصاة قبل يوم القيامة، قول الحق ﷻ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر]. وتستمر حياة الإنسان فى البرزخ حتى يوم

البعث ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

أنا ... فى الحياة الأخرى

تبدأ الحياة الأخرى بالبعث؛ والبعث فى المفهوم الضيق هو عودة الروح والحياة إلى الجسد، أى عودة الإنسان إلى الحياة. ولكن البعث فى مقام الحديث عن يوم القيامة يحمل معنى يجاوز ذلك بكثير، **إنه بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة.**

ومن أهم التغيرات التى تحدث مع فناء الحياة الدنيا، **انعدام عنصرى الزمان والمكان وتوقف قانون السبب والنتيجة.** وينعكس ذلك فى الحياة الأبدية على هيئة قوانين جديدة، ربما يعجز فكرنا عن إدراكها، ومن هذه القوانين:

١ - الديمومة والخلود، حيث انعدام قيدُ الزمان:

يحيا الإنسان فى حياته الدنيا فى ظل بديهية أن ما كان له بداية فإن له نهاية، وينبنى على ذلك أن الابتلاء فى الحياة الدنيا ـ كأى امتحان ـ له وقت محدد. أما فى الحياة الأخرى فهناك ديمومة مطلقة ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود]. ويفسر هذا المنظور بعضَ ما سيحدث لذواتنا الإنسانية فى تلك الحياة، فالعمر يثبت عند مرحلة الشباب، والجو يشبه وقت العصر دون تناوب لليل ونهار.

٢ - لا نهائية المكان، حيث انعدام قيدُ المكان:

إذا كانت الأرض ـ فى الوجود الذى نعيشه ـ تكاد تضيق بمن عليها، فما أدراك بالبعث الذى يشمل الخلق جميعًا على اختلاف العصور، وما أدراك بالجنان التى تُخصَّص لكل طائع منيب، لا شك أن ذلك يحتاج **أرضًا غير محدودة المدى.** ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم][1].

---

(١) يمكننا علميًّا تقبل مفهوم لا نهائية المكان؛ فإذا كانت المسافة بين أى نقطتين تساوى حاصل ضرب السرعة فى الزمن، فإن مقدار المسافات فى حالة لانهائية الزمن لا بد أن تكون لا نهائية.

وإذا كانت ديمومة الزمان ولا نهائية المكان أمور يصعب تصورها، فيمكننا تيسير ذلك **بتأمل ما نراه فى الأحلام**، فللأحلام قوانينها التى لا تراعى الزمان ولا المكان، ففى دقائق معدودة يمكن أن تحيا حياة طويلة تتزوج فيها وتنجب وربما تُزَوِّج أبناءك. كذلك فى دماغنا المحدود يمكن أن نحيا أثناء الأحلام فى مروج شاسعة ونشاهد محيطات لا نهاية لها.

٣ - **أما انعدام قانون السبب والنتيجة**، فيمكن أن يُفَسِّر العديد من العطاءات التى يعدنا بها الله ﷻ فى الجنة، حيث يجد الإنسان كل ما يخطر فى باله حاضرًا أمامه دون أن يسعى إليه.

ولا شك أن الناس **سيتفاوتون فيما يمر بهم من أحداث فى يوم القيامة**، ما بين أنبياء وصديقين وأولياء يكون عليهم هذا اليوم بمثابة المتعة فى الحضرة الإلهية، وبين كفار وعصاة وفجرة ومنافقين يرون أهوالًا لا تخطر على قلب بشر. وفى النهاية، إما إلى جنان أو إلى نيران. وتفاصيل هذه المراحل كلها خارج نطاق هذا الكتاب، الذى يتحدث عن الذات الإنسانية، لذلك اخترت أن أُنهى هذا الفصل ـ والباب ـ بالحديث عما يجرى على الذات الإنسانية المُنَعَّمَة فى الجنان من تغيرات.

طبيعتى ... فى الجنة

إذا كان الإنسان يتركب من خماسية تمثل الذات الإنسانية، ولكل عنصر من عناصرها دوره فى الحياة الدنيا؛ **جسم** يخوض به مسيرة الحياة، **وعقل** يدبر به أموره، **ونفس وقلب** تُعرَض عليهما البدائل، **وروح** هى نفخة من روح الله. فهل ستظل هذه العناصر تؤدى نفس أدوارها فى الحياة الأخـرى، أم أن طبيعة ذواتنا الإنسانية ستختلف لاختلاف طبيعة الحياة الأبدية فى الجنة؟

فى الحياة الأخرى، نسأل الله الكريم أن نكون من أهل الجنة، حيث النعيم.. حيث الأبدية.. حيث الانتصار على الشيطان.. حيث النفس المطمئنة.. حيث النشوة فى الحضرة الإلهية.. حيث العطاء الإلهى بكل سعته.. حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فى **هذه الحياة لا بد أن يعترى التغيير عناصر ذواتنا البشرية**.

فالجسم، قد تحلل من دورته فى الحياة الدنيا ـ وهى دورة الطفولة والشباب والشيخوخة ـ ليصير فى شباب دائم ومتصل إلى أبد الآبدين، شباب من طبيعته أن يتضاعف فيه الإحساس بالنعيم. جسم بَرِءَ من أمراضه ليصير فى نضرة وحيوية كاملة، فينهل من النعيم، وهو موفور

الصحة والعافية. جسم تنصل من شيطانه الذى كان يقهره على الفسق والفجور، ليستمتع برغباته فى حب ونقاء، شكرًا وثناء. **جسم تسامت ذاته**، فلا يجد ما يضنيه من فكر وإجهاد ولا ما يشقيه من قهر واستعباد، وإنما هى دائمًا حلاوة القرب والاستغراق فى النعيم. جسم تحرر فى النهاية من الطاعة المفروضة عليه فى جبر وعناء، ليحل محلها المفاضلة بين المتع الحسية والنفسية فى حرية واسترخاء. ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وهكذا يمكن القول **إن جسم الإنسان يعاود سيرته الأولى يوم كان الإنسان فى الجنة** ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]، بل يمكن القول أنه سيكون أكثر سعادة عند عودته إلى الجنة؛ فلن تكون هناك شجرة محرمة عليه! إن ما طرأ على الجسد الإنسانى من تغير فى الحياة الدنيا كان نتيجة هبوطه الأرض، حتى يلائم ظروفه وطبيعة الدور المعقود عليه القيام به، فى الصراع الدائر بينه وبين الشيطان.

والعقل أيضًا، تتبدل وظيفته من الوظيفة المعروفة فى الحياة الدنيا، فيتغير من عقل كادح .. يعمل ليل نهار وفى كل الظروف والملابسات ـ حتى ولو استقر حاضره ـ ليُؤَمِّن مستقبله الذى يجهله، إلى **عقل هادئ مستقر تَخَفَّف** من كل أحماله، حتى صار يرفرف فوق واقعه، **ويهتز فرحة ولذة لنعيمه**. ليس عنده ما يشغله من هم وغم وكرب وموت، وإنما فقط يتنقل من نعيم لنعيم ومن حس لآخر أحسن منه.. بعد أن كُتب له الخلود، وصار من المقربين.

إنه يرتفع هناك إلى حيث مصادره الأولى... إلى حيث العقل الأعظم ... إلى حيث الطمأنينة.. إلى حيث النقاء.... إلى حيث **مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر**.

فهل ما زال الإنسان فى الحياة الآخرة يشعر بالرتابة والملل كما يدعى الماديون ساخرين؟ كلا، ألف كلا.

أما النفس والقلب، الأنا المختارة، عندما تنتقل إلى الحياة الآخرة ـ حيث الوفرة، كل الوفرة ـ فإنها **بالطبيعة تتغير** من «الأنا المريدة» التى تميز النفس الأمارة إلى «الأنا المحبة» التى تميز النفس الآمنة المطمئنة. وفارق كبير بين **الأنا المريدة والأنا المحبة**، ذلك أن الأولى طبيعتها الصراع للاستئثار بكل ما هو متاح وغير متاح، ومن ثم ففيها الطمع والجشع وحب الذات... إلخ.

أما «**الأنا المحبة**» فطبيعتها الإيثار والعطاء، ذلك أن الحب يسمو بالنفس ويتعالى بها عن الجشع والطمع. وما منا من عايش حالة حب إلا ووجد نفسه وقد ضحى بالكثير وأعطى المزيد، برضا وسماحة وإنكار كامل للذات.. فما بالك وقد **سَمَت النفس إلى درجات الحب الإلهى**، بالقطع ستسمو فوق الماديات، **وتزداد تفان فى العطاء**، **ولن يغرقها** فى النعيم هناك إلا إحساسها بأن ذلك **عطاء الله**، إذ ستنهل منه بعشق الحبيب... **فيتضاعف** الإحساسُ بالنعيم مرات ومرات. وقد بَيَّنَ لنا الله ﷻ آلية التحول من «الأنا المريدة» إلى «الأنا المحبة» فى قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر].

أما الروح، فشأنها شأن آخر، فرحتها تفوق فرحة عناصر الذات الإنسانية الأخرى، لقد قُطع الطريق، وانقضى السفر، وعادت إلى حيث مصدرها، عادت إلى الحبيب المحبوب، كل ما مضى من عناء كان لأجل هذا اللقاء.

وهكذا:

فإن عالم السلام، عالم السكينة، عالم الوفرة، يعكس بالضرورة **سلامًا مع النفس**، **يجعلها راضية مطمئنة**، فى سلام مع الآخرين، حيث تكون تحيتهم فيها سلام.. تصعد «**الأنا**» إلى عليين، وتتفاعل مع عالمها.. فتكون اختياراتها دائمًا تسبيحًا وشكرًا، وتكون متعتها الحسية دومًا قربًا وحبًا، وتكون دعوتها: **أن الحمد لله الذى صَدَقَنا وعده، نتبوء من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين.**

كيف السبيل

إن الطريق لتحصيل هذا النعيم يبدأ بمجاهدات للنفس، يقوم بها الإنسان فى الحياة الدنيا، حتى يتسنى تكبيل الذات الإنسانية المريدة **بالعقل**.

ومن ثم، على الإنسان أن **يجاهد نفسه المريدة** بكل عوالقها من طمع وجشع وحسد، لترقى إلى نفس محبة تسمو فوق الماديات فى إيثار وعطاء.

وعليه أيضًا أن **يجاهد نفسه القلقة المتوترة** التى تجزع وتحزن وتفزع لكل ما يصيبها من قضاء، لتصبح نفسًا مطمئنة راضية بما قُدِّرَ لها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر].

فكأن طمأنينة النفس فى الحياة الدنيا، وصقلها بالحب الإلهى، وقهرها لشهواتها، والتحكم

فى غرائزها، والسيطرة على دوافعها من استئثار وجشع، والرضاء الكامل بقضاء الله باعتبار أنه صادر عن خالق حكيم دونه إدراكاتنا.. كل هذه هى مؤهلات الإنسان التى ينبغى أن يتحصل عليها من دنياه.. للرجوع إلى الخالق ودخول الجنة.

والمحصلة النهائية، **أن الذات الإنسانية بمكوناتها؛ الجسم والملكات العقلية والنفخة الغيبية تتغير لتتلاءم مع حياة النعيم فى الجنة، شريطة أن يكون الإنسان قد أَهَّلَ نفسه فى حياته الدنيا لتقبُّل هذا التغيير والتبديل.**

القارئ الكريم

ذكرنا فى بداية الفصل أن **الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة تكاد تُجمع** على الربط بين الموت ومغادرة الروح للجسد، أما **الطب**، فيعتبر أن موت الأجهزة الحيوية الثلاثة، القلب والجهاز التنفسى والمخ يُعتبر موتًا للجسد. ثم ربطنا بين هذين المفهومين (الدينى والطبى) للموت.

ومن أجل المزيد من الفهم لطبيعة الموت، أوضحنا أن خلق الإنسان يمر بمرحلتين:

مرحلة خلق جسد الجنين وتسويته وبث آليات الحياة فى خلاياه، تلك الآليات التى تشارك الإنسان فيها سائر الكائنات الحية. ثم تأتى **مرحلة نفخ الروح فى الجنين بعد تسويته**، وهذه المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات.معنى ذلك أن آليات حياة الخلية والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنسانى، وكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به، فاكتمال تسوية جسد الجنين شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح فيه.

ويبين القرآن الكريم **أن الموت هو مقابل أو نقيض الحياة**. ومن ثم فإن الموت يتكون أيضًا من مرحلتين، **هما مغادرة الروح للجسد** بالإضافة إلى **توقف آليات الحياة فى الجسد**. وقد أثبتنا **أن الروح تغادر الجسد قبل توقف سر الحياة فى الجسد عند الموت.**

لذلك إذا جَزَمَ الطب **بموت المخ** موتًا نهائيًّا لا رجعيًّا، فقد غادر مكونا الحياة جسد الإنسان، أى «غادره الروح وغادرته آليات حياة الجسد». وبالتالى **فإن الإنسان الميت مخيًّا هو إنسان «مُتوفى» بالمفهوم الدينى كما أنه «ميت جسديًّا» بتعريف الطب**. وفى هذه الحالة، قد تتبقى ـ لفترة ـ حياة خلوية لأنسجة تعمل منفردة معتمدة على أجهزة صناعية، وهى أقل درجة من

حياة النبات ومن حياة الجنين داخل الرحم قبل نفخ الروح فيه، وهى شبيهة بعمل أجزاء الأجهزة الصناعية المفككة التى لا تستطيع أن تعمل بشكل تكاملى.

وتبين آيات القرآن الكريم أن **الموت خَلْقٌ شأن الحياة تمامًا**، وأنه **مَعْبَر بين مسيرتين، ينقلنا إلى عالم الحقيقة. وللموت قوانينه التى تحكمه**، وأهمها انعدام الإحساس المادى وانقطاع عمل الإنسان، فهى النشاطات المرتبطة بالجسد الذى يبلى، وفى الوقت نفسه يستمر الحس المعنوى، والشعور بالذات الإنسانية لارتباطها بالروح والنفس.

ولا تُعتبر الحياة الآخرة مجرد عودة الروح والحياة إلى الجسد، بل **إن البعث يمثل بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة**، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة. وأهم تلك القوانين الجديدة الديمومية والخلود ولا نهائية المكان، حيث انعدام قيد الزمان وقيد المكان، والحياة فى معزل عن قانون السبب والنتيجة.

كذلك فإن تلاشى قوانين الطبيعة وبزوغ قوانين الحياة الجديدة، يتطلب حدوث **تغيرات فى الذات الإنسانية**، تشمل عناصرها جميعًا، لتتلاءم مع حياتها فى الجنان، **شريطة أن يكون الإنسان قد أَهَّلَ نفسه فى حياته الدنيا لتقبل هذا التغيير والتبديل**.

***

حصاد الرحلة

واكتملت الرحلة...

والاكتمال غير الكمال، **فالكمال لله ﷻ وحده**، أما الاكتمال فهو أن تُتم ما سبق أن خططت له ووضعت حدوده وأبعاده، بقدر مقبول من التوفيق. وقد كان المقصود من هذه الرحلة **أن نُعَرِّف الإنسان بذاته الإنسانية**، كما تنظر إليها العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والعلوم الدينية، خاصة بعد أن جارت على الرؤية الصافية مفاهيم زائفة صارت تتردد كأنها حقائق علمية، كالحتمية البيولوجية والحتمية التربوية، والمادية الجذرية والنسبية المطلقة، وما بعد الحداثة... أما جناية الداروينية على الذات الإنسانية فلم تقف عند المفاهيم التى تطرحها كنظرية علمية، بل سادت كل مجالات الحياة وحولتها إلى حلبة صراع وميدان معركة، فصرنا نسمع عن الداروينية السياسية، والداروينية الاجتماعية، والداروينية الاقتصادية، والداروينية فى الأدب، و...

إن هدفنا هو أن ننقى نظرتنا لأنفسنا من سموم شوهت الإنسان وجعلته مسخًا. حتى **إذا ما صفت الرؤية، تمكن الإنسان ـ بشكل أيسر ـ من أن يسلك نهجًا حياتيًّا أكثر انسجامًا مع طبيعته وفطرته وأكثر تحقيقًا لرسالته.**

ولا شك أننا فى حديثنا عن الذات الإنسانية كنا بعيدين عن الإحاطة الكاملة، فهذا فى حكم المستحيل، لذلك اقتطعنا من العلوم المختلفة **نماذج تعبر عن نظرة كل علم**، وتحقق الهدف الذى قصدنا إليه، وجمعنا هذه النماذج بشكل متناسق فى الباقة التى بين يديك. **والآن إلى حصاد الرحلة:**

أنا... فى العلوم الطبيعية

أولًا: أنا ذاتٌ عاقلة

١ - يتميز الإنسان على غيره من الكائنات **بالملكات العقلية**، التى جعلته يسود كوكب الأرض، ويتطلع إلى الكواكب الأخرى؛ فى الوقت الذى أوشك أقرب الكائنات إليه جينيًّا وجسديًّا - وهو الشمبانزى - على الانقراض. ولشدة تعقيد آليات العمليات العقلية الإنسانية فإن اضطرابها يؤدى إلى العديد من **المشكلات** التى تفوق خيال أشد المؤلفين القصصيين جموحًا !

٢ - عند الحديث عن الملكات العقلية، ينبغى أن يكون «**الوعى**» أولها، فالإنسان غير الواعى لا يمكنه أن يمارس باقى النشاطات. وأول ما يتمخض عنه الوعى الإنسانى هو «**الإدراك**»؛ إدراك الإنسان لذاته وللمحيط. ويتلو الإدراك عملية «**الفهم**»، التى لولاها لارتد طفلًا لا يفهم معنى ما يعى ويدرك ولا يتفاعل معه.

٣ - ومن بديهيات الذات الإنسانية العاقلة استشعارها أن جميع سماتها ونشاطاتها تخص «**جسدها المادى المتوحد**»، وأنها بالأمس هى هى اليوم، وأنها يمكن أن تنتقل بخيالها إلى المستقبل، أى أنها «**ذات ممتدة عبر الزمن، وقادرة على الانتقال فيه**».

٤ - وربما كانت «**حرية الإرادة**» من أهم سمات ذواتنا العاقلة التى أثبتها العلم، وحررنا بذلك من مفهومى الحتمية البيولوجية والحتمية التربوية اللذين يتخيلهما بعض البيولوجيين والتربويين، وأيضًا مفهومى الجبر والتسيير اللذين أوقعنا فيهما بعض الفلاسفة ورجال الدين.

٥ - ولا شك أن الإنسان هو الكائن الأوحد الذى يتمتع بـ«**حياة عقلية داخلية خيالية**» تمكنه من تصور البدائل، وتَوَقُّع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مُسبقًا والتخطيط لتحقيق أفضلها، ولا شك أن هذا الخيال يقف وراء العلم والفن والفلسفة والدين.

٦ - ولا يكون الخيال مثمرًا ومبدعًا ما لم يتمتع الإنسان بـ«**الذكاء**». وقد ثبت - حتى الآن - أن الذكاء الإنسانى عشرة أنواع، تمارس نشاطاتها فى مختلف مجالات الحياة الإنسانية، ولكل منها مركزه المخى المتخصص.

٧ - والإيمان بأن «**وراء كل حدث سبب**» مَلَكَة فطرية غريزية فى عقولنا، تقف وراء سعى الإنسان الحثيث من أجل تفسير الأحداث. ولولاها لتخبط العقل البشرى فى جميع الاتجاهات على غير هدى. ولِدَفع الإنسان للبحث عن هذه الأسباب، زُوِّدَ العقل البشرى بمَلَكَة «**حب الاستطلاع والبحث**»، التى أعانته على تحمل مخاطر جَمَّة من أجل اكتشاف أسباب وآليات ما يمر به من أحداث، وأيضًا من أجل اكتشاف المجهول.

٨ - والإنسان «**كائن اجتماعى تعاطفى**»، أُشتق اسمه من الائتناس بغيره. ولولا ذلك لما أنشأ مؤسسة الأسرة التى هى لبنة بناء المجتمعات، ولعاش وحيدًا عاجزًا عن الدفاع عن نفسه. وقد زَوَّد السلوك الاجتماعى الإنسان بالقدرة على الصمود ضد أعدائه ونَجَّاه من الانقراض كغيره من الكائنات.

٩ - لقد كان ظهور «**اللغة الإنسانية**» انبثاقًا مفاجئًا، وليس نتاج تطورى لوسائل تواصل أسلاف الإنسان، لذلك أطلق ناعوم تشومسكى على نشأة اللغة اصطلاح «**الانفجار اللغوى الأعظم**». وقد مكنت اللغة الإنسان من الترميز لكل شىء باسم، مما أعانه فى عملية التفكير، كما مكنته من التواصل الاجتماعى ونقل المعلومات للآخرين وتوارثها عبر الأجيال، وبذلك صار الإنسان إنسانًا، وتمكن من بناء حضارته.

١٠ - كما وُهِبَ الإنسان بالفطرة «**ذاتًا فنانة متذوقة للجمال**». وقد أثبت العلم أن تذوق الجمال عملية بيولوجية موضوعية وليست أمرًا ذاتيًّا ليس له مقاييس. وقد توصل العلماء إلى المراكز المخية التى تتذوق الجمال، وهى نفس المراكز التى تُبدع الفن. كما توصلوا - حتى الآن - إلى **عشرة قوانين لها آلياتها المخية، تحكم الحس الجمالى والتذوق الفنى**، وبذلك صار الجمال والفن علمًا تطبيقيًّا بعد أن كانا محصورين فى نطاق العلوم الإنسانية.

١١ - وربما كان أعظم الإنجازات فى مجال المخ والأعصاب خلال العشرين عامًا الماضية هو اكتشاف ما يُعرف بـ «**عصبونات المحاكاة**»، وهى الخلايا العصبية التى تتنشط عندما يمارس الكائن عملًا ما، وأيضًا عندما يرى هذا العمل يُمارَس أمامه. وقد فسر وجود هذه العصبونات الكثير من **نشاطات الإنسان الحركية والحسية والشعورية والتعليمية**، كما كان لها دور رائد فى نشأة اللغة وبناء الحضارات. كما يمكن القول إن هذه العصبونات ربطت بين الناس حتى **صاروا جميعًا كأنهم فرد واحد**.

١٢ - وقد أثبت العلم أن الرجال والنساء ليسوا متماثلين فى النشاطات العقلية، وأصبح يتحدث عن «**المخ/ العقل التنظيمى الذكورى**» و«**المخ/ العقل التعاطفى الأنثوى**»، بعد أن ثبت أن هناك فوارق بيولوجية فى بنية وطريقة أداء أمخاخ كل من الجنسين لوظائفها، فوارق تقف وراءها عوامل جينية وهورمونية ثم تربوية. وقد فسرت تلك الفوارق الاختلافات السلوكية والعقلية والشعورية بين كل من الرجال والنساء.

١٣ - وفى مجال «**نشاطات الإنسان الروحية**»، أثبت العلم أن **المخ البشرى مزود بآليات للتعامل مع بنية الدين**، تبدأ بالقدرة على الفهم العقلى للوحى السماوى، ثم وجود الشوق الفطرى تجاه مفاهيم الإلوهية والدين، ثم الرغبة الفطرية فى تجسيد المفاهيم العقلية، ثم القدرة على تحويل المعتقدات العقلية إلى تجارب حسية ذاتية، وأخيرًا القدرة على إغلاق الدوائر المخية للشعور بالذات وبالوسط المادى المحيط، مع استحضار مشاعر التسامى، ثم التواصل مع عوالم الغيب الحقيقية.

وكما يمكن تدريب الجسم لتحسين مهامه الجسدية، فيمكن **تحسين آدائنا العقلى والروحى** من خلال مجاهدة النفس والتأمل وممارسة العبادات والتدريبات العقلية والروحية.

ألم يكن سير ألفريد والاس محقًا ـ خلافًا لداروين ـ حين أعلن **أن مَلَكَة العقل نفخة إلهية**.

ثانيًا: الوعى يقهر اللاوعى

١ - تقوم تنشئة الوالدين لأطفالهما بدور كبير فى برمجة عقولهم ابتداء من المرحلة الجنينية، ولا تقل أهمية هذا الدور ـ بل تزيد ـ عن البرمجة الجينية الوراثية، ويقوم بدراسة هذا الدور علم جديد يُعرف بـ «**علم التحكم فى الجينات**». لذلك أصبحت تنشئة الوالدين لأطفالهما نوعًا من «**الهندسة الوراثية**» إذ تقوم بتنشيط أو تثبيط بعض الجينات التى لها دور فى توجيه سلوك الأطفال وحالتهم النفسية والعقلية.

٢ - وإذا كانت التنشئة السوية لأطفالنا فى جو من الحب والتوافق تُنتج أطفالًا أسوياء، فإن افتقاد هذا الجو يُطفئ جذوة التعاطف فى نفوسهم، **ويفرز أنماطًا متعددة من الانحراف النفسى والسلوكى**.

٣ - وإذا كانت **الجينات تحدد الاستعداد الوراثى للطفل**، فإن **التنشئة تحدد نوع السلوك** الذى يتبناه الشخص فى إطار هذا الاستعداد. كذلك لا يفيد كثيرًا أن يمتلك الجنين جيناتٍ إيجابية إذا كان سيواجِه من الإهمال وسوء التربية ما يثبط تلك الجينات.

٤ - وتقوم التنشئة بدور كبير فى **برمجة عقلنا اللاواعى** على العديد من المفاهيم التى ستُعتبر بديهيات عقلية وتوجه مشاعر وسلوك الإنسان فيها بعد، تمامًا كما يقوم الطيار الآلى بتوجيه الطائرة. لذلك فإن من أهم أسباب ما يعانيه البشر من صراعات نفسية هو التعارض بين طموحاتنا الواعية وبين ما تم برمجته فى عقولنا اللاواعية.

٥ - وقد أثبت العلم، أن الإنسان قادر بوعيه (بعد تدريبات شاقة) على **تغيير ما تم برمجته فى اللاوعى**، بل وقادر أيضًا على **التحكم فى وظائف جسمه اللاإرادية** مثل نبضات القلب ومعدل التمثيل الغذائى. لذلك يهتم الطب النفسى من خلال «**العلاج المعرفى**» بتعديل الخريطة المعرفية للإنسان، والتى تحدد أولوياته الواعية واللاواعية، من أجل علاج المريض من العديد من مشكلاته وأمراضه النفسية.

ثالثًا: لسنا روبوتات

١ - أثبت العلم **خطأ النظرة** التى سادت علم البيولوجيا لعقود، باعتبار أن الشفرة الوراثية (**الجينات = الدنا DNA**) هى **سر حياة الخلية**، وأن النواة التى تحمل الجينات هى بمثابة **مخ الخلية**. والدليل على خطأ ذلك أن الخلية إذا نُزِعَت نواتها تستمر فى الحياة لفترة تصل إلى شهرين، وإن كانت تفقد القدرة على التكاثر وعلى إنتاج بروتينات جديدة.

٢ - فى المقابل، يمكن اعتبار **غشاء الخلية هو سر حياتها والقائم بمهام المخ فيها!** فهذا الغشاء هو المسئول عن استشعار ما يدور خارج وداخل الخلية، ثم توجيه أنشطة الخلية تبعًا لما يستقبله من معلومات، كما أنه المسئول عن التحكم فى نشاط الجينات، كذلك يقوم هذا الغشاء بتوجيه تفاعل الخلية مع العوامل التربوية والحالة النفسية للإنسان. إن كل ذلك يعنى **كذب مفهوم** «**الحتمية البيولوجية**» الذى يرى أننا أسرى للشفرة الوراثية المُبرمَجة سلفًا فى جيناتنا.

٣ - وبذلك أسدت «**البيولوجيا الجديدة**» الستار على عالم الداروينية، الذى يصور الدنيا كحلبة للصراع بين روبوتات ينتصر فيها الأقوى، وفى نفس الوقت فَتَحَت آفاقنا على

حياة جديدة يتعاون فيها البشر من أجل الحياة فى سعادة وحب، تلك الحياة التى يتفاعل ويتناغم فيها الإنسان مع الوجود من حوله.

رابعًا: قواى الخفية أشبه بالخيال

١ - أظهرت الأدلة العلمية الجديدة **أهمية دور الطاقات الحيوية والكونية فى النشاطات البيولوجية والعقلية والنفسية للإنسان**. فقد ثبت أن للمجالات المغناطيسية الكونية وكذلك للحقول المغناطيسية الأرضية تأثير على العديد من نشاطات الإنسان الفسيولوجية وعلى النشاط الكهربائى للدماغ، مما يؤثر على قدراتنا وصحتنا ووعينا ومزاجنا ومشاعرنا الروحية، **مما يجعلنا جزءًا من منظومة الوجود نتأثر بها إلى حد يفوق توقعاتنا.**

وتُعتبر «**ظاهرة الإفضاء**» من أكثر الظواهر الفيزيائية غموضًا، وفيها يتم تبادل الطاقة والتجاوب بين منظومات فيزيائية (كحركة بندولين) وبيولوجية (كدقات قلبين) وكذلك بين كل موجودات الكون،**مما يؤدى إلى قدر من التوحد الحركى والانفعالى!**

كذلك ثبت **أن أشكال الحياة المختلفة متوالفة بدقة مع بعضها البعض** (الإنسان ـ النبات ـ الحيوانات ـ الكائنات البدائية) وأن الكائنات الحية ترسل معلومات تخاطرية فيما بينها فى كل لحظة، وهو ما صار يُعرف «**بتأثير باكستر**».

ويمارس بعض الخبراء «**علاج المرضى عن بعد**»، عن طريق التركيز العقلى. كما تمارس حضارات الشرق الأقصى أنواعًا من العلاجات للأمراض المختلفة، مستغلة مجالات الطاقة، «**كالعلاج بالإبر الصينية**». ويعجز العلم التقليدى عن تفسير العديد من الظواهر، كالقدرة على تحريك الأجسام عن بُعد، وتوارد الخواطر، والرؤى الصادقة. وكذلك ما يُعرف بـ«تأثير الجريملين»، والذى يعنى قدرة أفكارنا بل وحالتنا النفسية على التأثير عن بعد على الأجهزة الإلكترونية.

٢ - من أهم القضايا التى تشغل الفيزياء الحديثة اليوم، أن المكونات تحت الذرية يتأثر بعضها ببعض مهما كانت المسافة بينها، **ويُعرف ذلك بـ«مفهوم التشابك»**. وحديثًا ثبت أن التشابك يحدث على مستوى الذرات والجزيئات والبللورات الكبيرة. كما ثبت أن جزيئات المادة كبيرة الحجم قادرة **على التواجد فى مكانين فى آن واحد**، أى أنها ليست

مستقرة، وأنها تحت ظروف معينة تتجاهل قوانين نيوتن وتخضع لقوانين الكوانتم! إن هذه الاكتشافات تثبت أن **هناك قانونًا واحدًا للفيزياء**، ومن ثم إذا كان للراصد دور فى فيزياء الكم، فهل يمتد هذا الدور إلى عالم الأجسام الكبيرة؟

٣ - وقد ثبت أن الكثير من التأثيرات السابقة تتم عن طريق **المجالات الكهربائية والمغناطيسية**، بل لقد أمكن تصميم أجهزة قادرة على تسجيل وقياس مجالات الطاقة التى تنتجها **نشاطاتنا العقلية** التى تمارَس من خلالها بعض التأثيرات السابقة.

٤ - ومن أعظم الاكتشافات البيولوجية فى الربع الأخير من القرن العشرين اكتشاف **«الانبعاثات الفوتونية الحيوية»**. فقد ثبت أن جميع الكائنات الحية تبعث تيارًا ضئيلًا مستمرًا من الفوتونات (وحدات الضوء)، التى أُعتبرت من أهم وسائل التواصل بين أجزاء الكائن الحى، وبين مختلف الكائنات، وكذلك بينها وبين العالم الخارجى. وقد أمكن تصوير هذه الفوتونات بوضوح مذهل وهى تنبعث من مختلف أعضاء الكائنات الحية. كما أمكن تصويرها وهى تتدفق من أطراف أصابع خبراء المعالجة عن بعد.

٥ - وقد أثبتت تجارب ويليام تيللر أن **التركيز الذهنى ونشاطاتنا العقلية (أفكارنا ونوايانا) تصدر طاقات (يمكن تخزينها ونقلها) قادرة على إحداث تأثير على بعض العمليات الكيميائية والبيولوجية فى الوسط المحيط!**.

٦ - وبعد أن كان العلم ينظر لفيزياء الكم باعتبارها أم الفيزياء، وينطلق منها لتفسير جميع الظواهر الفيزيائية، فقد توصل العلم اليوم إلى ما يعرف بـ**«فيزياء الفراغ»** التى ينبغى اعتبارها نقطة الانطلاق فى تفسير كل ما يجرى فى كوننا (الكبير والصغير = الإنسان). فالفراغ يحوى كمًّا هائلًا من الطاقة الكامنة غير المتشكلة، وربما كان تأثير الوعى/ الأفكار/ النية البشرية على ما حولنا يتم من خلال تحويل جزء من هذه الطاقة الكامنة إلى طور فَعَّال يمكنه التأثير على العالم الفيزيائى.

٧ - **إن ذلك يؤكد أن الوجود كله وحدة متشابكة، وأن الإنسان يؤثر بعقله ونيته وإرادته فى العالم المادى وفى حقائقه الفيزيائية**، وأن الطبيعة أغرز كثيرًا وأغنى كثيرًا من كل تصوراتنا، إننا مجرد أطفال نحبى تحت أقدام الوجود.

٨ - ينبغى التحذير من أن قدرة عملياتنا العقلية على التأثير على العالم الفيزيائى يتم إساءة

استغلالها من قِبَل «**دجالين**» غير متدربين، مستغلين فى ذلك حاجات الناس الاجتماعية والنفسية والصحية.

خامسًا: أنا نتاج التطوير الإلهى

١ - لا شك أن نظرية التطور لداروين هى أكثر النظريات ـ عبر التاريخ ـ إثارة للجدل. وتتكون النظرية من شقين رئيسيين: الأول، أن لكل الكائنات الحية سلفًا مشتركًا واحدًا (أو أسلاف قليلة) نشأت عنه بالتطور البيولوجى. والشق الثانى، أن التطور حدث بآلية الانتخاب الطبيعى بعد حدوث طفرات عشوائية. والأدلة العلمية تؤكد الشق الأول، لكنها تثبت تمامًا **عجز العشوائية عن إحداث التطور**.

ونضيف إلى ذلك ـ بخصوص الإنسان ـ **عجز التطور العشوائى عن تشكيل المخ البشرى وإمداده بقدراته العقلية المتميزة**. وقد حدا ذلك سير ألفريد والاس (نظير داروين) إلى اعتبار العقل البشرى نفخةً إلهية. كما حدا ناعوم تشومسكى (حُجة علم اللغويات) إلى اعتبار أن نشأة اللغة الإنسانية (التى هى أهم تجليات العقل البشرى) كانت عملية انبثاق فجائية.

٢ - نتيجة للمفاهيم السابقة، ظهرت فى العالم مدرسة تتزايد قوتها، تتبنى مفهوم «**التطوير الإلهى**». وتقبل هذه المدرسة مفهوم تطور الكائنات الحية، وفى الوقت نفسه ترى أن عملية التطوير وكذلك نشأة العقل البشرى قد احتاجت إلى قدر هائل من العلم والذكاء والإبداع، **مما تعجز عنه العشوائية، ولا يتوافر إلا لإله حكيم قادر**.

٣ - يرجع انفصال أشباه الإنسان عن السلف المشترك الذى جمعه بباقى الرئيسيات إلى قرابة **٨ ملايين عام**. لقد كان **القرد الجنوبى** أول أشباه الإنسان التى عثر على حفريات لها، ثم تطور عنه أول أنواع جنس الإنسان، وهو **الإنسان الصَّنَاع**، ثم **الإنسان منتصب القامة**، الذى يُعتبر سلفًا **لإنسان نياندرتال** (منذ ٢٠٠ ألف سنة) **وإنسان كرومانيون** (منذ ١٣٠ ألف سنة) الذى هو الإنسان العاقل الحديث. والرأى الأرجح أن كل هذه التطورات **قد حدثت فى قارة أفريقيا**، التى يمكن اعتبارها مهد الجنس البشرى.

٤ - يمكن تلخيص **الملامح التطورية لـ «جسد الإنسان الحديث»** التى انفصل بها عن أسلافه فى أربع نقاط رئيسية: الزيادة التدريجية المطردة فى حجم المخ، السير على القدمين منتصب القامة، تغيرات جوهرية فى بنية وأداء اليد، إعداد الحنجرة لإنتاج

الكلام، وهى الخطوة التى تمت قبل بدء الإنسان فى الكلام بمئات الآلاف من السنين، مما يثبت أنها كانت عملية تكيف مسبق، تم الإعداد فيها (قصدًا) لنشأة اللغة. كما أثبتت الدراسات أن مجرد الزيادة فى حجم المخ البشرى ليست كافية لظهور قدراته العقلية المتميزة، وإن كانت هذه الزيادة قد سمحت بزيادة القدرة التخزينية المعلوماتية للمخ البشرى بقدر هائل. وقد حدثت هذه الزيادة بشكل خاص فى **القشرة المخية للجزء الأمامى من الفص الجبهى.**

٥ - وعلى المستوى الجينى، يتفق الإنسان مع أقرب الرئيسيات إليه وهو الشمبانزى إلى حد التطابق (١٠٠٪)، وبعد استبعاد الجينات الخاملة يصل تشابه الجينات العاملة إلى ٩٨,٧٪، مما يشير إلى أن العامل الحاسم فى تميز الإنسان (على المستوى الجسدى) هو **تنشيط بعض الجينات الخاملة**. وقد توصل العلماء بالفعل إلى تلك الجينات التى تم تنشيطها.

أنا... فى العلوم الإنسانية

سادسًا: الذات الإنسانية حَيَّرَت العقل البشرى

١ - تُعتبر **«الفلسفة الغربية»** (الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الحديثة)، فى نظرتها إلى الذات الإنسانية، أكثر الأنماط تجردًا كعمل عقلى بعيد عن الروافد الدينية. وقد أدرك معظم فلاسفة هذه المدرسة **ثنائية الروح / العقل - الجسم فى الإنسان**، ثم انقسموا إلى فريقين رئيسيين؛ الأول يرى أن **الروح موجود مادى** يتكون من نفس ذرات المادة فى أدق صورها (كالهواء والنار) وأهم هؤلاء هم الفلاسفة الذريين فى مرحلة ما قبل سقراط. والفريق الثانى يرى أن **الروح / العقل جوهر لا مادى**، وأشهرهم الفيثاغورثيون وأرسطو ثم الديكارتيون فى الفلسفة الحديثة.

٢ - تُقابلنا فى الفكر الشرقى القديم، الديانة **«الهندوسية»**، كمزيج متباين من الفكر الدينى والعمل العقلى والنظرات الفلكلورية، وفيها نجد ثنائية الروح/ العقل - الجسم ظاهرة تمامًا فى حياة الإنسان الحالية. وبعد أن تنتهى دورات التناسخ، تتحرر الروح وتفنى

الجسـدية، **وترتد الثنائية إلى واحدية**، ليسـت للكائن الإنسـانى وحسـب، لكنها **وحدة وجود مطلقة** ليس فيها فرق بين والموجد الموجود ولا بين السبب والنتيجة.

٣ - لم تكتـف «**البوذيـة**» بـأن تكون محاولة للتحرر من سـطوة رجال الديـن الهندوس، بل أصبحـت **تحـررًا مـن الدين ككل**. فبـوذا ـ انطلاقًـا من تجاربـه الذاتية ـ أنكـر الوجود الإلهـى، كـما أنكر وجود الذات الإنسـانية! بعد أن اعتبر أن كل ما يقوم به الإنسـان هو مجـرد **خصائص ونشـاطات لا ترجـع إلى ذات فاعلة**. وبالرغـم من ذلـك نجد البوذيين اليوم **يقدسـون بـوذا** ويضعون تماثيله ضمـن تماثيل آلهة الهندوسـية، ولا أرى ذلك إلا استجابة لفطرة عارمة داخل الإنسان تدفعه للبحث عن الإله الخالق.

٤ - ترجـع نظـرة «**الفكـر المصرى القديـم**» بخصوص الذات الإنسـانية إلى **أصـول دينية سماوية**، بينما **اقتـصر دور العقل على صياغـة التفاصيل**، التى إذا جُـردت يتبقى **تصور عقائـدى واضـح لا يختلف كثيرًا عن معتقداتنـا الدينية**. فالمصرى القديـم يؤمن **بثنائية الإله الخالق والإنسـان المخلوق**، كما يؤمن **بثنائية الروح ـ الجسـم**، سواء فى الحياة الدنيا أو فى الحيـاة الآخـرة. وقد انعكسـت هـذه النظرة عـلى حياة المصرى القديم، سـواء فى سلوكه، أو عاداته وتقاليده، أو هندسته ومعماره.

٥ - إذا كان «**لـكل جواد كبوة**» فإن العقل الإنسـانى قد أصاب أحيانًـا وكَبَا أحيانًا أخرى فى سعيه لفهم الإنسان. ولعل العقبة الكؤود التى أعاقته عن الوصول إلى كمال الحقيقة هـى أن **إدراك الشـىء على حقيقتـه يحتاج إلى مُدرِك أعلى**؛ لذلك فـإن النظرة فى المرآة لا تعكس إلا الصورة الظاهرة، ولكن ألا يكفى العقل الإنسانى شرف المحاولة؟!

سابعًا: هكذا بَنَيْتُ الحضارة

١ - لا شـك أن ما مَكَّنَ الإنسـان من البقاء ثم الانتشـار وبناء الحضارات هو مزيج مُحْكَم التوازن من عناصر ثلاث؛ **العقل ـ والبنية الجسدية ـ والسلوك الاجتماعى الفطرى**. وقد دفعـت الميول الاجتماعية الإنسـان لابتكار **مؤسسـة الأسرة** والمحافظـة عليها، فكانت اللبنة التى قامت عليها الحضارة الإنسانية وحَمَتْ الإنسان من الانقراض.

٢ - عـاش الإنسـان فى المراحـل الأولى من وجـوده كأسر متناثرة، **يمارسـون الصيد** الذى تخصـص فيه الرجال **وجمع الثمار** الذى كانت تقوم به النسـاء بالإضافة لرعاية الصغار،

وقد حقق هذا النمط المعيشى للإنسان قدرًا من الرفاهية وفرص الترفيه، بشكل غير متاح لكثير من الشعوب الآن!. وعندما استشعر الإنسان أهمية الحياة الجماعية بدأت الأسر فى **الاجتماع فى مجموعات** تحقق لها الأمان. وكلما نضبت الموارد فى منطقة، كان قاطنوها يحزمون متاعهم الخفيف **ليرحلوا إلى أماكن أخرى**.

٣ - ثم انتقل الإنسان تدريجيًّا (فى مختلف أنحاء العالم) من حياة الصيد وجمع الثمار إلى **«إنتاج الغذاء»**. وصحب ذلك عملية **تهجين للنباتات وأيضًا للحيوانات**، وقد سمح ذلك بوفرة غذائية سدت احتياجات الأعداد المتزايدة من البشر. وبذلك استقر الإنسان فى **«قرى زراعية»** أخذت فى التزايد عددًا واتساعًا على حساب مناطق معيشة الصيادين وجامعى الثمار.

٤ - منذ أكثر من عشرة آلاف سنة قامت **«الثورة المدنية»**، فبدأت المدن فى الظهور، كمراكز صناعية وتجارية بعد أن استقرت مجموعات كثيفة من السكان قرب مصادر المواد الخام. وقد تطلب ذلك إنشاء **تحصينات دفاعية** وتكوين طبقة متخصصة من الجنود المتفرغين للحماية من السلب والنهب والدفاع عن المدن. كما مدت تلك المدن المحصنة القوية سيطرتها على المناطق المحيطة وألقت على كاهل الفلاحين عبئًا هائلًا من أجل توفير الغذاء والسلاح وإعداد الجيش بالأفراد. وكانت هذه المدن **بداية لنشأة الإمبراطوريات فى العالم القديم**، وبذلك انقسمت المجتمعات إلى طبقة حاكمة متميزة وطبقات فقيرة مطحونة.

ولا شك أن الانتقال من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة القرية، ثم قيام الثورة المدنية، قد صاحبه **تغييرات جذرية فى كل مجالات الحياة**؛ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية.

٥ - ومنذ قرابة ٧ - ٨ آلاف سنة، دفعت الحياة المدنية **نشأة «الكتابة» وتطورها وانتشارها** خطوات واسعة للأمام، فقد كانت ضرورية لتسجيل المعاملات المادية وكذلك إعطاء القوانين والقرارات الإدارية صفة الديمومة والذيوع. وقد تطورت الكتابة من رسوم للأشياء، إلى رسوم تمثل المعانى، إلى رموز كانت هى بداية حروف الهجاء.

٦ - خلال القرن الأخير، تغيرت الحياة الإنسانية فى كل مناحيها بسرعة أكبر وبشكل أشمل مما حدث طوال العشرة آلاف سنة السابقة، وتُعَد هذه التغيرات إفرازًا للثورة الصناعية فى أوروبا الغربية.

وقد حقق هذا «**التحديث**» للإنسان مستويات من الرفاهية وزيادة متوسط العمر لم يكن يحلم بها، كما أنشأ أنظمة ديمقراطية قل معها الاستبداد الفردى. وفى المقابل، **صاحَب التحديث سلبيات عديدة**، أهمها تلاشى انتماء الفرد لعائلته وعشيرته ودينه بل ولأمته، لحساب زملائه فى المهنة والنظام الوظيفى. كما حدثت **تغيرات جذرية على المستوى الشخصى**، لا تحقق للإنسان أهدافه وغاياته الطبيعية، بل فرضت عليه أهداف وغايات لا تتناسب مع احتياجاته الفطرية، **فشعر الإنسان بالاغتراب**، حتى إن الكثير من الأنثروبولوجيين يرون أن أسلافنا من الصيادين وجامعى الثمار كانوا أسعد منا حالًا.

٧ - لقد سمح الموقع الجغرافى والطبيعة المناخية **لوادى النيل** بأن يكون «**جنة الخلد**» التى لجأ إليها إنسان العصر الحجرى الفار من جفاف وتصحر هضبة شمال أفريقيا، فكونوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء نباتيًّا وحيوانيًّا ثابتًا، كما استخرجوا وشكلوا المعادن، واخترعوا أقدم نظام كتابى، وأنشأوا بذلك فى مصر القديمة **أول دولة متحضرة كبيرة فى التاريخ**، يحكمها ملك واحد منذ سبعة آلاف سنة، فمهدوا بذلك طريق التقدم الطويل نحو التطور الحضارى.

ومع ذلك لم يكن العطاء الأكبر الذى قدمته الحضارة المصرية القديمة للبشرية هو التقدم المادى، بل كان هو «**الضمير**»، الذى هو ميزان الصواب والخطأ، وما ينبغى ومالا ينبغى، ومفاهيم الحرية والعدل والمساواة، وإنكار الذات، والاحترام المتبادل، والسعى إلى التسامى الروحى.

٨ - ما كان للحضارة الإنسانية المعاصرة، التى يباهى بها الإنسان الحديث، أن تحقق ما حققته فى المجالات العلمية والإنسانية دون الرافد العظيم الذى أمدتها به **الحضارة العربية الإسلامية**، وقد أكد ذلك المعنى المستشرق سبنسر فاميرى فى قوله: «.. لا يَسَع **فلكى** واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًّا، ولا يستطيع أى **عالم طبيعى** أن يُحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًّا، ولا يقدر أى **قاض** أن يبت اليوم فى خلاف دون أن يستدعى مبدأ أملته العرب، ولا يسع أى **طبيب** أن يتأمل أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا ويهمس بآراء طبيب عربى، ولا يستطيع أى **رحالة** أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يعمد إلى اللغة العربية».

ثامنًا: الحضارة المعاصرة جعلتنى مَسْخًا مشوهًا

١ - يتجاذب النفس الإنسانية نمطان من التوجه فى الحياة، الأول هو «**نمط التملك**» المهيمن على المجتمع الصناعى الحديث، الذى يحقق الشعور بالذات من خلال القوة والتملك المادى، ويقوم على الجشع والحسد والعدوان. أما الثانى، فـ «**نمط الكينونة**» الذى يسعى لإثبات الذات من داخلنا، ويقوم على الحب وسمو القيم الإنسانية فوق القيم المادية. إن الفرق الجوهرى بين الكينونة والتملك هو الفرق بين **التوجه نحو الإنسان والتوجه نحو الأشياء.**

إن الحاجة لإحداث تغيير جذرى فى وجدان الإنسان وقلبه وضميره لا تنبع من كونها مطلبًا أخلاقيًّا ودينيًّا وحسب، بل أصبحت لأول مرة فى التاريخ **شرطًا لبقاء الجنس البشرى.**

٢ - إن الحضارة المادية المعاصرة (بإيجابياتها وسلبياتها) إفراز **لعقل مادى محايد**، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالوجود وبمنشأ الإنسان ومآله والغرض من وجوده) أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. لذلك فهو **لا يعترف بوجود مرجعية أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة**، بل يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى يصير إليه، أى أنه يتبع «**منطق الأمر الواقع**» أو «**أخلاق الصيرورة**».

٣ - تقوم الحضارة الحديثة **بتفكيك الإنسان تمامًا (رده إلى ماديته)، ثم إعادة تركيبه كمُنتج ومستهلك.** وحتى يتحمل الإنسان هذا النمط المعيشى غمرته تلك الحضارة بأكبر قدر من **الاستمتاع واللذة**، فصار فى ظلها متوجهًا نحو هدف نهائى مركب واحد: «**الاستمتاع ـ الإنتاج ـ الاستهلاك**». وبذلك أصبح الإنسان خالى من المنظور الإنسانى، ومنزوع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

٤ - من أهم سلبيات الحضارة المادية الحديثة «**النسبية المعرفية والأخلاقية المطلقة**» بعد أن فقد الإنسان مرجعيته (الدين، العرف، الأسرة...). إن هذه النسبية قوضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار، ويمكن ـ فى الوقت ذاته ـ إقناعه بأى شىء وكل شىء. وقد **انعكس غياب المرجعية على كل مناحى الحياة؛** الاجتماعية ـ السياسية الفنية... وكنتيجة طبيعية لانعدام المرجعية **ضمرت مؤسسة الأسرة، وساد الهوس الجنسى، والشذوذ، والاغتصاب،** وقامت **الثورة الجنسية** فى ستينيات القرن العشرين، وظهرت **الأشكال البديلة للأسرة!** وانتشرت **الإباحية فى الفن.**

٥ - يصف روجيه جارودى الحضارة الحديثة بأنها «**حضارة حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**». فقد بسطت سيطرتها على العالم عن طريق الإمبريالية العسكرية، ثم السياسية، ثم الاقتصادية. ولم تكتف هذه الحضارة بذلك بل مارست على الإنسان «**إمبريالية نفسية**» حولته إلى **حيوان اقتصادى جسمانى**، لا يبحث إلا عن منفعته الاقتصادية ولذته الجسدية. وتم ذلك عن طريق غزو داخلى مارسه الإعلام (من خلال الجنس والإبهار) بسطوة واقتدار، حين أقنع الإنسان بأن يكون «بسيطًا»، «طبيعيًّا» يحيا «**بلا عقد**». إنها باختصار حضارة «**اللاحضارة**».

٦ - ثم استمر مفهوم النسبية فى الاتساع حتى قَوَّضَ كل شىء، بل وقَوَّضَ الإحساس بالوجود الحقيقى للعالم. لقد دخلت حضارتنا «**عصر ما بعد الحداثة**» الذى تحطمت فيه كل اليقينيات والمسلمات، حتى سُمِيَّت «**ضد الأساس**»؛ لأنها تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتَكَم إليه؛ لذلك فأيديولوجية ما بعد الحداثة ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى (**عصر نهاية التاريخ**) وتُسقط كل الأيديولوجيات (**عصر ما بعد الأيديولوجيات**)، بل وترفض أن تعطى للإنسان أى قيمة أو مركزية (**عصر ما بعد الإنسان**).

٧ - لقد آن الأوان لعمل **دراسة لكُلفة التقدم** الذى أصبح يهدد وجود الإنسان على هذا الكوكب بدلًا من أن يحقق له السعادة. لقد **أصبح التقدم هدفًا فى حد ذاته**، فكانت النتيجة استنزاف موارد الطبيعة، وتلويث البيئة، والتلاعب بالجينات، ومسخ الإنسان، وتحميل جهازه العصبى فوق الطاقة. لذلك **ينبغى مقارنة عائد التقدم بتكاليفه**، وأن ننظر للتقدم المادى فى إطار ما يُحدث من تخلف إنسانى.

أنا... فى القرآن الكريم

تاسعًا: ذاتٌ ذات خمسة روافد

١ - تنظر الديانات والفلسفات الدينية للإنسان نظرات مختلفة، بين من يرى أنه جوهر واحد وهو الروح، إذ الجسد إلى فناء، ومن يراه روح وجسد، ومن يراه روح ونفس وجسد. والمتأمل فى القرآن الكريم بعمق يرى الذات الإنسانية من خلال **خماسية** يؤكد عليها بالطرح المتكرر. فالإنسان ـ فى القرآن الكريم ـ **جسد، وعقل، وقلب، ونفس، وروح**.

٢ - «**الجسد**» فى القرآن الكريم **مُكَوِّن أساسى للذات الإنسانية**، فلا هو شيء **مُدَنَّس مُنتَقَص** لا يحقق الإنسان العروج الروحى إلا بإذلاله، ولا هو دابة للروح تصل بها إلى مُبتغاها ثم تتركها. و«**حياة الجسد**» **عملية بيولوجية** نشترك فيها مع كل الكائنات الحية، تعتمد على نشاطات عضوية لا علاقة لها «بالروح» الإنسانى العاقل المُكَلَّف.

٣ - يتحدث القرآن الكريم عن «**التعقل**» كوظيفة، ولا يأتى فيه ذكر للعقل. وقد وهب الله ﷻ العقل **مَلَكَات** تعينه على القيام بمهامه التى حدد للإنسان مجالاتها وغاياتها، كما حَجَرَ عليه التفكر فى مجالات أخرى. كذلك بَيَّنَ الله ﷻ للإنسان أن من يُعَطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم.

٤ - ينظر القرآن الكريم إلى «**القلب**» فى الإنسان كالملك بين الرعية. وفى مواضع عديدة، يحدد القرآن الكريم للقلب **صفات ووظائف عاطفية ومنطقية** تُعجِز عن الحصر، **منها ما هو خير ومنها ما هو شر**، حتى يكاد يكون مسئولًا عن سلوك الإنسان كله. وتبعًا لذلك تنقسم القلوب إلى أربعة أنواع: **قلوب المؤمنين، وقلوب الكفار والمنافقين، والقلوب الميتة، والقلوب المريضة**.

٥ - «**والروح**»، هى أشرف عناصر الذات الإنسانية وأزكاها، فهى **خير مطلق**، وهى خصوصية الإنسان التى يتميز بها على باقى الكائنات. وقد **فتح نفخُ الروح للإنسان المجالات العُلوية**، فأصبح قادرًا على التعامل مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفن. لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيدًا كونيًّا أبديًّا، واستحق الخلافة من الله فى الأرض.

ويختلف **تَعَلُّق الروح بالجسد** من حين لآخر، فهو فى الجنين غير تعلقه بعد الولادة، وفى اليقظة غير تعلقه أثناء النوم، وتعلقه بعد الوفاة غير تعلقه عند البعث. وإذا كان من اليقين القرآنى أن **أرواح الموتى تتلاقَىَ**، فهناك إشارات تشير إلى تلاقِى أرواح الأموات بأرواح الأحياء.

٦ - تُعتبر «**النفس**» أقرب عناصر الذات الإنسانية إلينا، وجاء ذكرها كثيرًا فى القرآن الكريم، واختلفت الآراء فى حقيقتها وفى علاقتها بالروح. والنفس «**محل التكليف والاختيار**» إذ إن فيها النوازع النفسية (إن خيرًا أو شرًّا)، وقد أوتى الإنسان الحرية

فى تزكيـة النفس وتطهيرها أو تدنيسـها وظلمها. والنفـس فى القرآن الكريم على ثلاث مراتب؛ **نفس أمارة بالسوء، ونفس لَوَّامَة ونفس مطمئنة**.

٧ - ويمكن اعتبار أن **للإنسـان خمسـة أعـمار**: عُمر الميلاد، وعمر الجسـم (صحته) وعمر العقل (حكمته)، وعمر القلب (إقباله على الحياة)، وعُمر الروح (الخالدة أبدًا).

عاشرًا: الموت بين العلم والدين

١ - الموت بالنسـبة للطب، هو توقف وظائف الأجهزة الحيوية للجسـم «الجهاز التنفسـى ـ الجهـاز الدورى (القلـب) ـ والجهاز العصبى (المخ)». ويميز الطب ثلاثة مسـتويات لموت المخ؛ موت القشرة المخية، موت جذع المخ، موت المخ الكلى. وبعد موت المخ قد يسـتمر نشاط باقى الوظائف الحيوية للجسـم لفترة بدعم من أجهزة التنفس الصناعى والعقاقـير الطبيـة. وقد اتفقت معظـم المجامع الدينية والطبية على **اعتبار الإنسـان بعد موت جذع المخ مَيْتًا**، وأجازت نقل الأعضاء منه.

٢ - يُفَـرِّق القـرآن الكريم بين الموت والوفاة، **فالموت نقيـض الحياة**، وهو أمر يُترك للطب تشخيصه. **أما الوفاة** فهى مفارقة الروح الإنسانى المدرِك للجسم، وهذه المفارقة تحدث عند الموت، كما تحدث عند النوم، الذى يمكن اعتباره «**الوفاة الصغرى**».

وبتأمل الآيات القرآنية، يتضح أن الوفاة الكبرى (مفارقة الروح للجسم بشكل نهائى) تسبق الموت، ومن ثم فإن التشخيص الطبى للموت ينسجم مع المفهوم الدينى الذى يرى أن الموت يكتمل بتحقيق مرحلتين، **مفارقة الروح النهائية للجسم، ثم توقف الحياة**.

٣ - ينظر القرآن الكريم للموت باعتباره «خلق» شأن الحياة تمامًا، وأنه معبر بين مسيرتين، ينقلنـا إلى «**حيـاة البرزخ**»، التى هـى مرحلة انتقالية تُصَفِّى فيهـا النفس حياتها الدنيوية وتتهيأ لحياتها الأخرى التى تبدأ بيوم القيامة.

٤ - ليس البعث مجرد عودة الإنسـان إلى الحيـاة، بل هو **بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة** (كانعدام قيد الزمان والمكان وتوقف السببية)، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة.

٥ - لا شك أن العناصر الخمس للذات الإنسانية ستتبدل بما يتلاءم مع حياتنا فى الجنة (إن شاء الله). فالجسم يصير فى شباب دائم، والعقل يتوقف عن كدحه ويهنأ بنعيمه الخالد، أمـا النفـس فتتغير طبيعتها من «الأنا المريدة» التى تميز النفـس الأمارة إلى «الأنا المحبة» التـى تميـز النفس الآمنة المطمئنة. وهـذا التبدل فى عناصر النفس يتطلب إعداد مسـبق يقوم به الإنسان فى حياته الدنيا عن طريق المجاهدة والعبادة والعمل الصالح.

القارئ الكريم...

كان منهجنا فى رحلتنا أن نتعرف على الذات الإنسانية، من خلال نظرة العلوم المختلفة إليها، ثم من خلال تعريف القرآن الكريم بها. وهدفنا المباشر من ذلك تحقيق مزيد من الفهم لأنفسنا ولمن حولنا، بعد أن طمست الحضارة الحديثة ملامح هويتنا الإنسانية. وهدفنا الأسمى أن نرقى من معرفة الإنسان إلى معرفة الله ، فمن عرف نفسه عرف ربه...

وأتمنى أن نكون فى ختام رحلتنا قد حققنا هدفنا...

تعريف بالمؤلف

أ.د. عمرو عبد المنعم شريف

* من مواليد بورسعيد عام ١٩٥٠.

* **أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق ـ كلية الطب ـ جامعة عين شمس. مع التخصص الدقيق فى جراحات الكبد والجهاز المرارى وجراحة مناظير البطن وجراحات الحوادث.**

* حاصل على درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٤، ودرجتى الماجستير عام ١٩٧٨ والدكتوراه عام ١٩٨١ فى الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

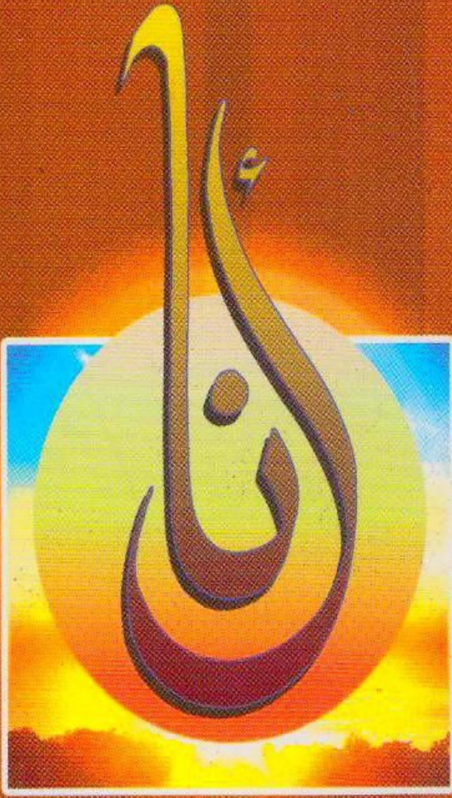
* عضو مؤسِّس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى ـ بسويسرا.

* أُختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤، والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨.

* مفكر ومُحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات، والعلاقة بين العلم والفلسفة والعقل وبين الأديان.

* من مؤلفاته:

- كتاب «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان»، طرح فيه مفهومًا جديدًا حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.
- كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية»، عرض فيه (من خلال فكر د. المسيرى) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!»، وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين. وشارك فى تأليفه د. نبيل كامل خبير التنمية البشرية.
- كتاب «رحلة عقل»، ويعرض فيه كيف يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، وذلك من خلال عرض الرحلة الإيمانية لأكبر ملحد فى القرن العشرين (أستاذ الفلسفة البريطانى، سير أنتونى فلو)، ثم يستكمل الكتاب الرحلة ليعرض البراهين العقلية الدالة على تواصل السماء بالأرض (الديانات).
- كتاب «كيف بدأ الخلق»، يعرض قصة خلق الكون ثم الحياة وتطور الكائنات الحية، وصولًا إلى الإنسان. ويقرأ قصة خلق الإنسان فى القرآن الكريم فى ضوء حقائق العلم.
- كتاب «ثم صار المخ عقلًا»، ويتناول فيه دور المخ البشرى فى ملكات الإنسان العقلية ومشاعره الروحية، وهى أهم ما يتميز به الإنسان على غيره من الكائنات.
- ترجم كتاب «الطب المصرى القديم» مع د. عادل وديع فلسطين، وهو أفضل كتاب فى موضوعه.



من أنا..؟

ـ ما حقيقة «الملكات العقلية» التى يتميز بها الإنسان، فجعلته يسود كوكب الأرض، ويتطلع إلى الأجرام البعيدة، بينما كادت أقرب الكائنات إليه جينيًا وجسديًا أن تنقرض؟

ـ هل الإنسان حيوان مُجبَرٌ مُسَيَّر تُحرِّكه الغرائز واللاوعى والجينات والتنشئة والبيئة، أم كائن منحه الله عز وجل «إرادة حرة» من إرادته؟

ـ هل كانت «العشوائية» وراء نشأة الإنسان بالتطور الداروينى، أم أنها «حكمة الإله وعلمه وقدرته» التى تعمل من وراء ستار قوانين الطبيعة؟

ـ هل نحن جُزر معزولة فى الوجود، أم للإنسان القدرة على التأثير بإرادته وبنشاطاته العقلية فى العالم المادى وفى حقائقه الفيزيائية؟! ما حقيقة «طاقات الإنسان الخفية»؟

ـ إلى أى مدى استطاع العقل الإنسانى (الفلسفة) فهم حقيقة الذات الإنسانية وعلاقتها بالوجود المحيط؟

ـ كيف بنى الإنسان البدائى «الحضارة المعاصرة الجبارة»؟ وكيف استدارت تلك الحضارة على سيدها «لتمسخه كائنًا مشوهًا» لا هم له إلا المادة والجنس؟

ـ ما هى نظرة القرآن الكريم إلى «مكونات الذات الإنسانية الخمسة»: الجسد ـ العقل ـ القلب ـ النفس ـ الروح، وما علاقة تلك النظرة بنظرة العلم؟

ـ ما حقيقة «الموت»، وما الفرق بينه وبين «الوفاة»، وكيف ينظر إليهما كلٌ من العلم والدين؟

هذه القضايا والتساؤلات، والكثير عن الذات الإنسانية، يطرحه المؤلف من منظورَى العلم والدين، بعد أن شاعت مفاهيم وفلسفات «عصر ما بعد الحداثة»، التى تصم الإنسان بالعبثية والعدمية، بل وأدخلتنا فى «عصر ما بعد الإنسان».

ـ ما أحوجنا إلى «فهم حقيقة الذات الإنسانية»، حتى يمكننا تحقيق تعامل أفضل فى هذه الحياة، وحتى نُحَصِّل السعادة فى الحياة الأخرى الأبدية، ثم ما أحوجنا إلى أن نرتقى من معرفة الذات إلى معرفة خالق الذات، فـ «مَن عَرفَ نفسه عَرفَ ربه».

